سيمون دي بوفوار

قوّة الأشياء

الجزء الأوّل

مكتبة بغداد

ترجمة
عايدة مطرجي إدريس

دار الآداب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيمون دو بوفوار

قوة الأشياء

البابا

الجزء الأوّل

منشورات دار الآداب - بيروت

حقوق الترجمة والنشر بالعربية
محفوظة لدار الآداب

الطبعة الأولى

آذار « مارس » ١٩٦٤

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمهيد

سبق لي ان ذكرت ، بعد «مذكرات فتاة رصينة» ، لماذا قررت ان أتابع سيرتي . لقد توقفت ، عند آخر نفس ، حين وصلت الى فترة تحرير باريس ، وكنت بحاجة آنذاك لان اعرف ان كان عملي يلذّ . ويبدو انه كان كذلك . ومع هذا ، فقد ترددت من جديد قبل ان استأنفها . كان الاصدقاء والقراء يلحّون عليّ : «واذن ماذا بعد؟ ماذا سيحدث ، والى اين وصلت في سيرتك الآن ؟ انتهي منها ، ان متابعتها حق لنا عليك» ولكن الاعتراضات في الخارج ، كما في ذاتي ، لم تكن تنقصني : «ان ذلك العمل مبكر اكثر مما ينبغي ، فليس من ورائك مؤلفات بقدر كاف» او «انتظري حتى تتمكني من ان تقولي كل شيء ، فان الفجوات ، والسكوت عن اشياء ، يمسخ الحقيقة» وايضاً : «انك تفتقرين الى التقهقر الزمني ، او انك اخيراً تتكشفين أكثر في رواياتك» . والواقع ان ليس شيء من هذا كله خاطئاً : ولكن ليس لي الخيار . ان لامبالاة الكبر ، سواء كانت هادئة او حزينة ، لا تتيح لي بعدُ ان أقبض على ما أتمنى ان ألتقطه ، وهي تلك اللحظة التي يبدأ فيها المغيب ، على تخوم ماضٍ ما يزال ملتهباً . لقد اردت ان يتدفق دمي في هذه السيرة : واردت ان اقذف بنفسي فيها وانا حارّة بعد ، وان اضع نفسي موضع التساؤل قبل ان تكون جميع الاسئلة قد انطفأت . ربما كان ذلك مبكراً أكثر مما ينبغي . ولكن غداً سيكون الاوان قد فات حتماً .

وقيل ايضاً : « ان قصتك نعرفها ، لأنها ابتداء من عام ٤٤ غدت عامة » . و لكن هذه العمومية ، لم تكن سوى بُعد من حياتي الخاصة؛ولما كانت احدى غاياتي ان ابدد سوء التفاهم ، فيبدو لي نافعاً ان اروي حياتي في حقيقتها . سوف اتكلم فيها أكثر من الماضي عن الحوادث السياسية لارتباط حياتي بها اكثر من قبل ، ولكن سيرتي لن تغدو – من جراء ذلك – اقل ذاتية ، فاذا كانت السياسة هي فن استشراف الحاضر ، وما دمت غير اختصاصية ، فان اهتمامي سوف ينصبّ على حاضر غير متوقع ، فالطريقة التي انبسط فيها التاريخ امامي يوماً فيوماً هي مغامرة لا تقلّ تفرّداً عن تطوّري الذاتي .

كان ينبغي في تلك الفترة التي سأتحدث عنها ، ان أحقق ذاتي ، لا ان أكوّنها ، فالوجوه والكبت والافلام واللقاءات التي قمت بها ، لم يكن شيء منها جوهرياً لي على أهميتها بمجملها ؛ وحين أبتعثها ، فان نزوات ذاكرتي هي التي تقود غالب الاحيان اختياري ، وهذا الاختيار لا يفترض بالضرورة حكم تقييم . ومن جهة اخرى ، فاني لن أتوقف طويلاً عند التجارب التي وصفتها في مكان آخر ، ومنها رحلتي الى اميركا والصين ، في حين انني سوف افصّل رحلتي الى البرازيل . ومن المؤكد ان يغدو الكتاب من جراء ذلك فاقد التوازن . ليكن ذلك ، فأنا على كل حال لا أدّعي انه اثر فني ، وكذلك كان الكتاب السابق ايضاً . ان هذه الكلمة تذكرني بتمثال يعاني الضجر في حديقة مقصورة ، انها كلمة هاوي تجميع ، كلمة مستهلك ، وليست كلمة خلاّق . ولن افكر مطلقاً بالقول ان « رابليه » او « مونتاني » او « سان سيمون » او « روسو » قد حققوا آثاراً فنية ، وقليلاً ما يهمني اذا رُفض منح مذكراتي تلك الصفة ، لا . انها ليست اثراً فنياً ، ولكنها حياتي ، في اندفاعاتها ، في احزانها ، في اضطراباتها ، حياتي التي تحاول ان تتحدث عن ذاتها ، لا ان تصلح حجةً لاناقات .

وهذه المرة ايضاً ، سأشذب أقل ما يمكن . وانه ليدهشني دائماً ان يُعاب كاتب على تطويلات ، ان الكاتب اذا أثار اهتمامي ، تابعته خلال مجلدات ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واذا اضجرني ، فان عشر صفحات تكفي اكثر مما ينبغي ، واني لا أسجل لون سماء او طعم فاكهة تلذذاً أو مجاملة لذاتي . فلو رويت حياة آخر فانني سوف أسجل بالغزارة نفسها ، اذا كنت اعرفها ، تلك التفصيلات التي يصفونها بالابتذال . فنحن نحس بها حقبة او شخصاً ما من لحم ودم ، ليس هذا فحسب ، بل انها ، بلامعناها ، لمسة الحقيقة ذاتها في قصة حقيقية . انها لا تشير الى شيء آخر غير ذاتها ، والسبب الوحيد في ابرازها وتسجيلها هي انها كانت موجودة هنا : وهذا سبب يكفي . وبالرغم من تحفظاتي التي تصلح ايضاً في هذا الجزء الاخير — فمن المستحيل ان اقول كل شيء — فلقد اتهمني بعض النقاد بالتمادي والشطط . ولست انا التي ابتدأت ، فأنا افضل ان ابحث بنفسي في ماضيّ على ان أترك تلك المهمة لآخرين .

ولقد اعترفوا لي اجمالاً بصفة كنت أتعلق بها ، وهي الصدق البعيد عن التبجح بعده عن الماسوشية . وآمل اني قد حافظت عليها هنا . انني اتدرب على ذلك منذ اكثر من ثلاثين سنة في محادثاتي مع سارتر ، ملاحِظةً نفسي يوماً فيوماً ، من دون ادعاء ولا تبجح ، كما الاحظ الاشياء التي تحيطني . وان ذلك الصدق طبيعة لديّ لا بسبب انه هبة فريدة ، ولكن بسبب الطريقة التي اواجه فيها الأشخاص وانا منهم — انني اؤمن بحريتنا وبمسؤوليتنا ، ولكن اياً كانت اهميتهما ، فان بُعد وجودنا هذا يفلت من كل وصف ، وان ما يمكن ادراكه ، هو فقط تكيّفنا . انني ابدو امام عيني كشيء ، كنتيجة ، من غير ان تتدخل في ذلك الالتقاط مفاهيم المزية او الخطأ . واذا اتفق وساعدني التقهقر الزمني فبدا عملٌ ما موفقاً او مؤسفاً بعض الشيء فيهمني في مطاق الاحوال ان افهمه اكثر من ان أقيّمه . وانني اسرّ في تتبعي ذاتي اكثر من سروري في تملقها ، لأن ميلي للحقيقة يتغلب كثيراً على الاهتمام الذي اكنّه لوجهي . وهذا الميل نفسه تفسره قصتي ، وانا لا أستخرج منها اي مجد . وبالاختصار ، فما دمت لا أطلق على نفسي اي حكم ، فانني لا اشعر بأي مقاومة لأوضح حياتي وذاتي ، على الاقل ضمن الحدود التي اموضع فيها نفسي في عالمي

الخاص : ربما كانت صورتي المعكوسة في عالم آخر ، – عالم علماء النفس التجريبي مثلاً – تستطيع ان تربكني او تضايقني ، ولكن اذا كنت انا التي ارسم نفسي ، فلا شيء يفزعني .

وبالطبع يجب ان نتفاهم على عدم تحيزي . ان شيوعياً او ديغولياً يرويان تلك السنوات – اذا طُلب منهما ذلك – بطريقة مختلفة ، وكذلك العالم او الفلاح او الكولونيل او الموسيقي ، ولكن آرائي واعتقاداتي ووجهات نظري ومصالحي والتزاماتي مكشوفة : انها جميعاً تشكل قسماً من الشهادة التي احملها ابتداء منها . انني طبعاً موضوعية الى الحد الذي تحيطني فيه موضوعيتي .

وهذا الكتاب يتطلب من القاريء – كالكتاب السابق – مشاركته ، انني اعرض ، بالترتيب ، كل لحظة من تطوري ويجب ان يتمتع القاريء بالصبر لكي لا يصفي الحسابات قبل النهاية . فليس له الحق مثلاً ، كما فعل ذلك احد النقاد ، بأن يجزم بأن سارتر يحب « غيدو رينيي » لأنه احبه وهو في التاسعة عشرة من عمره .

والواقع ان سوء النية وحده هو الذي يملي تلك الملاحظات الطائشة ، وتجاهه لا أنوي ان احترس : وبالعكس ففي هذا الكتاب كل ما يلزم ليثيره ، وسوف اكون خائبة ان لم يجد من لا يحبه . وسوف اكون خائبة ايضاً ان لم يعجب احداً . ولذا فانني انبه الى ان حقيقته لا تفصح عن ذاتها في اية صفحة من صفحاته ، وانما تصفح عنها في مجموعه .

ولقد سجلوا لي في « قوة العمر » [1] كثيراً من الهنات الخفيفة ، وخطأين او ثلاثة ذات قيمة . وبالرغم من جميع اهتمامي ، فلا بد انني قد اخطأت غالباً في هذا الكتاب ايضاً . ولكني اكرر انني لم أغش قط عن قصد .

---

(١) وهو العنوان الاصلي للكتاب الذي سبق ان ترجمته عايدة مطرجي ادريس مختصراً تحت عنوان « انا وسارتر والحياة » – هـ.م .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القسم الأوّل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الأول

لقد تحرّرنا . وكان الأطفال يغنّون في الشوارع :

لن نراهم بعدُ ...

لقد هلكوا ، وانتهى الأمر !

وكنت أردّد لنفسي : انتهى الأمر ، انتهى الأمر . لقد انتهى الأمر : وكلّ شيء يبدأ . كان «والبرغ »، الصديق الاميركي لأسرة «ليريس» يحملنا في نزهة الى الضاحية بسيارة جيب : وتلك كانت هي المرة الاولى منذ سنوات التي أتنزّه فيها بالسيارة . إنني من جديد أتسكّع بعد منتصف الليل في عذوبة أيلول ؛ كانت الحانات تغلق ابوابها في ساعة مبكرة ، ولكننا حين كنّا نغادر سطيحة مقهى « الروماري » او ذلك الجحيم المدخّن الأحمر « المونتانا » ، كانت امامنا الأرصفة والمقاعد والطرقات . وعلى السطوح ، كان لا يزال ثمة بعض القنّاصة ، وقد كنت أغتمّ حين أتمثّل فوق رأسي ذلك الحقد المتربّص ؛ وذات ليلة سُمعت صفّارات الانذار : كانت طائرة مجهولة الهويّة تحلّق

فوق باريس ؛ وقد سقطت قذائف ف ا في الضاحية الباريسية وبقرت بعض الأبنية. وكان والبرغ ، وهو حسن الاطلاع عادة ، يقول إن الألمان كانوا ينجزون تحقيق أسلحة سرية رهيبة. وكان الخوف يجد لديّ مرة أخرى مكاناً ما يزال حارّاً. ولكن الفرح كان يكنسه بسرعة. لقد كنّا نحتفل بتحرّرنا ليل نهار ، فنتحدث مع أصدقائنا ونشرب ونتسكّع ونضحك. وكان جميع الذين كانوا يحتفلون به مثلنا يصبحون اصدقاءنا ، بعيدين كانوا ام قريبين. فأيّ اسراف في الأخوّة ! كانت الظلمات التي كفّنت فرنسا تنفجر. وكان ثمة جنود فارعون يلبسون الكاكي ويعلكون اللادن ، فيشهدون أن بالامكان عبور البحار من جديد. وكانوا يسيرون بخطوة لامبالية ، وغالباً ما يترنّحون كانوا يغنّون ويصفّرون وهم يترنّحون على الأرصفة وعند محطات المترو ؛ وكانوا يرقصون وهم يترنّحون مساءً في الحانات ، وضحكات كبيرة تكشف أسنانهم الطفولية. وصرّح جينيه [1] الذي لم يكنّ أيّ ودّ للألمان ، ولكنه لم يكن يحبّ العواطف الرقيقة ، صرّح في صخب على سطيحة «الروماري» أن هؤلاء المدنيين الذين يرتدون الثياب العسكرية كانوا يفتقرون الى هيبة : اما المحتلّون المتصلّبون في هياكلهم الخضراء والسوداء ، فقد كان لهم مظهر آخر ! وأما أنا ، فقد كانت تتجسّد عندي في هذا الاهمال الذي كان الشبان الاميركيون يظهرون فيه ، الحريةُ نفسها : حريتُنا ، وتلك الحرية التي لم نكن نشكّ في أنهم سينشرونها على العالم. لقد قُتل هتلر وموسوليني ، وطُرد فرانكو وسالازار ، وسوف تتطهّر اوروبا نهائياً من الفاشية. وكانت فرنسا ، بميثاق «اللجنة الوطنية للمقاومة» تلتزم طريق الاشتراكية ؛ وكنّا نعتقد أن البلاد قد أصيبت بهزّة عنيفة جداً لن تمكّنها ، بلا تشنّجات جديدة ، من

---

(١) جان جينيه ، شاعر واديب فرنسي معروف ولد عام ١٩١٠ وقضى طفولة مضطربة دخل فيها سجون الأحداث ، وقد كتب عنه جان بول سارتر وجان كوكتو ، وعرف بعد ذلك بأنه كاتب ملعون (وهو يفضح في كتاباته التقاليد العنصرية والاجتماعية المعاصرة)
(م . ه)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحقيق تعديل جذري في بُنياتها. وكانت جريدة «كومبا» تعبّر عن آمالنا حين تتخذ شعاراً لها: «من المقاومة الى الثورة».

كان هذا النصر يمحو هزائمنا القديمة، كان نصرَنا، وكان المستقبل الذي يفتحه يخصّنا. وكان الذين يتولّون السلطة مقاومين كنّا نعرفهم بطريقة مباشرة او غير مباشرة؛ وكان لنا اصدقاء عديدون بين المسؤولين عن الصحافة والراديو: كانت السياسة قد أصبحت قضية عائلية، وكنّا ننوي ان نشارك فيها. وقد كتب كامو في احد أعداد «كومبا» بشهر ايلول: «إن السياسة ليست بعدُ منفصلةً عن الأفراد؛ انها خطاب الانسان المباشر الموجّه لأناس آخرين» وأن نتوجّه الى الناس، كان هذا دورنا نحن الذين نكتب. لقد كانوا قلّةً، اولئك المثقّفون الذين حاولوا، قبل الحرب، ان يفهموا عصرهم؛ وكانوا جميعهم — او معظمهم — قد اخفقوا في ذلك؛ اما الذي كنّا نكنّ له أكبر الاحترام، آلين [1]، فكان قد أراق ماء وجهه: فكان لا بدّ لنا من أن نؤمّن المهمة بدلاً عنه.

كنت أعرف الآن أنّ قَدَري كان مرتبطاً بِقَدر الجميع؛ كانت حرية البشر واضطهادهم، وسعادتهم وشقاؤهم تعنيني صميمياً. ولكني قلت اني لم يكن لي مطمعٌ فلسفيّ؛ كان سارتر قد رسم في «الوجود والعدم» وصفاً شمولياً للوجود كانت قيمته تتوقف على موقفه هو بالذات، وكان ينوي ان يتابع هذا الوصف؛ كان عليه ان يخطّ موقفه، ليس فقط عَبْر أبحاث نظرية، بل بالتزامات عملية: وهكذا ألفى نفسه منخرطاً في العمل انخراطاً أشد جذرية من انخراطي. وكنا نناقش دائماً معاً مواقفه، واحياناً أوثّر عليه. ولكن المشكلات، في إلحاحها وفروقها، إنما كانت تُطرح عليّ من خلاله هو. وعلى هذا الصعيد، يجب عليّ أن أتحدّث عنه، لأتحدّث عنا كلينا.

كنّا في شبابنا قد أحسسنا نفسينا قريبين من الحزب الشيوعي بالمقدار الذي

---

(١) اميل آلين (١٨٦٨-١٩٥١) فيلسوف فرنسي يتميز تفكيره بنزعة انسانية ديكارتية أمينة للوقائع المحسوسة، وهو يدافع عن حرية الفرد ضد جميع ألوان الطغيان. (هـ . م)

كانت فيه سلبيّته تتفق وفوضويتنا . كنا نتمنى هزيمة الرأسمالية ، ولكننا لم نكن نتمنى قيام مجتمع اشتراكي يحرمنا ، كما كنا نعتقد ، حريتنا . وبهذا المعنى ، سجّل سارتر يوم ١٤ ايلول ١٩٣٩ على مفكرته : « هأنذا قد شفيتُ من الاشتراكية ، اذا كنت بحاجة الى أن أشفى منها . » على أنه أسّس عام ١٩٤١ فريقاً للمقاومة جَمَعَ ، تعميداً له ، كلمتي « اشتراكية وحرية » . كانت الحرب قد أحدثت في داخله تغييراً حاسماً .

لقد كشفت له أولاً عن تاريخيته : فقد أدرك ، من الصدمة التي عاناها منها ، كم كان متعلقاً بالنظام القائم ، فيما كان يدينه . إن لدى كل مغامر جانباً من المحافظ : فهو محتاج إلى مجتمع ثابت ، لكي يبني وجهه ، ولكي يعكس أسطورته على الأزمان القادمة . كان سارتر مأخوذاً ، حتى العظام ، بمغامرة الكتابة ، وكان قد طمع ، منذ طفولته ، بأن « يكون » كاتباً كبيراً وأن يحظى بالمجد الخالد ١ ، فكان يراهن على جيل قادم يأخذ لحسابه إرث هذا العصر ، بلا تصدّع ؛ وكان في حقيقته يظلّ أميناً « لجمالية المعارضة » التي كانت أعوامه العشرون تتميز بها : فعلى أنه كان ضارياً في فضح نقائص هذا المجتمع ، لم يكن راغباً في قلبه . وفجأة ، تخلخل كلّ شيء ، فتطاير الخلود شعاعاً ، وألفى سارتر نفسه ضائعاً بين ماضٍ من الأوهام ومستقبل من الظلمات . وحمى نفسه بمذهبه الأخلاقي المتعلق بـ « الصحّة » و « الحقيقة » : فمن وجهة نظر الحرية ، يمكن لجميع المواقف أن تُنقَذ على قدم المساواة إذا اضطلع بها أصحابها عبر مشروع . وكان هذا الحلّ يبقى قريباً جداً من المذهب الزينوني ، ما دامت الظروف لا تسمح غالباً بأي تجاوز آخر غير الخضوع . وسارتر ، الذي كان يحتقر حِيَل الحياة ، لم يكن يستطيع أن يتلذّذ طويلاً بأن يغطّي جموده وسلبيته باحتجاجات كلامية . لقد أدرك أنّه ، إذ يعيش في الموقت لا في المطلق ، مدعوٌّ إلى أن يتراجع عن أن « يكون » ليعزم على أن « يعمل » .

---

(١) توضيحاً لهذا ، يراجع كتاب « سيرتي الذاتية » الذي صدر بعد وقت قصير من صدور كتاب دوبوفوار هذا . (م . م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد سهّل له هذا الانتقال تطوّره السابق . وكان همّه الرئيسي ، إذ يفكّر ويكتب ، أن يلتقط معاني ، ولكن سانت أكزوبري ، الذي قرأه عام ١٩٤٠ ، أقنعه بعد هيدغر ، أنّ المعاني إنما كانت تأتي إلى العالم بما يباشره الناس من أعمال : كان التطبيق يتغلّب على التأمّل . وكان قد قال لي ، في أثناء « تلك الحرب العجيبة » — بل هو قد كتب ذلك في رسالة إلى بريس باران — أنه سيخوض المعترك السياسي بعد عودة السلام .

وقد دمغته تجربته في الأسر دمغاً عميقاً : لقد علّمته التضامن ؛ فهو قد شارك مشاركة جذلة في حياة الجماعة ، من غير أن يستشعر الدونية . كان يكره الامتيازات ، وكانت كبرياؤه تتطلّب أن يكسب ، بقواه وحدها ، مكانه على الأرض : كان ضائعاً في الجمع ، رقماً بين الأرقام ، فأحسّ رضىً كبيراً أن ينجح في مشاريعه ، انطلاقاً من الصفر . وقد ربح صداقات ، وفرض آراءه ، ونظّم أعمالاً ، وجنّد المعسكر كلّه لكي يمثّل ، في عيد الميلاد ، المسرحية التي كان قد كتبها ضد الألمان : « باريونا » . وقد جاءت حرارة الرفقة وصراماتها لتحلّ المتناقضات التي كانت تعانيها نزعة المناهضة للإنسانية : كان في الواقع يتمرّد على الإنسانية البورجوازية التي كانت تحترم في الإنسان طبيعةً ؛ أما إذا كان الإنسان مخلوقاً ليُصنَع ، فلن تكون ثمة مهمة تشوقه وتثير حماسته أكثر من هذه المهمة . إنه بعد الآن ، لا يدرك الفردية والجماعية إلا مرتبطتين ، بعد أن كان ينصب إحداهما في وجه الأخرى . وهو سوف يحقق حريته لا بأن يلتزم التزاماً ذاتياً الموقف المعطى ، بل بأن يغيره ، موضوعياً ، ببناء مستقبل منسجم وأمانيه : وقد كان هذا المستقبل ، باسم المبادىء الديموقراطية نفسها التي كان مرتبطاً بها ، هو الاشتراكية، التي كان قد أبعده عنها الخوف وحده من أن يضيع فيها : أما الآن ، فقد كان يرى فيها حظّ الإنسانية الوحيد ، وشرط اكتمالها الخاص ، في وقت واحد .

وقد أعطت حركة « الاشتراكية والحرية » درساً في الواقعية لسارتر ؛ فلم يقم بعمل جدّي رصين إلا فيما بعد، داخل «الجبهةالوطنية» بالاشتراك مع الشيوعيين .

وقد ذكرت [1] أنهم كانوا عام ١٩٤١ يعبسون في وجه المفكرين من البورجوازيين الصغار ، وكانوا قد أشاعوا أن سارتر قد اشترى حريته بأن كان عميلاً وديعاً للألمان . وفي عام ١٩٤٣ كانوا يريدون وحدة العمل . وقد كان ثمة منشور ، نُسِب إلى الشيوعيين وطُبع في جنوبي فرنسا ، وكان اسم سارتر ماثلاً فيه على لائحة سوداء ، بين شاتوبريان ومونترلان ؛ وقد أراه سارتر لكلود مورغان الذي صاح غاضباً : « إن هذا مؤسف ! » ودفنّا الحادث . وكانت العلاقات بين سارتر ورجال المقاومة الشيوعيين ودية للغاية . وبعد ذهاب الألمان ، حرص على إبقاء هذا الاتفاق . وقد شرح الايديولوجيون اليمينيون تحالفه مع الحزب الشيوعي على صعيد التحليل النفسي المستعار ؛ فاتهموه بعقد نقصٍ أو استسلام ، وبالحقد ، وبالطفولية ، وبالحنين إلى الكنيسة . أية حماقات ! كانت الجماهير تسير وراء الحزب الشيوعي ؛ ولم تكن الاشتراكية تستطيع أن تنتصر إلا به ؛ وكان سارتر من جهة أخرى يعرف الآن أن علاقته بالبروليتاريا كانت تضعه هو نفسه موضع السؤال بصورة جذرية . كان قد اعتبرها دائماً الطبقة العالمية ؛ ولكن شخصه لم يكن له إلا أهمية ثانوية بالنسبة للآخرين ، ما دام يعتقد بأنه سيبلغ المطلق بالإبداع الأدبي . كان قد اكتشف ، إلى جانب تاريخيته ، تعلّقه ؛ فبقدر ما يزداد الخلود ، يزداد المطلق ؛ والعالمية التي كان يصبو إليها كمثقف بورجوازي ، إنما كان يستطيع أن يكسبه إياها الرجالُ وحدهم الذين كانت تتجسّد فيهم على الأرض . كان قد أدرك ما عبّر عنه فيما بعد [2] ، من أنّ وجهة النظر الحقيقية في الأشياء إنما هي وجهة نظر المحرومين ؛ إن الجلاّد يمكن أن يجهل ما يفعله : أما الضحية فتعاني معاناةً لا تُردّ ألمها وموتها ؛ إن المضطهَد هو حقيقة الاضطهاد . وإنما سيتعلم سارتر ، في أعين المستَغَلّين ما كانه : فان كانوا يرفضونه ، فسيجد نفسه منغلقاً في تفرّده ، تفرّد « البورجوازي الصغير » .

---

(١) في « قوة العمر » .

(٢) عام ١٩٥٢ في « الشيوعيون والسلام » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن ثمة أيّ حرَج يزعج الصداقة التي كنّا نكنّها للاتحاد السوفياتي ؛ فان تضحيات الشعب الروسي كانت قد أثبتت أن إرادته ذاتها كانت تتجسّد في قادته . وإذن ، فقد كان يسيراً ، على جميع الصُعُد ، أن يريد المرء التعاون مع الحزب الشيوعي . ولم يواجه سارتر أن يدخل الحزب ؛ فانه أولاً كان مستقلاً أكثر مما ينبغي ؛ وكان له على الخصوص ، خلافات ايديولوجية مع الماركسيين . كان الديالكتيك ، كما كان يتصوره آنذاك ، يهدمه كفرد ؛ وكان هو يؤمن بالحدْس الظاهراتي الذي يعطي الشيء مباشرةً « لحماً وعظماً » . وبالرغم من أنه مرتبط بفكرة « التطبيق » ، فانه لم يكن قد تراجع عن مشروعه القديم الثابت بكتابة « أخلاق » : كان ما يزال يصبو إلى « الكينونة » ؛ كان العيش أخلاقياً ، في نظره ، هو بلوغ شكلٍ من الحياة ذي معنىً إطلاقاً . لم يكن يريد أن يترك — ولم يترك قط — مفاهيم السلبية ، والاستبطانية والوجود ، والحرية ، التي درسها في « الوجود والعدم » . وكان يحرص على إنقاذ البُعد الإنساني في الإنسان ، ضد ماركسيةٍ معيّنة كان الحزب الشيوعي يدعو إليها . وكان يأمل أن يعطي الشيوعيون وجوداً لقيم النزعة الإنسانية ؛ وسيحاول ، بفضل الوسائل التي سيستعيرها منهم ، أن ينتزع من البورجوازيين النزعة الإنسانية . سوف يتناول الماركسية من وجهة نظر الثقافة البورجوازية ، فيموضع هذه — بصورة معكوسة — في منظورٍ ماركسي. «كنّا متحدّرين من الطبقات الوسطى ، فحاولنا أن نقيم صلةَ الوصل بين البورجوازية الصغيرة المثقفة والمثقفين الشيوعيين »[1] . وعلى الصعيد السياسي ، كان يفكّر بأن المناصرين كان عليهم أن يمثّلوا خارج الحزب الشيوعي الدور الذي كانت المعارضة تضطلع به داخل الأحزاب الأخرى : التأييد مع النقد .

هذه الأحلام اللطيفة كانت قد وُلدت من المقاومة ؛ فلئن كانت قد كشفت لنا التاريخ ، فانها قد قنّعت صراع الطبقات . وكان يبدو أن الرجعية كانت قد صُفّيتْ سياسياً في الوقت نفسه الذي صُفّيت فيه النازية ؛ ومن الطبقة

(١) « ميرلو — بونتي حياً » .

البورجوازية ، كان يشارك فقط في الحياة العامة القسمُ المتحالف مع المقاومة ، وكان يقبل ميثاق « اللجنة الوطنية للمقاومة » . وكان الشيوعيون من جانبهم يؤيدون حكومة « الإجماع الوطني » . وحين عاد « توريز »[1] من الاتحاد السوفياتي ، كان الشعار الذي أعطاه إلى الطبقة العاملة هو إنهاض الصناعة ، والعمل ، والصبر ، والعدول موقتاً عن جميع المطالب . ولم يكن ثمة من يتحدث عن الرجوع إلى الوراء : وفي السير إلى الأمام كان الإصلاحيون والثوريون يسلكون الدروب نفسها . وفي هذا الجو ، كانت جميع المعارضات تمّحي . فأنْ يقف كامو مثلاً موقفاً عدائياً من الشيوعيين ، فان ذلك كان عنصراً ذاتياً ذا أهمية هزيلة ، باعتبار أن جريدته كانت ، في نضالها من أجل تطبيق ميثاق اللجنة الوطنية للمقاومة ، تدافع عن المواقف ذاتها التي كانوا يتبنّونها : وفي الوقت نفسه كان سارتر ، المناصر للحزب الشيوعي ، يُقرّ خطّ « الكومبا » إلى درجة أنه كتب يوماً افتتاحيتها . كان الديغوليون والشيوعيون والكاثوليكيون والماركسيون يتآخون . وفي جميع الصحف ، كانت تتضح فكرة مشتركة . كان سارتر يعطي جريدة « كارفور » مقابلة ، وكان مورياك يكتب في « ليتر فرانسيز » ؛ كنّا جميعاً نغنّي في جوقة واحدة أغاني الغد .

ولم تلبث « ليتر فرانسيز » أن استسلمت للتعصّب ، بينما كانت « الاكسيون » تُظهر انفتاحاً أكبر ؛ وكان التفاهم مع الفريق الشاب الذي كان يشرف عليها ممكناً . بل إن « هيرفيه » و « كورتاد » طلبا الى سارتر ان يُسهم فيها : ولكنه رفض لأن « الأكسيون » كانت قد هاجمت مالرو هجوماً عنيفاً بدا لنا ظالماً . وقد دُهشنا كثيراً حين قال لنا « بونج » ، الذي كان يشرف على القسم الثقافي فيها ، أن تلّةً من المقالات الموجهة ضد سارتر كانت تنتصب على مكتبه . وقد نشر بعضها ، فردّ سارتر بِـ « توضيح » . كان يؤخذ عليه ان يستوحي هيدغر : ولم يكن الموقف السياسي الذي اتخذه هيدغر يُدين جميع افكاره إدانة تتناول الماضي .

---

(١) زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي (هـ . م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن جهة اخرى ، كانت الوجودية ، بعيداً عن التصوّف والعدَمية ، تعرّف الانسان بالعمل : ولئن كانت ترصده للضيق والقلق ، فبمقدار ما كانت تحمّله من مسئوليات ؛ والأمل الذي كانت ترفضه له ، كان الثقة الكسلى بشيء آخر غير نفسه : كانت إذن تتوجه في ذلك الى إرادته . وكان سارتر واثقاً من ان الماركسيين لن يعتبروه ، بعد هذا ، خصماً لهم . كانت العقبات التي تمّ التغلب عليها كثيرة جداً حتّى أن اية عقبة لم تكن تبدو لنا بعدُ غير قابلة للتحطيم . كنا ننتظر كل شيء ، من الآخرين ومنا نحن بالذات .

وكان محيطنا يشاركنا هذا الجذل : وكان هو بالدرجة الاولى الأسرة والحرس القديم . وكان شبّان قد انضموا الى فريقنا . وكان « رولان » الذي أصبح شيوعياً في المقاومة ، وهو في العشرين من عمره وقد أثّرت عليه فضائل الحزب ، يسامحنا في صراحة على انحرافاتنا ، بالرغم من كل شيء . وكان « سيبيون » يضحك ضحكاً شديداً حتّى كان يظن انه مغتبط ؛ وكان بارعاً في التقليد الأدبي ، وفي المجانسة ، وفي قلب الكلمات ، وحكايات المغامرات . وكان « استروك » ذو البسمة الكبيرة المائعة ، يكتب كيفما تأتى له في جميع الصحف ، وحين لا يكتب يتكلم : عن نفسه غالباً . وكان يقدّم عن حياته الخاصة اعترافات ساذجة وفجّة ، في نرجسية تثير الحنان . كان يبدو حظاً عظيماً ان يكون المرء عام ١٩٤٤ في العشرين او الخامسة والعشرين من عمره : كانت جميع الدروب تنفتح . كان الصحفيون والكتاب والسينمائيون النابتون يناقشون ويرسمون المشروعات ويقررون في حماسة ، كما لو أن مستقبلهم لا يتوقف إلاّ عليهم . وكان مرحهم يقوّي مرحي . فبالقرب منهم ، كنت في مثل سنهم ، من غير ان افقد — مع ذلك — شيئاً من النضج الذي كنت دفعت ثمنه غالياً جداً حتّى اني لم أكن بعيدةً عن اعتباره من قبيل الحكمة ؛ وهكذا كنت أوفّق — في وهمٍ خاطف — بين امتيازات الشباب المتناقضة وبين الشيخوخة : كان يخيّل إليّ اني أعرف كثيراً وأستطيع كل شيء تقريباً .

ولم يلبث المنفيون ان عادوا. كانت «بيانكا» قد قضت عاماً وهي مختبئة في «الفيركور»[1] مع ذويها وزوجها، وكانت قد تزوّجت أحد رفاق الدراسة. وكان ريمون آرون[2] قد ذهب الى لندن عام ١٩٤٠، فأشرف هناك مع اندريه لابارت على مجلة «فرنسا الحرة» التي لم يكن الديغوليون راضين عنها؛ وبالرغم من انه لم يكن يميل قطّ الى التظاهر بالعواطف، فقد وقع أحدنا في ذراعي الآخر حين انبثق ذات صباح في مقهى «الفلور». وكان البير بال قد قصد انكلترا هو ايضاً، في وقت متأخّر؛ وحين هبط بالمظلّة الى فرنسا، قاتل في المقاومة السرية. كنت ألتقي من جديد الوجوه القديمة بانفعال؛ وقد عرفت وجوهاً جديدة. وعرّفنا كامو على الاب بروكبيرجيه، مرشد القوات الفرنسية الحرة، الذي كان قد مثّل مع بريسون «ملائكة الاثم»؛ وكان يقلّد المغرمين بالحياة، فيجلس بثوب أبيض في مقهى «الروماري» وهو يدخّن الغليون، ويشرب «البانش»[3] ويتحدث بغزارة. واصطحبنا آرون لتناول الغداء في بيت كورنيغليون — مولينيه الذي كان قد حُكم عليه بالإعدام في عهد فيشي؛ وكان أثاثه قد صودر، فكان يُعسكر في شقة باذخة وفارغة، بجادة غابرييل؛ وكان يتحدّث حديثاً عجلاً جذّاباً مليئاً بحكايات الفرنسيين في لندن. وكذلك روى لنا رومان غاري، ذات مساء، على سطيحة «الروماري» قصصاً كثيرة. ولمحت في حفلة كوكتيل أقامتها «الليتر فرانسيز» ايلسا تريوليه وأراغون[4]. اما الكاتب الشيوعي الذي كنا نرتاح اكبر

(١) مرتفعات جبلية كلسية في شمالي فرنسا، ظل فيها ثلاثة آلاف فرنسي من رجال المقاومة، عام ١٩٤٤، يصدون هجمات الألمان طوال شهرين، وبعد ذلك أخذ الالمان يقومون بأعمال انتقامية مريعة. (هـ. م)

(٢) صحفي وعالم اجتماعي ولد عام ١٩٠٥، وهو استاذ علم الاجتماع في السوربون. (هـ. م)

(٣) مزيج شراب كحولي بالشاي وعصير الليمون والسكر. (هـ. م)

(٤) شاعر وروائي ولد عام ١٨٩٧ وهو أحد رواد السريالية، واحد كبار شعراء المقاومة؛ وقد انتمى الى الحزب الشيوعي الفرنسي وما يزال رئيساً لتحرير «الليتر فرانسيز» ذات الاتجاه الشيوعي، وايلسا تريوليه، المذكورة قبله، هي زوجته، وهي روائية معروفة (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الارتياح للقائه ، فكان بونج ؛ وكان يتحدث ، كما يكتب ، بلمسات صغيرة ، في كثير من الخبث وبعض التلذّذ . وفي فرساي ، في اثناء حفلة أقيمت برعاية دار نشر « دومينوي » ومُثّلت فيها مسرحية للافونتين ، تحدثت مع ليز دوهارم . وانني لا اذكر بعدُ جميع الايدي التي صوفحت ، ولا جميع البسمات التي تبودلت ، ولكني أعرف كم كانت تلك الغزارة تروقني .

كانت تلك اللقاءات تكشف لي قصّة كانت هي قصّتي ولم اكن قد عرفتها . وقد وصف لنا آرون بالتفصيل الغارات على لندن ، ورباطة جأش الانكليز ، وثباتهم على المعاناة . كانت قنابل ف ، التي كنت قد رأيتها تمرّ فوق « نويي سوكليرمون » حمراء في السماء السوداء – كانت هناك صفيراً لا يُرى ، وانفجاراً ، وقتلى . وقد روى لنا آرون : « حين كنا نسمعها ، كانت القاعدة ان ننبطح على الرصيف – ولمحتُ مرةً ، وأنا أنهض ، سيدةً مسنة جداً كانت قد ظلت واقفة وهي تحدجني ؛ وكنت من شدة الغيظ بحيث قلت لها موبخاً : يا سيدتي ، إن الناس ، في مثل هذه الأحوال ، يضطجعون ! » وقد أعارني مجموعة « فرنسا الحرّة » فاكتشفت الحرب ، لا ابتداءً من باريس ، بل من لندن ، بالمقلوب . كنت قد عشت مسجونة بين جدران ؛ وقد رُدَّ العالم لي .

عالم مخرّب . فمنذ اليوم التالي للتحرير ، اكتُشفت قاعات الجستابو للتعذيب ، وفُضحت أمكنة تجميع الجثث . وحدثتني بيانكا عن الفيركور ، فروت لي الأسابيع التي كان أبوها وزوجها قد قضياها مختبئيْن في مغارة ؛ ونشرت الصحف تفاصيل عن المذابح وعن إعدام الرهائن ؛ كما نشرت قصصاً عن عمليات الإبادة في فارصوفيا . وكان هذا الماضي الذي يُكشف بصورة قاسية يلقيني مجدداً في الفظاعة والرعب ؛ وكانت فرحة الحياة تُخلي المكان لعار البقاء بعد الموت . على ان البعض لم يخضعوا ، ومنهم « جوسيون »[1] الذي أرسلته صحيفة « فران – تيرور » كمراسل حربي ،

---

(١) ذكرت من قبل ان خطيبته كانت قد ابعدت . وقد اعتقل هو في ساحة الكونكورد ، في=

فلم يعد ، ولاشك ان موته لم يكن عـرَضياً . كان ثمن النصر يُدفع غالياً ، وفي ايلول جعل طيران الحلفاء من مرفأ الهافر قاعاً صفصفاً ، وقد سقط آلاف القتلى فيه . وكان الألمان يتشبثون في الألزاس وحول سان ـ نازير . وفي تشرين الثاني انقضّت على لندن قنابل ثقيلة صامتة ، هي قنابل ف٢ التي كانت اشد فعالية من قنابل ف١ : أكانت هي الأسلحة السرية التي كان يتحدث عنها والبرغ ، أو كان يوجد سواها أفظع منها وأبعث على الرعب ؟ وكانت جيوش فون رونشتات تُغرق هولندا وتجيعها ، وقد استعادت في بلجيكا قسماً من الأرض التي كانت قد فقدتها وأقامت مذابح للأهالي ؛ وكنت أتصوّرها عائدة من جديد الى باريس ، منتصرة . ولم يكن الناس يجرؤون على التفكير بما كان يحدث في معسكرات الاعتقال اذ كان الالمان واثقين من أنهم قد خسروا الحرب .

وكان الوضع قد تدهور مادّياً منذ العام الفائت ؛ كانت النقليات قد فقدت انتظامها ، وكان ثمة نقص في المؤن والفحم والغاز والكهرباء . وحين أقبل البرد ، كان سارتر يرتدي سترة من فرو قد فقدت زغبها . واشتريت من أحد رفاقه في الأسر، وكان بائع فراء ، معطفاً من جلد الأرنب كان يجلب لي الدفء ؛ ولكن باستثناء « تايور » أسود كنت أحتفظ به للمناسبات الكبرى ، لم أكن أملك إلاّ ثياباً عتيقة ألبسها تحت المعطف ، وظللت أنتعل حذاء ذا كعب خشبي . والحق ان ذلك كان لدي سواء . ومنذ سقوطي عن الدراجة ، كانت سنّ تنقصني ، وكان الثقب يُرى بوضوح ، ولم أكن أفكّر في سدّه : فما الجدوى ؟ كنت على أية حال كهلة ، وكنت في السادسة والثلاثين ؛ ولم يكن يداخل هذا الواقع ايةُ مرارة : كان موج الأحداث ونشاطاتي قد حملني بعيداً عن نفسي ، فكنت أدنى همومي .

وبسبب هذه الفاقة ، لم يكن يحدث شيء هام في ميدان الأدب والفنون

= اثناء الثورة ، واعطي بديلا عن ضابط ألماني عشية دخول الحلفاء . وقد ترك رواية بعنوان : « رجل يمشي في المدينة » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والمسارح . على ان منظّمي « معرض الخريف » جعلوا منه تظاهرة ثقافية كبيرة : عرضاً ارتجاعياً للرسم الطليعي . لقد كان حَدَثاً ذا قيمة ان نرى هذا الرسم معروضاً في وضح النهار ، بعد ان كان الألمان قد حجزوه في ظلّ المراسم او في أقبية الباعة . وكان جناح برمّته مخصّصاً لبيكاسّو ؛ وكنّاً غالباً ما نزوره ، وكنّا نعرف أحدث لوحاته ، ولكنّ جميع آثاره التي أنجزها في هذه السنوات الأخيرة كانت مجمّعة في ذلك المعرض . وكان فيه كذلك رسوم جميلة لبراك وماركيه وماتيس ودوفي وغرومير وفييون ولوحة « جوب » المدهشة لفرانسيس غوبير ؛ وكان بعض السرياليين مشتركين ايضاً : دومنغيز وماسون وميرو وماكس ارنست . وقد تدفّقت على الصالة ، البورجوازية الأمينة « لمعرض الخريف » ، ولكن لم يكونوا ، هذه المرة ، يقدّمون لها غذاءها المألوف : فقهقهت امام لوحات بيكاسو .

وكانت الكتب التي تظهر قليلة : وقد سئمت في قراءة « اورليان » لأراغون ، ولم اكن أقل سأماً في قراءة « أشجار جوز التنبورغ » الذي كان قد نشر قبل ذلك بعام في سويسرا ، وكان قد حمل غروتويزان الشيخ على القول : « إن مالرو يملك الآن نواقصه على أفضل نحو » . وجمعت مجلة « لارباليت » نصوصاً ترجم معظمها مارسيل دوهاميل عن مؤلفين اميركيين مجهولين منهم هنري ميلر وماك كوي ، وناتانابيل ويست وداموند روينان ودوروتي بيكر — ومعروفين امثال همنغواي وريتشارد رايت وتوماس وولف وثورنتون ويلدر وكالدويل وطبعاً سارويان ؛ ولم يكن ممكناً فتح مجلة الا ويبرز فيها اسمه . وفي ذلك العدد ايضاً كان ثمة انكليزي يُدعى بيتر شيني . وكان الحديث يتناول بضعة كتّاب انكليز جدد : اودن ، سبندر ، غراهام غرين ، ولكنهم كانوا لا يزالون مجهولين . وقد أعارني أحد الاصدقاء « العدد الأخير » لهيلاري ، وكان الطيّار الشاب ، احد الاكسفورديين الأخيرين ذوي الشعر الطويل ، يروي فيه كيف أسقطت طائرته فوق المانش ، ويتحدث بضحكة تفتقر الى الانسجام عن العمليات واللقاحات التي كانت قد ردّت له عينيه

ويديه ووجهه ؛ وكانت القصة برفضها لكل نزعة انسانية ولكل بطولة تتجاوز الى حدّ بعيد الأحداث التي كانت تخدمها كحجّة . وقد قرأت كذلك عدداً كبيراً من كتب الحرب – وكانت قيمتها دون ذلك – المطبوعة في الولايات المتحدة ، بصورة خاصة ، لبلاد ما وراء البحار ؛ وكانت « الحرية » تشهر مشعلها على الغلاف الأبيض المخطّط بالأحمر . وكان هاري براون يروي في « مشية في الشمس » هبوط قبضة من الرجال على الشاطيء الايطالي . وفي « جو ، الجندي الاميركي » كان ارني بايل يرسم صورة المقاتل الاميركي . وكان الاميركيون يعشقون « ذلك الرجل القصير الذي يرتدي ثوباً عسكرياً رثّاً ويكره الحروب ، ولكنه يحبّ الجنود ويفهمهم »[١] وكان يصوّر الحرب اليومية : « حرب الرجال الذين يغسلون جواربهم في قبعاتهم »[٢] .

وعرض المسرح مرة اخرى « جلسة سرية » . وأخرج دولان « الحياة حلم » . وكان « مسرح الحلفاء » في بيغال هو قبل كل شيء احتفالاً وطنياً ، اما المسرحيات التي كانت تقدّم عليه فكانت ذات أهمية ضئيلة . وحضرت في جلسة خاصة مسرحية « الأمل » لمالرو ، وقد أثّرت بي كما أثّر الكتاب سواء بسواء . وباستثناء عمليات المونتاج التي كان يقوم بها كابرا تحت عنوان « لماذا نحارب ؟ » والتي كان يقوم بها ماك سينيت الشيخ ، هنا وهناك ، فان السينما لم تكن تقدّم ما هو مقبول . صبراً ! لقد كانوا يروون العجائب والروائع عن هوليوود ؛ كان شاب عبقري في السابعة والعشرين ، ويدعى اورسون ويلز ، قد قلب السينما رأساً على عقب ، ونجح في ان يضفي على الأرضيات الخلفية الوضوح نفسه الذي كانت تتمتع به الصور الامامية ؛ وفي صوره التي تمثّل الأعماق ، كانت السقوف مرئية . وكان يقال إن الثورة التكنيكية كانت تتقدم بصورة عاجلة حتّى أن عرض الافلام الاميركية الأخيرة كان يتطلب آلات خاصّة .

---

(١) شتاينبك .

(٢) شتاينبك .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسلّمتُ دار غاليمار « دم الآخرين » ؛ وحمل اليها سارتر الجزئين الاولين من « دروب الحرية » . وظهر « بيروس وسينياس »[1] : وكان من المؤلفات الاولى التي رأت النور بعد التحرير ؛ وفي الجذل العام ، ولأن الناس كانوا قد حُرموا الايديولوجية والأدب خلال هذه الأعوام الأربعة ، فان هذه الدراسة الهزيلة قد استقبلت استقبالاً جيداً جداً . وأستأنفتُ الكتابة . وكنت أملك وقتي كلّه ، لأن سارتر ، بفضل السينما والمسرح ، كان يكسب المال ، وكان قد طلب مأذونية من الجامعة ؛ وكنّا قد اعتدنا ان نضع مواردنا في صندوق مشترك ، فتابعنا ذلك ، وكففت عن ان أكون خاضعة لأعمال التغذية . وقد نصحت النساء غالباً بالاستقلال وصرّحت بأن هذا الاستقلال يبدأ بمحفظة النقود ، بحيث ينبغي أن أفسّر موقفاً ظهر لي آنذاك انه يتضح من تلقاء نفسه . لقد كان استقلالي المادي مأموناً باعتبار اني كنت أستطيع عند الحاجة ان استعيد وظيفتي كأستاذة[2] ؛ وكان سيبدو لي بليداً بل حتى منكراً أن أضحّي بساعات ثمينة لأثبت لنفسي كل يوم اني كنت املك ذلك الاستقلال . انني لم أوجّه حياتي قط وفق مباديء ، بل وفق غايات ؛ وكان لي ما أفعله : وكانت الكتابة قد أصبحت بالنسبة لي مهنة متطلّبة . وكانت تؤمّن لي استقلالي المعنوي ؛ وقد كنت في وحدة الأخطار التي أتعرّض لها ، والقرارات التي ينبغي أن أتخذها ، أحقّق حرّيتي ، أفضل مما لو انطويت لروتينات مربحة . كنت أرى في كتبي اكتمالي الحقيقي ، وكانت تغنيني عن كل توكيد آخر لنفسي . وإذن ، ، فقد انصرفت كلّياً ، وبلا وسواس ، الى « جميع البشر ميتون » وكنت كل صباح أقصد مكتبة مازارين لأقرأ قصصاً من العهود القديمة ؛ وكان البرد فيها شديداً ، ولكن قصة شارل كانت ، ومغامرة القائلين بتجديد العماد كانتا تحملاني بعيداً جداً عن جسمي حتى اني كنت أنسى ان ارتجف بـــرداً .

---

(١) وهو الذي ظهر في العربية تحت عنوان « مغامرة الانسان » . (هـ.م)
(٢) كنت قد عدت الى الجامعة ، فطلبت مأذونية .

وكنّا قد فكرنا في العام السابق، كما ذكرت، بمشروعين: دائرة معارف، ومجلة. ولم يواصل سارتر المشروع الاول، ولكنه كان حريصاً على الثاني. ولكن بسبب نقص الورق، كان مسموحاً للمجلات التي سبق ان صدرت قبل الحرب او التي انشئت في المنطقة الحرة اثناء الاحتلال، ان تستمر في الظهور. وكان لمجلات «اسبري» و «كونفلوانس» و «شعر ٤٤» أهميتها، ولكنها لم تكن تعبّر عن زمننا إلاّ تعبيراً غير كاف. كان لا بدّ من خلق شيء آخر. وقد عبّر سارتر عن مقاصده: «لقد فكرت بأنه، اذا كانت الحقيقة واحدة، فيجب ألاّ نبحث عنها إلاّ في كل مكان، كما قال «جيد» عن الله. وكل نتاج اجتماعي وكل موقف — حميماً كان ام عاماً — انما هما تجسيد تعريضيّ لها. فقصّةٌ ما تعكس حقبةً برمّتها بمقدار ما يعكسها «دستور» سياسي. سوف نكون صيّادي معانٍ، وسنقول الحقيقة عن الحياة وعن حيواتنا»[1] وشكّلنا في ايلول هيئة ادارة، وكان كامو أشدّ استغراقاً في «كومبا» من ان ينضمّ إليها؛ اما مالرو فقد رفض؛ وقد دخل فيها ريمون آرون، وليريس، وميرلو — بونتي، والبير اوليفيه، وبولان، وسارتر، وانا نفسي: وفي ذلك العهد، لم تكن هذه الاسماء توحي بأنها منسجمة فيما بينها.

وبحثنا عن عنوان. واقترح ليريس، الذي كان قد احتفظ من شبابه السيريالي بميلٍ الى اثارة الدهشة، اسماً مقرقعاً: «الغاربوج»؛ ولم نوافق عليه لأننا لم نكن نريد فقط ان نُزعِج، بل ان نبني كذلك. وكان لابدّ للعنوان من ان يشير الى اننا كنا ملتزمين التزاماً ايجابياً بالأحداث الجارية؛ وكان عدد كبير من الصحف منذ سنوات عديدة قد تبنّت الهدف نفسه، بحيث لم يبق لنا مجال للاختيار؛ واتفقنا على «التان مودرن»[2] وكان الاسم شاحباً، ولكن التذكير بعنوان فيلم شارلو[3] كان يروقنا. (وقد حدث مراراً، بعد تأسيس

---

(١) «ميرلو — بونتي حياً»

(٢) وتعني «الأزمنة الحديثة» (هـ. م)

(٣) الاسم المصغر للممثل المعروف شارلي شابلن الذي كان قد انتج فيلماً مشهوراً بهذا العنوان (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المجلة ، ان ارسلت لنا وكالة « الارغوس » قصاصات من الصحف تتعلّق بالفيلم ...) وكان بولان يقول بلهجته الرصينة الزائفة والتي لم تكن الرصانة بعيدة عنها ، إن من المهم بعد ذلك أن يكون بالامكان تسمية مجلة بحرفيها الأولين ، كما سبق ان حدث لمجلة N. R. F.[1] وكان حرفا T. M. يخلّفان وقعا طيّباً في السمع . وكانت المشكلة الثانية تصميم غلاف . وقد رسم بيكاسو غلافاً جميلاً جداً ، ولكنه كان أجدر بمجلات الفنّ منه بـ « التان مودرن » ؛ وكان مستحيلاً ادراج ملخص للموضوعات فيه ؛ ومع ذلك فقد كسب الغلاف أنصاراً ، وقامت بين اعضاء اللجنة نزاعات شديدة ، في غير ما حنق . وأخيراً عرض أحد مصمّمي دار غاليمار مشروع غلاف وفّق بين الجميع . ولم تكن مناقشاتنا تتناول إلا قضايا بسيطة ، ولكني بدأت اهتم بها اهتماماً كبيراً : فقد كانت هذه المشاركة في العمل تبدو لي أنجز لون من ألوان الصداقة .

وفي كانون الثاني ، ذهبت باسم سارتر ، وكان مسافراً ، أطلب من سوستيل الذي كان آنذاك وزير الانباء ، أن يعطينا ورقاً . وقد صحبني في هذه الزيارة ليريس الذي كان يعرفه من « متحف الانسان » . وقد كان سوستيل لطيفاً جداً ، ولكن تشكيل هيئة التحرير جعله مستاء : « آرون ؟ ولماذا آرون ؟ » وكان يأخذ عليه موقفه المناهض للديغولية . وانتهى الى بذل وعودٍ لنا أوفاها بعد أشهر .

وما ان عادت القطارات الى السير حتّى ذهبنا نقضي ثلاثة اسابيع لدى السيدة لومير ؛ وقد جلسنا في عربة مزدحمة لزمناها من الثامنة صباحاً حتّى الثامنة ليلاً ؛ ولم يكن القطار يتبع خط السير المألوف ؛ وكنا قد تركنا حقائبنا في « ليون دانجيه » وسرنا على الاقدام سبعة عشر كيلومتراً كانت تفصلنا عن « لا بوييز » . وقد كان مكوثنا هذا سعيداً لم تتخلّله اية ازعاجات ، كما كان من قبل .

ولدى عودتي الى باريس ، انشغلت بأمر تمثيل مسرحية « الافواه اللامجدية »

(١) مجلة « نوفيل ريفو فرانسيز » – المجلة الفرنسية الجديدة (هـ.م)

وكان سارتر قد أعطى ريمون رولو نسخة منها . وقال لي هذا الأخير « اني قد صوّبت اقرب مما ينبغي » : فان ايجاز الحوار كان يبلغ حد الجفاف . ونقلت مسرحيتي الى فيتولد ، فقال لي انه يسره ان يُخرجها . وقبل باديل ، مدير مسرح « الفيوكولومبيه » بأن يعرضها . وبدأ فيتولد التجارب ، ووزّع الادوار : وكنت قد خصصت دور كلاريس لأولغا ؛ واقتُرح ان ينشيء دوكنغ الديكورات ، فناقشت الأمر معه . ولهذه المناسبة ، ذهبت عدة مرات اتناول العشاء في منزل باديل ، بصحبة سارتر . وذات مساء مثّلنا لعبة « الموردر بارتي » ، فكنت الشرطي السري الوحيد الذي اكتشف القاتل ، واعتززت بذلك كل الاعتزاز . وكنت أكنّ الودّ لغابي سيلفيا التي لم يكن جمالها وموهبتها وحدهما ليرضياها ، وكانت تريد ان تتثقف : وكان مؤدّبها روبير كانتيرز الذي كان يُعدّها اعداداً رصيناً جداً للبكالوريا . ولكني كنت أحسّني غير مرتاحة في ذلك الصالون الأغنى مما ينبغي والذي كان الناس يتكلمون فيه لغة غير لغتي . وكانت غابي سيلفيا ترتدي اثواباً من صنع روشا ، ذات بساطة بارعة باهرة ، وكان تايوري الاسود ، وثوب بسيط جداً كنت قد اوصيت عليه في « لابوييز » ، يبدوان بالنسبة اليها اشبه بقلة الأدب . وقد كنت في ذلك الوقت اجتماعية جداً ، ولكن النزعة الطقوسية في حب المجتمع كانت تضجرني .

وسألتني ليز ذات مساء :

ــ هل يهمكما ، انت وسارتر ، ان تتعرفا الى همنغواي ؟

فقلت : ــ بالتأكيد .

وكان ذلك هو نوع العروض التي تروقني . وكانت اكبر تسلية لليز ، منذ التحرير ، ما كانت تسمّيه « صيد الاميركي » . وكان الاميركيون يوزعون بيسر سكايرهم و « حصصهم » ، وكانت ليز ، الجائعة ابداً ، تحبّ ان تفيد من هذا التبذير . وكانت تجلس وحدها غالباً ، واحياناً بصحبة سيبيون ، في الازمان الاولى ، على سطيحة « كافيه دولابيه » او في احد مقاهي الشانزليزيه ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بانتظار ان يوجّه جندي اميركي الحديث اليها ؛ ولم تكن تفتقر الى المعجبين : فاذا وجدت من يبدو لها متحفظاً ومسلّياً في الوقت نفسه ، كانت تقبل ان تشرب معه كأساً ، او تذهب في نزهة بالجيب ، او تتناول العشاء ؛ وكانت في مقابل وعدٍ بلقاء لم تكن تفي به إجمالاً ، تحمل الى الفندق شاياً وسكاير وقهوة مطحونةً وعلب محفوظات . وكانت للعبة أخطارها . فقد كان بعض الجنود يصيحون بها في الشوارع : « زيغ زيغ ايتها الشقراء » فكانت تضحك وتبتعد ؛ فاذا ألحّوا في مطاردتها ، قذفتهم بشتائم جديرة بأن تحمرّ لها وجوه السوقة خجلاً ، لأن مفرداتها الانكليزية لم تكن تقل بلاغةً عن مفرداتها الفرنسية . وحدث أن أنزعج أحدهم في ميدان الاوبرا : فدقّ لها رأسها دقاً قوياً على عمود كهرباء وتركها فاقدة الوعي. ولكن كان يتفق لها ايضاً ان تحظى بلقاءات سارّة : من ذلك انها عقدت صداقة طيبة مع شاب عملاق ، مرح وأشقر ، هو الأخ الأصغر لهمنغواي ؛ وكان يُريها صوراً لزوجته واولاده ويجلب لها صناديق من المؤن ، ويحدّثها عن « الرائعة » التي كان ينوي كتابتها ويقول لها : « إنه يعرف الوصفة اللازمة لذلك . »

وفي ذلك المساء ، كان همنغواي الذي وصل الى باريس كمراسل حربي ، على موعدٍ مع أخيه في فندق ريتز ، حيث كان نازلاً ؛ وكان الأخ قد أوحى لليز بأن تصحبه وبأن ترافقنا ، انا وسارتر . ولم تكن الغرفة التي دخلناها تشبه على الاطلاق الفكرة التي كنت أتصوّرها عن الريتز ؛ كانت كبيرة ولكنها قبيحة بسريريها ذوي القضبان النحاسية ؛ وفي أحدهما ، كان همنغواي مستلقياً بمنامته ، وعلى عينيه قبعة خضراء ؛ وعلى طاولة بمتناول يده ، كان ثمة عدد محترم من زجاجات الويسكي الفارغة كلياً او نصفياً . وقد انتصب قائماً وأمسك بسارتر وشدّه بين ذراعيه ، وقال وهو يعانقه :

ـ انك جنرال !

ـ انا لست الا « كابيتناً » : وانت هو الجنرال !

(وكان اذا ما شرب يبالغ دائماً في التواضع)

وجرى الحديث في حماسة ، تقطعة كؤوس ويسكي عديدة ؛ وكان همنغواي ، بالرغم من النزلة الوافدة التي كان مصاباً بها ، يفيض حيوية . وادرك النعاس سارتر ، فغادرنا حوالي الثالثة صباحاً ، وهو يترنّح ؛ اما انا فبقيت حتى الفجر .

وكان « بوست » يتمنّى ان يمارس الصحافة ؛ وقد قرأ كامو مخطوطة الكتاب الذي كان قد كتبه في اثناء الحرب ، حول تجربته كجندي من المشاة ، بعنوان « آخر المِهَن » ، فاحتفظ به للنشر في سلسلة « اسبوار » التي كان يشرف عليها لدى دار غاليمار ، وارسل بوست الى الجبهة كمراسل حربي . وكان كامو ، حين تُطلب منه خدمةٌ ما ، يؤديها ببساطة كبيرة حتى ان المرء لا يتردّد في طلب خدمة اخرى منه : ولم يكن ذلك بلا جدوى قط . وكان عددٌ من الشبان حولنا راغبين هم ايضاً بالانخراط في جريدة «كومبا » : فعيّنهم جميعاً . وكنّا حين نفتح الجريدة في الصباح ، يخيّل الينا اننا تقريباً نفضّ بريدنا الخاصّ . وحوالي آخر تشرين الثاني ، ارادت الولايات المتحدة الاميركية ان تُعرّف في فرنسا جهدها الحربي فدعت زهاء اثني عشر صحفياً . ولم أر سارتر يوماً فَرِحاً كما رأيته يوم عرض عليه كامو ان يمثّل «كومبا » في هذه الزيارة . وكان عليه ان يقوم بمساعٍ كثيرة مضجرة لكي يحصل على الأوراق اللازمة وعلى اذن بالمهمة وعلى دولارات ؛ ولقد قام بها في برد كانون الاول بجذلٍ كان يهيّجه بعضُ القلق : فانه في تلك الفترة لم يكن ثمة ما هو مؤكّد . والواقع انّ المختارين للسفر ظنّوا خلال يومين او ثلاثة أن المشروع يسقط في الماء : وقد قدّرت رغبة سارتر بالقياس الى تبلبله .

كانت تعني أشياء كثيرة ، اميركا ! أوّلها ما هو صعب المنال ؛ الجاز ، السينما ، الأدب ، وكانت قد غذّت شبابنا ، ولكنها كانت كذلك اسطورة كبيرة : والاسطورة لا تَدَع المجال لمسّها . وكان المفروض في الرحلة ان تتمّ بالطائرة ؛ وكان يبدو غير قابلٍ للتصديق ان تكون مأثرة لندبرغ في متناول يدنا اليوم . واميركا كانت هي ايضاً الأرض التي جاءنا منها التحرير ؛ كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المستقبل وهو في سيره ؛ وكانت الرخاء ولامحدودية الأفق ؛ وكانت مزيجاً من الصور الخرافية : ولا بدّ لمن يفكر بأن يراها بأم عينيه من ان يصاب بالدوار . وكنت أغتبط لا من أجل سارتر ، ولكن من أجلي أنا ، لأني كنت واثقة من اني سأتبع يوماً هذا الدرب الذي ينفتح فجأة .

وكنت قد أمّلت ان تبتعث سهرات آخر السنة جذل الأعياد القديمة ، ولكن كان ما يزال في الهواء قلق وضيق ، بعد ان أُوقف هجوم الالمان . وكان بوست في الجبهة ، فكانت اولغا قلقة ؛ وقضينا لدى كامي ودولان فترة كئيبة بما فيه الكفاية ؛ وحوالي الواحدة صباحاً ، هبطنا مشياً على الاقدام ، مع اولغا وعصبة صغيرة ، نحو السان جيرمان ديبريه ، وأنهينا الليل في منزل افلين كارال الجميلة ؛ وكنّا قد أكلنا ديكاً حبشياً ؛ وغنّى مولوجي أغانيه الذائعة المألوفة ، كما غنّى مارسيل دوهاميل – ولم يكن يشرف بعد على « السلسلة السوداء » – أغاني اميركية في كثير من السحر . وكنّا قد احتفلنا بعيد القديس سيلفستر في منزل كامو الذي كان يشغل في شارع فانو شقة « جيد » ؛ وكان ثمة أرجوحة للتريّض وآلة بيانو . وكانت فرانسين كامو قد وصلت مباشرة بعد التحرير من افريقيا ، شديدة الشقرة ، وافرة النضارة ، جميلة في تايورها الازرق الحجري ؛ ولكننا لم نكن قد التقيناها كثيراً من قبل ، وكنا لا نعرف عدداً من المدعوين . وأشار كامو الى أحدهم ، وكان لم ينبس ببنت شفة ، طول السهرة ، وقال :

– هذا هو النموذج الذي استوحيت منه « الغريب » .

وكان الاجتماع يفتقر ، في نظرنا ، الى الصميمية . وكانت امرأة شابة قد حشرتني في زاوية واتهمتني بصوت متشفّ :

– انك لا تؤمنين بالحب !

وحوالي الساعة الثانية ، وقّعت فرانسين بعض أنغام باخ . ولم يشرب أحدٌ كثيراً باستثناء سارتر ، وهو مقتنع بأنّ تلك الامسية كانت تشبه السهرات السابقة ، وما لبث ان بعث الخمر فيه جذلاً اقوى مما ينبغي ،

فلم يتنبه الى الفارق .

وسافر يوم ١٢ كانون الثاني ، في طائرة عسكرية . ولم يكن ثمة بريد خاص بين الولايات المتحدة وفرنسا : فلم أتلقّ من انبائه الا ما عرفته من قراءة مقالاته . وقد افتتح مهنته كصحفي بغلطةٍ ارتعش لها آرون ، ذلك انه صوّر في كثير من الرضى والمجاملة نزعة القادة الاميركيين ضد ديغول في اثناء الحرب ، حتى انه كان على وشك ان يُعاد الى فرنسا .

وكان المفروض أن يقدّم لبريسون[1] ، بعد اتفاق تمّ بينه وبين كامو ، بعض المقالات ؛ وقد ارسل له بالفعل انطباعات وتأملات ومذكرات كتبها بسرعة ، بينما احتفظ لـ « كومبا » بالمقالات التي كانت تكلفه وقتاً وجهداً : فكان كامو — الذي قرأ في « الفيغارو » وصفاً مرحاً لامبالياً لمدن اميركا — يتلقى دراسة جادة عن اقتصاديات وادي تنيسي ، فيتبرم من ذلك ...

ونعمت ، أنا ايضاً ، بحظّي . كانت اختي قد تزوجت ليونيل الذي كان الآن ملحقاً بالمعهد الفرنسي في لشبونة ؛ وكان يشرف على مجلة فرنسية — برتغالية تدعى « أفينيداد » . وقد دعاني ، باسم « المعهد » الى إلقاء محاضرات في البرتغال عن الاحتلال الألماني . وقد اسرعت الى مكاتب « العلاقات الثقافية » وطلبت إذناً بالتكليف . ووجب عليّ أن اطلب مساعدة عدد كبير من الناس ؛ ولكن الجميع كانوا يقدّمون لي وعوداً ، واحترقت أملاً .

وبدأوا في تجارب اللوحتين الثالثة والرابعة من « الافواه اللامجدية » في « الفيوكولومبيه » . وكنت أجمع وثائق لمجلة « تان مودرن » ، وأقوم باتصالات . وقد التقيت في مقهى « دوماغو » كونولي مدير المجلة الانكليزية « اوريزون » التي كانت قد نشرت في اثناء الحرب بعض انتاج الكتّاب المقاومين ، ومنه « خيبة » لاراغون . وقد حدّثني عن الادب الانكليزي الجديد وعن كوستلر الذي كان يعيش في لندن . وكنت قد أحببت « الوصية

---

(١) رئيس تحرير جريدة « الفيغارو » (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الاسبانية » ، وكان كامو قد أعارني « ظلام في النهار » فقرأته دفعة واحدة طوال الليلة التالية ؛ وسرّني أن أعلم ان كوستلر كان يقدّر كتب سارتر. وكنت ألتقي دائماً أصدقاء ، عند الغداء او العشاء ؛ وكنّا نقصد مطاعم « شيرامي » و « فيوباري » و « ارمانياك » و « بوتي سان بنوا » ، وكنت اقضي أمسياتي مع هذا أو ذاك في « مونتانا » او « مفيستو » او « دو ماغو ». وقد دعاني بوست مرة الى تناول الغداء في مطعم « سكريب » الذي كان يتردد عليه المراسلون الحربيون ؛ فكان هذا المطعم في قلب باريس إقطاعاً اميركياً : خبز أبيض ، بيض طازج ، مربيات ، سكر ، معلبات.

وعقدت صداقات جديدة. وقبل الحرب كانت فتاة مجهولة قد ارسلت الى سارتر كتاباً صغيراً : « استوائيات » لم يكن قد تنبه اليه احد ، ولكنه أثار اهتمامنا بقيمته ؛ وكانت المؤلفة هي ناتالي ساروت[1] : وكان قد كتب لها ، والتقى بها ؛ وفي عام ١٩٤١ ، كانت قد عملت في فريق للمقاومة مع الفريد بيرون ، ورآها سارتر من جديد ، وتعرفتُ عليها. وفي ذلك الشتاء خرجت معها كثيراً. انها ابنة روس اسرائيليين كانت الاضطهادات القيصرية قد طردت ذويها من بلدهم في مطلع القرن ، وأعتقد أنها مدينة لتلك الظروف بدقّتها القلِقة. وكانت رؤيتها للأشياء تنسجم تلقائياً مع افكار سارتر. كانت تعادي كل نزعة جوهرية ، ولم تكن تؤمن بالطبائع الحاسمة ، ولا بالعواطف المحددة ، ولا بأية فكرة ناجزة. وكانت في الكتاب الذي تكتبه الآن « صورة مجهول » تهتمّ بأن تلتقط الحقيقة الملتبسة للحياة ، عبر الافكار العامة او المبتذلة. وكانت قلما تفتح نفسها ، وتتحدث خصوصاً عن الأدب ، ولكن في حماسة وهوس.

والتقيت في اثناء الخريف ، في صفّ واقف عند باب دار للسينما في الشانزليزيه ، امرأة طويلة ، شقراء ، أنيقة ، ذات وجه قبيح بصورة وحشية ، ولكنه نابض بالحياة : فيوليت لودوك ؛ وكانت بصحبة صديق

---

(١) هي اليوم من زعماء مدرسة « الرواية الجديدة » . (هـ.م)

مشترك . وبعد ذلك بأيام ، سلمتني مخطوطة في مقهى « الفلور » . وكنت افكر بأنها « اعترافات امرأة مشهورة » . وفتحت الدفتر : «لم تساعدني امي قط . » وقرأت دفعة واحدة نصف المخطوطة ، وكانت تنتهي نهاية مقطوعة ، مفاجئة ، وكانت النهاية الى ذلك حشواً . وقد عبرت عن رأيي لفيوليت لودون : فحذفتْ الفصول الأخيرة وكتبت فصولاً اخرى كانت تسوى الاولى ؛ إنها لم تكن ذات موهبة فحسب ، ولكنها كانت تعرف ان تعمل . وعرضت الكتاب على كامو ، فقبله على الفور . وحين صدر « الاختناق » بعد أشهر ، أجمع النقاد المتطلبون على امتداحه ، وإن لم يحظ بانتشار كبير ؛ وبسببه أصبحت المؤلفة صديقة لكثيرين ، منهم جان جينيه وجوهاندو[١] . والواقع أن فيوليت لودوك لم يكن لديها اي شيء من مظاهر نساء المجتمع الشهيرات ، وحين تعرّفت اليها ، كانت تكسب حياتها بالذهاب الى مزارع النورماندي حيث كانت تجلب بضعة كيلوغرامات من اللحم والزبدة التي كانت تعود بها الى باريس بقوة قبضتيها ؛ وقد دعتني مرات الى العشاء في مطاعم السوق السوداء التي كانت تموّنها ؛ وكانت مرحة وطريفة غالباً ، ذات مظهر صريح ، ولكنه يخفي شيئاً من العنف والحذر ؛ وكانت تحدثني باعتزاز عن أنواع تجارتها ، وعن ضروب سيرها الشاق عبر الريف ، وعن حانات القرى ، وعن الشاحنات والقطارات السوداء ؛ وكانت تحس الانسجام الطبيعي مع الفلاحين وسائقي العجلات والباعة المتنقلين . وكان موريس ساش هو الذي شجعها على الكتابة ، وكانت عميقة الصلة به . وكانت تعيش في وحدة كبيرة . وقد عرّفتها على كوليت أودري التي كنت اراها غالباً ، وعلى ناتالي ساروت كذلك ؛ وقد ولدت بينهنّ صداقةٌ سرعان ما تحطمت من جراء تصادم الأمزجة .

* * *

---

(١) مارسيل جوهاندو (ولد عام ١٨٨٨) كاتب فرنسي يعد من النيورومنطيقيين الصوفيين (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلق التطهير على الفور انقسامات في صفوف المقاومين القدامى ؛ وكان جميع الناس متفقين على انتقاد الطريقة التي تمّ بها ؛ ولكن بينما كان مورياك يدعو الى الصفح ، كان الشيوعيون يطالبون بالصرامة ؛ وكان كامو في «كومبا» يبحث عن الحلّ الوسط ؛ وكنا ، سارتر وانا ، نشاطره وجهة نظره : إن الثأر لا جدوى منه ، ولكن لم يكن لبعض الرجال مكانهم في العالم الذي كان يُبنى.

ولم أكن عملياً أتدخّل في شيء ؛ وكنت قد تسجّلت مبدئياً في اللجنة الوطنية للتطهير ، ولكني لم أضع قدمي في اي اجتماع من إجتماعاتها ؛ وكنت اعتبر أن حضور سارتر كان يجعل حضوري شيئاً فائضاً. غير أني ، وقد كنت أعرف عبر سارتر قرارات اللجنة ، كنت أقرّ ان يلتزم اعضاؤها ألاّ يكتبوا في الصحف والمجلات التي تقبل ان تنشر للمتعاونين القدامى . انني لم اكن اريد بعدُ أن أسمع اصوات اولئك الذين كانوا قد وافقوا على موت ملايين اليهود والمقاومين ؛ ولم اكن اريد ان ارى اسماءهم الى جانب اسمي في المنشورات . كنّا قد قلنا « اننا لن ننسى » ولم أكن لأنسى ذلك .

وقد دهشت جداً حين جاءني احدهم — ولا اذكر بعد من هو — يطلب مني ، قبل ايام من محاكمة برازياك[1] ، ان اوقّع اسمي في اسفل ورقة كان محاموه يطوفون بها : وكان الموقعون يصرحون انهم ، بصفتهم كتّاباً ، متضامنون معه ، وانهم يطلبون رحمة المحكمة[2] . ولم اكن متضامنة مع برازياك في أي شكل ، ولا على أيّ صعيد : فكم من مرة نفرت دموعي غضباً وانا اقرأ مقالاته ! لقد كان يقول : « لا هوادة مع مغتالي الوطن » ، وكان قد طالب بحق « فضح الذين يخونون » واستعمل هذا الحق استعمالاً واسعاً ؛ وكان محررو « جوسوي بارتو » ، تحت اشرافه ، يكشفون اسماء ، ويطالبون برؤوس ، ويحثّون فيشي على ان تقيم في المنطقة الحرة مرفأ النجمة الصفراء ؛

---

(١) روبير برازياك (١٩٠٩ وقد اعدم ١٩٤٥) كاتب وصحفي رئيس تحرير « جوسوي بارتو » وقد لوحق عند التحرير بتهمة التجسس لصالح الألمان وحكم بالاعدام . (هـ.م)

(٢) لا اذكر العبارات الدقيقة لهذا المعروض ، ولكن هذا كان معناه .

ولم يكونوا قد قبلوا وحسب ، بل اردوا كذلك موت فيلدمان وكافييس وبوليتزر وبورلا ، ونفي ايفون بيكار وبيرون وكاهان ودسنوس ؛ وانما كنت متضامنةً مع هؤلاء الأصدقاء الذين ماتوا او الذين كانوا يحتضرون ؛ فان رفعت إصبعاً لصالح برازياك ، لاستحققت ان يبصقوا في وجهي . ولم أتردد لحظة واحدة ، فان القضية لم تكن واردة على الاطلاق . وأظهر كامو ردّ الفعل نفسه ، فقال لي : «لا شأن لنا بهؤلاء الأشخاص . إن القضاة هم الذين يحكمون : وذلك لا يعنينا»

ومع ذلك ، فقد اردت أن احضر المحاكمة ؛ لم يكن لتوقيعي اي وزن ، وكان رفضي رمزياً : ولكن المرء يُلزم مسؤوليته حتى في حركة يقوم بها ، وكان يبدو لي اسهل مما ينبغي ان أتجنّب مسؤوليتي باللامبالاة . وحصلت على مقعد في مقاعد الصحافة ؛ ولم تكن التجربة تجربة لذيذة . كان الصحفيون يسجّلون ملاحظاتهم في عدم اكتراث ، وكانوا يخطّون رسوماً على أوراقهم ، وكانوا يتثاءبون ؛ وكان المحامون يرتّلون خطبهم : وكان القضاة جالسين ، والرئيس يرأس الجلسة ؛ لقد كانت تمثيلية ، وكانت حفلة : اما المتهم ، فكانت تلك بالنسبة له لحظة الحقيقة التي كانت تضع حياته ، وموته ، في مهب الريح . كان هو وحده الموجود لحماً وعظماً ، وقد تجمّع مصيره فجأة ، تجاه الأبّهة التافهة لمحكمة الجنايات . ولقد جابه متّهميه في هدوء ، وحين سقط الحُكم ، لم يهتزّ . وهذه الشجاعة لم تكن ، في نظري ، تمحو شيئاً ؛ انما هم الفاشيون الذين يعلّقون من الأهمية على طريقة الموت اكثر مما يعلّقون على الأفعال . ولم أكن اقبل كذلك ان يكفي مرور الزمن لتبديل غضبي الى خضوع : انه لا يبعث الموتى ، ولا يطهّر قاتليهم . ولكني كنت ، ككثيرين غيري ، منزعجة من آلة تغيّر الجلاّد الى ضحية ، وتضفي على إدانته مظهر اللاإنسانية . وحين خرجت من قصر العدل ، التقيت أصدقاء شيوعيين وعبّرت لهم عن استيائي ، فأجابوني بجفاء : «كان ينبغي ان تبقي في بيتك» .

وبعد بضعة أيام ، أسرّ لي كامو في شيء من الارتباك ، انه اضطر ، نزولاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على بعض ألوان الضغط ولأسباب شرحها لي شرحاً سيئاً ، الى ان يوقّع في آخر الأمر على بيان يدعم طلباً بالعفو . أما أنا ، فلم اندم قط على استنكافي ، بالرغم من انني لم أستطع ان أنساه صباح تنفيذ الإعدام . وقد اتُهمت سياسة التطهير بأنها ضربت اولئك الذين كانوا يتحدثون حديثاً راضياً عن جدار الأطلنطي بأشدّ مما ضربت الذين كانوا يبنونه . اني اجد من الظلم الفاضح ان يُصفح عن التعاون الاقتصادي ، وألاّ يُعاقَب عملاء الدعاية الهتلرية . وأنا بسبب مهنتي ، ورسالتي ، أعلّق أهمية كبيرة على الكلمات . لقد كانت سيمون وايل تطالب بأن يمثل أمام المحكمة اولئك الذين يستعملون الكتابة ليكذبوا على الناس ، وانني أفهم موقفها . فهناك كلمات أشد قتلاً من غرفة غاز . وكلماتٌ هي التي سلّحت قاتل جوريس ، وكلمات هي التي دفعت سالنغرو الى الانتحار . ولم تكن القضية في أمر برازياك قضية « جريمة رأي » ؛ فهو بوشاياته وبنداءاته للقتل والإبادة ، قد تعاون تعاوناً مباشراً مع الغستابو .

كان الألمان قد خسروا المعركة ، ولكنهم كانوا يتمسّكون بالضراوة . المجاعة : كانوا قد أعادوا الى اوروبا الوبأ القديم . وكان ألوف الهولنديين قد تخبّطوا عبثاً ضد هذا الموت الذي يذكّرنا بالعصور الوسطى ، بأن كانوا يقرضون قشرة الأشجار ، وينكثون الأرض . وقد جلب بوست من هولندا صوراً أطلعني كامو عليها ، وقال لي وهو يبسط امامي على طاولته صور أطفالٍ فقدوا أجسامهم ووجوههم ، ولم تبق لهم الا عيون هائلة ومجنونة :

– اننا لا نستطيع ان ننشر هذا !

ولم تنشر الصحف الا أيسر الصور ، وكان يشقّ على القرّاء ، مع ذلك ، ان ينظروا اليها مواجهة .

• • •

صعدت مساء ٢٧ شباط قطار « هانداي » ، ومعي عملة بلغارية وأمر تكليف : قصاصة ورق مخططة بألوان ثلاثة ، وهي في عيني اوفر نفوذاً من صلك شرف مختوم بشمع كثيف . وكان جاري يقرأ في اجتهاد كتاباً عن حياة

ستالين ، وكان يقول : « انه صعب » وطوال الليل ، تبادل مع سيدتين صبيتين ملاحظات حول البلشفية : وكانوا إجمالاً من مؤيديها . أما أنا ، فقد انهيت « سمّ ايفي » لبترشاناي ، وبدأت « برايتون روك » لغراهام غرين ، وغفوت حوالي الفجر . وفجأة ، ازرقّت السماء : انها هانداي . وكان هذا نهاية الخطّ ، إلاّ بالنسبة لي وبالنسبة لشيخ قصير كان متجهاً هو ايضاً الى مدريد : إن عبور حدود ما كان يظلّ امتيازاً نادراً . وكانت قد انقضت ستة أعوام لم يحدث لي فيها مثل ذلك ، وخمسة عشر عاماً كنت قد ودعت فيها اسبانيا . وقد وجب عليّ أن انتظر ساعة عند القائد العسكري . واخيراً ، رُفع الحاجز ، ورأيت مرة اخرى قرون الجنود اللامعة . وعلى حافة الطريق ، كانت ثمة امرأة تبيع البرتقال والموز والشوكولا ، وقد تعقّدت حنجرتي طمعاً وتمرّداً : هذه الغزارة ، على بُعد عشرة امتار منّا ، لماذا تراها كانت محرّمة علينا ؟ وفجأة كفَّ عوَزُنا عن ان يبدو لي امراً مقدوراً ، وكان لديّ شعورٌ بأن عقاباً كان يُفرض علينا : ممن ؟ وبأيّ حقّ ؟ وفي الجمرك ، بدلّوا عملتي البرتغالية ورفضوا فرنكاتي الفرنسية . واجتزت مشياً على الاقدام ، وحقيبتي في يدي ، الكيلومترين اللذين كانا يفصلانني عن « ايرون » التي كانت الحرب قد أحالتها الى انقاض . والتقيت ثانية في القطار العجوز القصير ؛ وروى لي أن بعض الاسبان ، اذ رأوني اعبر الشارع ، قالوا : « انها امرأة فقيرة .. فهي لا تلبس جوربين ! » أجل ، كنا فقراء : لا جوارب ولا برتقال ، ولم تكن عملتنا تسوى شيئاً . وعلى أرصفة المحطات ، كانت نساء صبيات يتنزّهن وهن يثرثرن ويضحكن ، وسيقانهن ترتدي الحرير ؛ وفي المدن التي كنا نعبرها ، كنت ألمح في واجهات الحوانيت أكواماً من الأطعمة . وعند المحطات ، كان باعة متجولون يعرضون الفاكهة والحلويات واللحوم ؛ وكانت البوفايات تغصّ بالغذاء . وكنت أتذكّر محطة نانت حيث كنّا جائعين جداً ، ومتعبين جداً ، وحيث لم نجد ما نشتريه ، بثمن فاحش ، إلاّ كعكاً جافاً . وكنت أحسبني متضامنة تضامناً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غاضباً مع البوْس الفرنسي .

ثم نمت ؛ وعندما استيقظت ، كانت فرنسا قد أصبحت بعيدة ؛ وكانت تمتدّ فوق السهول التي جعلها الجليد الأبيض أشبه بالمخمل ، سماء ذات زرقة منتصرة . اسبانيا ، الاسكوريال ، كما كان لخمسة عشر عاماً خلت ؛ لقد كنت في الماضي أتأمل بلا دهشة أحجاراً عريقة القدم ؛ أما الآن ، فقد كان الاستمرار يحيّرني ؛ وكان ما يبدو لي طبيعياً تلك القرى المهدّمة ، وتلك البيوت المنهارة ، في ضواحي مدريد .

ولم أتعرّف في مدريد ماضيّ ؛ كانت المقاهي المطلة نفسها قائمة على جادة « غران فيا » ، وحول « البلازا مايور » كانت رائحة الزيت الحارّ نفسها ، ولكن عينيّ هما اللتان قد تغيّرتا ؛ كانت الغزارة ، التي لم تكن تُلحظ من قبل، تبدو لي جديدة كلّها وتبهرني . حرير ، وصوف ، وجلد ، ومؤونة ! كنت أمشي وأمشي حتى لأفقد نَفَسي ، وكنت آكل فيما أنا أمشي ؛ وكنت أجلس وآكل : زبيباً ، وخبزاً مسكّراً ، و « غامبا » ، وزيتوناً ، وحلوى ، وبيضاً مقلياً ، وشوكولا بالزبدة ؛ وكنت أشرب خمراً ، وقهوة حقيقية ، وعبر شوارع مدريد القديمة ، الغاصّة بالسكان ، وعبر الأحياء الجميلة ، كنت أتطلّع إلى جميع هؤلاء المارّة التي لم تكن القصة الفاجعة التي عشتها ، إلا شائعةً في نظرهم . وتوقّفت فجأة أمام واجهة : كانت تعرض صوراً رائعة ، وفي هوامشها أساطير ، لمجد « المرأة الألمانية في أثناء الحرب » ولمجد « الفولكستورم » كان ثمة مركزٌ للدعاية الألمانية . كتنت هناك ، وكنت أرى بأم عينيّ صور الصليبيين البطوليين الذين كانوا أعضاء في الـ S.S [1] . وبعد ذلك بقليل ، سالت مدريد أنواراً ؛ واختلطت بالموجة البشرية التي كانت تصعد « الألكالا » وتهبطه ، كما في السابق ؛ هنا ، انعقد خيط الزمن من جديد : ولكنه لم يكن زمني ، ذلك ان زمني كان يظلّ محطماً ، إلى الأبد . واستولى عليّ الضيق فجأة ؛

(١) البوليس الالماني العسكري المكلف بمراقبة معسكرات الاعتقال ومراقبة الاراضي التي كان يحتلها الريخ (هـ.م)

فذات يوم ، في « روان » ، كان ضميرٌ آخر قد احتلّ مكاني وسط الأشياء ؛ ودوّختني الفضيحة نفسها ، في « الألكالا » . وحتى هذه الدقيقة ، كان موضوع التاريخ هو فرنسا ؛ أما الآن ، فان إسبانيا ، المنفصلة ، الأجنبية ، كانت تفرض عليّ حضورها فرضاً قوياً جداً ، حتى أن الموضوع ، كان إياها ؛ وكانت فرنسا تصبح شيئاً مضبّباً في الأفق ؛ وكنت أنا قد كففت عن أن أوجد في هذه الأمكنة التي كان جسمي يضطرب فيها من غير أن يكون لي عليها سلطان . كان تعبٌ كثيف ، لم يكن تَعَبَ أحد ، يجرجر نفسه عبر الجموع .

ووجدت نفسي ثانيةً في اليوم التالي ؛ ولكني كنت أخترق متحف « البرادو » زائرةً شاردة : ذلك أني كنت مقطوعة عن غريكو ، وعن غويا ، وعن القرون المنصرمة ، وعن الأبدية ؛ كان عصري يلتصق بقدميّ ؛ ولم أُرَدّ تماماً إلى ذاتي إلاّ حين رُدّ إليّ على الرابية الجرداء ، المحدّبة ، المتصدّعة التي كانت تنتصب عليها من قبل « المدينة الجامعية » ؛ كان ثمة أشخاص يجلسون على تلك الأرض القاحلة ، وأولاد يلعبون ، ورجال ينامون ؛ وفي الجوار ، كانت ترتفع أنضاد الأبنية الجديدة والورشات ؛ وفي الوسط ، بقايا بيوت ، وشُقق جدران ، وأبواب لم تكن تفضي إلى شيء ؛ وكنت قد سرت ، في مدن مقاطعة نورماندي التي حلّت بها الكوارث ، بين أنقاض طرية ما تزال ؛ غير أن هذه الأحجار هنا كانت تملك الجدارة التي يضفيها الأدب والفنّ على الخرائب ، منذ فولني [1] وهوراس فيرنيه [2] ؛ بيد أن تاريخها كان يرتسم في صميم حياتي ؛ وذلك أيضاً كان تغيّراً . كنت في السابق أتقدم كما لو أني على طريق تحاذي الزمن العالمي ؛ أما الآن فكان داخلَ ذاتي ، بُعداً من أبعاد تجربتي ؛ وكنت أرى بين الفينة والفينة لافتات كتب عليها : « يعيش فرانكو » ؛ وفوق جميع الأبنية الجديدة ، كانت ترفرف أعلام صفراء وحمراء . « كنت أحمل منديلاً أصفر وأحمر ،

(١) كاتب فرنسي (١٧٥٧ – ١٨٢٠) مشهور بما كتبه عن الآثار والخرائب وهو مؤلف « الانقاض او تأملات حول ثورات الممالك . » (هـ.م)

(٢) رسام فرنسي (١٧٨٩ – ١٨٦٣) مشهور بلوحاته عن المعارك . (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان رجل قد بصق : « هذا هنا غير مقبول ! » . ونظرت تحت قدميّ إلى انتشار السهول الكاستيلانية الجافة ، وفي البعيد الجبال المكلّلة بالثلوج ، وانتهيت إلى أن أقيم مجدّداً في الواقع : ١٩٤٥ ، اسبانيةُ فرانكو . كان ثمة كتائبيون وشرطة عسكريون وجنود في جميع زوايا الشوارع ؛ وعلى الأرصفة كان يمرّ ، في شبه تطواف ، كهنةٌ وأولاد يلبسون السواد ويحملون الصلبان . كان البورجوازيون الذين أصابوا غذاءً جيداً والذين كنت ألتقيتهم في « الغران فيا » قد تمنّوا الانتصار الألماني . ولم يكن بذخ جادّاتهم إلاّ واجهة .

وكانت إحدى الصديقات قد أعطتني عنوان بعض الإسبان المناهضين لفرانكو ، فذهبت ، بناء على نصيحتهم ، إلى تطوان وفاليكاس . ورأيت في شمال مدريد حياً واسعاً معلّقاً بالتلال ، أشبه ما يكون بقرية ضخمة ، وقذراً كأنه القطاع : مساكن حقيرة ذات سقوف حمراء ، وجدران من اللبن ، تغصّ بالأطفال العراة والماعز والدجاج ؛ ولم يكن ثمة بواليع ، ولا مياه ؛ وكان هناك فتيات صغيرات رائحات غاديات ، منحنيات تحت ثقل الدلاء ؛ وكان الناس يمشون حفاة أو في نعال طرية ، ويكادون لا يرتدون شيئاً . وكان قطيع من الخراف يعبر أحياناً أحد الأزقة ، مثيراً سحابة من الغبار الأحمر . وكانت فاليكاس أقلّ ريفيةً ، وكان المرء فيها يشمّ رائحة المصانع ، ولكنها كانت تتميّز بالإملاق نفسه ؛ وكانت الشوارع بمثابة حقل لفرش الأسمدة ؛ وكانت ثمة نساء يغسلن خرقاً على عتبات أكواخهن ؛ وكنَ يرتدين الثياب السوداء والبؤس يقسّي وجوههن فتبدو وجوهاً شبه شرّيرة . إن العامل هناك يكسب من ٩ إلى ١٢ بيزيتا في اليوم ، كما أبلغني مُخبريّ . وقد كنت أنظر أسعار الحاجيات فأدرك لماذا لم يكن أحدٌ في الأسواق يبتسم . وكان السكان يتسلّمون من ١٠٠ إلى ٢٠٠ غرام من الخبز يومياً ، وحفنةً من الحمّص الذي كان يباع في السوق السوداء بعشرة بيزيتا للكيلوغرام . أما البيض واللحم فكان سكان الضواحي أعجز من أن يشتروهما . فحتى الأرغفة الصغيرة والزلابية التي كانت النساء يبعنها في السلال ، في زوايا الشوارع ذات السمعة الحسنة ، كانت تقتضي المرء

أن يكون غنياً ليبتاعها . وإذن ، فقد كانوا من الأغنياء ، أولئك الذين كنت قد رأيتهم على أرصفة المحطات ، وكانوا وحدهم يفيدون من ذلك الرخاء الذي حسدتهم عليه .

كنت أنظر ، وأصغي . ورُوي لي كيف تعاونت « الكتائب » مع ألمانيا ، في سنوات الحرب هذه ؛ كانت الشرطة بين أيدي الغستابو ؛ وكان الحكم قد حاول إشاعة مناهضة السامية ، ولكن بلا جدوى ، لأن كلمة اليهودي اليوم لم تكن توقظ أي صدى بين الإسبان . وكان هؤلاء يتحمّلون الدكتاتورية بنفاد صبر متزايد . وكانت ثلاث قنابل قد انفجرت في الأسبوع السابق في مكتب كتائبي ، فقُتل كتائبيان ؛ وعلى سبيل الثأر ، أعدم فرانكو رسمياً سبعة عشر شيوعياً رمياً بالرصاص ؛ وكان كثيرون آخرون قد قُتلوا بلا ضجة ، وكان التعذيب قائماً في السجون . فما الذي كان ينتظره الأميركيون ليطردوا فرانكو ؟ هكذا كنت أتساءل ؛ ولكن لم أشك في أنهم سيقرّرون ذلك عما قريب .

وفي لشبونه ، لقيت على رصيف المحطة اختي وليونيل ؛ وقد تحدثنا مطولاً في السيارة ، ووقوفاً ، وجلوساً ، وفي الشوارع ، وفي المطعم ، وفي منزلهما حتى استولى عليّ النعاس . وقد وصفت في « المثقفين » جذل هذا الوصول . كنت أجد ثانيةً مارسيليا وأثينا ونابولي وبرشلونة : انها مدينة محرقة ، تصفعها رائحة البحر ؛ وكان الماضي ينبعث فجأة في جدّة تلالها ، ورؤوسها العالية ، وألوانها الرقيقة ، وسفنها ذات الأشرعة البيضاء .

وكما في مدريد ، بدا لي بذخ الحوانيت من عهد سابق ؛ وقد دخلتها ؛ وكانت اختي قد قالت لي وهي تنظر الى قدميّ :

ـ ما هذا الجرموق[1] ؟

وباشرتْ على الفور في تجهيزي. ولم يكن قد سبق لي قط أن استسلمت لمثل هذا التبذير ؛ وكان تعويض محاضراتي سخياً ، وقد ابتعت بعد ظهر

(١) حذاء مطاط يلبس فوق الخف ليقيه من الطين (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد الأيام جهازاً كاملاً : ثلاثة أزواج من الأحذية ، وحقيبة ، وجوارب ، وألبسة ، وكنزات ، وأثواباً وتنانير وقمصان نوم وسترة من الصوف الأبيض ، ومعطفاً من الفرو . وكنت ارتدي ثياباً نضرة في حفلة الكوكتيل التي أقامها « المعهد الفرنسي » . وقد التقيت فيها اصدقاء برتغاليين لليونيل ، وكلهم مناهض للعهد ؛ وقد حدثوني في غضب عن فاليري الذي لم يكن قد أراد ان يرى في البرتغال الا السماء الزرقاء وشجر الرمان المزهر . وعن جميع ذلك الخليط حول سرّ الروح البرتغالية وكآبتها ! فعلى سبعة ملايين برتغالي ، كان ثمة سبعون الفاً يأكلون حتى الشبع : إن الناس حزانى لأنهم جائعون .

واستمعت مع اختي وليونيل الى « الغادو »[1] ، وحضرت مباراة للثيران على الطريقة البرتغالية ، وتنزهت في حدائق « سنترا » بين أشجار الكاميليا والسرخسيات الشجرية الشكل . وبالرغم من ان هناك « اياماً بلا سيارات » وتقيناً للبترول ، قمنا برحلة كبيرة عبر « الألغارف » في سيارة قدمها « المعهد الفرنسي » ؛ ولم يكن الطقس قد حدّ من هذه الفرحة : اكتشاف وجوه جديدة للعالم ، يوماً بعد يوم ، وساعةً فساعة . وقد رأيت ارضاً ذات ألوان افريقية ، مزدهرة بالميموزا ومشوّكة بنبات الباهرة ، كما رأيت أجرافاً وعرة على شفا اوقيانوس كانت رقّة السماء تهدئه ، وقرىً مملّطة بالبياض ، وكنائس اقلّ غرابة من كنائس اسبانيا ؛ وغالباً ما كانت تنفتح خلف الواجهة الساذجة ، ذات الخطوط المائلة ، علبةٌ للمفاجئات : فالجدران والأعمدة ذات ألوان صارخة ، وكذلك كراسي الاعتراف ، والمنبر ، والمذبح ؛ وكان ينبثق من العتمة أشياء غريبة من خشب ، او من قماش ، او من شعر ، او من شمع ، وكانت تماثيل للمسيح او للقديسين . وكنت

(١) الاغاني الشعبية البرتغالية التي ظهرت في القرن التاسع عشر ، وهي تمتاز بالنحيب المؤلم (هـ.م)

ألتقي على الطرق فلاحين يرتدون سراويل من جلود الخرفان ، وعلى اكتافهم غطاء مبرقش ؛ وكانت النساء يرتدين اثواباً فاقعة ، وكنّ يضعن على الغلالة المعقودة تحت الذقن قبعات « سومبريرو » عريضة ؛ وكانت كثيرات منهنّ يوازنّ على رؤوسهن الجرار ، او يُسندْنَها بحذق على أجنابهنّ . وكنت ألمح من بعيد لبعيد فئات من رجال ونساء مائلين على الأرض ينتزعون منها الأعشاب الرديئة في حركة ايقاعية واحدة ؛ وكانت اثوابهم الحمراء والزرقاء والصفراء والبرتقالية تلتمع تحت الشمس . ولكني لم أكن استسلم بعدُ للخداع ؛ فقد كان ثمة كلمة عرفتُ أن أقدرها حق قدرها : الجوع . كان هؤلاء الأشخاص ، تحت الاقمشة الملوّنة ، جائعين ؛ كانوا يمضون حفاة ، صارمي الوجوه ، وقد لاحظت ، في القرى الزائفة الأناقة ، نظراتهم المخبّلة ؛ لقد كان يأس وحشي يحرقهم تحت الشمس الساحقة .

وفي الأسبوع التالي ، استقللنا القطار الى « بورتو » ؛ وكان الشحاذون يكتسحون الحافلات عند كل محطة . وكانت « بورتو » تتلألأ في المساء ؛ وكانت جميلة ، حمراء ، في الصباح ، تحت الضباب الدافيء الأبيض الذي كان يرتفع من نهر « الدورو » ؛ ولكني سرعان ما اكتشفت الادران الرطبة في « البيوت غير الصحية » التي كانت تنغل بالاولاد المسلوعين [1] ؛ وكانت ثمة فتيات صغيرات رثّات اللباس يعثن بشراهة في القمامات . ولم أكن أجهد لأشمئزّ ، ولا أجهد لأتعطّف ؛ وكنت أشرب خمر ثمر القطلب ، وكنت أضيع في مرح دمي ومرح السماء ؛ وكنّا نستيقظ باكراً لنرى الفجر يبيّض البحر ؛ وفي المساء كنا ننظر الى المنارات تضيء ، بينما يأكل الاوقيانوس الشمس الملتهبة ؛ وكنت أستقبل في فرح جمال المناظر والآثار : تلال نهر مينهو المزدهرة ، وكويمبر ، وتومار ، وباتالها ، وليريا ، واوبيدوس . ولكن البؤس كان في كل مكان أبرزَ من أن ينسى

(١) اي المبتلين بداء السلعة ، وهو داء الخنازير (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طويلاً . وفي « براغا » كان ثمة عيد ؛ كانت هناك مواكب وسوق . وقد اشتريت مناديل للعنق وأواني وخوابي وديوكاً من السيراميك ؛ وتأملت في إعجاب الأبقار الرائعة ذات القرون القيثارية ، وهي مشدودة اثنتين اثنتين بأنيار من خشب مصنوع ؛ ولكن كان من المستحيل تجاهل الشحاذين والاطفال الذين تغطيهم القوبة الصفراء ، وصفوف القرويين الحفاة ، والنساء الرازحات تحت الأثقال . وفي نازاريه ، لم يكن جمال المرفأ والقوارب والألبسة ليقنّع حزن العيون . كانت البورجوازية البرتغالية تتحمل في كل صفاء وهدوء بؤس الآخرين . وكانت السيدات ذوات الفراء يُجبْنَ بنفاد صبر الأولاد المدقعين الذين كانوا يستعطونهنّ : « تانها باسيانسيا » . وفي « ف » ، وهو مرفأ صغير على المينهو ، تناولنا الغداء على سطيحة بصحبة الوكيل القنصلي ، وهو برتغالي ؛ وكان ثمة اولاد ينظرون الينا صامتين ، ونحن نأكل ؛ وقد طردهم ؛ وعاد أحدهم فأعطيته ٥ اسكودوس ؛ وانتفض البرتغالي وقال :

— هذا اكثر مما ينبغي ! إنه سيشتري له حلوى !

كانت البرتغال ، في اثناء الحرب ، قد أولت ألمانيا كلّ ودّها ، وبعض مساعدتها ؛ وحين هُزم هتلر ، كانت تتقرّب من فرنسا ، وهكذا سمحت للمعهد الفرنسي ان يشرف على رحلة المحاضرات هذه ، وكنت قد علّمت ، فلم يكن التحدّث يخيفني ؛ ولكن كان بين التجربة التي كنت أتناولها بالحديث وبين جمهوري مسافةٌ كانت تشبطني أحياناً ؛ كان هذا الجمهور يأتي للاستماع الي بدافع من التعطّل ، او السنوبية ، وبنيّة سيئة في غالب الأحيان ، باعتبار ان كثيراً من المستمعين كانوا ما يزالون يكنون للفاشية كلّ ودّهم ؛ وفي « ف » كانت القاعة مثلجة ؛ ولم يكن ثمة من يريد أن يصدّق انباء المعسكرات والاعدامات والتعذيب ؛ وحين نهضت قال لي الوكيل القنصلي :

— انني اشكرك أن رويت هذه الأشياء التي كنا نجهلها تماماً !

وألحّ على الكلمة الأخيرة في سخرية ؛ غير أنّ المؤيدين لفرنسا كانوا يستبدلون بقصصي ملاحم ؛ وقد داخلني خجل شديد حين قرأت في صحيفة مصورة :

« سيمون دوبوفوار تقول لنا : كنّا نسلق البطاطا باحراق ورق الجرائد ، وكنا نحتفظ بالكاز لنقذفه على الدبابات الألمانية . » كانت باريس قد عانت أكثر وأقلّ مما كانوا يتصورون هنا ؛ وقد كانت أقلّ رضى واقل بطولة ؛ وكانت جميع الاسئلة التي تطرح عليّ تسقط ظلماً ومن غير حقّ .

وبالمقابل اهتممت كثيراً بأحاديث البرتغاليين المناهضين للفاشية ؛ وقد التقيت خصوصاً أساتذة قدامى ووزراء سابقين في سن النضج او الشيخوخة ؛ وكانوا يرتدون ياقات مستعارة منشّاة ، وقبعات او لبادات معتمة ، وكانوا يعبرون عن ثقتهم بفرنسا الخالدة وبجورج بيدو ؛ ولكنهم أعطوني طائفة من الوثائق عن مستوى حياة الشعب ، والتنظيم الاقتصادي للبلاد ، والموازنة ، والنقابات ، والأمية ، وكذلك عن الشرطة والسجون والاضطهاد .

وأدخلني طبيب شاب بعض بيوت العمال : انها أكواخ كانوا يتغذون فيها بالسمك المعلّب ؛ وأعطاني أرقاماً دقيقة عن عوز المستشفيات والخدمات الصحية ، والصحة العامة ؛ والحق أنه كان بحسب المرء ان يسير في شوارع لشبونه مفتوح العينين ليدرك ذلك . كان الشعب محبوساً حبساً إرادياً في القذارة والجهل : كانوا بسبيل ان يطلقوا « فاتيما »[١] وكان مرافقيّ يقولون لي :

— المصيبة هي أن سالازار لن يسقط الا اذا سقط فرانكو .

وكانوا يضيفون إن الدكتاتورين لم يكونا يجدان نفسهما مهدّدين الا قليلاً بهزيمة المحور . ولقد كان للرأسماليين الانكليز مصالح كبيرة في البرتغال ، وكانت اميركا بسبيل التفاوض لشراء قواعد جوية في جزر « الاسور » : فكان بوسع سالازار الاعتماد على مساعدة الانكلو ساكسون ؛ من أجل هذا كان

---

(١) قرية في البرتغال على بعد ١٠٠ كلم شمال لشبونة . وقد تجلت فيها عام ١٩١٧ العذراء المعروفة باسم « سيدة روزير » لثلاثة أطفال ، وهكذا أصبحت مكاناً للحج (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضرورياً إهاجة الرأي العام الفرنسي . وقد طلب مني وزير سابق أن أحمل رسالة الى بيدو : فلئن ساعده على اقامة حكومة جديدة ، فانه مستعدّ للتنازل عن « الانغولا » لفرنسا . وقد كان من شأن هذه المؤامرة الاستعمارية ان تثير استيائي الشديد او أني حملتها على محمل الجدّ ؛ ولكني كنت أعرف ان الرسالة ستلقى في سلة المهملات . فحملتها الى « الكي دورسيه » .

* * *

عدت الى باريس في مطلع نيسان ، وكان الطقس رائعاً . وكنت أحمل معي خمسين كيلو من المؤن : لحم خنزير ، مقانق بلون الصدأ ، حلويات من « الألغافر » تنغل بالسكر والبيض ، شاي ، قهوة ، شوكولا . وقد وزّعتها بحركات منتصرة على الاصدقاء . وأعطيت صديقاتي كنزات ومناديل ؛ وأعطيت بوست وكامو وفيتولد قمصاناً مبرقشة يرتدي مثلها الصيادون النازاريون . وكنت أتبختر بحليّ الجديدة . ولقد حاذتني امرأة أنيقة مجهولة في ساحة سانت اوغوستين ، فسألتني وهي تشير الى حذائي ذي النعل الكريب :

– أين عثرت على هذا الحذاء ؟

فقلت لها :

– في لشبونه .

وذلك بلهجة اعتزاز ، اذ كان من الصعب جداً ألاّ يستغلّ المرء مجد حظوظه . وأنبأني فيتولد نبأ سيئاً ؛ فهو قد تخاصم مع باديل الذي لم يكن يريد بعدُ عرض مسرحيّتي ، ولكنه طمأنني الى اننا سنعثر بسهولة على مسرح آخر .

وحرّرت ريبورتاجاتي ؛ وظهرت مقالتي عن مدريد في جريدة «كومبا – ماغازين » باسمي الصريح ؛ واتهمتني الاذاعة الاسبانية انني اختلقت الافتراءات اختلاقاً ، طلباً للمال ، ومن غير أن اغادر باريس . وبدأت «كومبا » بنشر سلسلة من المقالات عن البرتغال وقّعتها باسم مستعار حتى لا اسيء الى زوج اختي ؛ وكان كامو آنذاك في افريقيا الشمالية ، فكانت « بيا » تحل محله ، وقد اوقفتْ فجأة نشر تلك السلسلة . ولكن مجلة « فولونتيه » استأنفت نشرها ،

وكان يشرف عليها « كواينه » . وقد تلقيت رسائل حارة من عدد من البرتغاليين بينما كانت خدمات الدعاية تحتجّ . وعُدت الى روايتي ؛ وكنت الآن أرى عبر نوافذ « المازارين » السماء الزرقاء واوراق الشجر ، وكنت غالباً ما اقرأ الحكايات القديمة ، من اجل متعة القراءة ، دون ان أهتمّ ببطلي .

وعرض « دولان » مسرحية « الملك لير » ، وكانت كامي قد اقتبستها اقتباساً جيداً ، وساعدت دولان على اخراجها . وكانت الملابس والديكورات – التي كنت شخصياً احبّها كثيراً – ذات غرابة هجومية ؛ ولكن التوزيع كان جيداً ، ولا سيما دور كورديليا الذي اسند الى الفاتنة « أريان بورغ » ، ثم إن دولان كان قد نجح نجاحاً كبيراً في خلق « لير » الذي جعله شخصية كريهة تارة ، ومؤثرة تارة اخرى ، ملهمةً ، ولا إنسانية ، وانسانية اكثر مما ينبغي . على ان النقد انقضّ على المسرحية بقسوة ، فقاطعها الجمهور . وقد كان هذا الإخفاق كارثة بالنسبة لدولان ، لأن الحديث كان يجري لانتزاع صالة « سارة برنار » منه . وطلب مني ان ادافع عن « الملك لير » ، فكتبت مقالاً نشره بونج في «أكسيون » وكنت أتهم النقاد فيه بالنية السيئة : ذلك انهم هاجموا الإخراج لأنهم لم يكونوا يجروؤن على الاعتراف بأن شكسبير هو الذي كان يُضجرهم . وقد كانت تلك المقالة النقدية عنيفةً اكثر منها بارعة ، ولم اكن ارجو منها شيئاً كثيراً ، ولم ينتج عنها شيء . غير انها كلفتني بعض ألوان قوية من الحقد والضغينة .

وكان الوقت ربيعاً ، اول ربيع في السلام . وكانوا يعرضون في باريس « اطفال الجنة » لبريفير ، وافلاماً اميركية : « زوجتي ساحرة » و « سيدة يوم الجمعة » و « العانس » تمثيل بتي ديفيز . وقد أصبت ببعض الخيبة : اين تراها كانت الثورة الي تقلب السينما ؟

كان شهر نيسان هذا يتلألأ ، وكنت أجلس مع اصدقائي على سطائح المقاهي ؛ وقد ذهبت أتنزّه في غابة شانتيي مع هيربو الذي كان قد عاد من لندن : كان خصامنا قد امّحى من تلقاء نفسه . وفي اول ايار ، سقط الثلج ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت تباع في زوايا الشوارع بعض عروق هزيلة من زنبق الوادي . ولكن الهواء عاد عذباً من جديد ذلك المساء الذي كانت حروف « V »[1] كبيرة تخطّط السماء فيه ، وكان جميع الباريسيين يغنّون في الشوارع .

وكان سارتر ما يزال في نيويورك ، وبوست في ألمانيا . وقضيت السهرة مع اولغا ، ومدام لومير ، واولغا باربوزا ، وفيتولد ، وشوفار ، ومولوجي ، وروجيه بلين ، وآخرين . وكنا قد استقللنا المترو معاً ، فنزلنا عند محطة « الكونكورد » ؛ وكنا نسير متشابكي الأذرعة ، ولكننا حين أفضينا الى الساحة تمزّق شملنا ؛ وتشبّثت بمدام لومير وبفيتولد الذي كان يدمدم بمرح : « أية لعبة حمقاء ! » بينما كانت اندفاعات الجموع تحملنا نحو ساحة الاوبرا ؛ وكان المسرح يسيل انواراً مثلّثة الألوان ، وكانت اعلام تخفق ، وبقايا من نشيد المارسيلياز تتردد في الهواء ، وكنا نوشك ان نختنق : كانت خطوة متعثّرة تكفي لجعل المرء يُداس بالأقدام .

وصعدنا نحو مونتمارتر ، وتوقفنا عند « الكوبان كوبانا » ؛ أية هوشة ! اني أتمثّل مدام لومير وهي تمشي فوق الطاولات لكي تصل الى المقعد الذي كنت قد نجحت في الجلوس فيه ؛ وكانت اولغا باربوزا تحدّثني عن اصدقائي الذين ماتوا ، والدموع في عينيها . والتقينا من جديد في الشارع ، مشتّتين : الى اين نذهب ؟ واقترح فيتولد ومولوجي مرسم صديقة من صديقاتهما . وأخذنا نمشي ؛ وتوقفت سيارة جيب بمحاذاة الرصيف ، وعرض علينا صاحبها ان ينقلنا . وصعد معنا جنديان اميركيان وامرأتان الى منزل كريستيان لينيه ؛ وبعد قليل كانت المرأتان تدافعان النعاس ، وهما جالستان على طاولة ، بينما كان مولوجي يغني ، وكان بلين يلقي بلهجة جميلة قصيدة من قصائد ميلوز . والذكرى التي احتفظت بها من تلك الليلة هي أشدّ اعتكاراً من جميع اعيادنا السابقة ، وربما كان ذلك بسبب اضطراب عواطفي : إن ذلك النصر

---

(١) الحرف الاو ل من كلمة « Victoire » اي النصر . (هـ.م)

كان قد أُحرز بعدياً عنا؛ ولم نكن قد انتظرناه في الحمّى والقلق، كما انتظرنا التحرير ؛ كان متوقّعاً منذ وقت طويل ، ولم يكن يفتح آمالاً جديدة : وانما كان يضع نقطة الختام للحرب ، وكانت تلك النهاية تشبه الموت ، على نحوٍ ما ؛ إن الانسان حين يموت ، وحين يتوقف الزمن بالنسبة اليه ، فان حياته تتخثّر في كتلة واحدة تتراكب فيها السنوات ؛ وهكذا كانت تتجمّد خلفي جميع اللحظات السابقة في كتلة غير متميّزة : الفرح والدموع والغضب والحزن والنصر والفظاعة . كانت الحرب قد انتهت : وكانت باقيةً على ذراعنا كجثة كبيرة مُربكة ، ولم يكن ثمة مكان في العالم ندفنها فيه .

والآن ، ما عساه يحدث ؟ كان مالرو يؤكّد أن الحرب العالمية الثالثة تنفتح الآن . وكان جميع مناهضي الشيوعية يعجّلون نحو النزعة الكارثية . بينما كان بعض المتفائلين يتنبّأون بسلم أبديّ ؛ ذلك أن جميع البلدان ، بفضل التقدم التكنيكي ، ستتجمّع في كتلة واحدة غير مجزّأة . وكنت افكر بأننا كنا ما نزال بعيدين عن الحساب ، ولكني لم اكن أعتقد كذلك ان القتال سيستأنف غداً . وذات صباح ، لمحت في المترو اثواباً عسكرية مجهولة ، مزيّنة بنجوم حمراء : جنود روس . ويا له من حضور اسطوري ! وحاولت ليز التي كانت تتحدث لغتها الأصلية بطلاقة ان تتكلم معهم ؛ وقد سألوها بقسوة عما كانت تفعل في فرنسا . فانطفأت حماستها .

وبعد ايام قليلة من يوم النصر قضيت ليلة مرحة جداً مع كامو وشوفار ولوليه بولون وفيتولد وامرأة برتغالية فاتنة تدعى فيولا . ومن حانة في مونبارناس أغلقت أبوابها ، هبطنا الى فندق « لالويزيان » ؛ وكانت لوليه تمشي حافية على الاسفلت وكانت تقول :

ـ انه عيد ميلادي العشرون !

واشترينا زجاجات خمر فشربناها في الغرفة المستديرة ؛ وكانت النافذة مفتوحة على عذوبة أيار ، وكان بعض السائرين في الليل يرسلون لنا تحيّات صداقة ؛ لقد كان ربيع السلم الاول ، بالنسبة اليهم ايضاً . وكانت باريس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تظلّ صميمية كأنها قرية ؛ وكنت أحسّني مشدودة الى جميع المجهولين الذين كانوا قد تقاسموا ماضيّ وكانوا ينفعلون معي لتحرّرنا .

ومع ذلك ، فلم يكن كل شيء على ما يرام . لم يكن الوضع المادّي يتحسّن . وكان منديس فرانس قد استقال ، وكان ميثاق « اللجنة الوطنية للمقاومة » يظلّ حبراً على ورق . وقد صوّر كامو ، بعد عودته من الجزائر ، في جريدة « كومبا » استغلال السكان المحليين استغلالاً فاحشاً ، وبؤسهم وجوعهم ، كان يحق للاوروبيين ان يأخذوا ثلاثمئة غرام من الخبز يومياً ، اما المسلمون فكان يحق لهم مئتان وخمسون غراماً ، ولكنهم عملياً لم يكن يُعطون اكثر من مئة . ولم نعرف الا انباء قليلة جداً عن أحداث « ستيف » : فقد نشرت « الاومانيتية » انه في يوم ٨ ايار ، اثناء احتفالات النصر ، أطلق بعض الفاشيست ومثيري الفتن الرصاص على المسلمين ، فردّ هؤلاء عليهم بالمثل ، غير أن الجيش تدخّل فأعاد النظام : وكان المعروف انه قد سقط زهاء مئة قتيل . ولم نعرف الا فيما بعد ضخامة هذه الكذبة : لقد قُتل حوالي ثمانين اوروبياً ، بعد تحدّيات قاموا هم انفسهم بها . وتدخّل الجيش « فنظّف » المنطقة : وكانت النتيجة اربعين ألف قتيل من المسلمين .

وكانت أنباء مؤلمة تتحدث عن معسكرات الاعتقال التي حرّرها الاميركيون؛ وكانوا في الاوقات الاولى قد وزعوا في طيش خبزاً ومعلّبات ومقانق : فكان الأسرى يموتون على الفور ؛ اما الآن ، فقد كانوا يأخذون الاحتياطات ، ولكن تغيير نظام الطعام أخذ يقتل الكثيرين كذلك . والواقع أنه لم يكن ثمة طبيب يُحسن علاج نموذج سوء التغذية الذي كان مفروضاً في المعسكرات : وتلك كانت حالة جديدة ، وربما كان الاميركيون ، في هذه الناحية ، أقلّ إثماً مما ظنّ الناس اول الأمر . وكان يؤخذ عليهم ايضاً بطوءهم في إعادة الأسرى الى بلادهم . كان وبأ التيفوس منتشراً في « داشو[1] » ، وكان الناس

(١) مدينة في المانيا الغربية فتح فيها اول معسكر للاعتقال عام ١٩٣٣ لمناهضي النازية ثم لاستقبال جميع المنفيين ، وقد مات فيه عدد كبير من الأسرى تحت التعذيب . (هـ.م)

يموتون به جماعات ؛ وكان الموت يتنقّل في جميع المعسكرات ؛ وكان « الصليب الأحمر » الفرنسي قد طلب الدخول اليها ، ولكن حلفاءنا رفضوا ذلك : وكان ذلك المنع يغيظنا . ومن جهة اخرى ، لم نكن نقرّ ان يصيب الأسرى الالمان تغذية جيدة ، بينما كان الشعب الفرنسي يتضوّر جوعاً . كانت عواطفنا نحو منقذينا قد أخذت تبرد منذ شهر كانون الأول .

وعاد المنفيون والأسرى ، فاكتشفنا اننا لم نكن نعرف شيئاً . وغطّت جدران باريس صور معسكرات . وكان بوست قد دخل « داشو » بعد ساعات من دخول الاميركيين اليها : فلم يجد الكلمات ليصوّر ما كان قد رأى. وحدّثني احد المراسلين الحربيين للمرة الأولى عن « المسلمين » ، وأنهى حديثه بلهجة شاردة بعض الشيء :

ـ والأسوأ من هذا انهم يثيرون الاشمئزاز .

وما لبثت ان رأيت صورهم في الصحف . وأخذ الاميركيون بعض الأفلام القصيرة ، وكان ثمة حكايات ، وشهادات ، وكتابات وأحاديث شفهية : قطارات الموت ، و « المختارات » وغرف الغاز ، وأفران احراق الجثث ، وتجارب الأطباء النازيين ، وأعمال الابادة اليومية . وبعد خمسة عشر عاماً ، حين بعثت محاكمة ايخمان وسلسلة مفاجئة من الأفلام والكتب عهوداً بعيدة ماضية ، اهتزّ الناس وبكوا واصيبوا بالإغماء ؛ اما في عام ١٩٤٥ ، فكنّا قد تلقّينا هذه الأنباء وهي نضرة ، وكانت تخصّ أصدقاء ، ورفاقاً ، وحياتنا الخاصة . وكان اكثر ما يقلقني ذلك الصراع الضاري واللامجدي الذي كان يقوم به المحكومون لكي يتنفّسوا دقيقة اخرى ؛ ففي الشاحنات المصفّحة ، كان الرجال ينتصبون نصف انتصابة نحو هواء الخارج ، وهم يدوسون الجثث ، ثم ما يلبثون ان يسقطوا امواتاً ؛ وكان المحتضرون يجرجرون أنفسهم الى العمل فيترنّحون ، وسرعان ما يقتلهم رصاص الألمان ؛ الرفض ، الفراغ الهائل للرفض ، وتلك الشعلة الأخيرة التي كانت تُطفأ بوحشية : ليس ثمة شيء بعد ، حتى ولا الليل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تَعُد ايفون بيكار ، ومات الفريد بيرون في سويسرا ، بعد أيام قليلة من إطلاقه. وحُرّر بيار كاهان من « بوشنوالد » يوم ١٠ ايار ، فقال : « انني رأيت على أيّ حال هزيمة الألمان » ولكنه مات يوم ٢٠ ايار. وشاعت شائعة بأن روبير دسنو سيعود ، ولكن التيفوس قضى عليه يوم ٨ حزيران ، في كيرينيس. ومن جديد ، خجلت من ان أعيش. كان الموت يرعبني ، كما في السابق ، وكنت اقول في اشمئزاز : ولكن الذين لا يموتون ، يقبلون ما لا يُقبل.

وعاد سارتر الى باريس . فروى لي رحلته. الوصول اولاً الى والدورف ؛ وقد أثارت سترته السميكة وثياب الصحفيين الآخرين دهشة كبيرة. وسرعان ما استدعوا خيّاطاً. ثم حدّثني عن المدن ، والمناظر ، والحانات ، والجاز ؛ وكانت طائرة قد طافت به البلاد الاميركية ، وكان الطيّار يسأل بين الفينة والفينة ، وهم في وادي الكولورادو : « هل أمرّ ؟ هل يلامس الجناح صخرة أو تلّة ؟ » وكان سارتر دائخاً بكل ما رأى. وكان ثمة أشياء كثيرة في حضارة ما وراء الاطلنطيك تصدمه ، بصرف النظر عن النظام الاقتصادي ، والتمييز ، والعنصرية : ومنها انقيادية الاميركيين ، وسلّم القيم عندهم ، وأساطيرهم ، وتفاؤليتهم المزيّفة ، وفرارهم امام المأساوي ؛ ولكنّه شعر بكثير من الودّ لمعظم الذين تعرّف اليهم ؛ وكان يجد جموع نيويورك مؤثّرة ، وكان يعتقد أن الناس هناك خيرٌ من النظام. وقد سحرته شخصية روزفلت ، خلال المقابلة التي أعطاها للوفد الفرنسي قبل موته بقليل. وسمع في دهشة بعض المثقفين يعبّرون عن قلقهم من انتشار الفاشية ؛ وبالفعل كان ثمة من حدّثه ، هنا وهناك ، حديثاً لا يدعو الى الاطمئنان. وفي مأدبة غداء ، تحدث مدير العلاقات في مؤسسة « فورد » ، بلهجة رضيّة ، عن الحرب القادمة ضد الاتحاد السوفياتي. فسأله صحفي من الحزب الشيوعي :

ــ ولكن ليس لكم معهم حدود مشتركة ، فأين يقع القتال ؟

فأجاب بلهجة طبيعية جداً :

– في اوروبـــا .

وقد انتفض الفرنسيون لهذا الجواب ، ولكنهم لم يحملوه على محمل الجدّ . ولم يكن لدى الشعب الاميركي ما يوحي بأنه يحب الحرب او يسعى لها . وإذن ، فقد استسلم سارتر لمُتَع السفر . وحدّثني عن المنفيّين الذين لقيهم هناك : في نيويورك ، ستيفا وفرنان اللذين كانا منصرفين الى وضع رسوم جميلة جداً ؛ وفي هوليوود ريريت نيزان التي كانت تكسب معيشتها من عمل يتلخّص في وضع ترجمات انكليزية لأفلام فرنسية . وقد تعرّف هنالك على بريتون : وكان رجلاً ذا شأن . وكذلك على ليجيه الذي كانت طريقته قد تغيّرت كثيراً : وكان سارتر يفضّل لوحاته الأخيرة على القديمة . وبعد بضعة ايام من عودته ، نُصب في غرفتي صندوق اسود ضخم كان ممتلئاً بالثياب والغذاء .

واستمررنا في رؤية كثير من الناس . وكنا نعاشر في متعة ورضى المجتمع الباريسي لكي نشاهد الحفلات المسرحية والسينمائية الأولى ، لأن كلمـــة « مقاومة » التي لحق بها ضرر كبير ، من الناحية السياسية ، كانت ما تزال تحتفظ بمعناها بين المثقفين ؛ فكانوا اذ يتلاقون المرفق بالمرفق يوكدون تضامنهم ، وكانت المسرحية تأخذ قيمة التظاهرة . وهكذا رأينا « حادثة قتل في الكاتدرائية » التي عرضها ومثّل فيها فيلار على مسرح « فيو كولومبيه » تمثيلاً جيداً ، ولكن المسرحية مضجرة . وكذلك فيلم « الديكتاتور » الذي كنا قد انتظرناه بفارغ الصبر ؛ ولكن الجميع تقريباً قد خاب ظنهم ؛ إن هتلر لم يكن بعدُ يبعث على الضحك . ودعانا رينه لايبوفيتز بعد ظهر أحد الأيام بصحبة ليريس ، فوقّع على البيانو موسيقى اثني عشرية لم أفهم منها شيئاً ؛ ولكنها كانت قد مُنعت في عهد النازيين ، وكان لايبوفيتز قد عاش أربعة أعوام مختفياً ، وكانت كل لحظة شبه معجزة . ويخيّل إليّ اننا ، في هذه الحقبة نفسها ، حضرنا في الحي اللاتيني افتتاح « غيبسي » حيث كان مولوجي يبدأ حياته كمغنٍ ممتهن .

وذات مساء ذهبت مع سارتر وليريس وزوجته إلى بيت « دورا مار » التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت ترسم لوحات طيّبة . وكانت تؤمن بالطاولات الدائرة ، بخلافنا ؛ وعرضتْ أن تقوم بتجربة . فوضعنا أيدينا على طاولة ضخمة ، ولم يحدث شيء ، وما لبث الأمر أن أصبح مضجراً ؛ وفجأة أخذت الطاولة ترتعش ، وتتحرك ، وتعدو ، وعدونا خلفها ، ما تزال أيدينا مضمومة ومطبقة عليها . وأعلن الروح أنه كان جدّ سارتر ؛ وتهجّت الطاولة كلمة « جحيم » . وطوال ساعة تقريباً ، ظلّت تنقضّ في محلّها أو تدور ، ورصدتنا جميعاً للجحيم الأبدي ، وروت عن سارتر وقائع لم يكن غيره وغيري ليعرفها . وكانت دورا شديدة الفرح ؛ وكان ليريس وزوجته وسارتر يضحكون من شدة الانشداه . وحين خرجنا ، قلت لهم إنني أنا التي حرّكت الطاولة . ولما كنت قد راهنت بأنها ستظلّ جامدة ، فان أحداً لم يشكّ فيّ .

في حزيران ، مُنحتْ جائزة « لا بلياد » للمرة الثانية . فدُعيت إلى تناول القهوة مع أعضاء اللجنة الحاكمة الذين كانت دار غاليمار تجمعهم على غداء . ولم أعرف من الذي كان قد فرض المرشح للجائزة ، ولكن الجميع كانوا مستائين . وبعد انتهاء الطعام ، انتشرنا في الحديقة . وكان ثمة كثير من الناس ، وكانت الشمس مشرقة ، والشمبانيا والعرق والويسكي غزيرة . وعند الأصيل ، كنت جالسة إلى جانب « كونو » [1] ، على العشب ، نتداول حول « غاية التاريخ » . وكان الموضوع يعود غالباً في الأحاديث . وكنا قد اكتشفنا واقع التاريخ ووزنه : وكنّا نتساءل عن معناه . وكان كونو ، الذي كان « كوجيف » قد حبّبه بهيغل ، يعتقد أن جميع الأفراد سيتصالحون يوماً ما في وحدة « الروح » المنتصرة . وكنت أقول متسائلة :

– لنفرض أن قدمي توجعني ؟

(١) ريمون كونو : كاتب فرنسي ولد عام ١٩٠٣ ، وهو ذو نزعة سريالية ، أصدر عدداً من الروايات والأشعار . (هـ.م)

فكان كونو يجيبني :

ــ « سوف توجعنا » قدمُك !

وتناقشنا طويلاً ، وكانت حماستنا تزداد بمقدار ما كانت أبخرة الخمرة تندّي المخّ في عذوبة ؛ وقررنا أن نستأنف المناقشة في اليوم التالي ، وتواعدنا على اللقاء . وعرض عليّ كونو قدحاً أخيراً ؛ وكنت أعرف حدودي : فرفضت ولكنه ألحّ :

ــ قدح شمبانيا فقط !

فليكن . ومدّه إليّ ، فشربته ، وألفيتني مضجعةً على ديوان ، ملتهبة الرأس ، مترنّحة المعدة . وكان كونو قد ملأ نصف القدح بالعرق ، فشربته دفعة واحدة ، وسرعان ما فقدت وعيي ؛ وكان الوقت متأخراً جداً ، وكان جميع المدعوين قد انصرفوا ، ما عدا سارتر وأسرة غاليمار ؛ وكنت أستشعر الخجل ، وكانت جان تحاول تهدئتي ، وأعادوني إلى الفندق بالسيارة ، فما لبثت أن نمت . وحين أفقت بعد اثنتي عشرة ساعة ، كان جنبي ما يزال يؤلمني ، وكنت قد نسيت تماماً موعدي مع كونو؛ وهو أيضاً لم يتذكره ...

كنا نشرب كثيراً في تلك الحقبة ؛ أولاً لأن الخمر كان متوفراً ، ثم إننا كنا بحاجة إلى أن نتخلّص من عقدتنا ، والزمن زمن عيد ؛ عيد غريب عجيب ؛ كان الماضي الفظيع ، القريب ، يسكننا ؛ وأمام المستقبل ، كان الأمل والشك يقسماننا ؛ ولم يكن بوسع الاطمئنان أن يكون حظّنا ؛ كان العالم يُعاكس أهواءنا المهووسة . فكان يجب علينا أن ننساه ، بل أن ننسى اننا ننسى .

عادت أختي وليونيل إلى باريس في أواخر أيار . وكانت قد عملت كثيراً طوال هذه الأعوام . وقد عرضت لوحاتها في غاليري جان كاستيل ، وهي مستوحاة من مشاهد كانت قد رأتها في مستشفى لشبونة . ورأيت معها مرة أخرى مجموعة متحف اللوفر الذي عاد إلى فتح أبوابه . وسافر سارتر إلى الريف مع أمه التي كان زوجها قد مات في أثناء الشتاء . وعزمت على أن أقوم بجولة على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدراجة ؛ واتفق أن فيتولد كان يأخذ عطلته آنذاك ، فترافقنا وسرنا على دراجتينا جنباً إلى جنب بضعة أيام ، من باريس إلى فيشي ، بمحاذاة أودية نهر « الكروز » ، ثم عبر سهل « ميلفاش » و « الاوفيريني » . وكنا نتحدث عن « الأفواه اللامجدية » التي كان يفكر بعرضها على أحد المسارح ؛ وكنا نناقش بعض التعديلات الممكنة وبعض تفاصيل الإخراج ؛ وكان لدى فيتولد بعض الهموم الغرامية، فكان يرويها لي . وكان لايزال من الصعب جداً أن يوفّر المرء لنفسه الغذاء والسكنى ، وكنا قد حملنا معنا معلّبات أميركية كانت تساعدنا على إتمام وجباتنا بصورة مفيدة . وقد حدث لنا أن نمنا في حانوت خلفي لخبّاز ، وعلى مقاعد في مقهى ، بل لقد نمنا مرة في العراء ، داخل كوخ فحّام . وتركت فيتولد في فيشي ، واتجهت صعوداً إلى « الفيركور » الذي كنت أودّ أن أراه بأم عينيّ ؛ وفي ذلك الوقت شاهدت الاحتفال الجنائزي الذي أقيم في « فاسيو » [1] ، والذي وصفته في « المثقفون » .

وكنت قد عدت إلى باريس ، حين ألقيت القنبلة الذرية ، يوم ٧ آب ، على هيروشيما . وكانت تلك هي النهاية النهائية للحرب ، وكانت مذبحةً تدعو إلى الثورة ؛ ربما كانت تبشّر بالسلام الدائم ، وربما كانت تنذر بنهاية العالم . وقد ناقشنا ذلك طويلاً .

وقضينا شهراً في « لابوييز » ؛ وكنا ما نزال فيها حين ألقيت القنبلة الثانية ، إذ دخل الروس منشوريا واستسلمت اليابان . وبلغت سارتر أصداء ، عبر الرسائل ، عن احتفال الأميركيين بـ « يوم النصر » . أما نحن ، فكان النصر عندنا يبدأ من أيار .

وللمرة الأولى ، عدتُ إلى البلاد الأجنبية مع سارتر : إلى بروج ، وانفير ، وغان [2] . وكانت الأشياء قد تجاوزت دائماً تصوّري من قبل : فلاحظت أنها كانت تتجاوز أيضاً ذاكرتي . وبدأت أتذوّق متعةَ أن أرى مرة ثانية . كان عمري قد تغيّر حقاً .

---

(١) قرية أحرقها الألمان عام ١٩٤٤ وذبحوا سكانها (هـ.م)
(٢) ثلاث مدن بلجيكية (هـ.م)

الفصل الثاني

صدر « دم الآخرين » في أيلول ؛ وكان موضوعه الرئيسي ، كما ذكرت ، تناقض هذه الحياة التي عشتها كحريتي والتي ألتقطها ــ كشيء ــ أولئك الذين يقربونني . ولكن هذه المقاصد فاتت الجمهور ؛ وصُنّف الكتاب على أنه « رواية عن المقاومة » .

وقد أزعجني سوء التفاهم هذا ، ذات لحظة ، ولكني أفدت منه ، لأن النجاح تجاوز ما كنت أتوقّعه تجاوزاً بعيداً . وكان أشدّ صخباً من نجاح « المدعوة » ؛ وقد وضع جميع النقّاد روايتي الثانية فوق الأولى ؛ وأثار في بعض الصحف افتتاحيات منفعلة . وقد تلقيت ، بالرسائل والمشافهة ، فيضاً من التهاني . ولم يُخْفِ كامو دهشته عني ، بالرغم من أن الكتاب قد أعجبه ؛ أما آرون ، فقد صارحني باخلاص الصداقة :

ــ إنني بالاختصار أجد هذا النجاح منفّراً !

وأعتقد أنه كان ينتقد الإعجاب المبالغ به الذي كان يوفّر لي هذا التأييد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد كنا نحن الكتّاب والصحفيين والمثقفين ، نميل إلى أن نتبادل التملّق ، لأننا كنّا ما نزال مشدودين فيما بيننا بالماضي القريب . ثم إن روايتي كانت الأولى التي تحدثت ، في صراحة ، عن المقاومة . ومع ذلك ، فان الجمهور لم يُطع أمراً خارجياً ، فالثناء الذي صبّه عليّ كان صادقاً : لقد قرأ « دم الآخرين » بالنظارات نفسها التي كنت قد وضعتها على عيني لكتابته .

وكنت قد أحسست بأني أجدّد ، تكنيكياً ؛ وقد هنّأني البعض على ذلك ، وشكا آخرون من « النفَق الطويل » الذي يفتح القصة ؛ واتفق الجميع على أن يجدوا فيه شكلاً أصيلاً ، لفرط ما كانت الرواية آنذاك تحترم الطرُز المعروفة . وما أثار تنبّهي أكثر من ذلك ، أن قصتي بدت « ملأى بالدم والحياة » . إن الكتاب شيء جماعي : فالقراء يسهمون في خلقه ، كالمؤلف سواءً بسواء ! والواقع أن قرائي كانوا يستسلمون مثلي ، للنزعة الأخلاقية ؛ وكان المنظور الذي تبنّيته طبيعياً جداً في نظرهم حتى أنهم كانوا يعتقدون أنه يكشف لهم الحقيقة بالذات ؛ وقد لمحوا ، تحت برودة الأفكار المجرّدة والعبارات البناءة ، الانفعال الذي كان قد غرق فيه بشكل أخرق ؛ فابتعثوه ؛ انهم إنما نسبوا دمهم هم وحياتهم هم إلى أبطالي . ثم مرّ الوقت ؛ وتغيّرت الظروف ، وتغيّرت معها قلوبنا . ونقضنا معاً الذي كنّا قد تخيّلناه معاً . وبقي كتابٌ عيوبُه ونقائصه واضحة للعيان .

وهذه الرواية التي صُنّفت على أنها رواية عن المقاومة ، صُنّفت كذلك رواية وجودية . وكانت هذه الكلمة قد أصبحت تعانق آلياً آثار سارتر وآثاري . وفي أثناء اجتماع نظمته في الصيف دار نشر « دوسير » – أي الدومينيكيون – كان سارتر قد رفض أن يُلصق به غابريل مارسيل [1] هذا الطابع ، وقال : « إن فلسفتي هي فلسفة الوجود ؛ أما الوجودية ، فلست

(١) زعيم الوجودية المؤمنة (ولد في باريس عام ١٨٨٩) وقد تأثر بكيركيغارد وياسبرز . وهو يضع على الصعيد الاول العلاقات البشرية (الامانة والاخلاص) وفكرة « الغير » التي تفضي الى فكرة «الله» (هـ. م)

أدري ما هي . » وكنت أشاطره انزعاجه . وكنت قد كتبت رواياتي حتى قبل ان أعرف هذه الكلمة ، مستوحية تجربتي ، لا نظاماً معيناً . ولكننا احتججنا عبثاً . وانتهى بنا الأمر الى تبني اللقب الذي كان الجميع يستعملونه ليصفونا .

وإذن ، فقد كان « هجوماً وجودياً » هذا الذي قمنا به ، في مطلع ذلك الخريف ، على غير ما اتفاق . وبعد بضعة اسابيع من نشر روايتي ، صدر الجزءان الاولان من « دروب الحرية » والأجزاء الاولى من الـ « تان مودرن » . وألقى سارتر محاضرة بعنوان : « هل الوجودية نزعة انسانية ؟ » وألقيتُ محاضرة اخرى في نادي « مينتونان » عن الرواية والميتافيزيقا . ومُثّلت « الأفواه اللامجدية » [1] على المسرح . وفوجئنا بالضجة التي أثرناها . وفجأة ، أحسست حياتي تطفح عن حدودها القديمة ، كما تُرى الصورة ، في بعض الأفلام ، وهي تُفلت من إطارها وتغمر الشاشة الكبيرة . لقد أُلقيتُ في النور العام . وكان متاعي خفيفاً ، ولكن اسمي قُرن باسم سارتر الذي ادركته الشهرة بصورة عنيفة . ولم يكن ينقضي اسبوع من غير ان يتحدثوا عنا في الصحف . وكانت جريدة « كومبا » تُعلق بلهجة راضية على كل ما كان يصدر عن قلمينا وفمينْا . وكانت « تيرديزوم » التي انشأها هيربار والتي لم تعش الا بضعة شهور ، تخصص لنا في كل عدد أعمدة كثيرة من الودّ او من النقد الناعم . وفي كل مكان ، كانت تظهر أحاديث عن كتبنا او عنّا . وفي الشوارع ، كان المصورون يطلقون علينا أضواء رشاشاتهم ، ويتصدى الناس للتحدث الينا . وفي مقهى « الفلور » كان الزبائن ينظرون الينا ، ويتهامسون . وقد حضر محاضرة سارتر جمهور غفير لم تستطع القاعة ان تحتويه : فحدثت تدافعات مجنونة ، وأغمي على بعض النساء .

---

(٢) كتب ناقد في مجلة « آر » بلهجة استكثار : « في الاسبوع نفسه ، سمعنا محاضرة سارتر ، وحضرنا العرض الاول « للافواه اللامجدية » واطلعنا على العدد الاول من « تان مودرن » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهذه الضجة كانت تفسّر جزئياً بـ « التضخم » الذي فضحه سارتر في تلك الفترة[1] ؛ كانت فرنسا قد أصبحت قوةً من الدرجة الثانية . وكانت تدافع عن نفسها بتمجيد منتجات أرضها ، من أجل التصدير : وهي الحياطة الرفيعة ، والأدب . كانت أهزل مقالة تثير التهليل والهتاف ، ويُطلق ضجيج ضخم حول مؤلفها : وكانت البلاد الأجنبية تنفعل لهذا الضجيج انفعالاً راضياً وتضخمه . على أنه لم يكن من قبيل الصدفة ان تجري الظروف الى هذا الحدّ في صالح سارتر ؛ فقد كان ثمة ، للوهلة الاولى على الاقل ، توافق ملحوظ بين ما كان يحمله للجمهور ، وما كان هذا الجمهور يطلبه . وكان « البورجوازيون الصغار » الذين يقرأونه قد فقدوا هم ايضاً إيمانهم بالسلام الأبدي ، وبالتقدم الهادىء ، وبالجوهر الذي لا يتغير . كانوا قد اكتشفوا « التاريخ » بوجهه الأفظع . وكانوا بحاجة الى ايديولوجية تتبنى هذه الكشوف ، من غير ان تجبرهم مع ذلك على ان يطرحوا بعيداً تبريراتهم القديمة . وكانت الوجودية ، اذ تجهد في التوفيق بين التاريخ والاخلاق ، تتيح لهم ان يضطلعوا بوضعهم الانتقالي ، من غير ان يتخلوا عن مطلق ما يؤمنون به ، وان يواجهوا الفظاعة والعبثية فيما هم يحافظون على كرامتهم كبشر ، وأن يبقوا على تفرّدهم . كانت الوجودية تبدو وكأنها تقدم لهم الحلّ المنشود .

وفي الواقع ، لم يكن الأمر كذلك ؛ ومن أجل هذا كان نجاح سارتر ملتبساً بقدر ما كان ضخماً ، منتفخاً بهذا الالتباس نفسه . لقد ارتمى الناس بشراهة على غذاء كانوا جائعين اليه ؛ فاذا هم يحطمون أسنانهم ويطلقون صيحات كان عنفها يثير التساؤل والانجذاب . وكان سارتر يسحرهم حين يقيم حقوق الأخلاق على مستوى الفرد ؛ ولكن الاخلاقية التي كان يشير اليها لم تكن اخلاقيتهم هم . كانت رواياته تعكس لهم صورة عن المجتمع كانوا ينكرونها : فدمغوه بالنزعة الواقعية القذرة ، وبالنزعة

(١) « تأميم الأدب » في مجلة « تان مودرن » عدد نوفمبر ١٩٤٥ .

« البؤسية » . لقد كانوا على استعداد لأن يسمعوا بعض الحقائق الرقيقة عنهم ، لا أن ينظروا الى أنفسهم مواجهة . وكانوا يطالبون بحريتهم ضد الديالكتية الماركسية ؛ ولكن سارتر كان يبالغ : فان الحرية التي كان يقدمها لهم كانت تقتضي مسؤوليات مرهقة ؛ كانت ترتدّ على المؤسسات وعلى الاخلاق ؛ وكانت تهدم أمنهم . لقد كانوا يدعونهم الى استعمالها للتحالف مع البروليتاريا : وقد كانوا هم يريدون ان يدخلوا « التاريخ » ولكن لا من هذا الباب . اما المثقفون الشيوعيون فكانوا يزعجونهم إزعاجاً أقلّ ، لأنهم كانوا مصنفين . وكان البورجوازيون يتعرّفون أنفسهم في سارتر ، من غير ان يوافقوا على التجاوز الذي كان يضرب لهم مثلَه ؛ كان يحدثهم بلغتهم ، ويستغلها ليقول لهم ما لم يكونوا يريدون سماعه . كانوا يأتون ويعودون اليه لأنه كان يطرح الاسئلة التي كانوا يطرحونها هم على أنفسهم : وكانوا يفرّون لأن أجوبته كانت تصدمهم .

وسارتر الذي أصبح في وقت واحد مشهوراً وصادقاً للشعور العام ، لم يتلقّ ، من غير استياء ، شهرة كانت تناقض مطامحه القديمة ، فيما هي تتجاوزها . فلئن كان قد رغب في مرضاة الأجيال القادمة ، فانه لم يكن يفكر أن يبلغ في حياته الا جمهوراً ضيقاً : ولكن ظهور واقع جديد ، هو « العالم الواحد » ، قد حوّله الى مؤلف عالميّ ؛ إنه لم يكن قد تصوّر ان « الغثيان » سيترجم قبل انقضاء وقت طويل : ولكن بفضل الوان التكنيك الحديثة ، وسرعة المواصلات والنقل ، كانت آثاره تصدر في اثنتي عشرة لغة . وكان ذلك صادماً ، بالنسبة لكاتب رُبيّ على الطريقة القديمة ، وكان قد رأى في وحدة بودلير وستاندال وكافكا الفدية الضرورية لعبقريتهم . ولم يؤمن بأن انتشار كتبه يدلّ على قيمتها ، فقد كان ثمة كثير من المؤلفات الوسط التي كانت تحدث الضجيج ، حتى ان الضجيج كان يبدو تقريباً علامة على ما هو وسط . فاذا قورن المجد البليد الذي انقضّ على سارتر بظلام بودلير ، فقد كان فيه حقاً ما يغيظ .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولقد كان ثمن ذلك المجد غالياً. كان سارتر يحصل، عبر العالم، على حظوة غير متوقعة: فكان يرى نفسه محروماً من حظوة القرون القادمة. كان الخلود قد انهار؛ وكان رجال الغد قد اصبحوا هؤلاء السراطين الذين يتحدث «فرانز» اليهم في «اسرى ألتونا»: أصبحوا آخرين بشكل جذري، مغلّقين بأحكام، لا يُنفَذُ اليهم قط. إن كتبه، حتّى ولو قرئت، لن تكون هي تلك التي كان قد كتبها: لأن آثاره لن تبقى. وقد كان هذا عنده حقاً موت «الرب» الذي كان حتّى ذلك الحين ما يزال يحيا تحت قناع الجُمل. ومثل هذه الكارثة التامّة، كان سارتر مديناً لكبريائه بأن يضطلع بها. وقد فعل ذلك في «التقديم» الذي افتتح العدد الأول من «التان مودرن» في تشرين الاول. كان الأدب قد جرّد طابعه المقدّس، فليكن؛ فهو بعد الآن سيضع المطلق في الموقّت؛ إنه وهو المحبوس في عصره، سيختاره في وجه الخلود، وسيقبل ان يهلك كلياً معه. ولقد كان لهذا القرار اكثر من مغزى. فقد كان حلم سارتر الأثير، اذ كان طفلاً، ومراهقاً، هو حلم الشاعر الملعون الذي ينكره الجميع، والذي يصعقه المجد فيما وراء القبر، او على سرير الموت، لكي يتمتّع به قليلاً، رغم كل شيء؛ ومن جديد، كان يراهن على انقلاب الهزيمة الى نصر. كان قد خسر كل شيء، اذ ربح كلّ شيء وأغرقته النعم: وحين وافق على ان يخسر كل شيء، كان يغذّي أملاً خفياً بأن كل شيء سيردّ له. «كان رفض الخلود لا بد من أن يهبني الخلود». [1] ومن جهة كانت اجرأ مطامحه، حين بلغ الأربعين، قد تحقّقت على صعيد ما: فمهما بدا نجاحه ملتبساً، فهو لن يتجاوزه أبداً. كان التكرار يضجره، فكان من المناسب ان يغيّر أهدافه. كان يحتقر الجمود والسلبية، ولئن كان قد فضّل النتاج على العمل، فهو لم يكن قد تصوّره على شكل التأمّل والحلم والافلات من الذات، بل على شكل البناء. وكان قد اكتشف في معسكرات الاعتقال الألمانية مع مسرحية «باريونا»، وفي زمن الاحتلال مع مسرحية «الذباب»،

---

(١) مذكرات غير منشورة.

الدور الحيّ الذي كان يمكن للنتاج ان يقوم به . وحين عدل عن ان « يكون » وعزم على ان « يعمل » ، تطلّب ان يكون العمل بعد الآن دعوةً والتزاماً . ولم يكن ذلك يفترض على الاطلاق ان يحتقر الأدب ، وانما بالعكس ان يردّ له جدارته ؛ واذا كان الأدب في جوهره إلهياً ، فقد كان بالامكان ، اذا تلاعب المرء بالريشة في شرود ، ان ينتج شيئاً مقدساً : وهذا الأدب الذي ينبغي ان يكون انسانياً ، حتّى لا ينحدر الى التسلية ، ينبغي ان يمزجه الانسان بوجوده ذاته ، من غير ان يجعل من حياته عدة قطع . إن الالتزام ، بالاجمال ، ليس هو شيئاً آخر غير حضور الكاتب في الكتابة حضوراً كلّياً .

يتبيّن من هنا كيف كان يمكن سارتر ان يُقنع وان يُغيظ في الوقت نفسه : وقد خلّفت مقالته مناقشات متحمّسة هي باقية حتّى اليوم . ففي تلك الحقبة المضطربة التي كانت فيها شائعات العالم تنتهك أشدّ انواع العزلة صمتاً ، لم يكن الجمهور يطلب الا ان تُسدّ الحفرة التي كانت تفصل الصحافة عن الأدب ، وتفصل مصالحه اليومية عن همومه الثقافية ، كان متعطّشاً الى معرفة هذا العالم المتغيّر الذي يجد فيه نفسه مرة اخرى : وانه سيلبّي فضوله تلبيةً رفيعة اذا كان الفن يدرك هذه الحقائق والوقائع الحيّة ، المحرقة ، التي لم يسبق لأيّ مجمعيّ ان اقترب منها ليعالجها . غير ان سارتر ، لم يكن يريد ان يتخلّى عن الخلود . وكان لا بدّ للقراءة من ان تحمله الى تلك المناطق العليا التي يسود فيها الأثر الفنّي ، سلطاناً . ولقد كان سارتر يحترم الأدب الى حدّ انه كان يمزج مصيره بمصير الانسانية : وقد حُكم على عمله بانزاله من السماء الى الأرض بأنه خرقٌ وتدنيس . وهكذا الأمر في جميع الميادين . كان ما يعرضه على قرّائه يغنيهم ويُثريهم ، ولكنه كان يُزعجهم ؛ فكانوا يكنّون له من الحقد اكثر مما يكنّون له من العرفان .

ولقد مكّن سارتر النقّاد من نفسه ، بسبب أنه ظلّ أميناً للقاعدة التي كنّا قد حدّدناها لنا : أن نواجه الوضع ، من غير تمثّل للنفس . ولم يغيّر عاداته : كان يعيش في الفندق وفي المقهى ، ويرتدي ثيابه كيفما تأتّى له ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويتهرّب من المظاهر الاحتفالية ؛ وهو ليس فقط لم يكن متزوّجاً ، بل إن حياتينا كانتا أشدّ استقلالاً من ان يكون بالامكان اعتبار علاقاتنا « اتحاداً حرّاً » بالشكل الكلاسيكي . وقد كان ممكناً تبرير هذه التصرفات المتفرّدة لو أنّ سارتر قد احتمى بشخصيته ككاتب . ولكنه لم يفعل ذلك قط ؛ وهو في مفاجأة تطوّره ، لم يفكّر أنه كان عليه على الاقل ان يأخذ وضعه الجديد بعين الاعتبار . وقد كسب من هذه التلقائية الطبيعية كثيراً من الأصدقاء . ولكن الرأي العام صُدم من جراء ذلك ؛ وهو بجهله ما في عمل الكاتب من جدّية ورصانة لا يغفر له امتيازاته إلاّ اذا بدا له «كالآخر » ، مما يتملّق شغفه بالخرافات والأصنام ، ويُزيل الحسد . ولكن « الآخر » هو اللاإنساني ؛ ومسرحيات الغرور والتفاخر لا تكفي لإخفاء أنّ المؤلف المشهور هو إنسان ، رجل مماثل ؛ انه يتثاءب ، ويأكل ، ويمشي ، وهي كلها أدلة على كذبه . والكاتب لا يُنْصَب على قاعدة إلاّ ليمكن تفصيله تفصيلاً أفضل ، والخروج من ذلك بأنه كان من الخطأ نصبه . على انه ما دام متشبثاً بالقاعدة ، فان المسافة تحدّ من شعور العداوة . ولم يكن سارتر يمثّل هذه اللعبة ، وكان يبقى على مستوى الجمهور : أيّاً كان . واذذاك يُصرّ الناس على ان يعتبروه « آخر » فيما هم ملاحظون انه شبيههم ، فيفضحون فيه أوقح المخاتلين . وقد كنّا ذات مساء خارجين من مطعم « غولف ــ جوان » فسمعت رجلاً لم ينقطع في أثناء تناول العشاء عن النظر الى سارتر ، يقول لزوجته :

ــ عجباً ! ماذا ؟ إنه يتمخّط ...

وقد كانت جميع هذه المآخذ يقوّي بعضها بعضاً . فقد كانت بساطته ترتدّ ضدّه بمقدار ما كان يمتنع عن الاستجابة للاخلاق البورجوازية . والواقع أن هذه البساطة كان فيها شيء مشبوه : كانت تفترض اعتقادات ديمقراطية متطرّفة جداً حتى أن النخبة تشعر بأن ضروب تفوّقها موضع الجدل .

ولم تلبث موجة الحب والثناء التي ظهرت في خريف ١٩٤٤ ان انحسرت . ولم يكن قد كُتب عن « الوجود والعدم » اي أثر جادّ ، ولكنّ المتزمتين

بدأوا يهاجمونه في المجلات والدروس والمحاضرات . وكانت جريدة « لاكروا » [1] قد وجدت في الوجودية الملحدة « خطراً أشدّ من النزعة العقلانية في القرن الثامن عشر ، ومن الوضعية في القرن التاسع عشر » . وكان أقصى اليمين قد بدأ يخرج من التحفّظ ، مع بعض الاحتياطات : فكان يصبّ افتراءاته على سارتر بشكل مقالات نقدية هجائية ، واشاعات ، وأحاديث خبيثة . وفي تشرين الثاني ١٩٤٥ ، طلب مني فتى أزرق العينين في مقهى « فلور » ان احدّثه عن سارتر ؛ وكان المفروض ان يكتب مقالاً عنه في جريدة اسبوعية أحدث ظهورها منذ حين ضجة : «سامدي – سوار » : فرفضت ، فقال لي انه سيكتب هذه المقالة على أي حال ، فالأفضل أن يأخذ معلوماته مني أنا . فليكن . وأعطيته معلوماتي . وبعد بضعة أيام ، كانت قمامةٌ تصبّ محتواها على سارتر : إن فلسفته القذرة الخفيفة كانت تناسب شعباً مريضاً . فهو ، معنوياً ومادياً ، لم يكن يحبّ إلا القذارة . وقد شوّشتنا صفعة الوحل هذه . ولكن حسناً ، إن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا يستطيعون ان يحبّونا ؛ وسنتعلّم أن نتحصّن ضد شتائمهم . وحين كان « بوتانغ » يتساءل عما اذا كان سارتر ممسوساً ، لم نتأثّر لذلك . لقد كان سارتر ينتزع نفسه من طبقته ، فكان العداء الذي تُكنّه له طبيعياً . على أن عداء الشيوعيين ، بالمقابل ، قد أصابه كالظلم .

ذلك انه كان قد شارك الى جانبهم ، في حزيران ١٩٤٥ ، في سوق البيع الذي اقامته « اللجنة الوطنية للتطهير » (وقد سألته سيدة مسنّة بعض الشيء : يا سيد سارتر ، الجحيم ، في نظرك ، هو الآخرون ؟ فأجابها : نعم . فقالت ببسمة مسحورة : انني انا اذن ، الجنة ...) وكان يتصوّر ان مقالته « توضيح » كانت قد سوّت جميع الخلافات : وكان على خطأ . فقد كتب هنري لوفيفر في «الأكسيون » مقالاً ذا لهجة تثير الاستياء ، اتّهم فيه سارتر باضاعة الوقت في

---

(١) ومعناها « الصليب » ، وهي جريدة كاثوليكية يومية عاودت الظهور في باريس اول شباط ١٩٤٥ . (هـ.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« الوجود والعدم » بالتدليل على اشياء مفروغ منها بالنسبة للماركسي ؛ وأنه كان يسدّ الطريق على كل فلسفة للتاريخ ، ويقنّع على قرائه المشكلات الحقيقية . ونشر كانابا مقالاً في العدد الأول من « التان مودرن » ، وقد قال لسارتر :

— رافقني الى منزل « موبلان » . فان غارودي وموغان [1] يودّان ان يتحدثا اليك .

وفي صباح يوم المقابلة الموعودة ، تلفن مرتبكاً أنه لن يستطيع المجيء . فقصد سارتر وحده بيت موبلان حيث أغرقه غارودي وموغان بالنقد والشتّم : إنه مثاليّ ، وهو يصرف الشبان عن الماركسية ؛ وكفّ الشيوعيون عن الكتابة في مجلتنا . وكنا نتمنى مع ذلك ألاّ تنقطع صلتنا بهم . كانت المقاومة ذلك الكيان الخدّاع ، غير موجودة بعد ، سياسياً . وقد حدث ان مالرو أتى على ذكرها أمام المجلس الوطني ، في كانون الاول ١٩٤٥ ، فأثار ذلك انزعاجاً ، بينما كانت هذه الكلمة ، لسنة خلت ، تثير آلياً الهتاف والتصفيق . كانت قد انقسمت الى ثلاثة أحزاب ، فكان الحزب الشيوعي وحده هو الذي يعيّش آمالها الثورية . اما الحزب الاشتراكي ، المتجمّد ، البالي ، فكانت الجموع منصرفة عنه . وقد ناصرت هذه الجموع الشيوعيين في الانتخابات التي أعقبت الاقتراع على تأسيس مجلس تشريعي ذي سلطات محدودة . وكانت لنا أهداف الشيوعيين نفسها ، وكانوا هم وحدهم القادرين على تحقيقها . وفي الصراع الذي نصب توريز في وجه ديغول ، انحزنا الى جانب الاول [2] . وتابعنا حوارنا مع الماركسيين . وابدى ميرلو — بونتي [3] وجهة نظره في عدد

---

(١) لوفيفر وكانابا وغارودي وموغان : فلاسفة او مفكرون فرنسيون ذوو نزعة ماركسية او شيوعية (هـ.م)

(٢) كان توريز يطالب لحزبه باحدى الوزارات الكبيرة الثلاث ؛ ولكن ديغول كان يرفض ذلك ؛ وانتهى الامر الى توفيق . غير ان ديغول استقال يوم ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦ لا نه كان غير موافق على الدستور الذي كان يدرسه المجلس الوطني ذو الاغلبية الاشتراكية والشيوعية .

(٣) موريس ميرلو — بونتي (١٩٠٨—١٩٦١) من زعماء الوجودية ، وقد اهتم خاصة =

تشرين الثاني من « التان مودرن » ؛ فردّت عليه « أكسيون » في عدد كانون الأول رداً مراً ، بمقالٍ عنوانه « إمّا وإمّا ... » ، كما ردّت على « بوفريه » الذي كان قد تحدث عن الوجودية في مجلة « كونفلوانس » . وفي مطلع ١٩٤٦ ، كتب ميرلو – بونتي مقالاً في « أكسيون » عن الوجه العصري للبطل ، فردّوا عليه في « كاييه داكسيون » بأن « الشيوعي هو البطل الدائم لعصرنا » وهاجم « هرفيه » مقالاً آخر لميرلو – بونتي ظهر في « التان مودرن » عن الواقعية السياسية . وناقش « الكييه » و « نافيل » الموضوع بلهجة اكثر اعتدالاً ، في عدد آذار من مجلة « ريفو انترناسيول » . ولما كانت موجة الوجودية لا تخفّ قط – فقد تدفّق الجمهور الى « الفيوكولومبييه » في شهر نيسان لسماع محاضرة « بوفريه » التي خصصها عنها – فان مجلة « اكسيون » رأت ان تفتح تحقيقاً بعنوان : « هل يجب إحراق كافكا » موجّهاً ضد الادب الأسود . ومن حسن الحظ أن السؤال أغاظ كثيراً من القراء ؛ ولم يكن بين الأجوبة الا جواب ايجابي واحد . وحين كنا نلتقي في اجتماعات خاصة كورتاد وهرفيه ورولان وكلود روي ، كنا نتناقش في جذل ، بلهجة ظاهرة الاحترام : ولم تكن هذه الحملة العامة الا لتزيدنا حنقاً .

ولا شك ان سارتر كان ما يزال بعيداً عن فهم خصوبة الفكرة الديالكتية والمادية الماركسية . وقد دلّل على ذلك بالكتب التي نشرها في ذلك العام . فمقدمته لـ « الكتابات الصميمية » لبودلير [1] ، التي كُتبتْ قبل ذلك بعامين ، هي وصفٌ ظاهراتي : وكان ينقصه الدرس النفسي التحليلي الذي كان يمكن ان يشرح بودلير ابتداء من جسمه ومن وقائع تاريخه . اما كتاب « تأملات

= بدراسة الظاهراتية وشارك في الاشراف على « التان مودرن » كما درس قضايا الالتزام السياسي ولا سيما الماركسية . ويشتهر تفكيره بالتطور الدائم . (هـ . م)

(١) وقد نشرت في كتاب ، بعد ذلك بقليل ، مع مقدمة كتبها ليريس . وقد فات النقاد مقصد سارتر ، وهو فهم لحظات حياة برمتها ابتداء من كليتها ، فاتهموه ، ما عدا بلا نشو ، بعدم قدر الطابع الشعري حق قدره .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في القضية اليهودية » فقد طوّع وأغنى المنهج الظاهراتي بلجوئه المستمر الى العنصر الاجتماعي : فهو مفتقر الى القواعد المحسوسة لتاريخ نزعة مناهضة السامية . واما مقال « المادية والثورة » الذي ظهر في « التان مودرن » فقد كان يضع الماركسية الارثوذكسية مباشرة موضع التساؤل . وقد كان سارتر ينتقد ــ بحجج أقل قيمة من حجج اليوم ولكنها مستوحاة من المباديء نفسها ــ فكرة ديالكتيكية الطبيعة ؛ وكان يحلل المادية ، في قوتها وفي ضعفها ، بصورة اسطورة ثورية . وكان يشير الى المكان الذي تفسحه الثورة بالضرورة وبالفعل لفكرة الحرية . وقد كان تفكيره في تلك الاثناء ضيقاً لأنه كان متردداً في موضوع العلاقة بين الحرية والموقف ، وكان اكثر تردداً حول موضوع التاريخ .

كانت فلسفة سارتر أقل عمقاً من النظرية الماركسية في بعض النقاط ، وأكثر تطلّباً منها في نقاط أخرى ، ولكنها لم تكن تناقضها جذرياً ؛ وكان يتمنّى هو مبادلات . ولكن الشيوعيين رفضوا ذلك . ومن الصحيح أن الجمهور البورجوازي قد أفسد معنى الوجودية ، بالشكل الذي فسّرها فيه : فقد رأى فيها ــ كما رأى في أخلاقية كامو ــ ايديولوجية استبدال . وكذلك فعل الشيوعيون . أكان الظرف السياسي هو الذي يفرض عليهم هذا التعصّب ؟ الأمر هنا سواء . فالواقع أن حواراً مع سارتر كان ممكناً ، من الوجهة الفكرية ، وانهم فضّلوا أن يأخذوا لحسابهم شتائم اليمين من مثل : شاعر الوحل ، وفيلسوف العدم واليأس . وما أثّر في سارتر ، هو أنهم إنما بهذا كانوا يجعلون منه عدواً للجموع . وقد كتب فيما بعد في مذكراته : «كانت الشهرة ، بالنسبة لي ، هي الحقد والكراهية . » وانها لتجربة محيّرة مؤلمة . فلقد أخذ يُوجَدُ بالنسبة للآخرين ، على نحو ضاجّ لم يكن يتوقّعه إطلاقاً ، ولكن بصفته مكروهاً ومحقوداً عليه . وكان ما يزال يأمل ، في عام ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ ، أن يغيّر هذا الوضع : ولم يكن يتصوّر بعدُ أن يكون هذا ممكناً .

وقد تساءلت غالباً ما عساه كان يكون موقفي لو لم أكن مرتبطة بسارتر ؟

كنت سأكون بكل تأكيد قريبة من الشيوعيين ، استفظاعاً لكل ما كانوا يحاربونه ؛ غير أني كنت أكثر حبّاً للحقيقة من أن أمتنع عن تطلّب القدرة لكي أبحث عنها بصورة حرّة : انني ما كنت قط لأدخل الحزب الشيوعي ؛ ولمّا كنت أقلّ أهمية موضوعية من سارتر ، فان صعوبات هذا الموقف كانت تكون أقــل ، ولكنها كانت ستشبه صعوباته . وإذن ، فقد وجدتني في اتفاق كامل معه . ولكن لما لم أكن أنا التي يهاجمها الشيوعيون ويشتمونها ويشون بها ، ولما لم تكن سمعتي مشوّهة شخصياً بعداوتهم ، فقد كنت مغراةً بأن أستخفّ بهذه العداوة ، وكان إصرار سارتر على تخفيف حدّتها يثير دهشتي ؛ وكنت أحياناً أدعوه إلى نفاد الصبر . وعلى عكس ذلك كنت أحياناً أخرى أتساءل ، عند مصادفة لقاء أو قراءة ، عما إذا لم نكن مخطئين حين امتنعنا عن تجاوز وساوسنا كمثقفين وعن عدم الانضواء تحت جناح الحزب الشيوعي . وكان سارتر هو أيضاً يمرّ بذبذبات تتفق أحياناً وذبذباتي ، ولا تتفق معها أحياناً أخرى . وكنا نتناقش كثيراً .

ولم أكن قد آمنت قط بالطابع المقدس للأدب . كان الله قد مات حين كنت في الرابعة عشرة ، فلم يحلّ محله شيء : ولم يكن المطلق موجوداً إلاّ سلباً ، كأفقٍ ضائع إلى الأبد . وكنت قد تمنيت أن أصبح أسطورة ، على غرار اميلي برونته أو جورج اليوت ؛ ولكني كنت مقتنعة أكثر مما ينبغي بأني حين أغمض عينيّ ، فان شيئاً ما لن يكون بعدُ شيئاً ليصرّ بشدة على أحلامه . سوف أهلك مع عصري ، ما دمت سأموت : وليس هناك طريقتان للموت . كنت أتمنّى أن يقرأني كثير من الناس وأنا حيّة ، وأن يحترموني ، وأن يحبّوني . أما الأجيال القادمة ، فلم أكن أكترث لها قط ، أو تقريباً .

كنت قد ألِفتُ جلدي ككاتبة ، ولم يكن يحدث لي قط بعدُ أن أنظر إلى هذا الشخص الجديد وأنا أقول : هذه أنا . ولكن كان يروق لي أن أرى اسمي في الصحف . وقد سلاّني بعض الوقت ذلك الضجيج الذي ثار حولنا ، ودوري كـ « وجه باريسي صميم » . ولكن ذلك كان يسوءني كذلك ، من عدة جهات .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن الحساسية تخنقني ؛ فقد كنت أضحك حين أسمعهم يقولون عني « السارترية الكبيرة » أو « نوتردام دو سارتر » ! ولكن بعض أنظار الرجال كانت تجرحني ؛ فقد كانت تقدّم تواطوءاً ماجناً للمرأة الوجودية ، ومن ثمّ الضالّة ، التي كنتُها . كنت أنفر من أن أغذّي الثرثرات ، وأثير الفضول . وأخيراً ، كان سوء النية ، في تلك الفترة ، يخدشني قليلاً ، وقد أفدت من شهرتي النضرة . انها لم تكن تدهشني : فقد كان يبدو لي طبيعياً أن يغيّر التحرير حياتي ، إذ يغيّر العالم كلّه . كما انني لم أكن أبالغ في الإحساس بتلك الشهرة : فقد كانت هزيلة جدّاً ، إذا قورنت بشهرة سارتر . وقد كنت ألاحظ تلك المسافة من غير حسد ، لأني كنت أشدّ تعلّقاً به من أن أحسده ، وكنت أجدها شهرة مبرّرة . بل انني لم أكن لأحسّ أسفاً ألاّ أكون قد استحققت المزيد منها : فان كتابي الأول لم يكن له من العمر إلا سنتان ، فلم يئن الأوان لرسم خطّ ختامي . كان المستقبل لي ، وكنت أثق به . فأين تراه سيقودني ؟ لقد كنت أتجنّب التساؤل عن قيمة إنتاجي ، في المستقبل كما في الحاضر : فاني لم أكن أريد أن أهدهد نفسي بالأوهام ، ولا أن أواجه أخطار تبصّرٍ ربما كان قاسياً .

وبالإجمال ، خلافاً لسارتر ، لم أكن أضع نفسي موضع التساؤل ، لا في واقعي الاجتماعي ، ولا بصفتي كاتبة . إن بوسعي أن أتبجّح بأنني استسلمت أقلّ منه لسراب الوجود ، باعتباري قد دفعت في مراهقتي ثمن هذا الزهد ؛ وبوسعي أن آخذ على نفسي كذلك اني رفضت أن أجابه وجودي الموضوعي ؛ فمن المؤكد أن تشكّكي أعانني على تجنّب الصعوبات التي كان سارتر يتخبّط فيها . وقد يسّر لي مزاجي هذا الهروب . فاني قد أوتيت دائماً أكثر منه حبّ ما هو مباشر . كنت أحبّ جميع بهجات الجسم ، ولون الطقس ، والنزهات ، والصداقات ، والثرثرات ، وكنت أحبّ أن أعرف ، وأن أرى . ثم انني ، بعيداً عن أن أجدني مثله مفعمةً بالنجاح ، لم أكن ألمح حدوداً لآمالي ؛ كنت راضية النفس ، لا ضعيفة الحسّ . وقد كانت الظروف تضمن لكل جهد ، ولأدنى ألون النجاح ، صدىً يشحذ عزيمتي ؛ كان ثمة مهامّ تُطرح ،

وتُطرح معها وسائل الاضطلاع بها . كان الحاضر وآفاقه القريبة تكفيني .

وقد أسرتني المجلة ردحاً من الزمن . وقد توفّر لها قرّاء عديدون ، بفضل شهرة سارتر والخصام الذي أثارته نظرية الالتزام عنده ؛ وقد جهدت المجلة في أن تعكس حقبةً كانت تودّ أن تعرّف الناس إليها ، واستمرّ نجاحها . وقد جعلنا بولان[1] الذي كان قد تولى توجيه « لا نوفيل ريفو فرانسيز » نفيد من كفاءته ؛ وكان هو الذي يتكلّف عادةً الإخراج ، وقد علّمني خطوطه الرئيسية . أما آرون الذي كان قد اكتسب خبرة في « لا فرانس ليبر » ، فقد كان يعطينا نصائح تكنيكية ؛ وكان يراقب عن كثب سير « التان مودرن » ؛ وأحسب أنه كان يقدّر أن سارتر لن يملك الثبات ليهتمّ بها مدة طويلة ، وانه سوف يرثه في ذلك . وكان يهتمّ خاصة بالقطاع السياسي ، وكان يجد أسباباً بارعة ليرفض المقالات المؤيدة للشيوعية . كان ممتازاً في التحليل ، ولكنه كان يثير الشفقة في التنبوءات : فقد بشّر بانتصارات الاشتراكيين عشية الانتخابات التي كانت نصراً « للحركة الجمهورية الشعبية » وصفعة للحزب الاشتراكي الفرنسي . وكان ليريس يتولى مهمّة الإشراف على الشعر ، ونادراً ما كانت أذواقنا تتفق . وكانت اللجنة تجتمع غالباً فيثور فيها النقاش الشديد .

وقد أشرت إلى ما كانت تمثّله المجلة بالنسبة لسارتر ، إن كل شيء في هذا العالم علامةٌ تُرجعُ إلى كل شيء : كانت أصالتنا هي البحث عن وقائع لا أهمية لها ، ولكنها كاشفة . ومن جهة أخرى ، كنّا نأمل أن نؤثّر على معاصرينا باختيار النصوص وتوجيه المقالات . ثم إنه كان مجدياً لنا جداً أن يكون في متناول يدنا وسيلة التعبير بلا إبطاء عن أشواقنا واندهاشاتنا وموافقاتنا . كان الكتاب شيئاً تتطلّب كتابته وقتاً ، وفي ذلك الحين ، كان نشره يتطلّب كذلك

---

(١) جان بولان ، ناقد وباحث فرنسي (ولد عام ١٨٨٤) حاول في مؤلفاته ان يفضح أشراك اللغة وينزع أقنعة اوهام الفكر ، بحثاً عن تعريف للأدب قائم على الحقيقة . وقد اشرف على تحرير « لا نوفيل ريفو فرانسيز » (بين ١٩٢٥ و ١٩٤٠) فترك تأثيراً واضحاً على الادب الفرنسي المعاصر (هـ . م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقتاً ؛ أما في المجلّة ، فكان بالإمكان التقاط الأحداث الحالية على الطائر ؛ إن بوسعنا أن نتوجه إلى أصدقائنا ، وأن نردّ على خصومنا ، بالسرعة نفسها التي نستطيع بها أن ننشيء مراسلة خاصة . لقد كنت أقرأ مقالاً مغيظاً ، فما ألبث أن أقول : « سوف أردّ ! » وعلى هذا النحو كتبت الدراسات التي أعطيتها « للتان مودرن » . وفي تلك الفترة من النهضة ، تلك الفترة المتلمّسة ، الملتهبة ، كان ثمة بلا انقطاع أسئلة تُطرح ، وتحدّيات يجب التنبيه إليها ، وألوان من سوء التفاهم لابدّ من تبديدها ، وانتقادات ينبغي أن تُردّ . وكانت قليلةً تلك الكتب التي تصدر ، والمجلات : فكانت معاركنا ، معارك المثقفين ، تتسم بالصميمية والسرعة والحرارة التي تتسم بها النزاعات العائلية .

كانت لديّ رغبة شديدة في أن أرى « الأفواه اللامجدية » تُمثّل . وكانت فرقعة التصفيق في الجلسة الأولى لمسرحية « جلسة سرية » قد هزّتني . كان ذلك أشدّ حضوراً ، وأكثر إسكاراً من الضجّة المتناثرة التي يثيرها الكتاب . وكنت قد شاهدت « كاليغولا » مسرحية كامو التي كانت ، لدى المطالعة ، قد خلّفتني في برود : كان جيرار فيليب [1] يغيّر وجه المسرحية . وكنت أتمنى أن تصيب مسرحيتي تحوّلاً مماثلاً مغرياً . ثم انني كنت أستسلم لألوان من الأوهام والسراب : إن اسمي على خزف ممرات المترو سيكون اسم مؤلف مسرحي ، وسأكون أنا هذا المؤلف . وحين عرض عليّ فيتولد أن ألتقي « سيرج » الذي كان يدير مسرح « انكارفور » ، رحت أعدو إليه .

ولعشر سنوات خلت ، كنت قد سمعت من يتحدث عن فتى جميل كان يجرّ جميع القلوب وراءه ؛ وكان قد تزوّج أجمل طالباتي في الصف الثالث ؛ وكان يُدعى « سيرج » : وكان هو المقصود . كانت أولغا تعرفه ؛ وحين رأته من جديد ، صاحت دهشة :

---

(١) ممثل فرنسي شهير (١٩٢٢ – ١٩٥٩) كان من اشهر المسرحيات التي قام فيها بدور البطولة «كاليغولا» لكامو و « السيد » لكورناي و « امير همبورغ » لكلايست ، ثم لمع على الشاشة . (هـ . م)

– أهذا أنت ، يا سيرج ؟

فقال بلهجة اعتذار : – نعم .

كان قد شاخ وترهّل وفقد كثيراً من شعره . وبعد ان طلّق زوجته ، تزوج ثانية من جاكلين موران التي كان دور كاترين يهمها ؛ وكانت لها شخصية متميزة وصوت جميل . وقرّر سيرج أن يقدم مسرحيتي ؛ وما كادت التمرينات تبدأ ، حتى أبلغني انه مضطرٌ الى وقفها : فقد كان المال يعوزه ؛ أفكان بوسعي أن أجد مالاً ؟ لم يكن الأمر يسيراً . لم تكن الكتب تصدر في اكثر من خمسة آلاف نسخة ، بسبب نقص الورق ؛ فكانت مواردنا العادية تسمح لنا ان نعيش عيشة طيبة ، لا أكثر . وكنت أعتقد أني خسرت القضية ، حين سقطت عليّ من السماء ثروة ، على غير انتظار .

كان نيرون[1] قد خرج من سجن « فرين » في مطلع العام ، وكنت قد رأيته مرتين او ثلاثاً عند « ليب » وفي مقهى « الفلور » وفي مقهى « دوماغو » . وكان يودّ لو يعمل ، بأيّ شكل ، في « التان مودرن » ، ولكن لم تكن لدينا أية مهمة نعهد فيها إليه ؛ وكان يقول لي :

– وإذن ، فان الخلاص الوحيد لي هو أن أكتب .

ولكن تفاهة المقالات التي كان يُطلعني عليها لم تكن تترك ايّ أمل . على أنه روى لي بلهجة فنية احدى محاولاته الأخيرة للانتحار : مئة قرص من الاسبرين ابتلعها واحداً بعد الآخر ، وبطء هذه العملية وشراستها ، وكيف انتهت بالقيء . وكان قد قام بتجارب اخرى بواسطة المحاليل البربتورية . وكان في كل مرة يتدبر أمر مخرج له ، غير انه كان يواجه مخاطر كبيرة ؛ وكان يشرح لي ذلك قائلاً :

– ليس الأمر لعبةً ولا تمثيلاً . إن المرء هو في حالة عدم اكتراث بالنسبة للحياة وللموت : فهو يعطي الموت حظوظه ...

---

(١) راجع « قوة العمر »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وذات صباح من تشرين الثاني ، دفع باب مقهى الفلور ، وقال لي :
ـ انني أعلم انك بحاجة الى مال .

وكان قد عرف ذلك ، دون شك ، من « رينيه » التي كنت أراها بين الفينة والفينة . ووضع على طاولة رزمة من الأوراق المالية : مئة الف فرنك ؛ وكان هذا مبلغاً كبيراً في تلك الحقبة :
ـ لا تخافي . انها لي . وقد كسبتها بطريقة مشروعة .

وكانت رينيه قد أخبرتني انه كان قد وجد وظيفة محترمة ، وانه كان يملك من المرونة والبراعة في تصريف الأمور ما امتنعت معه من الدهشة ؛ كان ملحقاً بالوزارة المكلفة باعادة بناء المناطق المنكوبة بالحرب، وكان يراقب التصاميم . وكان يأمل ان يكفّر عن العمل السيء الذي قابل به سارتر ، اذا موّل « الافواه اللامجدية » . وعلى الفور ، حملت المال الى سيرج .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، طُرق بابي : « الشرطة ! » ودخل الى غرفتي شرطيان وأمراني ان أتبعهما الى « محطة الاورفيفر » [١] ؛ كنت متهمة باخفاء سرقة ، وكان عليّ أن اردّ المئة ألف فرنك . وارتديت ثيابي ، وأسرعت الى الطرف الآخر من الرواق لأبلغ سارتر : فقال انه ذاهب يقترض المبلغ من دار غاليمار . وكنا مشدوهين : أية دسيسة جديدة اخترعها نيرون؟ لماذا وضعني في المغطس؟ لقد كنت ، على أي حال ، مخطئة : فان الحكومة لن تعيّن لمراقبة التصاميم محتالاً مشهوراً ؛ وكانت رغبتي في ان ارى مسرحيتي تمثّل قد ألقت الغشاوة على محاكمتي المنطقية .

وفي محطة « الاورفيفر » أجلسوني في قاعة كبيرة موثّثة بالطاولات والمقاعد . وكنت قد حملت معي عملاً ، فكتبت طوال ثلاث ساعات او اربع . وكان المفتشون يغدون ويروحون ، مصطحبين المتهمين وهم يستجوبونهم ؛ وكانت سلال ملآى بالسندويشات تذهب وتجيء ؛ فكانوا يأكلون ويثرثرون بين

(١) محلة في باريس يقع فيها جناح من قصر العدل تشغله الشرطة العدلية (هـ .م)

استجوابين . وحوالي الظهر ، جاء أحدهم يطلب مني ان أتبعه ، فأدخلني الى مكتب قاضٍ للتحقيق كان سارتر قد أعاد اليه المال ، وطلب منا توقيع اسمينا على دفتر التواقيع الخاص به . وفي اليوم التالي ، كانت الصحافة كلّها تعلّق على هذه المغامرة . وقد عنون أحد الصحفيين مقالته بقوله : « نيرون ، الذي لا يقلّ قسوة عن سَمِيِّه ، يسلّم الوجوديين الى الشرطة . »

وأوضح نيرون موقفه . لقد كان يحصل – ولم يقل كيف كان يحصل – على اسماء المنكوبين المتّهمين بأنهم كانوا قد قدّموا تصاريح مبالغ فيها . وكان يقصدهم – مزوّداً بأوراق مزوّرة – فيهدّدهم بغرامات فادحة وبالسجن ثم كان يوحي اليهم ان بوسعهم أن يشتروا سكوته . اما الآخرون الذين لم يكونوا قد قدّموا تصاريحهم بعد ، فكان يوحي اليهم هو نفسه بأن يزوّرها : رشوة صغيرة ، ويصدّق عليها . وكان يعتقد إن تواطؤ ضحاياه يضمن له ، هذه المرة ايضاً ، عدم العقاب ؛ غير ان المؤامرة قد فُضِحت مع ذلك . إنه لم يكن قد ارتكب مخالفات : وانما احتيالات فحسب ، لأنه قد عُنِي بألا يقلّد تماماً الأوراق الرسمية ، فغيّر موضع الخطّ المثلث الألوان الذي كان يخترقها . وحين ضُبط على حين غرّة ، واستُعجل في ردّ ما قبض ، رأى أن توظيف ارباحه في مشروع فنّي أشرف له من ان يبدّدها ، ففكّر بي : هذا ، على الأقل ، ما قاله لي . ولم يبق وقتاً طويلاً في السجن ؛ وقد رأيته بعد ذلك ، ولكن نادراً . ولم ينجح فيما بعد إلاّ بعمليات صغيرة غير ذات اتساع . وكان بين الحين والحين يجرّب الموت . وعزم ذات يوم على ألاّ يفوته . وقد عُثر عليه في غرفته بالفندق ، متمدّداً فوق سريره ، وصورة رينيه على صدره ، وقد صعقته كمية كثيفة من الحامض البروسي .

وتقرّر من جديد عرض « الأفواه اللامجدية » . وحضرت التمرينات : وكان كل شيء يبدو لي ممتازاً لفرط انسحاري بأن أسمع عباراتي تصبح أصواتاً حيّة . ولكني شعرت بالخيبة في نقطة واحدة . كنت معتمدة على ان تُستعمل آلة تتيح الانتقال من لوحة الى لوحة بطرفة عين ؛ ولكن كل لوحة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حبُست في إطار مبنيّ ؛ ولم يكن المسرح غنيّاً ، وكان يفتقر الى عمّال آليين : وحين جاء سارتر يرى المسرحية وهي « تجري » ، أقلقه بطء التغييرات . وطمأنوني الى انها ستكون أسرع من ذلك عند التمثيل النهائي . ولكن في التمرين الأخير الذي يسبق العرض الاول ، كان ثمّة انتظارات مغيظة طحنت التمثيل طحناً ، ففاقمت استيائي . كنت قد تسلّيت ، في صميم ذاتي ، بلعبة هيّنة ؛ وفجأة قام شهودٌ وقضاة ليجعلوا منها شيئاً عاماً كنت مسؤولة عنه ؛ كنت انا نفسي قد دعوتهم ، فكانت كلمات خارجة من ريشتي تلطّخ آذانهم : وكنت أحسّ الخجل من عدم تحفّظي ؛ وفي الوقت نفسه ، كان نظرهم يقع على نظري ، فيغشّي رؤيتي . وتبادل عددٌ من الأصدقاء بعض الغمزات حين سمعوا أجوبة في الحوار مستوحاةً من الوجودية بشكل ساذج اكثر مما ينبغي . وكنت جالسة الى جانب « جينيه » الذي كان صريحاً صراحة قاسية ، فكان يهمس لي :

– هذا ليس مسرحاً ، ليس مسرحاً على الاطلاق !

وتألّمت . ومع ذلك ، فقد هنأوني حين أُسدل الستار ، وعاودتني ثقتي . وفي مساء العرض الأول ، كنت قلقة وانا أترصّد ، من خلال ثقب الستار القاعة التي كانت تمتليء ، ولكني كنت متفائلة . ومن جديد ، شجّعني بعض الأصدقاء ، وخيّل إليّ ان الحضور كانوا يصفّقون جيداً . إن القطعة المسرحية ليست شيئاً جامداً كالكتاب ؛ فان شيئاً ما قد حدث ، بسببي ، لعدد كبير من الناس : المخرج ، والممثلين ، والآليين ؛ إنه شيء سعيد ، على ما كنت أعتقد . وكنت قد نظّمت حفلة عشاء في شقة « جيجيه » وكان مدعويّ مرحين جداً ، وأحسستني ، بمساعدة الويسكي ، طروباً جداً . وأخذني جاك لومارشان على حدة : كان يشكو من تلك اللوحات الجامدة ، وتلك الأزمان الميتة ؛ ثم انه كان وقد وجد النتائج التي جاء بها الممثلون غير مرضية ، باستثناء قليلين ؛ وقد كانت مزايا المسرحية لا تبدو واضحة على خشبة المسرح ، بعكس نقائصها التي كانت ظاهرة اكثر مما ينبغي . ولما كنت أعرف طيب نيّته ،

فقد فقدت اطمئناني . فما عسى ان يكون رأي نقّاد أقلّ ودّاً ؟

وهاجمتني الصحف اليومية بالاجماع تقريباً ، هجوماً شديداً ؛ وكانت خيبة عنيفة بما فيه الكفاية لي . واما الصحف الاسبوعية ، فكانت أقلّ من ذلك عداء ؛ بل لقد كان هناك بعض المدافعين المتحمّسين عني ، منهم فيليب هيريا الذي خصّني بمقالتين ، وناقد « ليليتر فرانسيز » الذي تحدّث عن المسرح الكورنيلي وعن مسرحية « ارض البشر » وكانت « اكسيون » تعارض النزعة الاخلاقية في المسرحية ، ولكنها تتحدث عنها بلهجة اقرب الى الثناء . ولم يكن النقد الشفوي في غير صالح التمثيلية ، فأقبل عليها الجمهور لبضعة أسابيع . ولكن الطقس البارد كان يُقبل تدريجياً ، وكان المسرح غير مدفأ تدفئة كافية ؛ كما ان موقعه كان سيئاً : فان ضجيج المترو الهوائي كان بين الفينة والفينة يغطّي أصوات الممثلين . وانخفضت الايرادات ، وبعد زهاء خمسين حفلة ، أغلق المسرح أبوابه . وابتلعت هذا الفشل في سهولة . وكنت افكر ، من غير أن أتعامى اكثر مما ينبغي عن مسرحيّتي ، بأنها لم تتح لها جميع حظوظها . كان ثمة أشخاص قد أحبّوها ؛ وكنت بالطبع محمولةً على أن أوليهم من الثقة اكثر مما كنت أولي الذين لم يكونوا يحبّونها . وبالأخص ، كانت مصالحي التي تشدّني الى أمام أكثر من أن تجعلني أتوقّف عند حدود الأسف .

عاد بوست من اميركا التي كانت جريدة « كومبا » قد ارسلته إليها لكتابة الريبورتاج ، وكان يطير فرحاً . وكانت ليز قد خُطبت الى جندي اميركي كانت تستعد للحاق به الى الولايات المتحدة ؛ كانت مستعجلة للفرار من فرنسا حيث كان المستقبل امامها مسدوداً وحيث كانت تشكو الجوع . وكان سارتر هو ايضاً على وشك الذهاب مرة اخرى الى نيويورك . وكان قد التقى فيها ، في كانون الثاني ، امرأة شابه نصف مفصولة عن زوجها ، وغير راضية عن حياتها ، بالرغم من المركز اللامع الذي كانت تحتلّه ؛ وقد راق احدهما الآخر كثيراً . وحين أُبلغت نبأ وجودي . عزمت على ان ينسى أحدهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآخر ، لدى عودته الى فرنسا ؛ ولكنه كان أشدّ شغفاً بها من ان يوافق على ذلك ؛ وكان قد كتب لها من باريس ، فأجابته ، ولكي يراها من جديد ، تدبّر أمره حتى تدعوه بعض الجامعات الاميركية ، وركب البحر يوم ١٢ كانون الأول على متن باخرة « ليبرتي شيب » .

وددت كثيراً ان أغادر باريس . كانت التغذية ما تزال رديئة ؛ ولم اكن آكل حتى الشبع في المطاعم الصغيرة التي كنت أتردّد عليها . وبتّ لا أدري اين أقيم لكي أعمل ؛ فقد كنت أعاني البرد في غرفتي ؛ وفي مقهى « الفلور » كان الذين يعرفونني اكثر مما ينبغي ؛ وكنّا ، بعد إنشاء « التان مودرن » التي كانت مكاتبها قائمة في دار غاليمار ، نتردّد على حانة « بون رويال » القريبة ؛ وكان الجو دافئاً وهادئاً في هذا الطابق الأرضي المذهّب ، ولكن لم يكن مناسباً الكتابة على البراميل التي كانت بمثابة الطاولات . وقد أُصبتُ بدمّلٍ في ساقي شلّني بضعة أيام . وكانت جمعية « الاليانس » الفرنسية قد دعتني لإلقاء محاضرات في مدينتي تونس والجزائر . ولكن « العلاقات الثقافية » لم تسهّل لي السفر هذه المرة : فانه لم يكن ثمة اي مكان لي في البواخر والطائرات ، النادرة ، المتجهة الى تونس .

وحضرت الحفلة الاولى لمسرحية « الاخوة كارامازوف » : وكان فيتولد يمثل أدوار ايفان ودوفيلهو وسميروياكوف ، وجسّدت كازاريس تجسيداً لذيذاً شخصية غروتشانكا . وكنت غالباً ما أرى كامو . وذات مساء ، بعد أن تناولنا العشاء معاً عند « ليب » وشربنا في حانة« بون رويال » حتى أغلقت أبوابها ، اشترى زجاجة شمبانيا فأفرغناها في حانة « لويزيان » ونحن نتحدث حتى الثالثة صباحاً . وبسبب انني كنت امرأة ، واذن غير مساوية له تماماً ، هو الاقطاعي ، فقد كان يتفق له أن يبثّني أسراره : فكان يُطلعني على مقاطع من مذكراته ، ويحدثني عن مشكلاته الخاصة . وكان غالباً ما يعود الى موضوع يشغله : لا بدّ من كتابة الحقيقة يوماً ! والواقع انه كان لديه هوّة أعمق جداً مما لدى غيره ، بين حياته ونتاجه . وحين كنّا نخرج معاً ، فنشرب ونتحدث

ونضحك الى ساعة متأخرة من الليل ، كان يبدو طريفاً ، وقحاً ، سوقياً بعض الشيء ، ماجناً جداً في أحاديثه ؛ كان يصرّح بانفعالاته ، ويستسلم لأحاسيسه ؛ وكان يمكن ان يجلس في الثلج على حافة رصيف ، في الساعة الثانية صباحاً ، ليفكّر ويتأمل في شؤون الحب : « يجب الاختيار : فاما ان يدوم او ان يحرق ؛ والمأساة هي انه لا يستطيع في وقت واحد ان يدوم وان يحرق ! » وكنت أحبّ « الحميّا العطشى » التي يستسلم بها للحياة ولمُتَعِها ، ولطفه الكبير : فحين كان بوست مراسلاً حربياً ، كان كامو كلما تلقّى منه برقية ، تلفن لأولغا . على انهم كانوا يأخذون عليه ، في داخل الجريدة ، انه كان متعالياً وقاسياً حتى الكسر . وفي المناقشات الجادّة ، كان ينغلق ، ويتصنّع ، ويقابل الحجج بعبارات فخمة وعواطف رفيعة ، وألوان من الغضب مقدسة وموجّهة برضى وتلذّذ . وكان يمسك ريشته بيده ، ويصبح في تصلّب فيلسوفاً أخلاقياً لم أكن أتعرّف فيه شيئاً من رفيقنا الليلي المرح . وكان يدرك ان وجهه العامّ لم يكن يتلاءم على الاطلاق وحقيقته الخاصة ، وكان ذلك يزعجه أحياناً .

وسئمت من الاسترخاء في باريس ، فذهبت أتزلّج في « ميجيف »[١] ، وعدت الى « شاليه ايديال — سبور » . وقد تأثّرت حين فتحت عيني صباحاً فوجدت ثانية بياض الثلوج المرتفعة وذكريات خالية . ذلك ان ذاكرتي كانت تميّز في تلك الازمان ، التي أصبحت اليوم قديمة كلّها والتي يسحقها هذا التراجع ، كما تنسحق المناظر البارزة حين يحلّق المرء فوقها ، أعماقاً غير متساوية ؛ كان الماضي الذي ما يزال طريّاً ، وقد أصبح غريباً ، يدهش ذاكرتي : وقد كنت أكتب لسارتر :

« منذ ستة أعوام ، كنت أكتب لك من هنا ، وكانت الحرب قائمة ؛ وانها لتبدو لي ابعد جداً من ستة أعوام . انني أحسّني قليلاً في الجهة الأخرى ،

---

(١) في مقاطعة السافوى العليا ، قرب جبل «مونبلان» ، يقصدها الرياضيون لألعاب الشتاء (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كما لو كنت في حياة ثانية ؛ وانا لا أتعرّف بعدُ ذاتي ، ولا العالم السابق . غير أن هناك الذكريات ، ذكريات تلك الحياة الاولى معك . وانها لتخلّف تأثيراً غريباً ، يثير بعض القلق ، لفرط ما هي رديئة الاتصال بالحاضر . »

وقد كان معي رفاق ؛ كان لوفيفر – بونتاليس ، وهو تلميذ قديم لسارتر كان صديقاً لبورلا ، مقيماً مع زوجته في فندق صغير يقع على خاصرة « مون دابربوا » ؛ وما لبث بوست ان وصل الى « ايديال سبور » بصحبة اولغا وواندا ؛ ولم تجازفا الا نادراً بالتزلّج على الثلج ، وكانتا تفضّلان أخذ حمامات شمسية . وكان سالاكرو يسكن فوقي « شي ما تانت » . وكان يفضُلُنا جميعاً في التزلّج ، ولكنه كان غالباً ما يتناول معنا قدحاً . وكان يحدث لي ، باكراً في الصباح ، حين تكون آلات النقل الكهربائية نائمة بعدُ ، ويكون الجبل مقفراً ، أن أهبط وحدي الى « سان جيرفيه » ، في السكون والبرد . ولكني عموماً لم أكن أخرج الا بعد الظهر . اما قبل الغداء فكنت أشتغل بروايتي « البشر ميتون » وسط مشهد طبيعي متلألىء . وكنت حتى ذلك الحين متطرّفة اكثر مما ينبغي في مزج الجدّ باللهو ؛ وكنت أجد كثيراً من المتعة في هذا المزيج . ولقد تذوّقت عزلة المقصورة ، بعد اضطراب باريس : وكتبت لسارتر : «كم أحسّ بالرضى ، من غير شخص ينظر إليّ او يتحدث إليّ ! » غير اني مع ذلك أحسست الفخر حين قالت مديرة الفندق لبوست :

– ولكنها معروفة جداً ، الآنسة دوبوفوار ؛ وهناك كثيرون يسألون إن كانت هي ، كما يحدث للسيد سالاكرو .

واخيراً أبلغتني برقية أن مقعداً قد حُجز لي في طائرة تغادر « مارينيان » بعد ثلاثة ايام من ذلك التاريخ ؛ فعُدت على عجل الى باريس التي ألفيتها مسودّة . وكتبت لسارتر :

« إن باريس مثلجة ، والفندق يحتاج الى التدفئة ، ويبدو أن الناس لا يجدون شيئاً يأكلونه على الاطلاق . والصباح هنا لا يطلع قبل التاسعة ، وليس

ثمة كهرباء ؛ وجميع الحانات تغلق في العاشرة . إن الناس كئيبون ، فالحياة هنا مسئمة بلا هوادة » .

واستقللت فَرِحة القطار الذي حملني الى « باديلانسييه » حيث أقلّتني سيارة كبيرة إلى المطار ؛ وكان ذلك في الصباح الباكر . وكنت أحسّ بعض الخوف : فتلك كانت هي المرة الأولى التي أركب فيها طائرة . ولكن كم كنت سعيدة ان تكون لي بعدُ ، ومن جديد ، مرّات اولى !

ولكن واحسرتاه ! لقد سرق أحدهم مقعدي ، ولن تطير الطائرة التالية الا بعد ثلاثة أيام . وكنت مفلسةً تماماً ، وكان الرذاذ يسقط ، وكنتُ منتَظِرةً في تونس ، فكان نفاد الصبر يهيج قلقي . وابتهلت ، فرقّ لي الطيّارون وأفسحوا لي مكاناً بينهم في مقدّمة الطائرة ؛ ولم أكن قد حلمت قط بعمودية هواء مماثـــلة . كان البحر الابيض المتوسط يلتمع عن يميني وشمالي وأمامي ، الى مالانهاية ، وكان يبدو لي أعجوبة رائعة أن أنظر اليه من أعلى السماء . « لقد كنا نقول : حين نصبح ذات يوم من الاغنياء ، سنستقلّ الطائرة الى لندن ؛ ولكن يبدو أن المرء يمرض طوال الرحلة ، وانه على أي حال ، لا يرى شيئاً تقريباً . » ومررت فوق جبال كورسيكا ، من غير ان أبذل جهداً لارتقائها ؛ وتميّزتُ بشراً وخرافاً . وكانت جزيرة سردينيا تبرز فوق أزرق البحر كما كانت تبرز تماماً على خرائطي وانا طفلة . وفجأة ، ظهرت بيوت من اللبن ، وسطوح ممتدّة ، ونخيل ، وجِمال : افريقيا ونزولي الاول من الطائرة .

ولم يكن ثمة من ينتظرني في المطار ؛ هذا أفضل ؛ وسحرتني تلك الحرية غير المتوقّعة ، وذلك التنكّر ؛ وكانت الأسواق حين يخرج المرء من مناظر باريس ، لها ما لأسواق تطوان ، في الماضي ، من نضارة .

وفي اليوم التالي ، تولّى أمري ممثل « الأليانس فرانسيز » السيد «ا.» وكانت زوجته تشبه كاي فرانسيس . وقد انزلاني في فندق « تونيسيا بالاس » ونزّهاني بالسيارة في قرطاجة وحمامات . وفي سيدي ابو سعيد ، لم يكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اكتشاف البحر يحتاج الى اكثر من عشرة امتار مشياً ، وكان مشهد بانورامي رائع ينبسط آنذاك تحت النظر ؛ وكانا قد صحبا الى هناك باندا [1] الذي رفض ان يغادر السيارة ، وأجاب : « أتصوّر ، أتصوّر ، أتصوّر ... » وكنت أتمنّى ألا تدركني أبداً هذه اللامبالاة .

والحق اني كنت بعيدة عنها كل البعد . فجميع الساعات الّتي لم أكن أخصصها لمحاضراتي وللواجبات الاجتماعية المفروضة ، كنت أقضيها في النزهات . وذهبت وحدي أزور الآثار الرومانية في قرية « دوغا » ؛ وقلق مضيفيّ عليّ : فقد حدث قبل ذلك بعام أن اغتُصبت على تلك الطريق احدى المدرّسات ، ثم ذُبحت . ونصحوني ان اخصص نزهة اليوم التالي بناحية « غرامات » القريبة من تونس ؛ وكان فيها فندق صغير ، على شاطيء البحر ، وكثبان مشمسة ، استلقيت على احدها بعد الغداء ، ومعي كتاب . وأغفيت ، وفكرت وأنا نصف حالمة : « عجباً ! إن في هذه الكثبان قططاً ! » وفتحت عيني : لم يكن ثمة قطة ، بل عربيّ عجوز قذرٌ جداً كان جالساً على معدتي ؛ وعلى مقربة من سلّته ، كان ثمة مديةٌ في الرمل . وقلت في نفسي : « الأفضل أن أغتصب ، على ان أذبح » ولكن كنت على وشك ان يُغمى عليّ من الذعر . وعرضت عليه مالاً ، وانا أدفعه عني ؛ فتردّد : فأفرغت محفظتي بين يديه ، وهبطت الكثبان بكل ما في ساقيّ من قوة ؛ ومن حسن الحظ اني كنت قد تركت في فندق تونيسيا بالاس معظم مالي . وقلت لمديرة الفندق اني التقيت متشرّداً عجوزاً ؛ وكانت تعرفه ؛ كان يسرق أحياناً ، وكان يستعمل مديته لقطع الهليون ، وحدستُ بأنه كان قد هاجمني على غير اقتناع كبير ، حتى لا يفوّت عليه فرصة .

وكانت اقامتي في تونس رائقة . وكان «ا» وزوجته يصحبانني الى أجمل المطاعم . وذات مساء تناولنا العشاء لدى « برنار رزفوس » ، المهندس المعمار ، الذي كان أخاً لإحدى رفيقاتي في معهد « ديزير » ؛ وكان متزوجاً .

---

(١) جوليان باندا (١٨٦٧ –١٩٥٦) فيلسوف وروائي فرنسي (هـ. م)

وكنت قد حققت تقدماً في علم النفس ؛ وخيل إلي أن شيئاً ما لا يمكن إدراكه باللمس كان يجري بينه وبين السيدة «ا» . وعلمت بعد عام او عامين ان كلاً منهما طلّق زوجه ، وتزوجا .

كان «ا» وزوجته يجدان سياسة فرنسا في تونس سياسة خرقاء ؛ وكانا يتمنيان تقارباً بين البورجوازية الفرنسية والبورجوازية المسلمة . وقد التقيت عندهما تونسيات مرتديات ثياباً جميلة ، ومزينات ، مصففات الشعور ، ومعطرات على الطريقة الباريسية . وكن لا يضعن الحجاب بعدُ الا في الصباح ، عند ذهابهن الى السوق ؛ كن متعطشات للحرية . وبين الرجال ، كان الشبان متفقين معهن ؛ وكانوا يعانون من أن يجدوا آباءهم يفرضون عليهم زوجات جاهلات وغير واعيات . ولم يقدم لي أحد المعلومات عن مجموع القضية الفرنسية التونسية ، فلم ألحّ قطّ . وكان شيطان المغامرة قد استولى علي من جديد . وكنت أهيئ نفسي للارتحال عبر تونس والصعود الى مدينة الجزائر من الصحراء ؛ وكان عدم انتظام النقليات يجعل هذا المشروع مجازفة ، وكان ذلك يزيدني إغراءً .

سوسه ، صفاقس ، سيرك الجم الكبير ، القيروان ، جربا : لقد زرتها كلها بلا مشقة ، في القطار والسيارة والباخرة . وفي جربا ، كان اوليس قد نسي بنلوب و « الايتياك » : فكانت الجزيرة تستحق اسطورتها . كانت روضة نضرة يغطيها العشب الزاهي الملوّن ؛ وكان شجر النخيل يحمي برؤوسه المتلألئة عذوبة النباتات المبرعمة ؛ وكان البحر يسوط هذه الحديقة بعنف . وكنت وحيدة في الفندق ، فكانت المديرة تدللني . وقد روت لي ان انكليزية قصيرة القامة كانت قد نزلت عندها في الصيف الماضي ، وكانت تأخذ حمامات شمس طويلة على شاطيء خالٍ ؛ وقد عادت ذات يوم لتناول الغداء ، منقلبة الوجه ، فلم تمس الطعام ، فسألتها المديرة :

ــ ما بالك ؟

فاذا بالفتاة تنخرط في البكاء : إن ثلاثة من العرب كانوا يترصدونها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منذ بضعة أيام ، حتى تمكّنوا من اغتصابها واحداً بغد الآخر . وقالت لي المديـــرة :

ـ كنت احاول ان أعزّيها ، وكنت أقول لها : اوه ! كفى يا آنسة ! إنك في سفر ! كفى ، هدّئي نفسك ، انك في سفر !

ولكنها في مساء اليوم نفسه أعدّت حقائبها للرحيل .

وفكرت : إن الاغتصاب هنا ، بكل تأكيد ، ليس تقليداً ؛ فان كثيرين من الرجال يعيشون في عوز شديد جداً حتى ان الزواج ، ومن ثم المرأة ، ممنوعان عليهم : فلا بدّ لبطنهم من أن يصرخ ؛ ثم انهم معتادون الحجاب وتحفّظ النساء المسلمات ؛ فالمرأة التي تتمدّد على الرمل ، وحيدة ، نصف عارية ، هي امرأة مبذولة ، امرأة جُعلت للأخذ . ومن جرّاء ذلك ، قبلت في اليوم التالي لكي أقصد قرية اقيمت فيها سوق عامة ، ان يواكبني عجوزٌ ملتحٍ كانت مديرة الفندق قد أكّدت لي فضيلته .

وكان ينبغي لي ، لكي اتابع سفري ، ان استعمل النقليات العسكرية ؛ وقد توقّفت في « مدنين » حيث رأيت تلك العليّات العجيبة المقبّبة الملتصقة فيما بينها والتي تسمّى احداها « غرفة » ؛ ووعدني الكابيتن ان تُقلّني في اليوم التالي شاحنة الى « مطماطة » ؛ واستقّللت مرة اخرى سيارة نقل كبيرة الى «تطوين» : وكان هذا الاسم المرعب يجذبني . وحين ترجّلت من السيارة كان ثمة فارس عربيّ يرتدي اللباس الفضفاض ، فرجاني بحركات احتفالية ان أتبعه . ورافقني حتى المقصورة المؤثثة بالسجّاد والوسائد ، والتي كان يسكنها قائد الجيش الفرنسي ، وهو رجل ملتحٍ من أصل بريتوني ، ذو عينين شديدتي الزرقة ؛ وكانوا قد أبلغوه من مدنين نبأ زيارتي ، فأنبأني انه لم يكن وارداً ان أسير مشياً على الأقدام ووحيدة على ارضه : فان ذلك معناه المسّ بنفوذ فرنسا . وكان المقرّر أن أُنقل في سيارة « جيب » ومعي حرس . فليكن . وأجلسني الى الطاولة التي كان يتناول عليها العشاء هو وسائر ضباطه وطبيبة كان زوجها الطبيب غائباً . ولقد أثارت دهشتي بتجاوزها

في حديثها ومزاحها الذي كان المدعوون الذكور يتلقّونه بضحكات مفضوحة : أية امرأة مترجّلة ! ونمت في غرفة متصلة بغرفتها ، فتغيّرت لهجتها . وأوضحت لي ان بذاءتها كانت تحميها من المغازلات والفظاظات في آن واحد . كانت تعمل كثيراً ؛ وكانت تعالج خصوصاً امراض العلاقات الجنسية التي تكتسح السكان . وكانت قد أخصبت ، بالطريقة الاصطناعية ، زوجات الحاكم الذي كان عاجزاً عن صُنع اولاده . أية حياة عجيبة كانت تحياها بقسوة ، ولكن ليس بلا ضجر . وقالت لي إن ضباط القوات الفرنسية لم يكونوا يعاشرون ضباط الفرقة الأجنبية ، وانما كانوا يشكّلون دائرة صغيرة مغلقة . كانوا يمتطون الجياد ، وكانوا بين حين وحين يقصدون قابس ، وكانوا يعانون سأماً كبيراً .

وهذا هو بلا شك مصدر الحرارة في استقبالهم لي : إن كل تسلية كانت تناسبهم . وقد اصطحبوني في نزهة صباحية عبر مشاهد ومناظر كان عُريها الواضح يُرهص بقرب الصحراء ؛ وعند الظهر ، أقاموا مأدبة غداء قدموا فيها خروفاً كبيراً مشوياً . وزرت بصحبتهم قرىً كهفية ، محفورةً في جروف لونها بلون الفجر ؛ وكان الاعيان يدعوننا الى كهوفهم التي فُرشت ببسط فاخرة ، وكانوا يقدّمون لنا بيضاً مسلوقاً كان من الإهانة رفضه ، وكنت عاجزة عن ابتلاعه : فكنت أراكمه في حقيبتي . وفي المساء ، كان الكابيتين قد استخبر عنّي ، فطُلب مني ان أتحدث عن الوجودية : وكان المعلّم مدعواً ، ولا اذكر بعد ما الذي دندنته .

وفي مدنين كانت الشاحنة الموعودة تنتظرني . وكنت المسافرة الوحيدة . وكان السائق يعرف ولا بدّ طريق مطماطه التي خرّبتها الحرب ؛ كان ثمة جسور قد ُنسفت في موضعين أو ثلاثة ، ولكنه نجح في اجتياز الأودية ، وأوصلني حتى القرية الفريدة التي كان عشرة آلاف نسمة يعيشون فيها تحت الأرض . وكانت ساحة السوق تنغل بالبشر ؛ لم يكن ثمة الا رجال متسربلون ببرانسهم الثلجية ، يثرثرون في فرح ؛ أما النساء السمراوات ، ذوات العيون الزرق ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واللواتي كنّ أحياناً صبيّات وجميلات ، ولكن بهيئة مقطّبة ، فقد كنّ منتثرات في جوف الآبار التي كانت تشرف عليها غيران ؛ وقد زرت أحد هذه الأجحـار ، فرأيت في كهوف معتّمة مدخّنة قطيعاً من الأطفال نصف العُراة ، وعجوزاً بلا أسنان ، وامرأتين في سنّ متوسطة غير نظيفتين ، وفتاة جميلة مغطّاة بالجواهر كانت تنسج بساطاً . وحين صعدت ثانية إلى النور ، التقيت ربّ المنزل الذي كان عائداً من السوق ، متوهجاً بالبياض والصّحة ورثيت لجنسي .

ونمت في قابس ؛ ودسّ صاحب الفندق تحت بابي قصيدة كان يعبّر فيها عن حزنه ، بين تهنئتين رقيقتين ، أن أكون وجودية . وقد خيّبتني الواحة ، في أول الأمر : كنت أمشي بين جدران رملية ، داخل دروب موحلة ، ولم أكن أرى شيئاً ، باستثناء شجرات نخيل فوق رأسي . ثم تسلّلت إلى الغياض فعرفت جذل الينابيع بين الأشجار المزهرة . وكانت حدائق « نفته » أشدّ رقة أيضاً . وكان على جانب الساحة الكبرى فندق لطيف . وكان « جيد » قد كتب على سجلّه الذهبي : « لو كنت قد عرفت نفته ، لكانت هي التي استأثرت بحبي ، بدلاً من بسكره »[1] وفي الصباح ، انتظرت تحت ضوء الشمس ، على السطيحة ، الشاحنة التي ستقلّني إلى قلب الصحراء ، فيما أنا أقرأ « سبارتاكوس » لكوستلر[2] . وأجلسني السائق ، وهو تونسي ، إلى جانبه ، ولم يكن في سيارته أية امرأة أخرى ، ولا أي أوروبي . ولم ألبث أن رأيت ، في دهشة ، الدرب يمّحي والسيارة تُغذّ عبر الرمال . وكانوا قد شرحوا لي ان من الواجب تنفيس عجلات السيارة ، حين يُراد السير بها على الرمل ، ثم اللجوء إلى الاندفاعات المفاجئة ؛ والمعروف ان القليلي الخبرة يتعطّلون في السير بعد مئة متر فقط . ولقد كان السائق يبدو مجرّباً ؛ ومع ذلك ، فكلما كان يقتحم تلّة من التلال ،

---

(١) أسرد هذا من الذاكرة .

(٢) ارثر كوستلر (ولد عام ١٩٠٥) كاتب هنغاري الاصل ، تجنس بالجنسية البريطانية وهو يكتب بالانكليزية وله كتب مشهورة ضد النظام الشيوعي . (هـ. م)

كنت أفكر : « إنه لن يبلغ قمتها » . وفي القمة ، كانت الشاحنة المائلة ميلا خطراً ، تسجّل لحظة توقّف ، فكنت أفكّر : « إنها على وشك أن تنقلب » ثم كانت تهبط . وهكذا دواليك . وكانت الكثبان تتموّج فيما حولي على مدى النظر ، ولقد تساءلت : « أي جمال هذا ! » لقد كان هذا الرمل الممتدّ إلى ما لا نهاية يشبه عالماً مطمئناً أملس ، مصبوباً من سطحه إلى نواته في مادّة واحدة ؛ كانت لعبةٌ عذبةٌ من المنحنيات والأضواء تنبعث كالموسيقى من صفاء « الواحد الفرد » .

وتنزّهت تحت ضوء القمر في واحة « الواد » ؛ وكانت الأرض محفورة بأقماع واسعة تبتلع الحدائق ؛ ومن بعيد ، كانت غريبةً خياليةً عذبة ، رؤوس النخيل تلك ذات الزهر الترابي . وقد قضيت النهار على قمة ربوة ارتقتها نسوةُ دوار مجاور ، وأحطن بي ؛ وقد فتحن محفظتي ، ولعبن باصبع الأحمر ، وبسطن غلالتي ، بينما كان الأطفال يتدحرجون على الرمل وهم يتصايحون . ولم أكن اني أتأمل الرتابة الهادئة المخيّمة على الأمواج الجامدة المرتفعة . وعلى مقعد خشبي في الحديقة العامة ، أروني اسم « جيد » محفوراً بيده ذاتها .

واحتفظت مدينة « اوارغلا » بي ثلاثة أيام . وكنت أريد الذهاب إلى غاردهايا . وكان ثمة تاجر بلح ينتظر شاحنة كان المفروض أن تقلّه إليها مع بضاعته . وكنت كل صباح ، أجتاز الساحات الهذّاءة التي اخترعها كولونيل لوطيّ — الكولونيل كاربييه — الذي كان واضحاً انه يظنّ نفسه ليوتي ١ . وسألت التاجر :

— هل وصلت الشاحنة ؟

— لا . ولكنها ستصل غداً بكل تأكيد ...

وعدت إلى الفندق الذي كنت زبونته الوحيدة والذي كانوا يغذّونني فيه من لحم الجمل ؛ وكنت أحبّ أن أجلس على سطيحته ، مربوطة عند تخوم الرمال المتلاطمة الأمواج ، ولم يكن لديّ بعدُ ما أقرأه ، ولم أجد في القرية إلا عدداً

(١) احد مارشالات فرنسا الكبار . (هـ . م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قديماً من « لا باتاي » ؛ وكان الزمن يبدولي بين الفينة والفينة بلا قعر ، فكنت أحسّني أنهار ؛ وكنت آنذاك أتقدّم ، وخفّي في يدي ، بين ذبذبات الكثبان ذات اللون المشمشي التي كانت تقطعها في البعيد جروفٌ وردية ؛ وتحت أشجار النخيل كانت تمرّ في صمت امرأةٌ موشّحة ، وعجوز بصحبة حماره : جميلةٌ هي القدم البشرية التي تعبر جمود الأشياء من غير أن تعكّره ؛ وكنت عائدة إلى الفندق ، متأثّرة أن ألمح على رقّة الرمل آثار قدمي . لقد كان هذا اللقاء مع نفسي ، بعد سنوات من الحياة المشتركة ، يلمسني بقوة حتى كنت أحسب أني أكتشف فيه فجر حكمة : ولم يكن ذلك إلا محطة ، ولكني احتفظت طويلاً في قلبي النخيل والرمال وصمتهما .

كنت منتَظرةً في مدينة الجزائر ؛ وقد تخلّيت عن زيارة غاردهايا . وفي حانة فندق تورغوت الكبير ، لقيت ثانيةً ، في استياء ، مدنيّةً منسيّة : كثيرة الحركة والكلام والشراهة . وسافرت في اليوم التالي ، لا بقطار « ميشلين » السريع الذي يستقلّه الأوروبيون ، وإنما لرغبتي في أن أمرّ بـ « بيسكرا » بضع ساعات ، في قطار مبكّر أشد بطئاً ، كان يغصّ بالعرب دون غيرهم . كانت جميع الحافلات ملآى ؛ وكانت عناقيد بشرية تتدلى على المداخل ؛ ونجحت في أن أصعد إلى إحدى المقدمات حيث بقيت واقفة ، تصفعني سياط من الرمال ؛ ولم يكن لديّ وقت لقطع تذكرة ، فطلبت واحدة من المراقب ، فسألني :

– تذكرة ؟ هل تصرّين على ذلك ؟

ثم ضحك وهزّ رأسه :

– عجباً ! إنك أوروبية ! ولن أجعلك تدفعين !

وأعجبت بهذا المنطق : ما دمت أملك المال ، فانه لا يطالبني به . وكان في الوقت نفسه يشتم السكّان المحلّيين ؛ وبدفعة من يده ألقى باثنين كانا يتعلّقان بالمصدّ ، فتدحرجا على الرمل ، ولم يكن القطار يسير بسرعة ، فلم يصابا بجراح ، ولكنهما كانا ينظران في يأس إلى الصحراء حولهما ، وكانا يصرخان ويهزّان قبضتيهما .

كانت بيسكرا أقلّ فتنة مما تصوّرها كتب « جيد » . أما قسنطينة ، الممطرة الحاقدة ، فقد أثلجتني . وفي مدينة الجزائر ، لم يتركوني قط وحدي ، فلم أر إلاّ ديكورات . وبدا لي الشمال باهتاً بعد بهرة الصحراء .

وعدت بالطائرة ، فألفيت باريس فارغة . ولم يكن سارتر قد عاد ، وكانت ليز قد رحلت ، وكانت أولغا تقيم في النورماندي ، لدى ذويها ، وكان بوست مسافراً إلى إيطاليا مع فريق من الصحفيين ، وكان كامو متجهاً إلى نيويورك . وكنت أعمل ، وأسترخي قليلاً . وعرّفني «كونو» على « بوريس فيان » : وهو مهندس في الأصل ، ولكنه كان يكتب وينفخ في البوق ؛ وقد كان أحد مؤسسي حركة « الزازو » [1] التي كانت الحرب والتعاون قد خلّفتاها : فقد كان فتيان وفتيات من الأسر الراقية ينتهزون فرصة إقامة ذويهم معظم الوقت في فيشي ، فينظمون في البيوت المتروكة حفلات « هائلة » ؛ كانوا يفرغون الأقبية من الخمور ويحطّمون الأثاث ، مقلّدين أعمال السلب في الحروب ، وكانوا يتاجرون في السوق السوداء . كانوا فوضويين ، لا يهتمون بالسياسة ، وكانوا يناهضون ذويهم المؤيدين لسياسة « بيتان » ، وكانوا يظهرون ميلاً إلى الانكليز لا يخلو من التّحدّي ؛ وقد كانوا يقلّدون الأناقة المتصنّعة ، ولهجة الانكليز السنوب وتصرفاتهم . أما أميركا ، فكانوا قلّما يفكرون بها ، حتى أن الحيرة أخذتهم حين امتلأت باريس بالأميركيين ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تربطهم بهم علاقة قوية جداً : « الجاز » الذي كانوا متعصّبين له . ففي اليوم نفسه الذي دخل فيه الجنود الأميركيون إلى باريس ، تعاقدت « لجنة الاستقبال الفرنسية » مع جوقة « ابادي » التي كان يعزف فيها « فيان » وألحقت بـ « السبسيال سرفيس شو » . وهذا ما يشرح مظهر أولئك الذين كانوا لمدة ثلاثة أعوام « زازو » سابقين ؛ كانوا يرتدون ثياباً أميركية : بناطيل ضيّقة من القماش ، وقمصاناً ذات مربّعات . وكانوا يجتمعون في جادة « راب » بحي الشانزليزيه ،

---

(١) لقب أطلق في عام ١٩٤٢ على الشباب الذي يتميز بالشذوذ ، في باريس . (هـ . م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكذلك في « الشامبو » ، عند زاوية شارع شامبوليون ، الذي كان آنذاك مرقصاً . وكانت فئة منهم تحبّ إلى جانب « الجاز » كلاًّ من كافكا وسارتر والروايات الأميركية : وكانوا في أثناء الحرب يأسنون في علب الأحياء ، وكانوا يعتزّون بانتصارهم حين يعثرون فيها على آثار ممنوعة من آثار فوكنر أو همنغواي . ولكي يقرأوا ويناقشوا كانوا يجيئون إلى حيّ سان جرمين دى بريه . وهكذا التقيت « فيان » في مقهى « بون رويال » ؛ وكان قد أعطى غاليمار مخطوطةً للقراءة كان « كونو » معجباً بها كثيراً ؛ وقد تناولت معهما قدحاً ، ومع « استروك » ووجدت أن فيان كان يُغري بالإصغاء ، وكان مغرماً بالتناقضات ، بارعاً فيها . وقد أقام في شهر آذار « حفلة » ؛ وحين وصلت ، كان الجميع قد شربوا كثيراً ؛ وكانت زوجته ميشال بشعرها الطويل الحريري الأشقر المنتثر على كتفيها ، تبسم بسمات ملائكية ؛ وكان استروك نائماً على الديوان ، عاري القدمين ؛ وقد شربت أنا أيضاً بشجاعة ، فيما كنت أصغي إلى اسطوانات واردة من أميركا . وحوالي الساعة الثانية عرض عليّ بوريس فنجاناً من القهوة ؛ فذهبنا نجلس في المطبخ ، وتحدثنا حتّى الفجر : عن روايته ، وعن الجاز ، وعن الأدب ، وعن مهنته كمهندس . ولم أكن أكتشف بعد أي شيء مصطنع في ذلك الوجه الطويل الأملس الأبيض ، بل لطفاً بالغاً ونوعاً من البراءة العنيدة ؛ وكان فيان يحتقر « الفظيعين » بالحماسة نفسها التي يحبّ بها ما كان يحبّ : كان ينفخ في البوق بالرغم من أن قلبه كان يمنعه من ذلك . (وكان الطبيب قد قال له : « إذا استمررت في النفخ ، فستموت بعد عشرة أعوام ») كنا نتحدث وأقبل الفجر أسرع مما كنا ننتظر : لقد كنت أقدّر بأعلى الثمن هذه اللحظات العابرة من الصداقة الخالدة ، حين كان يتاح لي أن أقطفها .

وبعد شهر ، أقيمت حفلة كوكتيل غاليمار ؛ وقد نام استروك خلف أريكة؛ وحين أفاق كانت الصالة خالية ؛ وقد بحث عن باب الخروج بالتلمّس ، ودلف إلى قاعة الطعام حين كان آل غاليمار قد تجمّعوا لتناول العشاء ، فغطّس يديه في إناء الحساء .

وكان ميرلو ـ بونتي من اولئك الذين كنت أراهم غالباً ، وكنت أشتغل معه في « التان مودرن ». وكنت قد استعرضت في المجلة كتابه « فينومينولوجية الادراك ». وكانت طفولتنـــا البورجوازية التقية تخلق بيننـــا صلة ، ولكننا كنّا نتصرّف إزاءها بطرق مختلفة . كان هو يحتفظ بشعور الحنين الى الجنان الضائعة : أما انا ، فلا . كانت تروق له معاشرة المسنّين في العمر ، وكان حذِراً من الشبان الذي كنت اوثرهم على الشيوخ الى حد بعيد . وقد كان في كتاباته ميلٌ الى الفوارق والألوان ، وكان يتحدث بتردّد : اما أنا فكنت أميل الى الاختيارات الحاسمة . كان يهتمّ بثنايا الافكار ، و بسديم الوجود اكثر من اهتمامه بنواته القاسية ؛ وكان شأني عكس ذلك . وكنت أقدر كثيراً كتبه ودراساته ، ولكني كنت أرى انه لم يكن يفهم جيداً فكر سارتر . وكنت أضفي على مناقشاتنا حدّة كان يتلقّاها في ابتسام .

وحوالي منتصف آذار ، عادت اولغا من نورماندي ؛ وكان طبيب العائلة قد صوّرها بالأشعة ، بعد دهشته من حمّاها ومن ضروب تعبها : كانت رئتاها مصابتين . كان اخفاق « الافواه اللا مجدية » قد أساء اليها كثيراً ، ولم تَعُدْ عليها حمامات « ميجيف » الشمسية بخير . وأبرقت لبوست فعاد سريعاً الى باريس . كان رأي الاخصائيين جميعاً مختلفاً . إن اولغا ستموت لا محالة اذا لم تجرَ لها عملية تجميع هواء في الصدر . بل إن عملية تجميع هواء في الصدر ، تعني موتاً مؤكداً . كان ينبغي ارسالها الى مصحّ ، كان يجب خصوصاً تحاشي ارسالها الى مصحّ . وانتهى بها الأمر الى دخول مستشفى بوجون حيث اجريت لها تلك العملية . ومما زاد ذلك خيبة وأسى ان دولان كان يستعدّ لإعادة تمثيل « الذباب » . وقد تُرك المشروع ، لانه لم يكن لا هو ولا سارتر راغبين في اسناد دور الى « اليكتر » اخرى ، غير أولغا .

* * *

كنت قد أنجزت في ميجيف « جميع البشر ميتون » التي كنت قد بدأتها عام ٤٣ . وقد قرأ سارتر بعد عودته من اميركا ، جزأها الأخير في كهف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« مفيستو » الصاحب المدخّن ، حيث كنا نقضي في تلك الفترة معظم امسياتنا .

يتساءل جورج باتاي في « التجربة الداخلية » قائلاً : « أيستطيع المرء ان يوافق على ألاّ يكون كل شيء ؟ » وكانت هذه العبارة قد استوقفتني طويلاً ، لأن ذلك كان في « المدعوّة » هو أمل فرانسواز الطاغي : لقد ارادت ان تكون كل شيء . وكنت آسفةً أني لم أبرز ابرازاً اقوى هذا الوهم وإخفاقه ؛ وعزمت على ان استعيد الموضوع في رواية اخرى . إن بطلي الجديد سينزع ، في تأكّله بالطمع والرغبة ، الى الاتحاد بالكون ؛ ثم هو سيكتشف ان العالم ينحلّ الى حرّيات فردية ، كل حرية منها غير قابلة لأن تُمسّ ، فبينا يكون « بلومار » في « دم الآخرين » مسؤولاً عن كل شيء ، في اعتقاده ، يعاني البطل الجديد من أنه لا يستطيع شيئاً . وهكذا تكون مغامرته تتمة روايتي الاولى ونقيض موضوع الثانية . ولكني لم اكن اريد ان تشبههما . كنت في عام ٤٣ ــ ٤٤ مكلّفةً من « التاريخ » ، وعلى مستواه كنت اريد ان أموضع نفسي ؛ وإن بطلي الذي لم يكن يكتفي بالحصول على المجد والثروة سيطلب ان يؤثّر على مجرى العالم . وخطر في بالي أن أهبه الخلود : وسوف يكون افلاسه في ذلك أشدّ تأثيراً وصخباً . وأخذت أنقّب طولاً وعرضاً وضع الخالد . وواصلت تأمّلي هذا عن الموت الذي كانت الحرب قد قادتني اليه ؛ وتساءلت عن الزمن : كان قد كُشف لي بقسوة ، وكنت قد لاحظت انه كان يستطيع ان ينتزعني من نفسي ، كالمكان سواء بسواء . ولم اكن اعطي الأجوبة على الأسئلة التي كنت أطرحها . كانت « دم الآخرين » قد فُكّر بها وبنيت بصورة مجرّدة ؛ اما قصة « فوسكان » فقد حلمت بها حُلماً .

إن الموضوع الطاغي الذي ربما كان يعود بقدرٍ مفرط من العناد ، عبر الكتاب كلّه ، هو الصراع بين وجهة نظر الموت والمطلق وأشد نجوم الشعرى لمعاناً ، وبين وجهة نظر الحياة والفرد والأرض ؛ كنت اتذبذب بينهما وأنا بعدُ في العشرين من عمري ؛ وكنت قد نصبتهما وجهاً لوجه في « بيروس وسينياس » ؛ ويحدث لفرانسواز في « المدعوة » ، بدافع من التعب او الحيطة ،

ان تنكر العالم الحيّ وان تنزلق في لامبالاة الموت ؛ أما هيلين ، فتحاول في « دم الآخرين » ان تأخذ حجّة لها في لامحدودية المستقبل ؛ في هذه المرة ايضاً كنت اقارن النسبي والمطلق عبر « التاريخ » ؛ ولكننا كنا نحاول النصر ، وكان الحاضر يملأنا : وانما المستقبل هو الذي كان يقلقنا . كنّا قد احتقرنا الأصوات الشرسة التي كانت تتمتم في شهر آب ١٩٤٤ : « وبعد ذلك ؟ » وكذلك النزعة الانهزامية الكارثية التي كانت تعلن عام ٤٥ : « لقد فُتحت الحرب العالمية الثالثة » ولم أكن أتصوّر ان تنسف القنبلة الذرية غداً الأرض . على ان الاحساس بالنصر الحليف كان وارداً ، وكنت أتساءل : ما هي كثافة الحاضر الحقيقية ؟ واين يضع المرء نفسه بين عدمية الانبياء المزيّفين وطيش طلاب المتعة ؟

لقد وضعت فوسكا أولاً في مشروع منته : المجد ، في كاربونا ؛ وهو انما اختار الخلود لكي ينهي ذلك المجد نهاية طيّبة ؛ ولكن هذا الامتيـاز المريع يكشف له مساوىء الغائية التي تتأكل وتهدم كل نجاح فريد ، إن الكبرياء الفردية التي يجسّدها فوسكا تقسم إيطاليا وتسلمها بلا دفاع الى ملك فرنسا ، ثم الى امبراطور النمسا . واذذاك يتخلّى عن وطنه ، ويصبح المستشار السرّي لشارل كانت ؛ فاذا توصّل ، من خلاله ، الى تجميع العالم كلّه ، فان عمله ، على ما يعتقد ، سيُفلت من خيبات الزمن ؛ ولكن كيف السبيل الى تجميع البشرية اذا كان كل انسان وحيداً ؟ إن المذابح والمصائب التي يخلّفها البحث عن « الخير العام » تُذعره ، فيشك في هذا « الخير » بالذات ؛ إن البشر يرفضون هذا الامتلاء الجامد الذي لن يترك لهم شيئاً بعدُ « يفعلونه » ، يرفضونه حتى ولو على غرار القائلين بتجديد العماد ولو بثمن اشد أنواع الهدم وحشية . إن الكون على ما يلاحظ ، ليس موجوداً في اي مكان : « ليس ثمة الا بشر ، بشر ينقسمون الى الأبد » ؛ ويعدل عن قيادتهم : « إن المرء لا يملك شيئاً أمام البشر ؛ فخيرهم لا يتوقّف الا عليهم ... وليست السعادة هي ما يبتغون : انهم يريدون ان يعيشوا . فليس ثمة ما هو ممكن ، لا من أجلهم ولا ضدّهم ؛ ليس ثمة ما هو ممكن . »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد كانت تجربة فوسكا الشقية تغطي نهاية القرن الوسيط وبداية القرن الرابع عشر ؛ فتلك الحروب البليدة ، والاقتصاد الفوضوي ، والثورات اللامجدية ، والمذابح اللامفيدة ، وازدياد عدد السكان الذي لا يصاحبه اي تحسين لمصيرهم ، كل ذلك في تلك الفترة كان يبدو لي اختلاطاً واضطراباً : كنت قد اخترته عن قصد . إن مفهوم التاريخ الذي يتجلى ّ في هذا القسم الأول هو مفهوم متشائم من غير شك ؛ صحيح اني لم اكن اعتبر التاريخ دورياً ، ولكني كنت أنكر ان يكون جريانه تقدّماً . فأنى كان لي ان افكر بأن حقبتي خيرٌ من الحقب السابقة ، في حين انها قد ضاعفت فظائع الماضي في ميادين القتال والمعسكرات والمدن المقصوفة ؟ ولقد كانت النزعة الرومانتيكية والنزعة الاخلاقية اللتان توازنان تلك التشاؤمية صادرتين ايضاً عن الظروف ؛ فبعد ان مات اصدقاؤنا في المقاومة ، وبعد ان أصبح جميع أولئك المقاومين – بفضل موتهم – اصدقاء لنا ، لم يُجْدِ عملهم الا قليلاً ، بل هو لم يجد شيئاً ؛ فكان لا بدّ من الاقرار بأن حياتهم منحت نفسها تبريرها الخاص ؛ كان لا بدّ من الايمان بقيمة إخلاص وحمّى واعتزاز وأمل . وما زلت اومن بتلك القيمة . ولكن هل يحرّم تفرّق البشر على البشرية كل فتح جماعي مشترك ؟! إن تلك قضية اخرى .

والحقّ اني لم أكن أؤكد ذلك . فالرؤية السوداء المطروحة في مطلع الرواية ينكرها الفصل الأخير . وقد كانت الانتصارات التي أحرزتها الطبقة العاملة منذ بدء الثورة الصناعية حقيقة أعترف بها كذلك . والواقع انه لم تكن لي فلسفة للتاريخ ، ولم تكن روايتي تتوقف عند اي فلسفة من هذا القبيل . إن فوسكا لا يرى في المسيرة المنتصرة التي تغلق ذكرياته إلاّ وطئاً بالأقدام : ولكنه لا يحفظ كلمة السرّ . لقد نظر الى العالم اولاً بعيني السياسي الذي يُسحر بالأشكال : المدينة ، الأمة ، الكون ؛ ثم اعطاه بعد ذلك محتوى : البشر ؛ ولكنه اراد ان يحكمه من الخارج ، كإله خالق ؛ وحين ادرك اخيراً انهم أحرار وسادة ، وان بالامكان خدمتهم وليس بالامكان استخدامهم ، كان قد أصبح اشدّ

تعباً من ان يحتفظ لهم بالصداقة ؛ وإنّ تحلّله لا يحرم « التاريخ » من معناه وانما هو يشير فحسب الى ان انفصام الاجيال ضروري للانطلاق الى أمام. إن الشيوعيين بعد هيغل يتحدثون عن البشرية وعن مستقبلها كما لو أنها شخصية مقدودة من حجر واحد : ولقد هاجمت هذا التصوّر الواهم اذ جسّدت في فوسكا اسطورة الوحدة ؛ إن انعطافات التاريخ وتقهقراته ومصائبه وجرائمه هي أقسى من أن يتقبّل ضميرٌ ذكراها ، عبر القرون ، من غير ان يستسلم لليأس ، ومن حسن الحظ ان الحياة تتجدّد من الآباء الى الابناء ، الى ما لا حدّ . ولكن هذه الجدّة تتطلّب كذلك ألم الانفصال : فالرغائب التي حرّكت رجال القرن الثامن عشر ، اذا تحققت في القرن العشرين ، فان الموتى لم يقطفوا ثمارها ؛ ويفكر فوسكا ، وهو مأخوذ في صفّ طويل صاخب ، بالمرأة التي أحبّها لمئة سنة خلت : فيقول لنفسه إن ما يحدث اليوم هو تماماً ما كانت تريده ، وليس هو قطّ ما كانت تودّ ان يحدث . ويُجهز هذا الاكتشاف على هزيمته : إنه لا يستطيع ان يخلق صلة حية بين القرون ما دامت لا تتجاوز نفسها الا اذا أنكرت نفسها ؛ إنه غير مبالٍ بالأشخاص الذين يعمرونها ، فلا شيء يربطه بمشاريعهم ؛ ولئن أحبّهم فلنّ يستطيع ان يتحمل الخيانة التي يدينه بها مصيره .

ذلك ان فوسكا هو موضع النسيان والخيانة الملعون ؟ وكنت قد أحسست احساساً قاسياً بعجزي عن أن ألتقط موت الآخرين بأي شكل ؛ إن جميع الغيبات مردودٌ عليها بامتلاء العالم اللامتغيّر . ولقد تساءل بلومار ، في روايتي الثانية ، بصدد رفيق قُتل وهو في العشرين : « مَنْ تُراه لم يكن ؟ » ويتساءل فوسكا بصدد امرأة معشوقة : « أين تُراها لم تكن ؟ » وفي عدة مناسبات ، أسندت إليه هذه العبارة التي تأتي ايضاً في « المثقفين » : « كان الأموات امواتاً ؛ وكان الاحياء يعيشون » إنه لا يستطيع حتّى ان يداعب أمل أن يتذكّر دائماً : فتلك الكلمة لم يكن لها في نظره معنى ؛ وجميع علاقاته مع البشر قد فسدت من جرّائها ؛ وهو لا يدرك قط الحبّ ولا الصداقة في حقيقتهما ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دامت قاعدة اخوتنا هي اننا سنموت جميعاً : والذي يستطيع وحده أن يجد المطاق في الزمن هو الكائن العابر . إن الجمال لا يمكن أن يُوجد بالنسبة لفوسكا ، ولا أية قيمة حية من القيم التي يؤسسها الانتهاء البشري . فنظره يكتسح الكون : إنه نظر الرب ، كما رفضته إذ كنت في الخامسة عشرة ، نظر الذي يصعّد كل شيء ويسوّيه ، الذي يعرف كل شيء ، ويقدر على كل شيء ، ويغيّر الانسان الى دودة ارضية . إن الذين يقترب منهم فوسكا يستلب منهم العالم بلا مقابل ؛ إنه يقذف بهم في لامبالاة الخلود المؤسفة .

وهنا تكمن مأساة ريجين التي جعلتها في طباق مع مأساة فوسكا . كان بوسعي ان أحمّل انساناً خالداً اوسع المطامح ، اما الحسد فلا ، لأن هذا الشعور المصنوع من السحر والضغينة لا مثيل له ؛ ولهذا زوّدت به امــرأة متعطّشة الى السيطرة على أشباهها ، ومتمرّدة على جميع الحدود : مجد الآخرين ، وموتها هي بالذات ؛ وهي حين تلتقي فوسكا ، تريد ان تسكن قلبه الخالد : انها آنذاك ستصبح ، على ما تعتقد، « الوحيدة » ؛ اما تحت عينيه ، فهي على العكس تتحلّل ؛ إن مشاريعها وفضائلها لا تتلبّس الا جهداً هزيلاً لكي تكون ، وهو جهد شبيه بجهد جميع البشر الآخرين ؛ انها ترى ، في ذعر ، حياتها تهبط إلى درك المهزلة [1] ، فتسقط في الجنون . على انها قد لمحت فرصة خلاص ، لكنها لم تملك القوة على التوقف عندها : كان عليها ان تتشبّث بانتهائها . إن هناك بطلاً ، هو ارمان ، يجابه من غير أن يتحجّر ، نظر فوسكا لأنه ملتزمٌ عصره جسماً وروحاً . وهذه الأخلاقية تتلاءم وخاتمة « بيروس وسينياس » ، ولكنها ليست معطاة بشكل درس او عظة ؛ بل هي بالأحرى يمكن اتخاذها حجة لتجربة خيالية . ولقد أخذ بعض النقّاد ، الذين يغيظهم ان تعظ روايةٌ ما ، أخذوا على هذه الرواية انها لا تثبت شيئاً ؛

---

(١) إن مشهد الاحتفال الذي تعي فيه المهزلة يذكر بالمشهد الذي تستقبل فيه اليزابيت الثلاثي ، في « المدعوة » فتحس بأنهــا تستسلم لتزوير ساخر ؛ ولكن اضطرابها كـان ذا طبيعة بسيكولوجية ؛ اما ريجين فلديها حس ميتافيزيقي .

وانا من أجل هذا أكنّ لها الصداقة ، بالرغم مما فيها من حشو وتطويل وتكرار وإثقال . ولقد تساءلت وانا اعيد قراءتها : ولكن ما الذي قصدت اليه ؟ انني لم أقصد الى شيء آخر سوى المغامرة التي أخترعتها . إن القصّة تنكر نفسها بلا انقطاع ؛ ولئن حاول أحدٌ ان يستخرج منها رموزاً ، تناقضت هذه الرموز بسرعة ، بحيث أنه لن تتغلب أية وجهة نظر في نهاية المطاف ؛ فوجهة نظر فوسكا ، ووجهة نظر ارمان صحيحتان كلتاهما . وكنت قد ذكرت في دراستي السابقة إن بُعْدَ المشاريع البشرية ليس هو المتناهي ولا اللامتناهي وانما هو اللامحدّد : وهذه الكلمة ممتنعة على الانحباس في أيّ حدّ ثابت . وأفضل طريقة للأقتراب منها هي أن يهذي المرء حول تغيّراتها الممكنة . و « جميع البشر ميتون » هي هذا الهذيان المنظّم ؛ فالموضوعات ليست فيها نظريات ، وانما هي انطلاقات نحو ضروب من التشرّد حائرة .

كنت قد بدأت فور عودتي من تونس دراسة كنت أتناول فيها المسائل نفسها . وكانت قد خطرت لي فكرة ذلك لعام خلا . وكنت قد ألقيت في شباط ١٩٤٥ محاضرة لدى غابرييل مارسيل امام طلاب كانوا جميعهم تقريباً من الكاثوليك ؛ وكنت قد اصطحبت تلميذاً قديماً لسارتر يدعى مزراحي ، وهو وجودي وصهيوني : كان ينتسب الى عصابة شتيرن . وكلما هاجمني غابرييل مارسيل ، اندفع مزراحي يدافع عني بحماسة وسداد ، مما جلب عليه احتقار الحضور . وحين خرجنا ، رحت اتحدث اليه في الطابق الأول من مقهى الفلور ؛ وقلت له ان بالإمكان في رأيي تأسيس فلسفة اخلاقية على « الوجود والعدم » اذا حوّلنا رغبة الكينونة اللامجدية الى « عيد انتقال » للوجود . فقال لي : « اكتبي هذا ! » وفي شتاء ذلك العام ، طلب مني كامو دراسة عن العمل ، لا اذكر بعدُ لأية سلسلة ؛ وكان الاستقبال الطيّب الذي قوبل به « بيروس وسينياس » يشجّعني على العودة الى الفلسفة . ومن جهة اخرى ، حين كنت اقرأ لوفيفر ونافيل ومونان ، تأخذني الرغبة في الردّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليهم . وهكذا باشرت كتابتي في « من أجل أخلاقٍ للالتباس » * .

وهذا الكتاب هو اكثر ما يغيظني من كتبي اليوم . إن قسم المناقشات فيه يبدو لي ذا قيمة . لقد أضعت وقتاً في محاربة اعتراضات مضحكة ، ولكن الوجودية كانت توصف آنذاك بأنها فلسفة عدمية ، بوٌسية ، خفيفة ، ماجنة ، يائسة ، قذرة : فكان لا بدّ من الدفاع عنها . ولقد انتقدت ، بشكل مقنعٍ في نظري ، خديعةَ « انسانية » مقدودة من صخر واحد ، تلك التي كان يعمد اليها – على غير ما اعتراف غالباً – الكتابُ الشيوعيون لكي يخفوا الموت والهزيمة ؛ وقد أشرت الى تناقضات العمل ، والتصعيد اللامحدود للانسان حين يعارض تطلّبه للاستّرداد ، والمستقبل في الحاضر ، والواقع الجماعي في داخل كل فرد ؛ وتناولت مجدّداً النقاش الضاري آنذاك حول الوسائل والغايات فهدمت بعض النزعات الصوفية . وبصدد دور المثقفين في قلب عهدٍ يُقرّونه ، أثرت مسائل كانت ما تزال حالية . وتحدّثت كذلك في طريقي عن النزعة الجمالية ، وعن التوفيق الذي أشرت اليه بين تجرّد الأثر الفنّي ، والتزام الفنّان . على ان ذلك لا ينفي انني بالاجمال قد بذلت جهداً لكي أطرح طرحاً مواربأ مسألةّ أعطيتها جواباً لا يقلّ تجوّفاً عن الامثال « الكانتية » . وكانت اوصافي للعدمي والمغامر والجمالي ، التي تأثرت بلا شك بأوصاف هيغل ، أشدّ تجريداً واعتباطاً من أوصافه ، ما دام انها لم تكن تنطوي حتى على صلة نموّ تاريخي ؛ كانت المواقف التي أبحثها تُفَسّر بشروط موضوعية ؛ ولقد قصرت جهدي على ان أستخرج منها المعاني الأخلاقية ، حتى ان لوحاتي لا تتموضع على اي مستوى من الواقع . وكان من قبيل الخداع ارادة تجديد فلسفة اخلاقية خارج القرينة الاجتماعية . كان بامكاني ان اكتب رواية تاريخية من غير ان تكون لي فلسفة للتاريخ ، ولكن لم يكن بامكاني أن أضع نظرية للعمل .

(*)وهو الذي ترجم الى العربية تحت عنوان « نحو اخلاق وجودية » ونشرته دار الآداب في بيروت . (هـ. م)

كنت قد أعطيت « التان مودرن » اربع مقالات جمعها الناشر « ناجيل » في كتاب ، وكانت ثلاث منها تعالج موضوع الاخلاق ؛ وقد كان طبيعياً ، غداة حربٍ كانت قد طرحت كل شيء للنقاش من جديد ، ان يحاول المرء ان يخترع من جديد قواعد وأسباباً . كانت فرنسا مسحوقة بين كتلتين ، وكان مصيرنا يُقرّر من غير مشاركة منا ؛ وقد كانت هذه السلبية تمنعنا من ان نتخذ التطبيق قانوناً ؛ وهكذا لم تكن تدهشني نزعتي الأخلاقية . على ان ما لا أفهمه جيداً ، هو المثالية التي تلطّخ تلك الأبحاث . والواقع ان البشر انما كانوا يتحدّدون في نظري بأجسامهم وحاجاتهم وعملهم ؛ ولم أكن أضع اي شكل ولا أية قيمة فوق الأفراد الذين هم من لحم ودم . وكنت بعد عودتي من البرتغال قد انتقدت على انكلترا تواطؤها مع نظام حكم كان من بين العاهات التي تدينه النسبة المئوية الفاجعة لوفيات الاطفال ، فقال لي هيريو : « ليكن ، إن من المؤسف ان يموت اطفال بؤساً ، ولكن ربما لم يكن أغلى مما ينبغي دفع ثمن تلك المعجزة التي هي الديمقراطية الانكليزية » فأثارتني هذه العبارة . ولكن لماذا كنت ، من أجل ان أبرّر الأهمية الجوهرية التي كنت أعلّقها عليها ، ألجأ الى مواربة قيمَ هي غير الحاجة نفسها؟ لماذا كنت أكتب : « حرية محسوسة » بدلاً من « خبز » وأربط ارادة الحياة بحسّ الحياة ؟ لم أكن أقتصر قط على القول : يجب ان يأكل اولئك الأشخاص لأنهم جائعون . ومع ذلك ، فقد كان هذا ما كنت أفكر به . ففي « العين بالعين » كنت أبرّر التطهير من غير ان اورد أية حجّة صلبة : فقد كان ينبغي قتل اعضاء الميليشيا والقَتَلة والمعذّبين لا لكي نظهر ان الانسان حرّ ، وانما لكي نمنعهم من ان يعودوا الى ارتكاب ما ارتكبوا ؛ وكم نوفّر ارواحاً إذا صفّينا واحداً مثل « بريس ! » لقد كنت متحرّرة بما فيه الكفاية من ايديولوجيات طبقتي ، كما كان شأن سارتر ؛ ففي الوقت الذي كنت أطرحها عني بعيداً ، كنت ما ازال استخدم منطقها . ولقد غدا هذا المنطق كريهاً عندي ، ذلك أن التماس الأسباب التي يتخذها المرء لكي لا يمشي على وجه انسان ، انما كان يعني قبوله ان يمشي على وجهه ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وذلك ما كنت أعرفه الآن .

* * *

حدّثني سارتر كثيراً ، بعد عودته من أميركا ، عن « م » . وقد كان تعلّق أحدهما بالآخر متبادلاً الآن ، وكانا ينويان قضاء ثلاثة أشهر أو أربعة معاً كل عام . فليكن ؛ إن الفراقات لم تكن تذعرني . ولكنه كان يتحدّث عن الأسابيع التي قضاها معها في نيويورك بلهجة مرحة جذلى أثارت قلقي ؛ وكنت قد حسبت أن ما يغريه في تلك المغامرة إنما كان جانبها الحالم ؛ وإذا بي أتساءل فجأة عما إذا لم يكن متعلّقاً بـ « م » أكثر من تعلّقه بي ؛ إنني لم أكن أملك بعدُ تفاؤلية متشبّثة في قلبي : فقد كان حدوث أي شيء لي ممكناً . ما هو نصيب العادة من علاقة اتحاد يرجع عهده إلى أكثر من خمسة عشر عاماً ؟ وأية تنازلات تفترض؟ كنت أعرف جوابي : أما جواب سارتر فلا . كنت أفهمه أكثر من الماضي ، ومن أجل هذا كان أشدّ امتناعاً عليّ ؛ كانت بيننا وجوه اختلافات كبيرة ، وهي لم تكن تزعجني شخصياً ، بل على العكس ، أما هو ؟ إن ما كان يرويه لي يدلّ على أن « م » كانت تقاسمه كل المقاسمة أرجاعه وانفعالاته ورغائبه ونفاد صبره . وحين كانا يتنزهان ، كانت الرغبة تأخذها في أن تقف ، ثم تسير من جديد ، عندما كانت الرغبة تأخذه في ذلك تماماً . ربما كان ذلك يسجّل بينهما توافقاً عميقاً – في منابع الحياة ذاتها ، في تدفّقها وإيقاعها – لم يكن قائماً بيني وبين سارتر ، وكان أثمن عنده من تفاهمنا .

وأردت يوماً أن يطمئن قلبي في ذلك . ولكن يحدث غالباً ، حين يأتي سؤال خطرٌ فيحرق شفتيك ، أن تسيء اختيار اللحظـة التي تسعى فيها إلى التحرر منه : فلقد كنّا خارجين من غرفتي باتجاه بيت آل سالاكرو حيث كنّا مدعوين لتناول الغداء ، حين سألته :

– قل لي بصراحة : أيّتنا أنت متعلّق بها أكثر : « م » أم أنا ؟

فأجابني سارتر :

ـ إنني متعلّق جداً بـ « م » ، ولكني معك أنت .

فأحسست بنفسي ينقطع . وأدركت أنه كان يودّ أن يقول : « إنني أحترم ميثاقنا . فلا تطلبي مني أكثر من ذلك » وكان جوابٌ كهذا يضع المستقبل كلّه موضع التساؤل . ولقد أحسست بكثير من اللوعة والأسى وأنا أصافح الأيدي ، وأبتسم ، وآكل ؛ وكنت أرى أن سارتر كان يراقبني في قلق ، فكنت أتصلّب ، ولكن كان يخيّل إليّ أنني لن أستطيع أن أقاوم حتّى نهاية الغداء .

وبعد الظهر ، فسّر سارتر موقفه : كنّا قد عزونا دائماً للتصرّفات والسلوك نصيباً من الحقيقة أكبر مما عزونا للجُمل والعبارات ؛ من أجل هذا آثر أن يذكر بدهيّة حادث ، على أن يضيع في خطاب طويل . وصدّقته .

وأصيب سارتر بالتهاب لوزتي الأذنين بعد وقت قصير من عودته . فلزم السرير في الغرفة المستديرة ؛ وأتى طبيب فطلى عنقه ووجهه بمرهم أسود . وبعد بضعة أيام استطاع أن يستقبل أصدقاءه . ولم يكونوا جميعاً يزورونه : ذلك أن مرضه كان يخيف . ومع ذلك ، فقد كان في غرفته عدد كبير منهم ، وقد وجدت مشقّة في تجنيبه بعض المزعجين .

وقد كتبت مذكرات لي في هذه الفترة ، وها هي مقتطفات منها ؛ إنها تقدّم ما تعجز ذاكرتي عن ابتعاثه : غبار حياتي اليومي .

٣٠ نيسان ١٩٤٦

حين خرجت في الساعة الخامسة ، كانت ثمة حركة صاخبة في مفترق طرق « بوسي » ؛ كانت النساء يشترين ملفوفاً وهليوناً وفريزاً ؛ وكانت تباع عروق من الزنبق البري في أوانٍ صغيرة ملتفّة بورق الفضّة . وكانت على الجدران كلمات «نعم» و «لا» بحروفٍ طبشورية[١] . وفي العام الماضي كان للربيع طابعٌ عجائبي ، فقد كان أول ربيعٍ بعد التحرير ، ولقد أقام في السلام والطمأنينة .

---

(١) كانت القضية هي قبول الدستور المقترح من المجلس التشريعي والذي كان يؤيده الشيوعيون ، او رفض ذلك الدستور .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان في الحوانيت أغذية ، من مثل البلح والأقمشة والكتب ؛ وكان في الشوارع سيارات عمومية وباصات ؛ إنه بالإجمال تغيّر كبير منذ أيار الماضي .

والتقيت مجدّداً في «التان مودرن» ميرلو– بونتي وليريس وبونج . وقد ترك بونج جريدة «اكسيون» (تُرى ، لأي سبب ؟) وهو يقول إن مما يُربكه جداً أن يختار بين جميع الأشياء التي يودّ أن يصفها : فلماذا لا يتكلم المرء طوال عشرين سنة عن الزَبَد ؟ أو لماذا ، على العكس ، لا يُلمّ في غير ما اكتراث بكل ما يلتقيه في طريقه ؟ إن لديه أكثر من مئتي قصيدة مبدوءة ، وهو ينوي ذات يوم نشرها بشكل أبجدية مصوّرة . وقد سلّمتُ «فيستي» قصائد جينيه ودولاروند بقصد الطبع ، وقلت له إنني بالتأكيد لن أنشر روايتي في المجلة . وشربت قدحاً في «بون رويال» مع ميرلو– بونتي وسوزو . وعدت إلى الشقة . ووجدت لوفيفر – بونتاليس لدى سارتر الذي كان ما يزال مضمداً بعصابات «فيلبو» ومعتمراً طاقية مروّسة . وقد تحسّنت صحته كثيراً ؛ وحملت له كتباً ومجلات وأعددت له العشاء . وقصدت بعد ذلك مقهى «بوتي سان بنوا» مع بوست وبونتاليس ؛ وقد وصل جياكومتي حين وصلنا وجلس إلى طاولتنا نفسها . وكان أنضر من السابق ، وقد روى طائفة من الحكايات . وفي نهاية الطعام ، انقلبت مملحة ، فرفعها بوست ؛ وتلبّس جياكومتي هيئة الساحرة وقال :

– كنت أتساءل من الذي سيرفعها ، فكنت أنت !

فقال بونتاليس : – ما كنت أنا لأرفعها .

قال جياكومتي : – ولكن سيرفعها أحدٌ دون ريب .

فقال بوست : – بالطبع ، لأن المملحة لم تُصنع لكي تُقلب !

قال جياكومتي ، مُندهشاً : – آه ، لو قلت ذلك أمام بريتون ، لحدثت مشاجرة !

وتحدّث بعد ذلك عن الرسّام بيرار ، فقال :

– إنني أجده جميلاً جداً !

فسألته : – في مثل جمال سارتر ؟

فأجاب برصانة : — هذا شيء مختلف . فسارتر هو الجمال الكلاسيكي ، الأبولوني ؛ أما بيرار فهو ديونيسي .

وأنهينا سهرتنا لدى شيرامي .

قابلني بوبال هذا الصباح بوجه مشرق قائلاً :

— إذا قرأت في الجريدة أن سارتر يحتضر ، فلا تقلقي ؛ ذلك أنه كان ثمة صحفي يبحث عنه ، فقلت له : إنه مريض ، ونحن نخشى عليه . فسألني : ما الذي يشكوه ؟ فأجبته : مرض خفيّ .

والتقيت على الدرج ب [1] . وكان صاعداً لرؤية سارتر ؛ فاستوقفته ؛ فقال لي إنه كان يعرف أن سارتر كان ضحية طائفة من المزعجين ، وانه لم يكن يريد أن يضايقه ، ولكن كان لديه شيء هام يقوله له : إن صديقاً له يُدعى « باتريكس » قد نجح في القيام بـ « تحويل عجيبيّ لما هو لَزِج » ويبدو أن ثمة « جدّة ، جدّة عجوزاً تتحول إلى شمعدان ! » .

أول أيار

أذكر أنّ الثلج كان يتساقط في مثل هذا اليوم من العام الماضي . وهذا الصباح شديد الزرقة. إنني ملتزمة غرفتي ، وأنا أشرب قدحاً من النسكافة وأعمل في كتاب الأخلاق . تحسنت صحة سارتر ، وقد نزع عصابة « فيلبو » وطاقية القطن ، ولكن سالفيه الأسودين قد نما شعرهما وكبرت لحيته ؛ وهو ما يزال متورماً ، وعلى أنفه بثر . وفي الغرفة تتراكم يوماً بعد يوم الأواني المتسخة ، والأوراق القديمة ، والكتب ، حتى ان المرء لا يعرف بعد أين يضع قدميه . ويقرأ لي سارتر أشعاراً لكوكتو جميلة جداً . أما في الخارج ، فالشمس مشرقة ، والمرء يُحسّ جيداً بالشارع عبر النوافذ مع باعة الزنبق البري ، وباعة الجوارب والملابس الداخلية من الحرير الصناعي . وأخرج بلا معطف ولا جوربين . الزنبق في كل مكان ، وجميع باعة الكستناء على جادة باستور محمّلون بالأزهار

---

(١) تلميذ قديم لسارتر ، أصبح طبيباً .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البيضاء والحمراء التي بدأت تفقد براعمها. أتناول الغداء لدى أمي التي تقرأ « الصفر واللانهاية » وفي طريق العودة، أرى إعلانات « دولان » حيث لا أجد عنوان « الذباب » فينقبض قلبي. وأقرأ على الأعمدة نشرات الاستفتاء الأولى: صوّتوا نعم، صوّتوا لا. جميع كلمات « لا » مشطوبة.

في العمل. عند الساعة السادسة، أشرب قدحاً مع بوست ورولان في « البار فير » الذي ينافس « شيرامي » منافسة خرقاء، باعلانات جميلة ولكن بطاولات حمراء قبيحة وجدران مفرطة الخضرة. وأجد هناك « يوكي » مرتدية ثوباً جميلاً بمربّعات سود وبيض؛ وتحدّثني عن الشاعر البلجيكي الذي بعثت به إليّ في المجلة، وتقول لي بلا شعورها العاديّ:

– انت تعلمين ان بيتي هو بيت الشعراء.

٢ أيار

يوم أجمل من يوم أمس، وأشد حرارة. زنبق في كل مكان؛ لم يسبق لنا أن رأينا ربيعاً في مثل هذا الأزدهار. أصطحب بوست إلى « بوجون ». ومن بعيد، نلمح قرميد المستشفى، بصلبانه الكبيرة الحمراء؛ إنه مرتفع جداً، ضخم وقاس، وهو يذكّرني « بدرانسي ». أمام الباب كثير من الناس، ولا سيما من النساء المتبرّجات؛ فكأنّ هذه الزيارات أعيادٌ لهنّ، وهنّ يضحكن في المصعد الذي يرقى الطوابق الأحد عشر ببطء. قاعة الطابق الحادي عشر مخصصة للمصدورين، النساء الصّبيات في جانب، والعجائز في آخر؛ وثمة صفّ واحد من الأسرّة التي تواجه شرفةً ذات حاجز (لمنع الانتحارات، لأنه يخطر لبعض المرضى، ولا سيما الشبّان منهم، أن يلقوا بأنفسهم من النافذة)؛ يلمح المرء منظراً كبيراً للضاحية في مقدّمته معسكر للأسرى الألمان، وبعد ذلك باريس كلّها. أما غرفة أولغا فمكعّب كبير أبيض يطلّ كذلك على هذه الشرفة. وهي تقول إن المنظر رائع روعة عجيبة في المساء حين تضيء جميع الأنوار. انها اليوم ذات وجه مشرق، وهي متبرجة نضرة. ولقد أجروا لها عملية ثالثة

لإدخال الهواء . ها هي خمسة عشر يوماً تنقضي وهي في السرير ، وقد بدأ صبرها ينفد .

في الباص ، أقرأ « حياة بوشكين » لترويا ، فيستحوذ عليّ ، وأنظر في جريدة « سامدي – سوار » . إنهم يتحدثون عن « الصفر واللانهاية » : « لقد فهم كوستلر فهماً مؤثراً قلق العصر الحاضر ؛ ولكنه عاجز عن أن يقدم لنا أية وسيلة للخروج من هذا القلق . » إن هذا الضرب من الانتقاد يذهب بعيداً جداً . لقد سمعت على الأقل مئة مناقشة حول « الصفر » . وكان أعدل نقدٍ له هو الذي أورده جياكومتي منذ أيام : كان على روباشيف أن يجابه الرقم ١ باسم موضوعية أخرى ، لا باسم ذاتية ؛ كان ينبغي أن يكون بينهما فرق واضح ، ذو طابع سياسي وتكنيكي ؛ وبسبب فقدان ذلك ، يفتقر روباشيف إلى الحقيقة والواقع .

في العمل . في الساعة الثامنة أقصد غرفة سارتر ؛ إنه يقرأ « أعرني ريشتك » لسيبيون الذي نال اليوم بالذات جائزة الهجاء التي تمنحها صحيفة « لوكلو » ، والذي كانت صورته منشورة في « كومبا » . وقد رأى بونتاليس الذي عبّر له عن إعجابه بكتاب بوست [1] ؛ كما رأى جينيه الذي كان يتمنّى أن يمنحه سارتر رسالة تلتمس من الوزير السماح له بزيارة دور الإصلاح . أما بوست نفسه فيبحث عن موضوع مقال لـ « كومبا » ، واقترح عليه أن يكتب مقاله عن فندق شابلان . ويحدّثنا عن « كومبا » وعن الهوس الذي يُظهره « بيا » لقتل الجريدة بقتل نفسه ، وعن أوليفيه الذي يحتقره الجميع وهو يحسّ ذلك ، وعن آرون الذي يجلب لنفسه الكراهية لشدّة ما يفهم « كومبا » فهماً كثيفاً ويعبّر عن ذلك . وقد هنّأ الجميع بوست على مقالته عن البابا ، وقد صعد « التمان » من جريدة « فران – تيرور » ليقول له : « إن ما تقوله في مقالك قاس ، ولكنه رائع روعة عنيفة » . وقد كان من نتيجة ذلك المقال أن طلب ثلاثة مشتركين في الجريدة وقف اشتراكاتهم ...

---

(١) « آخر المهن » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣ أيار

صبيحة عمل في غرفتي . وبعد الظهر اطالع الصحف مع سارتر . بعض الشائعات المنشورة في « كافالكاد » وفي «فونتين » تشير الى اننا انقطعنا عن ارتياد « الفلور » لنتردّد الى « بون رويال » . مقال حسن النية بما فيه الكفاية عن الوجودية كتبه «وال» بصدد محاضرة لميرلو – بونتي . أقصد المجلة فأجد فيها ناساً كثيرين . ويقدّم لي « فيفيه » صديقاً له بقوله : « فلان الذي يملك موهبة عظيمة »

فقلت له : — اهنئك يا سيدي . ما الذي تريد ان تعطينا إياه ؟

أجاب : — اي شيء .

فترة صمت ، ثم سأل :

— ماذا تريدين ان أعطيكم ؟

قلت له : — أي شيء .

فترة صمت اخرى . ثم قال :

— حسناً . اني اشكركم كثيراً .

قلت : — بل أنا التي أشكرك .

صنع لنا بولان « مونتاجاً » جميلاً للنصوص ؛ نصوص منه ومن ليوتو ومقاطع من مخطوطات غريبة . وقد قصدته لأشكره فوجدت في مكتبه عشرة أشخاص ، مديرين ظهورهم ، غارقين في صندوق : « اننا نتفرّج على صور الامكنة التي تنزّه فيها رامبو » هذا ما قاله لي بولان ، وأضاف : « هل تريدين ان تتفرّجي ؟ »

ولكني مضيت لأجلب المسودّات من مكتب « فيسّي » ثم لأتناول قدحاً مع ليريس في « بون رويال » ووجدت هنا ستيفان الذي طالبني بان اردّ له مقاله « حديث مع مالرو » .

في غرفة سارتر ، نتساءل مرة اخرى أية علاقة بين التبصر والحرية ، وعما اذا كانت اخلاقيتنا هي حقاً اخلاقية ارستوقراطية . ويمرّ بوست .

فيقول إن في جريدة « كومبا » ضجة كبيرة بسبب مقالات اوليفيه وأرون اللذين يطالبان بـ « لا » ؛ على ان كثيرين من أفراد الجريدة سيصوتون نعم ؛ وهم يريدون القيام بحملة تحثّ الناس على التصويت للاشتراكيين ، وإلاّ أصبحت « كومبا » جريدة يمينية . ويبدو ان الجميع قد احتجزهم في الجريدة سحر « بيا » الخاص الذي تنسيه مناهضة للشيوعية إدعاءه بأنه رجل يساريّ .

وتناولت مرطباً في « الفلور » وأنا اقرأ « التأمل عند هيغل » الذي لا يعلمني شيئاً . وألتقي هناك اداموف وهنري توماس ومارت روبير ثم جياكومتي وتزارا ولفيفاً من الناس . واشتريت شاياً من حانوت « بوبال » وعدت الى غرفتي لأنام .

٤ أيار

صباح رمادي ، بارد بعض الشيء . قصدت بيت آل « ل » لأستردّ حديث ستيفان ــ مالرو . إن مالرو يبدو في هذا الحديث ثقيل الظلّ ؛ فهو يعتبر نفسه غوته ودستويفسكي في وقت واحد ، ويتحدث عن الجميع بسوء نية كبير . انه يقول بصدد كامو : « ارجوك ، لنكن جدّيين . فنحن لسنا في مقهى الفلور . لنتحدث عن لابروييير او شامفور . » وحين يقول له ستيفان ــ ولا ادري من اين جاء بذلك ــ : إن سارتر يريد ان يكتب كتاباً كبيراً قذراً عن المقاومة » يجيبه قائلاً : « وسأكتب عن المقاومة كتاباً لن يكون قذراً . » ولكنه يُحسن الدفاع عن نفسه ضد التهمة التي تجعل منه فاشستياً : « ان من يكتب ما كتبت لن يصبح ابداً فاشستياً . »

عمل . بين الفينة والفينة تمرّ من تحت نافذتي سيارات تحمل مكبرّات صوت تزعق : « صوّتوا لا » او « صوّتوا نعم » . ليس ثمة من يتحدث إلا عن التصويت . ونحن لا نملك بطاقة انتخاب . (لقد مررنا بدار الشرطة البلدية ، ولكننا لم نلحّ) ولن يذهب « بويون » للتصويت ، وكذلك بوست بلاريب ، ولكننا مع ذلك نتناقش . والحق ان النتائج مكسوبة منذ الآن ؛ فان سبر الرأي العام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الاسبوع قد أعطى ٥٤ بالمئة من الأجوبة الإيجابية .

عند الساعة الثانية عشرة والنصف مرّ بونتاليس بالفندق . وقد ألتقى امس بجينيه عند سرير سارتر وسأله : « هل تريد جافـّة ؟ » فحدجه جينيه : « ولماذا تسمي السيكارة جافـّة ؟ » فانطلق في القاء محاضرة شارحاً أن الثقافة ، بناء على كلمة هريو ، هي ما يبقى بعد ان يكون المرء قد نسي كل شيء ، ولكن ينبغي ألاّ يتظاهر المرء بأنه قد نسي كل شيء حتى يمنح نفسه مظهر المثقف : كما لو أن ذلك كان همّ بونتاليس الاول ! وقد جلب هذا لسارتر بيضة ولحم خنزير أخرجه من جيبه في ارتباك . وانعقدت بينهما محادثة طويلة ؛ وقال سارتر إن المرء لا يستطيع ان يقضي حياته في الحكم على ما يفعله الحزب الشيوعي بأنه أحمق ، فيما هو يساعد على ارتكاب ما يفعله ذلك الحزب ، وان الافضل هو ان يصوت المرء للشيوعيين ، ولكن ان يجيب بلا على الاستفتاء . وخرج بونتاليس ، مهتزّ التفكير جداً .

التقيت في الفلور مرة اخرى ببويون وبوست . كان بويون عائداً من نورمبرغ ؛ وقد قال إن من الطريف ان يرى المرء كيف يمثل الجميع أدوارهم ، بما فيهم المحامون والمتهمون ؛ ووعد بان يكتب مقالاً بهذا المعنى لـ « التان مودرن » . وقال انه اذا انتخب ، فسيصوّت بلا ، لأنه بصفته سكرتير تحرير قد حضر فبركة الدستور وانه يراه رديئاً جداً ؛ ولكنه لن يصوّت ، لأن ذلك يقتضيه ان يسافر الى الريف . ويبرّر نفسه بقوله : « لقد صرّح السيد غاي ان من لا يصوّت هو خائن ومروّج شرّ ؛ وبالنظر الى ما هو عليه السيد غاي ، يستطيع المرء ان يهنّىء نفسه اذ لا يصوّت . »

قصدت بوجون مع بوست . كفـّت اولغا عن اظهار نفاد صبر مبالغ فيه .

في ممرّات الفندق اعلانات صغيرة : « صوّتوا لا » وقلنا مع سارتر إن الناس سواء أصوّتوا بنعم ام بلا ، فسيفعلون ذلك على مضض .

وقلت : — اما أنا ، فاني أنسحب .

فقال لي سارتر : — إن هذا سيء جداً .

— ولكنك انت لن تصوّت ؟

— ليس المهم ان يصوّت المرء ، بل ان يعرف كيف ينبغي ان يصوّت حين يصوّت .

فكان لابدّ من ان أضحك ، كما كان يقول جياكومتي لو كان موجوداً .

تناولت العشاء مع بوست في « الكاتالان » ، وكانت ثمة سولانج سيكار وغريمو وسواهما . وأراني بوست مقالاً لفانتنون كتبه عنه ، وهو لطيف جداً ، وقد غطّاه « فوشيري » في الاذاعة بالزهور .

الأحد ٥ أيار

يحدث لي احياناً ، حين اكون قد اشتغلت كثيراً في الأيام السابقة ، أن أحسّني شبيهة بذلك السمك البحري الذي أفرط في العلاقة الجنسية ، فارتمى على الصخور ، محتضراً ، مُفرغاً من مادّته . وهذا ما أشعر به ذهذا الصباح . لقد راودتني أحلام سيئة ونهضت وأنا احتفظ بلونٍ من البرودة في قلبي . سماء زرقاء ، وريح صاخبة . الصحف تُباع بصراخ ثاقب ، بل إن ثمة مشاجرة عند ملتقى الطرق : إنه الاستفتاء . اننا لن نصوّت ، بدافع من الطيش والكسل جزئياً ، لأننا لم نكن نملك بطاقة انتخاب ، ولاسيما لاننا كنا سنستنكف عن التصويت بلا شك .

عمل. في الساعة الرابعة رأيت « بال » لأطلب اليه ان يعدّل قليلاً مقالته عن « بيتيو » . وقد كان مشرقاً مذهّباً وجميلاً ولطيفاً جداً . وهو ايضاً لم يقترع .

وفي حانة « شيرامي » مساء ، نستمع الى الراديو وهو يعطي نتائج الاستفتاء . ويبدو أن عدد الأصوات السلبية كان اكثر جداً من عدد الأصوات الايجابية ، وهذا ما أدهش الجميع . كثير من الاستنكافات . ذلك ان الناس كانوا منزعجين ان يقولوا « نعم » كما ان يقولوا « لا » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعدت الى الفندق ، وأنا بعدُ في هذه الحالة الغريبة من الضيق . لاريب في ان هناك اناساً يحسّون جلْدهم هكذا ، بصورة طبيعية ، حائلاً بينهم وبين العالم ؛ ولابدّ ان كل شيء ، في هذه الحالة ، مختلف . هذا المساء ، كان ثمة اشمئزاز في كل مكان : مثال ذلك يد المرأة تلك التي كان هيكلها بارزاً جداً والتي كانت تخلّل أصابعها في شعرها ؛ كان الشعر نبتة ، ذات جذر في جلد الرأس . وفيما كنت أستسلم للنوم ، كانت كلمة « جذر » ساحرة وفظيعة .

الاثنين ٦ أيار

نتيجة الاستفتاء : لا بنسبة ٥٢ ٪ مقابل ٤٨ ٪ نعم ؛ و ٢٠ ٪ امتناع . ولقد سارعت أبحث عن الصحف فاذا بصحيفتي « الاومانيته » و « البوبيلير » نافدتان ؛ وبالطبع ، كان اليمين مسروراً .

تناولت الغداء في « بوتي سان ـ بنوا » مع ميرلو ـ بونتي الذي دافع عن وجهة النظر الشيوعية ؛ ثم انتقلنا الى فلسفة سارتر التي يأخذ عليها انها تفتقر الى كثافة العالم . وذلك ما يوقظ رغبتي في ان اكتب دراستي ، ولكني متعبة ، لا ادري لماذا . اما صحة سارتر فقد أصبحت ممتازة ؛ وقد حلق ذقنه وارتدى منامة جميلة زرقاء جديدة . وقد ترك له جينيه المجلد الرائع الذي طبعه « باربوزا » : « أعجوبة الوردة » في حجم كبير وحروف ضخمة سوداء ، وعناوين حمراء .

في الساعة الرابعة صعدت الى غرفتي ، وكنت من فرط التعب بحيث نمت ساعتين كاملتين ، ثم أخذت في العمل ، وفجأة صعدت الى رأسي كومة من الافكار . وعند العاشرة هبطت لأرى سارتر . كانت غرفته معتمة تماماً ، ليس فيها غير مصباح صغير فوق رأسه . وكان جينيه ولوسيان موجودين ولم يكن معروفاً ماذا حلّ بمخطوطة « مواكب دفن » التي كانت قد سُلّمت الى غاليمار ، وقال جينيه انه سيُحدث شراً كبيراً اذا كانوا قد أضاعوها له .

الثلاثاء ٧ أيار

شاي ، صحف ، عمل . بدأ سارتر يعمل في لوحاته الوصفية لاميركا ، [1] مما أتعبه بما فيه الكفاية . ومرّ جينيه بغرفتي فأخبرني انه تشاجر مع دارغاليمار بصدد مخطوطته الضائعة ؛ ولقد هاجمهم وأضاف : « ومما يزيد الطين بلّة ان موظفيكم يسمحون لأنفسهم بأن ينعتوني « بالممحون ! » وأسقط في يد كلود غاليمار ، ولم يدر ما يفعل .

قصدت بوجون مع بوست . ولقد اجروا عملية جديدة لادخال الهواء الى صدر اولغا ، ولن يعرف قبل الغد ان نجحت ام لا . واخبرتنا انها رأت في قاعة التصوير الاشعاعي فتيات شُقّت بعض انسجتهنّ واستُخرجت من أجسامهن قطعٌ معدنية ، وقد هزّها هذا هزّاً عنيفاً . وهي لا تستطيع احتمال ذلك النور الباهر في غرفتها ، وزجاج تلك النوافذ التي تتيح لمن في الممر ان يراقبوها .

في مقهى الفلور ، أراني « مانتاندون » عدداً من « اللابيرانت » نُشرت فيه مواعيد محاضراتنا في سويسرا مع صور جميلة لسارتر ولي . هنأت « دورامار » على معرضها الذي زرته امس الاول . وفي دار نشر غاليمار ، التقيت شامسون على الدرج ، فسألني عن صحة سارتر ، فقلت له إنه يشكو التهاب لوزتي الاذنين ؛ فجعل يهبط متقهقراً وهو يقول : « ولكن هذا يحمل العدوى ! » فقلت له : « جداً ؛ ولاشك في اني انقلها اليك الآن . » وأسرع يبتعد .

ولقد أفزعت كذلك « م » الذي كان يحمل لي مقالات لا قيمة لها عن انكلترا . زيارة « انسيرميه » ثم زيارة شاب يريد ان يكتب مقالات عن السينما ، وزيارة شاب وفتاة أخذا يرويان بأغان حوارية لياليهما الغرامية ، وزيارة ريريت نيزان . ولقد حملت لي رسالة كتبها نيزان الى ذويه حين

---

(١) وقد تركها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان في السابعة عشرة : وفيها يروي محادثة مع سارتر يصرّح فيها كلاهما ، وهما جالسان على درجات سلّم ، انهما كانا من فريق السوبرمان ، ثم يعرض جميع الاعتبارات الاخلاقية التي تلي ذلك . وعلى السلم ، سألتني فتاة زعمت انها تلميذة قديمة لي كيف أرى مستقبل فرنسا ، وذلك لحساب معهد غالوب ، فأجبتها بأني لا أراه . فوجدتْ هذا الجواب ، على ما يبدو ، عميقاً جداً . وقلّبتُ مع سارتر رسائل ومخطوطات عُدت بها من المجلة ، وكان بينها فصلان كتبتهما لويز وايس وفيهما المقطع التالي : تلتقي فرنسية ، في اثناء الهجرة ، عشيقها القديم اندلو وهو مرتدٍ الزيّ الألماني العسكري : « فيقول اندلو الذكي الوقح كما كان دائماً — ولماذا تراه يتغيرّ ؟ — يقول مبتسماً : يخيّل إليّ انك بحاجة الى حمّام . فتحسّ بلانش الإهانة » وفي هذه المخطوطات كذلك « مذكرات انسان غامض » وهي قصة جنديّ من الصف الثاني كان أسير حرب ؛ وسننشر منها الفصل المتعلق بحياته في المزرعة . قصائد ، قصص ، تحقيقات . ويُرسل « وجودي » في السابعة عشرة من عمره قصيدة تبدأ بهذه العبارة : « الفراغ ينزع نحو الامتلاء » .

زيارةِ جينيه وباربوزا . سلّمتني صاحبة مقهى الفلور كتاباً صغيراً لجان فيري عليه عبارة اهداء لطيفة جداً . واسم الكتاب « النمر الاجتماعي » وقد أحببته كثيراً .

٨ أيار

صداع خفيف ، ولكني مع ذلك أعمل جيداً . إن هذا القسم الثاني يكلفني جهداً ومشقة ، ولكن يهمني ان اكتشف افكاري الخاصة .

سارتر يسير خطواته الاولى . وقد ذهبنا نتناول قدحاً في الحانة المارتنيكية ، فيما نحن نتحدث عن المجلة و « الاخلاق » .

وقضينا السهرة في غرفته مع بوست . وقال بوست إن آرون واولفيبه

لا يباليان بالشكل الذي يعيش فيه الناس ، ولا بتعبهم ولا ببؤسهم ؛ فذلك كله غير موجود في نظرهما . وروى لنا أن مستأجري فندق شابلان قد تعرّفوا أنفسهم في مقالته بـ « كومبا » على الرغم من انه وقّعها باسم مستعار ، وانّ الغضب مستبدّ بهم . وتناقشنا من جديد حول الشيوعيين . سوف نصوّت لهم ؛ ولكن يبدو من المستحيل بالمقدار نفسه ان نصل الى تفاهم ايديولوجي . تنبؤات طويلة . إن مسألة علاقتنا بهم جوهرية لنا ، وهم لا يسمحون لنا بأن نعطيها حلاً . إنه طريق مسدود .

٩ أيار

يزعجني ان أصاب بالصداع ، لمجرّد أن أعمل ساعتين وحسب ؛ على ان ذلك يثير اهتمامي . وقد قمت بعد الظهر بنزهة مع سارتر ، وصعدنا الى بيت امه ، فأعجب بغرفته المقبلة . وفي المساء لمحت لامبور في مقهى الفلور فطلبت منه تحقيقات ، كما رأيت « زيت » مع ليريس . اما بوست فمضطرب جداً لأن قصة فندق شابلان تتفاقم ؛ وقد جاء اشخاص الى « كومبا » يطلبونه ليدقوا له عنقه ...

١٠ أيار

اتى فيتولد لمقابلة سارتر ، وجرى النقاش عن امكانية القيام بدورة في ايطاليا وتقديم « جلسة سرية » في سويسرا ؛ وتردّد فيتولد لأن عليه الاهتمام باخراج فيلم في حزيران . وتناولت الغداء معه عند « ليب » ثم عدت اصطحب سارتر الى مقهى « الدوماغو » حيث جلسنا على السطيحة وكان الطقس جميلاً جداً . وجعلنا نُصلح ما تمزّق من اوصال « موتى بلا قبور » لنعطيها الى « ناجيل » الذي يتولى ضربها على الآلة الكاتبة . وفي المجلة ، كانت ثمة حركة صاخبة . إن فيتوريني يزور « التان مودرن » بصحبة « كونو » و « ماسكولو » ؛ وهو يبدو خجولاً ولا يحسن التحدث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالفرنسية . ويعبّر عن أسفه لأن نكون مدعوين الى ايطاليا من قبل بومبياني الذي هو ناشر رجعي ، ثم قال : « لو كان « حزبي » هو الذي دعاكما لتنزّهتما بالسيارة في كل مكان . لقد تنزّه ايلوار في كل مكان » وقرّرنا ان نتبادل محلّتينا ، وان نلتقي في ميلانو وان نعدّ عدداً خاصاً بايطاليا .
وتدفّق الناس على المجلة ، وجاء غاستون غاليمار ؛ وكنت قد أطللت على مكتبه ، ولكني ما لبثت ان فررت ، بعد ان صافحت مالرو وروجيه مارتان دوغار : لقد كانا يحملان معهما عبئاً ثقيلاً من الجدّ ؛ اما غاستون غاليمار فقد كان كهفه يبعث رائحة بخور . وكان يريد ان يحدّثني عن جينيه الذي كان قد ارسل له رسالة شتم ، بعد حادثته مع كلود . وكان يكاد يعتذر إليّ ، ويؤكد ان المخطوطة لم تفقد . وتحدثت مع عدد كبير من الناس . وكان ثمة الشاب والفتاة الماجنان ؛ وكان الشاب يحمل لي قصة ، وقد سألني بصوته الساذج المغني :
— هل سيصوّت سارتر لي ، من أجل جائزة « البلياد » ؟
ودبرت بعض الأمور مع رينيه سورال[1] التي كانت رائعة الجمال ، متطايرة الشعر ، ولمحت ليريس ، وحملت لبولان مخطوطة ناتالي ساروت ؛ فكتب عليها بخطّه الجميل العنوان واسم المؤلفة ؛ ومن قبيل المعجزة انه كان آنذاك وحيداً .

التقيت كونو وزوجته في « بون رويال » عند الساعة السابعة ؛ وكان ثمة جورج بلن الذي حدّثني عن « الجنس والوجودية » ، وأطلعني على صفحات طيبة من مجلة كان « وال » على وشك إصدارها . وينتقد وال « الوجود والعدم » بروح تحليلية أخاذة ، من مثل : « إن المقطع الاول من الصفحة ٦٢ مقطع جيد ، ولكن السطر العاشر ضعيف » وقد شربت ثلاثة أقداح من « الدجن — فز » وكنت منتعشة جداً . وكان العدد الثامن من المجلة قد صدر ، وكان الرأي انه عدد طيب .

---

(١) وكانت آنذاك سكرتيرة تحرير « التان مودرن » .

طـُلي الفندق من جديد ، وكان يزداد جمالاً يوماً بعد يوم ، وهناك الآن خادمة جميلة سمراء وكانت زبونة قديمة ، وقد لحقتها بعض المصائب ، واخرى شقراء شديدة الحيوية . لكأننا في ماخور . واما ذات الشعر الأحمر ، فقد اختفت .

السبت ١١ أيار

لا يجري العمل كما أشتهي ؛ انني متعبة ؛ كم هو مزعج ان يلتقي المرء عقبات في رأسه . غداء عند « ليب » مع سارتر وبونتاليس . التقينا في مكتبة « اوديت ليوتييه » دولان وهو يوقّع كتبه ، وكانت كامي قد نظمت المكتبة وزينتها بالأقنعة والصور وعشرات الأشياء الجميلة ؛ وكان دولان جميلاً نضراً ، وكان السرور بادياً عليه ، وسط جمع المعجبين به . في الشوارع بعض الأعلام ، بمناسبة « يوم النصر » ؛ كم أنّ ذلك محزن !

أودّ لو أشتغل ، ولكني أنام ، وبي صداع . وعند الساعة السادسة ، أهبط الى غرفة سارتر ، فأجد عنده ناتالي ساروت ، متموّجة الشعر ، ترتدي ثوباً ازرق اللون من قطعتين ، وهي تشرح في ثقة أننا قصر كافكا ؛ إن لكل منا ، على سجلاتنا ، رقماً لا يعرفه ؛ ونحن نعطي هذا عدداً معيناً من الساعات كل عام ، ونعطي ذاك عدداً آخر ، ومن المستحيل ان نحصل على ساعة زيادة ، حتى ولو ألقى احدنا بنفسه تحت باص . وتوصّلنا الى اقناعها ، بعد ساعة من البراهين ، باننا نكنّ لها صداقة . والحق انها تعترف بأننا في نظرها تجريد من التجريد وانها لا تكترث بشخصينا العَرَضيّيْن والبشريين . فنحن لسنا شيئاً آخر غير « المعبود ــ الممسحة » ، وتحدّثنا عن مقالها حول فاليري الذي سيكون بلا شك طريفاً .

تناولت الغداء مع بوست في « غولف ــ جوان » فالتقينا بغاليمار وزوجته ومعهما باديل . ورأينا جنديّ « جيش الخلاص » الأعور يبيع نسخة من التوراة بلحان غاليمار .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأحد ١٢ أيار

لا أجد الوقت لكتابة هذه المذكرات. وأنا لا أكاد أسجل الحكايات. السماء ملبّدة، وشجر الكستناء بدأ يفقد أوراقه.

عملت هذا الصباح بعـــد أن قصدت مقهى «دو ماغو» حيث اشتريت السكاير وخبز يوم الأحد. والتقيت فيه ظهراً بانييز الذي حمل مقالاً مسلّياً جداً عن تاريخ المجلس التشريعي. تناولت الغداء مع سارتر عند «ليب»؛ ومرّ فيتولد ليناقش مشروعات سويسرا وايطاليا. تناولنا القهوة في «مونتانا». عمل. وكنت أحسّني ملآى بالحمّيا لأنّ الصداع قد زال عني أخيراً. واستعدت كل شيء منذ البدء، وتلك هي أطرف لحظة، اللحظة التي ننقل فيها الكلام، فيتخذ له شكلاً. في الساعة السادسة اجتماع «التان مودرن» في غرفة سارتر. وكانت أمه قد أعدّت نوعاً من الزلابية وأتيت أنا بكونياك. وكان من الحضور «فيان» الذي حمل معه بوقه، وهو سينفخ فيه في «بوان غاما» ليكسب حياته. كانت «مقالة الكذاب» التي كتبها سهلةً ولكنها طريفة. وكان ثمة بولان وبونتاليس وفيفييه وصديقه الذي ذهب إلى أننا لا يسعنا أن ننتقد شتاينبك على أنه كتب «أقذفوا القنابل» باعتبار أن الكتاب قد فشل. وفكّر الحاضرون بامكانية دراسة الأدب «الملتزم» الأميركي: كيف حدث لشتاينبك ودوس باسوس وفوكنر أن تجنّدوا وقاموا بالدعاية لحساب «الدولة». وحضر كذلك روجيه غرينييه وكذلك بوست في الساعة السابعة والنصف، كأنه الزهرة، حين كان كل شيء قد انتهى: كانت الأجزاء الثلاثة القادمة قد امتلأت حتى الانفجار.

بقي بوست معنا. وذكر أن أولغا استقبلت بعض المريضات الصبايا، فاستوقفتها القسوة التي كنّ يتحدّثن بها عن مرضهنّ. وهنّ يقلن إن الرجال أقلّ صبراً على المرض من النساء. وغالباً ما يكون ثمة من يتأرجح

من فوق حاجز الشرفة ، بالرغم من ارتفاعه والتوائه نحو الداخل . وتجري المغازلة على قدم وساق بين الطابق الحادي عشر والعاشر الذي ينزله الرجال . وكثيراً ما تبدو ثمة مشاهد يظهر فيها الجميع بملابسهم الداخلية أو مناماتهم . وهم يحتقرون المرضى الذين ليسوا مصابين بالسلّ ؛ ويحترم بعضهم البعض الآخر بالنسبة لدرجة مرضهم وطاقتهم المعنوية على المقاومة .

١٣ أيار

فكرت وقتاً طويلاً : « ها أنا ذي محبوسة في حلمي ؛ ولن أنجح في أن أجدني مرة ثانية في غرفتي . » وكان ثمة ما يشبه السياج حول سريري . واستيقظت أخيراً ، ولكن الوقت كان متأخراً ، التاسعة تقريباً . وكنت صافية المزاج لأنني لم أكن بعدُ متعبةً على الإطلاق . وكان سارتر يتحسّن كثيراً ، وسوف نسافر يوم السبت إلى سويسرا . وقد دعانا رولان إلى كونستانس وهو يقول : « سنكون بلا كلفة — مع هرفيه وكورتارد . » ولم يكن في صوته أية سخرية : فالشتائم المكتوبة لا حساب لها .

تناولنا الغداء في « الكاسك » مع جياكومتي .

إننا نتساءل كيف سيكون استقبال بريتون بعد عودته إلى باريس . لقد ذُعر اراغون من ضآلة الحماسة التي قوبل بها كتاب « لا أحد يحبّني » ؛ وهو يعتقد أن ثمة مؤامرة فاشية .

وجدت في مقهى الفلور ثلاثة كتب أميركية ضخمة سنختار منها نصوصاً لريتشارد رايت تنشر في عددي آب وأيلول .

عملت من الثالثة حتى السادسة . وقصدت الفلور لأرى مانتاندون من أجل تنظيم رحلتنا إلى سويسرا . ولمحت سالاكرو مع صوفي ديماريه ، وكانت حمراء الشعر جميلة . وعدت إلى غرفتي لأكتب هذا . واني ألاحظ وأنا أعيد قراءة بعض المقاطع أنها لا تعني شيئاً . ينبغي ألاّ آمل ن تكون هذه الكلمات مختلفة عن سواها ، وأن تكون لها الطاقة السحرية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي تحفظ فيها الحياة ، وأن الماضي ينبعث بفضلها . لا . إن هذه الخمسة عشر يوماً الماضية ليست بعدُ بالنسبة لي إلا جملاً مكتوبة ، لا أكثر . وإلاّ وجب عليّ أن أتنبّه حقاً إلى طريقة السرد . ولكن ذلك سيكون أثراً أدبياً ، وأنا لا أملك الوقت لذلك .

تناولنا العشاء مع بوست في غرفة سارتر ، بيضاً ولحماً . ولقد رجع بوست الى فندق شابلان ، بعد ان تفاوض مع جانيت التي رقّت قليلاً . ورأى رايت على سطيحة الفلور هذا الصبح فضحك له رايت في وجهه ؛ ويبدو انه يضحك دائماً ، ولكن هذه طريقة لعـــدم الإفصاح . وخطّ سارتر وبوست ، كلّ بدوره ، فرقاً في وسط الشعر ليثبت أن ذلك يكسب المرء هيئة بليدة ؛ وهو على الأخص يؤنّث الهيئة ، مما يدعو الى الفضول. وتحدث بوست عن الروايات التي لا يزيد ثمنها عن اربعة دراهم والتي كان يكتبها منذ عامين ؛ كان يؤلفها في يومين ، مقابل ١٥٠٠ فرنك ؛ وكان منها رواية عنوانها «لم تكن ايفا الا جميلة » وقد أرانا رسالة من شخص يُدعى جول روي كان يهنئه فيها ؛ ورسالة اخرى يشكو فيها كاتبها ان اعلانات الارشادات في مفوضية الدائرة السادسة عشرة موضوعة في غير امكنتها ؛ لقد نال كتابه نجاحاً كبيراً . وعند الساعة الحادية عشرة ، تورّدت عينا سارتر ، لا من غير بعض التصنّع ، فتركناه ينام . وذهبنا نشرب قدحاً لدى « شيرامي » حيث قدّم لنا جنرال غريب قدحاً آخر . وحدّثني بوست عن روايتي التي حملها اليوم اخيراً الى دار غاليمار ؛ لقد أحبّ كثيراً فصل الهنود ، ولكنه يجد البداءة طويلة بعض الشيء . ويرى بونتاليس ايضاً ان طابع التحقيق فيها اقوى مما ينبغي .

عدت الى غرفتي عند منتصف الليل ، وقضيت ساعة وأنا اقرأ هذه المذكرات واكتبها . اودّ ان أعنى بها اكثر من ذلك . انني مرتاحة في سريري ، مترنحة بعض الشيء من النعاس ، عبر الكلمات . وانا أسمع المطر في الخارج ، يسقط خفيةً ، وأسمع وقع أقدام بعيدة . سأشتغل

غداً ، وعما قريب أذهب الى سويسرا . انني مسرورة ، حتى لا أتغيّر . اودّ في هذه اللحظة ان يكون لديّ وقت طويل لكي اكتب .

الثلاثاء ١٤ ايار

يقظة رمادية . فكرت في جميع الترتيبات التي ينبغي لي أن اقوم بها ، وانا اكره خصوصاً التفكير في القيام بها ؛ لاسيما واني افكر بها طويلا لأنني لا أقوم بها . ذهبت أجلب الصحف . هناك مقال سيء النية كتبه شخص يُدعى بنغو[١] عن رواية بوست . ويقول الكاتب إن بوست هو طبعاً وجودي ما دام قد أهدى كتابه الى « روسية مقهى الفلور » ؛ ثم إن سارتر قد امتدح الرواية ـ الريبورتاج امتداحاً كبيراً في العدد الاول من « التان مودرن » الذي نشرت فيه « آخر المهن » . ومقال سيء النية ايضاً كتبه « كليمان » عن الوجودية . وقد عثرت في احدى الخزانات على مخطوطة « دم الآخرين » التي سأعطيها لأداموف ليكون ريعها لصالح « أرتو » ؛ إنها مخطوطة لذيذة ، مشطبة وممزّقة ، مكتوبة على كومة من الأوراق ذات القطع المتغيرّ ، بأنواع مختلفة من الحبر بل ومن الخطوط . انها تنبض بالحياة ، حين توضع الى جانب كتاب ؛ إن المرء ليدرك أنها قد خرجت من جسمك حقاً ؛ وهي تُلصِق بها ذكرى بعض اللحظات التي كُتبت فيها . وأتصفّح « بلاك متروبوليس » لأختار بعض النصوص التي ستدرج في العدد الخاص بالادب الاميركي . كم اودّ لو يتوفّر لي الوقت للمطالعة .

مساعٍ للسفر . عمل في مقهى « بون ـ رويال » . وعند الخامسة والنصف صعدت الى المجلة . كان ألكييه وبويون يتناقشان مع سارتر حول السياسة الشيوعية .

مرّ أرون لفترة قصيرة ؛ وأقبل موهريان يأخذ « صورة المناهض

(١) وقد أصبح منذ ذلك الحين صديقاً لنا وهو يشارك في ادارة « التان مودرن » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للسامية » ومقالاتي الأربع التي ظهرت في « التان مودرن » . وهبطت ثانية الى « بون – رويال » لأرى « فيان » الذي حمل لي روايته وكتاباً اميركياً عن الجاز ، سنترجم فصلاً منه . انه يتحدث عن الجاز بهوس . وقال لي إن في اميركا تمثيليات اذاعية جيدة جداً ، قد تكون ساذجة بعض الشيء ، ولكنها لذيذة ، كمسرحية الدودة الصغيرة التي ترقص على نغمة yes, sir, it's my baby او مسرحية الصبي الصغير الذي يبحث في الكواكب عن كلبه الذي سحقه باص يلاحظ الناس في آخر لحظة انه سحق هو ايضاً . إنه سيكتب مقالاً حول هذا . وروايته[1] لذيذة جداً ، ولاسيما محاضرة جان – سول بارتر وعملية القتال مع « نزّاع القلوب » . واحبّ كذلك وصفة « غوفيه » : « خذ مصراناً صغيراً ، فاكشطه رغم صراخـــه » .

في الثامنة أعود مع سارتر الذي كان متعباً جداً . إنها لحظة لطيفة من لحظات المساء مع الأوراق المبلّلة ، والأنوار الخضراء والحمراء ، وبعض الشبابيك المضاءة ، وأثارة من النهار في السماء .

وأخذنا نأكل لحم خنزير ونحن نتفحّص الغنيمة الملمومة في المجلة . هناك قصص ، رديئة ؛ ومقال جيد جداً لبويون عن « دعوى نورمبرغ » ومقال طيب لبال بعنوان « بيتيو » ؛ اما مقال بونج « Ad Litem » فليس فيه كبير غناء . يمرّ بنا بوست . إن اولغا مصابة ببعض المضاعفات ، وهي تجد نفسها غير معتنى بها في هذا المستشفى ، ويجب ان تغادره بلا تردد . وروى لنا أنه قد حدث أمس تمرّد في سجن اميركي قتل فيه خمسة معتقلين ، ولكنه حين ذهب يستعلم الخبر ، أنكره الضباط في غضب .

ألقى توريز خطاباً في السوربون بمناسبة ذكرى ديكارت ، فطالب به قائلاً : إن ديكارت هو فيلسوف مادي كبير .

---

(١) « زبد الايام »

١٥ أيار

ساعتا انتظار في المفوضية السويسرية ، ولكنهما انقضتا بسرعة اذ كنت أقرأ « زبد الايام » لفيان الذي أحببته كثيراً ، ولاسيما قصة « شلويه » الذي يموت وفي رئته نيلوفر ؛ لقد خلق عالماً له ؛ وهذا نادر ، وهو يؤثر فيّ دائماً . والصفحتان الاخيرتان تأخذان بمجامع القلب ؛ اما الحوار مع المصلوب فهو معادل الا « لا » في « سوء التفاهم » لكامو ، ولكنه أكثر تحفّظاً واقناعاً . إن ما يستوقفني هو حقيقة هذه الرواية ، ورقتها الكبيرة .

غداء وقهوة مع سارتر عند « ليب » وفي « الفلور » و « شيرامي » . اشتريت دليلاً جميلاً ازرق لسويسرا ؛ إن ذلك يسحرني ويحزنني في الوقت نفسه لأني أعرف ان هناك أشياء كثيرة يجب ان تُرى ولا أستطيع ان أراها . أخشى ان يكون السفر رسمياً بعض الشيء . غير اني مغتبطة مع ذلك .

استوقفني في السلّم شاب طويل يحمل مظلّة ليسألني عما كان سارتر يعنيه بكلمة « جوهر » ، فأحلته على « الوجود والعدم » ، فقال لي إنه قرأه ، ولكنه لم يكن يريد ان يكون سطحياً ، ولذلك فهو يريد ان أعطيه تعريفاً بأربع كلمات . وذلك من أجل صحيفة في ستراسبورغ .

الخميس ١٦ أيار

الربيع يعود . حين ذهبت لأشتري سكاير ، رأيت أضاميم رائعة من الهليون غُطّيت حتى منتصفها بورق أحمر على ارضية من ورق أخضر في عربة من عربات الفصول الأربعة ؛ انها جميلة جداً . نادراً ما احسست بمثل هذه اللذة للكتابة ، ولاسيما بعد الظهر ، حين اعود في الرابعة والنصف الى هذه الغرفة التي ما يزال جوّها كثيفاً من جرّاء دخان الصباح ، وحيث يوجد على الطاولة الورق الذي يغطّيه الحبر الأخضر ؛ والقلم والسيكارة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لذيذان بين أصابعي . واني أفهم جيداً ما قاله « دوشان » حين سأله بوست أليس هو آسفاً لانقطاعه عن الرسم : « انني متحسّر على اصبع اللون حين يُضغط فينسحق لون على الخشبة ؛ لقد كان ذلك لذيذاً » إن الجانب المادي من الكتابة لذيذ . ثم انني حتى داخلياً يخيّل اليّ انني أحسّني أتحلّل ؛ وربما كان ذلك وهماً . على اي حال ، أحسّ بأشياء ينبغي ان تُقال . وهناك كذلك مشروع رواية بدأت تولد أمس ، اذ كنت عند « شيرامي » .

معرض كيرماديك . عشاء في « الكاتالان » مع سارتر وبوست اللذين يتكلمان بوقاحة امامي عن نيويورك .

١٧ نوار

في الفلور ، تعرّفت ظهراً الى « سوبو » وكان معي سارتر . يطيب لي دائماً ان ارى شخصاً أعجبت به وأنا في العشرين ، وكان يبدو لي في غير المتناول ، وهو مع ذلك انسان من لحم ودم ، انسان ينضج . وسألني سوبو إن كانت لديّ رغبة في الذهاب الى اميركا . ووعد بان يسعى لدعوتي الى زيارتها في تشرين الاول إن كنت حقاً اريد ذلك ، وهو يسلّي سارتر إذ يبدو حذراً من رخاصتي وضعفي . بالطبع اريد زيارة اميركا ، وقد ألححت ، وأنا اتمزق رغبة في السفر اليها ، وانا في الوقت نفسه احسّ بعض الضيق اذ أفكر في الذهاب لمدة أربعة أشهر .

قرأت هذا الصباح في « كافالكاد » مقالاً كتبه « مونورو » عن سارتر ، وهو سخيف وسامّ . وأصداء عن مقال « مونين » الذي قيل عنه إنه هزم سارتر ؛ انهم يلقون الكلام على عواهنه . وفي مجلة « الليتارتور » تحقيق قام به بول غوث مع خريجي دور المعلمين ، وكان فيه كلام عن سارتر . ووسط مقال « بيللي » عن « ادب الميتافيزيقا » رسمٌ يمثلني وأنا سمينة مترهّلة . غداء في « غولف جوان » مع بانييز . بانييز يدافع عن

النزعة الاصلاحية .

في المجلة ، عملنا في إخراج العدد التاسع ، عظيم هو عدد النصوص التي بين ايدينا الآن ، اشخاص يلمون بنا ولكنهم لا يبقون طويلاً ، فننصرف الى العمل بهدوء . يبدو ان « نيرون » خرج من السجن ، كما اخبرنا ميرلو – بونتي . وقد شربنا قدحاً في « بون – رويال » مع ليريس وزوجته وكونو وزوجته وجياكوميتي . عشاء في « الغولف جوان » مع جياكوميتي وبوست . تناقشنا طويلاً حول دعوى ذلك الثريّ الذي قتل بستانيّه برصاص بندقيته ، لأنه كان عشيق ابنته ، وكانت الفتاة في السادسة عشرة ، وكانت تكتب رسائل بلغ من مجونها انه لم تُستطع قراءتها في المحكمة ؛ اما البستاني فكان في السادسة والثلاثين ، وكان من المحكومين سابقاً ؛ وقد ذهب الاب يكمن في غرفة ابنته مع أخيها ، ثم قتلاه . وقد اخطأ الابنُ الرجل مرتين ، اما الاب ، فقد ادرك منه مقتلاً . وقد حكم عليه باربعة أعوام في السجن فقط ، وبثلاثة أعوام على الابن مع وقف التنفيذ . وقد جعل سارتر بوست يضحك حتى سالت دموعه حين ذهب الى ان هذه الجريمة هي نتيجة الانتخابات الأخيرة ، وأن الاب ، منذ التحرير ، يُحسّ نفسه في عالم يدعو الى الثورة ، وان هذا القتل قد عبرّ عن ذروة تمرّده . وهنا سرد جياكوميتي قصة الرقيب برتران الذي كان في الظاهر شديد الرقة والتعقّل ، ولكنه كان كل ليلة ينبش جثثاً في المقابر ، فيقطعها ويقضمها ؛ وهو لم يعاقب الا بتهمة انتهاك حرمة المقابر ، باعتبار ان تقطيع الجثث وأكلها غير منظورين في القانون . وتحدّث عن بيكاسو الذي كان قد رآه مساء أمس فأطلعه على بعض رسومه ؛ ويبدو أنه ، ازاء كل عمل فنيّ جديد ، يشبه مراهقاً يكاد يكون مبتدئاً في اكتشاف موارد الفنّ . وهو يقول : « أحسب أني بدأت أفهم شيئاً ما ؛ فللمرة الاولى نفـّذت رسوماً يبدو انها حقاً من الرسم . » ويغتبط حين يقول له جياكومتي : « نعم ، إن هناك بعض التقدّم » وأنهينا السهرة عند « شيرامي » . ولكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المذكرات هنا لا تنفع شيئاً ، كما كنّا نقول مع بوست ؛ لقد كنا بحاجة الى آلة تسجيل لحفظ الأحاديث الشائعة بين سارتر وجياكومتي .

١٨ أيار

انني مسافرة هذا المساء الى سويسرا . وهاقد انقضت ثلاثة اسابيع تقريباً من غير ان اغادر غرفتي ، ومن غير ان أرى احداً الا سارتر وبوست . ولقد كان ذلك مريحاً ومثمراً . انني بعد ظهر هذا اليوم في مكان مرتفع من مقهى الفلور ، قرب النافذة ، وأنا أتطلّع الى الطريق المبتلّ ، وشجر الدلب الذي تحرّكه ريحٌ قاسية ؛ هنا كثير من الناس ، وفي الطابق الارضي ضجة كبيرة ؛ انني لا أحسّني مرتاحة هنا . ويخيل إليّ انني لن أعود الى الكتابة قط على نحو ما فعلت طوال هذه الأعوام . جاء بوست ليصطحبني . وكان قد تلقى رسالة قصيرة من « جيد » يهنئه فيها على « آخر المهن » . وأطلعني كذلك على عدد من جريدة « لارو » التي أسّسها « جول فاليس » والتي لن تخرج الى السوق الا بعد فترة : وانما قد اصدروا هذا العدد « ليحتفظوا بحق الامتياز » وكان فيها أشعار لبريفير ومقال لنادو ورسوم لهنري وشكوى لكونو تحت عنوان « إنني حمار مسكين » . وقصدنا بوجون ، فحدثتنا اولغا عن المرضى الذين تراهم . وروت ان امرأة شابة ، هي أمّ لولدين ، قد طلبت امس اجراء تجميع للهواء في صدرها ، فحاولوا ذلك ثلاث مرات ولكنهم لم ينجحوا ؛ وقد أصيبت بغشية من اليأس ، وظلت ثلاثة ارباع الساعة مغمى عليها . وجاءت ريفية صغيرة وهي تحسب ان احدى رئتيها فقط كانت مصابة ؛ وحين قالت لباندا الذي كان قد رأى صورة صدرها : « انني آتية لاجراء عملية تجميع الهواء » سألها « في اية رئة ؟ » وهكذا عرفت ان الرئتين كلتيهما مصابتان . وقالت اولغا ان أسوأ ما في الأمر ان الانسان المصاب يستسلم شيئاً فشيئاً ، بمقدار ما يفقد من الحيوية .

قطار الى لوزان. نحن وحيدان في الحافلة مع فتاة سمراء صغيرة السنّ ظلّت طوال الليل تشد محفظتها الى صدرها؛ انها تنام جالسة. اما أنا، فأتمدَّد وأنام نومة مريحة. وأتذكر سفرةً الى الليموزان، حين كنت في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة، وكنت قد قضيت الليل كله ووجهي ملتصق بالزجاج، آكل الفحم وأحسّني متفوقة على الأشخاص الكبار المخدّرين بحرارة الحافلة. اني اذ اذكر مثل هذا أحسّ اني قد شخت. ولقد برز ذات لحظة قمر جميل لامع وسط سماء مخططة بالغيوم؛ وعند الصباح ظهرت جبالٌ في فجر رمادي متورّد.

* * *

انزلتنا دار نشر «سكيرا» التي نظّمت لنا هذه الدورة من المحاضرات في فندق قريب من البحيرة في جنيف. وكنت ارى من نافذتي اوزّاً جميلاً ورقعاً منبسطة تغطيها الازهار. ولقد شُدهت من رفاهية سويسرا، وكتبت أقول: «إن من ألذّ الأشياء واشدّها قابلية للنسيان ان يستطيع المرء ان يأكل اي شيء، في اية لحظة» وبعد ذلك: «أية لذة ان يستطيع المرء ان يتناول العشاء بعد السينما؛ ان ذلك يذكّر بعهد ما قبل الحرب!» وقد كان بوسعنا في مطعم «الغلوب» ان نطلب ويسكي على هوانا وانواعاً مختلفة من المشروب، وكل ما نشاء؛ وكانت ثمة لافتات تعلن: خبز محمّص بالكافيار الروسي. وكنت اتذكّر يوماً من عام ١٩٤٣ قرأت فيه على لوحة ارشاد: «جنيف، ٩ كيلومترات» وكنت امرّ ببلدة انيماس، فانفعلت لذلك انفعالاً شديداً؛ وكنت ارى «الكورسال» مضيئاً واشعاعات لافتات النيون. وفي لوزان أخذونا الى حانوت تاجر للملابس «بالمراسلة ووفقاً للأمزجة»؛ فاشترى سارتر ثوباً ومشمعاً، واشتريت أنا فستاناً من التوسور الأخضر، وتنورة من القماش المثلث الألوان، وابتعت في جنيف حذاء من الجلد الرائع وحقائب وساعة ذات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجه أسود وعقارب خضراء .

كثير من الأعباء الثقيلة في تلك الاسابيع الثلاثة : لم يكن ثمة فقط محاضرات ، بل تواقيع على الكتب ، وجلسات اذاعية ؛ وذات صباح ، تبعتنا آلة كاميرا طوال ساعتين تقريباً عبر الشوارع الناعسة في احياء جنيف القديمة ؛ ثم إنه كان ثمة حفلات عشاء واستقبالات وثرثرات . وكنّا نكنّ الودّ لسكيرا وزوجته الجميلة ؛ وكان يعرف السرياليين وقد طبع لهم كتبهم ، وكان يقول : « لقد كنت أنا المروّض » كان لامبالياً حتى الغيبة ومع ذلك شديد الحركة ، مهتماً اهتماماً مهووساً بالنساء ، محشوّاً دون ريب بالعقد تحت مظهره ، مظهر المستمتع بالحياة ، الأنانيّ ، وكان حديثه وقحاً وطريفاً حين كان يوافق على ان يفكّ ازراره . اما مع « مانتاندون » مدير مجلة « لابيرنت » فقد كنّا متفاهمين جيداً ، بالرغم من افكاره المسبقة عن الوجودية : كان منتمياً الى « حزب العمل » ، وكان ماركسياً ، وقد قال لنا : « إن جميع المثقفين السويسريين رجعيون ؛ لقد اردنا في اثناء الحرب ان ننظم مظاهرة ضد النازية ، فلم نجد اكثر من استاذين عجوزين للمشاركة فيها . من اجل هذا تسجّلت بصراحة في حزب شعبي » وتعرّفنا على بعض المفكرين الهامّين او اللطفاء . ولكن كان ثمة كذلك كثير من الأشخاص الذين اضطررنا الى معاشرتهم وكانوا يضجروننا بل احياناً ينفّروننا .

ولقد أزعجتني جداً الوقعة الاولى التي تناولناها في « الغلوب » : « كان طعاماً عظيماً بما احتواه من أنواع اللحم والمرطبات والمشروبات السويسرية اللذيذة جداً ؛ ولكن كان كئيباً جداً . إن « ب »[1] يبدو كريهاً جداً حين يتحدث عن القابلات العربيات اللواتي كان يسافر معهنّ في الشاحنات ، بافريقيا ، واللواتي كنّ يوضعن على حدة ، عند المساء ، « لأن رائحتهن كانت كريهة ؛ وكُنّ قد أُجبرن على اعتناق الكاثوليكية ، وكنّ يحتججن باسم الدين : « ولكن لنا ارواحاً مثلكم » ويقول « ب » :

(١) ضابط فرنسي ذو مركز رفيع جداً .

فلم نكن نكفّ عن الضحك ؛ وقد كان يروى ذلك بانبساط وتلذّذ لا يطاقان ؛ وكان يفخر بمناهضته للفيشية ويقول « انني فيشيٌّ الأصل ، ولكني لست فيشي النزعة » لحظة واحدة ممتعة ، هي حين روى مانتاندون مناقشة ميرلو ـ بونتي مع تزارا ، حول كتاب « الصفر واللانهاية » . كان تزارا يعتقد ان كوستلر جبان قذر : والدليل على ذلك انه استطاع في اثناء الحرب ان يدفع عن زوجته تكاليف اقامتها في المصحّ . وعند ذلك حطّم ميرلو ـ بونتي قدحاً وهو يقول : « اذا كانت هذه هي الحالة ، فالمناقشة غدت مستحيلة . » وهي بادرة ادهشتني ، لاسيما وان ميرلو ـ بونتي يستطيع ان يضع تزارا في جيبه : على انها بمطلق الاحوال رد فعلّ سليم . ولقد تعزّيت حين انتهى الغداء . إن الأمر أشقّ عليّ حين أكون مع سارتر مما هو حين أكون وحدي كما حدث في البرتغال وتونس ، لأنني افكر في اللحظات التي يمكننا ان نقضيها نحن الاثنين ، من دون الآخرين .. »

في اليوم التالي لوصولنا ذهبنا نتنزّه في ضواحي انترلاكن ؛ وبعد عودتنا ، استقبل سارتر رجال الصحافة : « حين هبطت الى الباحة ، كان ثمة بعض الناس متحلّقين حول سارتر : عدد من الصحفيين ، معظمهم شيوخ شديدو الحشمة . وجلسنا في القاعة القريبة من الباحة ، واقتعدت كرسياً الى جانب سارتر فكنا أشبه بملكين كاثوليكيين ؛ وقد وجدتنّا مضحكين بما فيه الكفاية ، وخاصة أنا . وفتح النار شيخ قصير ذو شارب أبيض ، فقال إنه لم يقرأ شيئاً من الوجودية وهو لا يعرفها الا بالسماع : « ولكن يبدو انها نظرية تسمح بكل شيء ، أليس هذا خطراً ؟ » وشرح سارتر . وكان الجوّ واضح العداء لنا . وكان ثمة بوجه خاص رجلٌ ضخم ذو عينين متغضّنتين برقّة ، يُظهر كل التفوّق الخائب والواقعي الذي يتميز به المحافظون المثاليون ، وقد حدّث سارتر عن تربية الاولاد : « هل ينبغي احترام حرية الاولاد ؟ » وكان مفهوماً ضمناً أن العامل ولد . (كان هذا الرجل هو غويون ، المستشار الخفيّ لبيتان ، كما اخبرنا فيما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد الملحق الصحفي، مظهراً غضبه ان يندسّ ذلك الرجل في المؤتمر الصحفي) واستغرقت الجلسة اكثر من ساعة بمعونة قليل من الفرموت والبسكوت بالجبن. وكان ثمة فتاة سمراء ذات ضفيرة طرحت بعض الاسئلة في لطف وودّ؛ اما جميع الآخرين فكانت تنبعث منهم رائحة الفاشستية او الدين. وجميعهم ضدنا من غير ان يعرفوا ما هي القضية. »

ولم أحضر محاضرة سارتر الاولى، فقد كنت في النزهة، ولكنه رواها لي: كان الحضور ١١٠٠ شخص؛ وقد أصغوا جيداً ولكنهم صفقوا قليلاً؛ وتحدّث طوال ساعتين، ثم شرب اربعة اقداح من المارتيني، وتعشى وقضى السهرة في المرقص؛ هو بالطبع لا يتذكر بعدُ شيئاً، إلاّ انه أعطى بعض النصائح الى سيدة معتبرة من مدينة «الشو دو فون» حول الحياة الجنسية لابنها. وكانت السيدة تخشى أن يجعل بعض الفتيات يحملن منه، فقال لها سارتر: «علـّميه اذن، يا سيدتي، أن ينسحب» فقالت: «بالفعل»، وسأقول له إن النصيحة صادرة عنك، وهذا ما يزيده اقتناعاً. »

وألقى سارتر في زوريخ محاضرة، وقدّموا على احد المسارح تمثيلية «جلسة سرية».

الاربعاء

اقبل «سكيرا» يلقانا في مطعم المحطة، وهو يرتدي قميصاً مدهشاً ذا خطوط، يصحبه رجلان من المكتبة الفرنسية، احدهما اسمر بطيء[1] والثاني أشقر نشيط، وكلاهما لطيف جداً؛ وكان معروضاً في واجهة المكتبة مقتطفات من الصحف والكتب وصور فوتوغرافية وكاريكاتورية تمثل سارتر. وقد ألصقت مجلة «لابيرنت» اعلانات على جدران المدينة، عليها اسم سارتر بحروف كبيرة حمراء. عشاء ومحاضرة. وقد دخل

(١) انه هارولد الذي اشتهر منذ ذلك الحين بمونتاجه التصويري.

سارتر وسط عاصفة من التصفيق ، فنزع معطفه ، كما ينزع ملاكم برنسه وهو متجه الى الحلبة ؛ وكان ثمة زهاء ستمئة شخص ، ولاسيما من الشبان ، الذين كان يبدو على هيئتهم الاهتمام الشديد. وكانت المكتبات في الساعة السادسة قد ضلّلت الصحفيين بلطف فأرسلتهم الى مكان لم يكن سارتر موجوداً فيه ، ولكنهم الآن يعودون ، وهم زهاء خمسة عشر ، الى طاولتنا ويرهقون سارتر بالاسئلة. وفي هذه الاثناء ، حدثني الأسمر بصوت بطيء حزين ، وقال لي انه كان شيوعياً ، ولكن أساليب الحزب قد نفّرته. وتناقشنا طويـــلاً حول كوستلر : عجيب كم يعود الانسان دائماً الى الموضوعات نفسها ...

الخميس

حوالي السابعة ، لقيت سارتر وكان عائداً من تجربة التمثيلية ؛ وأخبرني أنه أثار ذعر الجميع حين سقط في حفرة للجوقة الموسيقية عمقها ثلاثة أمتار ؛ وكانت الحفرة مغطّاة بشادر مشى فوقه فتمزّق ، ورآه الناس يغرق فيه. وقال صاحب المكتبة « وداعاً أيتها المحاضرة !.. » ثم رأوا سارتر، مذعوراً بعض الشيء ، يطفو من الحفرة.

وقصدنا المسرح. كانت القاعة غاصة. وقد جلست في الصف الثاني. وتحدّث سارتر عشرين دقيقة عن المسرح ، حديثاً جيداً جداً ؛ وكان يبدو على الحضور الرضى والسرور. وانتظرنا طويلاً قبل ان يرفع الستار ، ولاحظنا ان الممثلين لا يخلون من وجل وتهيّب. وكان شوفار يرتجف على ساقيه. وقد غيّرت بالاشوفا شعرها المستعار وفستانها ، فبدا طيفها افضل كثيراً من السابق. انهم جميعاً يتكلمون ببطء ، وفي النهاية يتأخر الستار طويلاً قبل ان يسدل. ولكنهم قد مثّلوا تمثيلاً ناجحاً ، وصفّق لهم الجمهور كثيراً. وذهبنا جميعاً نتناول العشاء في مطعم كبير مزدان بلوحات لبيكاسو وشيريكو وسواهما. وكان ثمة رجل يعرض مجموعته. وافترقنا في منتصف الليل ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فاصطحب سارتر واندا [1] وخرجت مع شوفار فذهبنا نشرب قدحاً في مقهى ارضي ؛ وكان مسروراً لأن دار «لافون» ستنشر أقاصيصه. لم تكن لديّ أية رغبة في النوم ؛ ولكنهم طردونا من المقهى ؛ ذلك ان كل شيء يُغلق أبوابه في زوريخ بعد منتصف الليل. كان المطر في الخارج يهطل، وكنا على وشك ان نفترق بحزن حين التقينا بصاحب المكتبة الذي كان يسير تحت مظلّة كبيرة. فاقترح ان نشتري زجاجة خمر ونذهب فنشربها في المكتبة. وقد بقينا فيها حتى الساعة الثالثة، ونحن نتفرّج على كتب فنّية ورسوم ومجلات، وقرأ شوفار بصوت مرتفع قصائد خلاعية، كانت تحمل توقيع «كلودينه» وربما كانت لكوكتو [2]، وكان فيها قصيدة جميلة جداً لازمتْها: «لـو كنت املك فرنكيْن فقط.»

في برن، تناولنا العشاء في السفارة: وقد حدّثني عالم لاهوتي حديثاً طويلاً عن العدم والوجود و «في الذات» و «من أجل الذات». كانت المحادثات في باريس سرعان ما تأخذ منعطفاً سياسياً ؛ اما في سويسرا، فهي تأخذ منعطفاً لاهوتياً. بل لقد طُرحت على سارتر اسئلة ملحّة عن طبيعة الملائكة. وكانت الوجودية قد أثارت خصومة بين «أنسيرميه» و «لايبوفيتز» ؛ وكان الأول يريد ان يفهم الموسيقى كلها عن طريق الوجودية ؛ اما الثاني فكان يقول إن الموسيقى المتسلسلة هي التي تنسجم وحدها وهذه الفلسفة ؛ وكانا قد تشاتما بعنف في «لابيرنت».

وألقيت محاضرة في لوزان. وعند خروجنا حاذتني سيّدة وقالت: «انني لا أفهم. لقد قال سارتر اشياء جيدة جداً وهو يبدو في مظهر مناسب تماماً! ولكن يبدو انه يكتب أشياء فظيعة! فلماذا، يا سيدتي، لماذا؟»

وتحدثت ايضاً في جنيف امام الطلبة. وتلك الليلة، وفي الليلة التالية كذلك،

---

(١) هي في المسرحية ماري اوليفيه.

(٢) علمت فيما بعد انها ليست له.

خرجنا مع سكيرا ومع انيت ، وهي فتاة صبية كانت تثير اهتمام جياكومتي [١] الى حدّ بعيد. وكانت تروق لنا. وكنت أجد انها تشبه ليز ، في كثير من النقاط ؛ كانت تملك منها النزعة العقلانية المحشوّة والجرأة والنهم ؛ وكانت عيناها تلتهمان العالم : انها لم تكن تريد ان تضيّع شيئاً ، ولا أحداً ؛ كانت تحبّ العنف ، وتضحك من كل شيء.

وفي احد الاجتماعات بلوزان ، التقى سارتر شاباً يُدعى « غورز » كان يعرف آثاره عن ظهر قلب ، وقد حدّثه عنها طويلاً. ولقد رأيناه ثانية في جنيف. إنه لم يكن يقرّ ان من يقرأ « الوجود والعدم » يستطيع ان يجد تبريراً لاتخاذ هذا الاختيار دون ذاك مثلاً ، وكان التزام سارتر يزعجه ، وقد قال له سارتر : « السبب هو انك سويسري ». والحقيقة انه كان يهودياً نمسوياً ، مقيماً في سويسرا منذ الحرب.

وقد رأينا فريبورغ ، ونوشاتل ، وبال ، والمتاحف. كانت القرى مصقولة اكثر مما ينبغي ، ولكن كان بينها قرى جميلة ؛ وقد شربنا خمراً ابيض في « واين ستوب » ذي الأرض الخشبية النقيّة. وأحببنا الساحات الصغيرة وينابيع « لوسرن » وبيوتها المطلية وبروجها ، ولا سيما الجسرين المغطّيين بالخشب ، والمزدانين بصور قديمة. وقد صعدنا الى « ساليسبرغ » حيث كان سارتر قد قضى احدى العطلات ، وهو صغير ؛ وأراني فندقه وغرفته والشرفة التي تطلّ على البحيرة : ومن هذه الشرفة تلقي استيل في « جلسة سرية » بابنها الى الماء. كان المطر يهطل بقوة ؛ ولم أكن معجبة قط بالسويسريات السمينات ، ولا بالسويسريين الذين يرتدون قبعات مزدانة بالزهور ، ولا بآلات الاكورديون ، ولا بالأغاني التي تغنى في جوقات ؛ ولكنّ هوسي بالخروج كان يطغى عليّ ، وغالباً ما كنت اترك سارتر في المدن وأتجه الى الجبال لبضع ساعات او لبضعة ايام. وقد أقنعته بالذهاب الى « زرمات » وقد صعدنا بالمصعد الكهربائي الى أعلى « غونرغات » على ارتفاع ٣٠٠٠ متر

---

(١) وهي اليوم زوجته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واكثر ، وكنّا جالسين على مقعد ، واقدامنا في الثلج ، ونظرنا طويلاً الى ماترهورن الملتفّة بضبابها الذاتي ، كأنها إلهة مخيفة . وفي الصباح كان ما يشبه الزندان يضغط على صدغيّ وصدغي سارتر : انه دوار الجبال . وكان على سطيحة الفندق ستون سويسرياً يتفحّصون المناظر في هيئة اختصاص ومعرفة ؛ وكانوا يُسمّون « معاصري شو – دو – فون » : ولكن معاصرو من ؟

واستقللنا القطار الى باريس . وفي فالورب ، قال أحد رجال الجمرك لسارتر ، « إن كتبك يا سيدي مفقودة » ثم قال لي : « اما تزالين مغرمة بالدراجة ؟ »

* * *

كان سارتر قد تلقّى بعد عودته من اميركا رسالة من احد طلاّب الليسيه ، اسمه جان كو ، كان يطلب فيها منه ان يجد له عملاً ؛ وكان يُعدّ آنذاك دار المعلمين للمرة الأولى وبلا أمل ؛ ذلك ان ذويه سيستدعونه ، بعد تقديم الامتحان ، للعودة الى جانبهم في الريف . وأجابه سارتر بأنه سيسعى لايجاد عمل له . وفي حزيران ، اقبل كو يجتمع به ، وكان قد ارسل طلبات مماثلة الى كتّاب آخرين ، ولكن بلا جدوى ، وكان العام الدراسي يشرف على نهايته . وقال له سارتر : « لتكن سكرتيري ! » فقبل كو . واستدعاه سارتر الى مقهى « الدو ماغو » ، ولكن بريده لم يكن قد أصبح بعدُ غزيراً ، فلم يكن بحاجة الى اية مساعدة . واني ما ازال أتمثّله ، وأنا اعمل على طاولة مجاورة ، وهو يفتّش بمشقّة في جيوبه ويستخرج منها مغلّفين او ثلاثة ؛ وشرح لكو ما كان ينبغي ان يجيب به أصحاب الرسائل . وقال لي سارتر وهو يتنهّد إن سكرتيره يأكل من وقته ، بدلاً من ان يوفّر عليه وقتاً ؛ وكان كو من جهته منزعجاً ، لأنه كان قد تمنّى عملاً ، وليس صدقة . غير ان الأمور سوّيت تدريجياً حين أقام سارتر مع امه في شارع بونابرت . كان كو ، في الغرفة المجاورة لمكتبه ، يجيب في الصباح على المخابرات التلفونية ، ويحدّد

المواعيد ، وينظّم المراسلات : فكأنّ العضو هو الذي خلق الوظيفة . وكان قد آن الاوان ليضع سارتر بعض النظام لحياته ؛ ولكنني كنت أتساءل في أسف عما اذا لم يكن على وشك ان يفقد تلك الحرية الأثيرة جداً لشبابنا .

صدر عدد حزيران من « التان مودرن » مع عبارة : المدير جان بول سارتر . كانت اللجنة قد تفسّخت ، فاتجه اوليفييه نحو اليمين ، منحازاً الى « الاتحاد الديغولي » الذي ولد آنذاك . وكانت مناهضة آرون للشيوعية تزداد وضوحاً . وفي تلك الفترة ، او بعد ذلك بقليل ، تناولنا الغداء في « غولف — جوان » مع ارون وبيا الذي كان مفتوناً هو ايضاً بالديغولية . وقال ارون انه لم يكن يحب الولايات المتحدة الاميركية ولا الاتحاد السوفياتي ، ولكنه في حالة الحرب سيتحالف مع الغرب ؛ وأجاب سارتر انه لم يكن يحب لا الستالينية ولا أميركا ، ولكن اذا قامت الحرب فسينحاز الى جانب الشيوعيين . وختم آرون قائلاً : « اننا بالاجمال نقوم باختيارين مختلفين بين شيئين نكرههما ، ولكن ذلك سيكون على اي حال دفعاً لاعتداء . » ووجدنا انه كان يبالغ في التخفيف من أهمية معارضة كنا نعتبرها رئيسية . وشرح لنا بيا الاقتصاد الديغولي من غير ان يلامس موضوع الرواتب والاسعار ومستوى حياة العمال ؛ وقد عبّرت عن دهشتي لذلك ، فقال لي باحتقار : « اوه ! من أجل الرخاء الاقتصادي ، سنتجه الى الشبيبة المسيحية العاملة » وفي اقل من عامين كانت كلمتا اليمين واليسار قد استعادتا معناهما تماماً ، وكان اليمين يكسب بعض الأرض : وفي ايار ، فازت « الحركة الجمهورية الشعبية » بمعظم اصوات الناخبين .

حدّثني جينيه عن « السيدة وحيدة القرن » ، وذهبت ارى معرض السجاد الفرنسي . وعُرض اخيراً في باريس « المواطن كان » : أجل ، لقد قلب اورسون ويلز السينما . ودعم كونو وسارتر ، من أجل جائزة البلياد ، بوريس فيان ، ولكن المحكمين فضلوا عليه الأب غروجان ، مرشح مالرو .

فرغت من بحثي عن الأخلاق وكنت أتساءل : ما العمل ؟ كنت اجلس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في « الدوماغو » وأنظر الى الصفحة البيضاء. وكنت احسّ حاجة الكتابة على طرف أصابعي، ومذاق الكلمات في حلقي، ولكن لم اكن اعرف ما ينبغي عليّ أن أباشر. وقال لي جياكوميتي ذات يوم:

– كم تبدو عليك الضراوة!

– ذلك لأني كنت اودّ لو أكتب. ولا اعرف ما الذي ينبغي ان اكتبه.

– اكتبي ايّ شيء.

والواقع اني كنت راغبة في التحدث عن نفسي. وكنت احب « سنّ الرجال » لليريس؛ وكان لي ميل الى الابحاث التي يشرح فيها المرء نفسه بلا حجة. وبدأت أحلم بذلك، وآخذ رؤوس اقلام، وحدثت في ذلك سارتر. ورأيت ان سؤالاً أول يطرح نفسه: ماذا كان معنى ان اكون امرأة؟ وحسبت اول الأمر انني سأتمكن من التخلّص بذلك بسرعة. إنه لم يسبق لي قط ان عانيت من شعور بالنقص؛ ولم يقل لي احد قط: « انما انت تفكرين على هذا النحو، لأنك امرأة ». إن انوثتي لم تزعجني في شيء على الاطلاق. وقد قلت لسارتر:

– لم يكن ثمة حساب لكوني امرأة، في نظري.

فقال: – غير أنك لم تربّي علىالنحو الذي رُبّي فيه صبيّ. فينبغي ان تنظري الى الأمر عن كثب.

ونظرت أتأمل، فظهرت لي حقيقة: لقد كان هذا العالم عالم رجال، وكانت طفولتي قد غُذيت بأساطير صنعها رجال، ولم يكن ردّ فعلي عليها مشابهاً إطلاقاً لردّ الفعل الذي كان سيصدر عني لو كنت صبياً. واهتممت بالموضوع الى حدّ اني تخلّيت عن مشروع اعتراف شخصي لأنشغل بموضوع وضع المرأة في مجمله. وقصدت دار الكتب الوطنية لأطالع فيها وأدرس اساطير الانثوية ومفاهيمها.

في ٢ تموز، فجّرت اميركا في بيكيني قنبلة جديدة. ولم أكن شخصياً أخشى الخطر الذري، ولكنه كان يذعر كثيراً من الناس. وحين أعلن جان

فوشيه ، في برنامج اذاعي ، ان المادة قد بدأت تتحطّم بصورة متسلسلة ، على اثر حادث عارض ، وانها بعد بضع ساعات سنموت جميعاً ، صدّقه المستمعون. وروى لي مولوجي : « لقد كنت مع ابي، وقد هبطنا نتنزه ، وكنا نفكر : انها نهاية العالم ؛ وكنا حزينين جداً . »

* * *

كانت دار بومبياني للنشر التي تُصدر كتبنا بالايطالية قد دعتنا الى ميلانو ، وكانت السيدة مارزولي التي تدير المكتبة الفرنسية في المدينة ، قد نظمت لنا بالاشتراك مع فيتوريني ، محاضرة أو محاضرتين . العودة الى ايطاليا اذن ؟ لم أكن افكر بعدُ بغير هذا . ولم تكن الظروف ملائمة جداً . فان منطقتي « بريغ » و « تاند » كانتا قد اعطيتا لفرنسا ، وكانت ايطاليا تأخذ بمرارة على شقيقتها اللاتينية هذا « الخنجر الذي طعنها في الظهر . » ومن جهة اخرى ، كان تيتو يطالب باعادة تريست الى يوغوسلافيا ؛ وكان المثقفون الشيوعيون الفرنسيون قد وقّعوا بياناً في صالحه . وقبل يومين من الموعد المقرّر لسفرنا ، كنت في خانة « بون – رويال » ، فاستدعيت الى التلفون : كان على الطرف الآخر من الخط السيدة مارزولي التي تطلبني من ميلانو ، وقد نصحتني بتأجيل سفرنا : إن الايطاليين لن يصغوا الينا بترحاب ؛ وكانت تتحدث بلهجة حاسمة جداً حتى ان سارتر كان يستسلم لطلبها لو كان هو الذي يتحدث اليها ؛ اما انا ، فقد دافعت عن السفر بعناد ، وقلت لها : اننا على استعداد لكي نصمت عند اللزوم ؛ ذلك انه كانت لنا ليرات ايطالية عند بومبياني ، وكانت سمة الدخول جاهزة معنا ، ولهذا فسوف نأتي . وحاولت ان تثنيني ، ولكن بلا جدوى ؛ وأعدت السماعة وانا اقول لها : « الى اللقاء » وأعطيت سارتر رواية ملوّنة للحادث ، لأني كنت أخشى وساوسه .

استقبلنا في ميلانو محررو مجلة « بوليتكنيكو » التي كان يديرها فيتوريني ؛ وكان الشبه كبيراً بين مجلتينا ؛ وكانت الأعداد الاولى قد صدرت في الفترة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفسها ؛ وقد كانت « بوليتكنيكو » اسبوعية اولاً ، ثم أصبحت شهرية ، ونشرت بيان سارتر عن الأدب الملتزم . وكنا قد التقينا فيتوريني في باريس ، وكنت قد قرأت بالفرنسية كتابه « محاورات في صقلية » . كان متعلّقاً بحزبه تعلّقاً ضارياً ، وكان يقول : « اذا قُطع جسمي الى اربعة وعشرين جزءاً ، لكانت اربعة وعشرين شيوعياً صغيراً . » ومع ذلك ، فاننا لم نكن نشعر بحاجز فيما بيننا وبينه . ومنذ المساء الاول الذي تناولنا فيه العشاء مع أصدقائه — فيغوريللي وفينيزياني وفورتيني وآخرين — ادركنا ان رجال اليسار في ايطاليا يكوّنون جبهة مشتركة . وقد تحدثنا الى ساعة متأخرة من الليل . وحدّثنا فيتوريني عن المصاعب التي لاقاها حديثاً الشيوعيون الايطاليون . كانوا اولاً قد دعموا تيتو باسم الاممية الثورية ؛ ولكن ردود فعل القاعدة كانت قـــد جعلتهم يقررون ان يلعبوا الورقة الوطنية ، وكانوا الآن في جوقة واحدة مع باقي البلدة . وروى لنا ان ايلوار الذي كان يعطي محاضرات في ايطاليا ، كان قد دعم دعماً حاراً موقفهم البدائي بتصريحات عامة ؛ وذات صباح نشرت الصحف بيان الشيوعيين الفرنسيين في صالح يوغوسلافيا : وقد كان اسم ايلوار ماثلاً فيه ؛ وكان يومذاك يتحدث في البندقية : فهتف المستمعون ضدّه !

كنا نلتقي كل يوم ، تارة تحت القناطر في ساحة سكالا ، وتارة في مشرب فندقنا ، المليء بايطاليات انيقات ذوات شعر فضي ممتقع ، ونأخذ في الحديث . وكان لذيذاً ان ننظر الى الفاشية والى الحرب بعيون « اخوتنا اللاتينيين » . وكان أحدهم يعترف بأنه قد وُلد وربّيَ تحت سلطة الفاشية ، فظلّ وقتاً طويلاً منحازاً اليها ، ثم قال لنا بلهجة تعصب منتصر : « ولكني ، يوم سقوط موسوليني ، فهمت ! » وكان هؤلاء التائبون يحتقرون المنفيّين الذين كانوا قد انقطعوا عن البلاد بتصلّبهم والذين كانوا لا يستطيعون ان يستعيدوا الوقوف على ارض الواقع ؛ اما هم ، فكانوا يعتقدون أنهم استطاعوا ، عبر أخطائهم ، بل حتى تسوياتهم ، ان ينضجوا سياسياً . وكانوا يصححون حماستهم الفضائلية بكثير من السخرية ؛ كانوا يقولون لنا : « إن في

ايطاليا اليوم ٩٠ مليون نسمة . ٤٥ مليوناً كانوا من الفاشيست ، و ٤٥ مليوناً لم يكونوا كذلك . » واذكر الآن احدى دعاباتهم : كان باص سياحي ايطالي يطوف بساحات القتال ؛ وامام كل قرية مهدّمة ، كان رجل قصير جالس في داخل الباص يلوي يديه ويقول : « انها غلطتي ! إنها غلطتي ! » وسأله بعض السوّاح متعجباً : « لماذا غلطتك ؟ » فأجاب : « اني الفاشيستي الوحيد في الباص ! »

وتفرجت على كنائس القرميد وقصور ميلانو ، ولكني لم أر « العشاء السري »[1] التي كانت تجدّد آنذاك نقوشها ؛ وأخذنا فيغوريللي في نزهة بالسيارة حول بحيرة « كوم » ، وفتح لنا معبداً رومانياً جميلاً مزيناً بنقوش مازولينو ، واقعاً على حافة الماء . وأرانا كذلك « دونغو » حيث اوقف موسوليني وأُبيدت حاشيته ، وقال لنا : لقد سالت دماء على هذه الزهور ، واشار الى المصاطب الملونة التي كانت تنعكس في الماء الازرق . وعند تلك المشاهد الرائعة ، تناولنا مرطبات لذيذة كأنها الإثم ، قبل ان نتوقف امام مقصورة فيغوريللي ، المشرفة على البحيرة . كان بومبياني ينتمي إلى أقصى اليمين الوطني ؛ وقد كرّر أمام سارتر أن الفرنسي اليساري ، في هذه الفترة ، كان عدواً مزدوجاً : لأنه كان يضمّ « بريغ » و « تاند » ويؤيد « تيتو » ؛ فلئن فتح سارتر فمه في الجمهور ، فسيُعاقب بلا هوادة ، وسيستحق ذلك ! لقد كان أصدقاؤنا يخشون علينا هجوماً نيو- فاشستياً : ولذلك فقد زرعوا على باب الساحة التي خطب فيها سارتر - وحتى منبر الخطابة - شرطة مسلّحين بالرشاشات . وكانت الساحة غاصّة بالناس : ولم يهتف أحد أي هتاف عدائي ، بل كان الجميع يصفقون . وخطبت في أمسية أخرى ، بلا أدنى حادث ، في مكتبة السيدة مارزولي . ولقد طبّقنا بومبياني فكان من الشاقّ عليه أن ينفصل عنّا . ولقد دعانا إلى تناول العشاء ،

---

(١) لوحة نقش كبيرة رسمها ليونارد دوفنشي في دير سانتا ماريا في ميلانو . (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على مضض. كان يسكن قصراً؛ وكان المرء يركب إليه مصعداً من الطابق السفلي يوصله مباشرة إلى قاعة الاستقبال؛ وكان خَدَمٌ باللباس الرسمي والقفازات يقدمون الطعام على المائدة. ولم يفكّ بومبياني أسنانه: وعند تناول القهوة، تناول جريدة فاستغرق في قراءتها. وفي اليوم التالي أبلغ سارتر أنه لن يدفع له المال الذي كان قد وعده به والذي كنّا نعوّل عليه لنطيل مكوثنا.

ومن حسن الحظ أن الناشر موندادوري عرف من فيتوريني ما نحن فيه من ضيق، فأرسل ابنه البرتو، وهو شاب رائع ذو شارب وذو صوت ضخم، ليتفاوض مع سارتر؛ وقد تعاقد معه على طبع كتبه بعد الآن في دار النشر تلك، وبالمقابل أُعطي على الفور سلفة ضخمة. واقترح البرتو، بالإضافة إلى ذلك، أن يصحبنا في سيارته إلى البندقية وإلى فلورنسا. فقبلنا بكل رضى؛ لقد كان يروق لنا، وكذلك زوجته فيرجينيا الجميلة ذات الطبع التلقائي الذي كان ستاندال يقدّره كثيراً في الإيطاليات. وكانت تصحبهما أختها الصبية المرحة وصديق لهما مهندس معماري. وكانوا في الطريق يضحكون ويثرثرون ويغنّون: ولقد انقطعوا فجأة ذات لحظة حين أدركوا باضطراب أنهم كانوا يغنّون نشيد «جيوفينيزا». ودهشت كثيراً أن أستطيع في البندقية أن أقيم في «غران أوتيل» حيث لم أكن أحلم من قبل أن أضع قدمي قط. مطاعم، حانات، كانوا يعرفون الأماكن الجيدة؛ وكانوا كذلك يحبون ايطاليا وينزّهوننـــا فيها في عدم اكتراث ذكي. ومن اللحظات الرائعة التي أذكرها، لحظة ذهابنا إلى فلورنسا؛ كان الصباح يشرق حين ركبت الغندول مع حقائبي؛ وكنت أحسّ على بشرتي الرطوبة التي كانت تصعد من الماء ورقّة الشمس البازغة. وفي المساء، طفنا طويلاً حول قصر «السينيوري»؛ وكان ضوء القمر يداعب تمثال «سليني» الذي لمسه المهندس بيد مرتعشة. لقد كان الجمال ما يزال قائماً هناك، رغم الموت والدمار والكوارث.

وعاد آل موندادوري إلى البندقية ، فاستأجرنا سيـارة لنذهب إلى روما ؛ وكان من حظّنا أن وقودها قد نفد عند أبواب المدينة ، فعرفت رائحة الشفق في الريف الروماني . وكانت قد حُجزت لنا غرفٌ في أوتيل بلازا ، على شارع «الكورسو ،» الرئيسي ، حيث كان ينزل جميع الضباط الفرنسيين : ولقد تحسّرت على «أوتيل ديل سول» .

وألقى سارتر محاضرتين ؛ ولما كان كل كاتب فرنسي ، في تلك الحقبة ، علماً ، فقد استُقبلنا بترحاب كبير . واصطحبنا الملحق الثقافي الفرنسي في السيارة لنرى البحيرة وقصر براكسيانو . ودعانا جاك ايبير ذات مساء إلى «فيلا مدسيس» ؛ وكانت تشتعل في الحديقة نيران فرح تتضوّع . وأقام القائم بالأعمال الفرنسية حفل عشاء في قصر فارنيز ؛ وللمرة الأولى في حياتي ارتديت ثوب سهرة غير عار ، ولكنه أسود وطويل كانت قد أعارتني إياه زوجة الملحق الثقافي . كنت أخشى هذه الحفلات ، ولكن الجمال الإيطالي كان يلطّف من فخامتها . وقد ظهر كارلو ليفي في الحفلة بلا ربطة عنق ، وياقته مفتوحة على سعتها . ومنذ عدة أسابيع خلت ، كان ابن جاك ايبير قد قصد مكاتب «التان مودرن» ، وفي يده كتاب ، فقال لي : «لقد صدر حديثاً في ايطاليا ، وهو يحظى باقبال هائل ؛ وأنا أترجمه» وكان هو كتاب «المسيح توقّف في ايبولي» ؛ وكنت قد قرأته وقررنا أن ننشر منه مقاطع طويلة في عدد تشرين الثاني ؛ وكان ليفي يصف فيه حياة قرية جنوبية كانت معتقداته المناهضة للفاشستية قد دفعته إليها قبل الحرب ؛ وكان قد راق لي كثيراً ، على ما بدا من هذه القصة ؛ ولم يخيّب ظني حين التقيته لحماً وعظماً . كان طبيباً ورساماً وكاتباً وصحفياً ، وكان ينتمي إلى «حزب العمل» الذي ورث حركة «عدالة وحرية» التي كان الأخوة روسللي قد أنشأوها مجمّعين البورجوازية الديموقراطية في وجه الفاشستية . وكان «حزب العمل» الذي أُسس في ميلانو عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ قد عقد حلف مقاومة مع «الحزب الاشتراكي الإيطالي»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

و « الحزب الشيوعي الإيطالي . » ؛ وكان قد قاد ، برئاسة « باري » حكومة المقاومة الإولى ؛ إنه فريق صغير مؤلّف خاصة من المثقفين وليس له اتصال بالجماهير ؛ وكان انشقاق قد حدث فيه منذ أشهر بين الجناح الحرّ والجناح الثوري الذي كان ليفي ينتمي إليه ، والذي كان قريباً جداً من الشيوعيين [1] . وكان وضعنا مجاوراً لوضعه . وكان حديثه في مثل كتابته جاذبية . كان متنبّهاً لكل شيء ، وكان كل شيء يسلّيه ، وكان فضوله الذي لا يرتوي يذكرني بجياكومتي : فحتّى الموت كان يبدو له تجربة هامة ، وكان يصف الأشخاص والأشياء من غير أن يستعمل قط أفكاراً عامة ، وإنما كان يفعل ذلك ، بقصص مقتضبة قصيرة ، على الطريقة الإيطالية . كان يسكن مرسماً واسعاً جداً في أعلى طابق من قصر ؛ وفي أسفل السلم الأثري — الذي كان سيّد المكان يرقاه ممتطياً جواده — كان ثمة إصبع من المرمر بحجم إنسان ؛ وعلى الجدار ، إلى جانب باب كارلو ليفي ، كانت تُقرأ شتائم سطرها صاحب الملك الذي كان يحاول عبثاً طرده ، وأجوبة ليفي عليها . ومن اليسير أن يفهم المرء سبب تشبّثه بالبيت : فمن النوافذ التي تشرف على ساحة « جيزو » كان يعانق المدينة برمتها . وكان يحتفظ بين أوراقه وكتبه ولوحاته التي تملأ المنزل بورود مجفّفة ، وكان يقول : « لو كانت في مكان آخر لتفتّتت منذ زمن طويل . » وكان يعتقد أنه يمارس على البشر ، كما على الزهور ، تأثيراً حاسماً . وقد قال لنا : « لن أقيم معرضاً هذا العام . فأنا في فترة بحث . إن جميع الرسّامين الشبان سيأخذون في تقليدي ، في حين أني لست واثقاً مما أفعل » وكان يبدو ، وهو مقتنع بأهميته، وكأنه لا يستمدّ منها أي غرور : كان يعزوها إلى هالة تطفو حوله منذ المهد أكثر مما يعزوها إلى مواهبه ؛ وكان هذا التميّع يجعله في

(١) انحل حزب العمل عام ١٩٤٧ ، فتسجل بعض اعضائه في الحزب الشيوعي الايطالي والبعض الآخر في الحزب الاشتراكي، وآخرون ،منهم ليفي ، ظلوا مستقلين ، فيما كانوا اصدقاء الحزب الشيوعي .

نجوة من جميع المصائب : فقد كان تفاؤله يلامس الوسواس . وفي أثناء الحرب كان قد حكم بان من اللامجدي أن يختبىء ، مقتنعاً بأن شارباً ونظارة يكفيان لإخفائه : فقد كانوا يتعرّفونه على بعد مئة خطوة ؛ ومن حسن الحظ أن مناهضة السامية لم تنتشر في إيطاليا . كان ميّالاً إلى جميع متع الحياة ، فكان يكنّ للنساء تقيّ شغوفاً يعتبر استثنائياً لدى الإيطاليين ؛ وكان بالإضافة إلى ذلك ذا طبع روائي حالم ؛ وإذ افترقنا ذات مساء رأيناه مندهشين وهو يتسلّق عمود كهرباء ، ويدلف الى إحـــدى النوافذ .

أما سيلوني ، الذي كنت قد أحببت روايته « فونتمارا » من قبل و « الخبز والخمر » حديثاً ، فقد كان هو أيضاً قصاصاً ، ولكن أشدّ انغلاقاً وأكثر تحفّظاً ؛ وقد استمتعت بقصصه عن طفولته في « الابروز » وعن فلاحي قريته القساة .

ولقد كان من عام ١٩٢٤ حتّى ١٩٣٠ واحداً من أهم قادة الحزب الشيوعي الإيطالي المنفيّ آنذاك ، ثم المسؤول الرئيسي عنه ؛ وقد طُرد منه عام ١٩٣١ لأسباب كنا نجهلها [١] . وحين عاد إلى ايطاليا بعد الحرب دخل الحزب الاشتراكي الإيطالي . وتحدث قليلاً جداً عن السياسة . وقد لفت نظرنا فحسب نزعته التشككية التي عزوناها آنذاك إلى وضعه كايطالي ، لا إلى وضعه الشخصي . وكنا ذات لحظة في أعلى رابية « الجانيكول » نتأمل روما تحت أقدامنا ، حين قال بتفكّر :

ـ كيف تريدوننا أن نحمل أي شيء على محمل الجدّ ! كم مرّت علينا قرون ، يناقض واحدها الآخر ! إن من المستحيل بالنسبة لإيطالي أن يؤمن بحقيقة مطلقة . [٢] » وحدّثنا حديثاً جذّاباً عن خفايا سياسة الفاتيكان وعن الموقف الغامض الذي يقفه الشعب الإيطالي ، الديني ، الموسوس ، ولكن

(١) في عام ١٩٥٠ حدثت حول الموضوع مشادة علنية بين توغلياتي وبينه ، وقـد نشرت في « التان مودرن » . واقل ما يمكن ان يقال هو أن سيلوني، باعترافه ذاته ، كان بين ١٩٢٧ و ١٩٣٠ قد لعب لعبة غريبة مزدوجة .

(٢) كانت هذه النسبية الاثيرة لدى اليمينيين تخدمه دون شك كتبرير . فحين حدث انشقاق الحزب =

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المناهض للإكليروس بسبب الوجود الملحّ لهذا الإكليروس. وكنت أكنّ ودّاً كبيراً لزوجته، وهي ايرلندية الأصل، كانت طفولتها التقية أكثر خنقاً وإرهاقاً من طفولتي.

وأما مورافيا، فقد رأيناه قليلاً. وقد جلست على مقربة منه في غداء ادبي. وظهر لنا ان الكتاب الطليان غير متحابين فيما بينهم. من ذلك ان الذي جلس الى جوار سارتر همس في اذنه: «سوف اسألك بصوت مرتفع: من هو في رأيك اكبر روائيينا، وستجيب: فيتوريني. وسوف ترى عند ذاك هيئة مورافيا!» وقد ردّ سارتر هذا الطلب. وحين كان يُلفظ اسم زميل غائب، كانوا يحكمون عليه بصيغتين: «إن ذاك ليس اديباً: انه صحفي!» و«إن مأساته هو انه لم ينضج!» ويضيفون: «لقد احتفظ بعقلية طفولية» او: «إنه مراهق مزمن!» فكأن كلاً منهم كان يعكس للآخرين صورة نفسه التي يلتقطها في عيونهم. ولم يكن ذلك الخبث يسيئنا كثيراً؛ فقد كنا نرى فيه الوجه الآخر لذلك الاهتمام الحادّ الذي يوليه كل ايطالي للآخرين، والذي كنّا نعتقد انه يساوي فتورنا نحن.

وفي اوتيل بلازا التقينا من جديد سيبيون الذي كان عائداً من اليونان. وقد تناول العشاء معنا في مطعم بضاحية «مونت ماريو» كانت روما تشعّ منها تحت اقدامنا، وروى لنا تضاربه مع راهب من «مونت اتوس» أراد ان يعتدي على فضيلته؛ وكان يشكو من احتقار الايطاليين للفرنسيين: من ذلك ان احدى المومسات قد قبضت على عنقه فيما كان يعانقها وقالت له: «وبريغ وتاند؟» وقد ظهر بمظهر جادّ في حفلة عشاء «فارنيز» وهو مرتدٍ ثوباً أعاره إياه الملحق الثقافي.

وصحبتنا جانين بويسونوز وزوجها لويس دو فيلفوس، الممثل الفرنسي في اللجنة الحليفة، بالسيارة الى فراسكاتي ونيمي؛ وعرّفانا الى اصدقائهما

= الاشتراكي الايطالي، بعد ذلك بقليل، تبع سيلوني أثر ساراغـا. وما لبث ان انخرط في مناهضة الشيوعية.

الايطاليين ، ومنهم : دونيني ، وهو شيوعي ، استاذ لتاريخ الاديان كان قد عاش طويلاً في المنفى ؛ وباندنيلي ، المدير العام للفنون الجميلة وهو ايضاً شيوعي كان قد انشأ في املاكه بتوسكانا تعاونية فلاّحية ، وغوتوزو وهو رسام شيوعي دعانا الى قضاء امسية في مرسمه ، بشارع مارغوتا . وكان هذا الشارع قد أصبح بسطائحه المتراكبة ، وساحاته الداخلية وسلالمه وجسوره الضيقة ، وبسكانه من الرسامين والكتّاب مكاناً حقيقياً للمقاومة السرية في اثناء الحرب . وزرت على مقربة من المقابر ، حُفَر « ارديااتين » وكان ثلاثمئة وثلاثون من أفراد المقاومة قد قُتلوا بالرشاشات والقوا فيها ، يوم ٢٤ آذار ١٩٤٤ ، على أثر هجوم ذهب ضحيته ثلاثة وثلاثون ألمانياً . وكان الألمان قد خلّفوا الجثث في المقلع الذي سدّوا مدخله بأن نسفوا بالديناميت الكتل الحجرية ؛ ولم تكتشف تلك الجثث الا بعد ثلاثة أشهر . وفي عام ١٩٤٦ كانت ذكرى الضحايا ، التي حفرت على المرمر بعد ذلك بسنوات ، ما تزال حارّة ؛ وكانت توابيت خشبية مصفوفة على طول الأروقة ، موضوعة على الارض المحمرة ، وكل منها قد طبع عليه اسم وتاريخان : وكانت بعض ازهار ذابلة تزيّن التوابيت ، مع صورة للقتيل بمناسبة تناوله القربان المقدس او زواجه او دخوله الجندية ...

وكان المنفيون القدامى الذين كنا نتحدث معهم في روما يكادون يحتقرون معتنقي الفاشية الجدد ؛ وقد دهشنا لهذا الصراع بين الانقياء — ومعظمهم من المسنين — وبين الواقعيين من الجيل الصاعد ؛ فقد كان هؤلاء يبدون لنا اكثر تأقلماً وانسجاماً مع العصور الحديثة من اولئك . [1]

وقضينا يومين في نابولي . كانت المدينة قد عانت كثيراً . وكان الفندق الوحيد المفتوح يكاد يتداعى ؛ فالسقوف فاغرة نحو السماء ، والحفر تملأ السلّم ؛ ولم يكن باقياً من الميناء وضواحيها الا انقاض . وفي الشوارع

---

(١) كان في ايطاليا كذلك رجال انقياء وواقعيون في وقت واحد ؛ وهم مناهضو الفاشية الذين ناضلوا في البلاد ، نضالا سرياً . ولكننا لم نتعرف اليهم الا فيما بعد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشتعلة من الحرّ، كانت الريح تلقي غبار الخرائب في دوّامات. وكان المتحف مغلقاً. اما في كابري التي لم تمسّ، فقد وجدت ماضيّ من جديد. وبقينا بضعة أيام اخرى في روما، في فندق « لاسيتا » من غير ان نلتقي أحداً.

لقد كانت سعادة كبيرة لنا أن نرى ايطاليا مرة اخرى، وكانت سعادة اكبر ان نجد ثانيةً الجوّ الذي سبق ان عرفناه، باقتضاب، في ايام التحرير. كانت الوحدة قد تحققت في فرنسا في وجه احتلال أجنبي، على قواعد الوطنية الملتبسة؛ وكان لابدّ لليمين واليسار من ان يفترقا بمجرد زوال الظروف التي كانت قد قربّت بينهما. اما في ايطاليا، فقد كان الوطنيون هم الفاشست؛ وكان الاتحاد الذي يحاربهم يريد بالاجماع الحرية والديموقراطية؛ وكان انسجامه صادراً عن مبادئه، لا عن الأحداث، ولهذا فهو قد بقي بعد الحرب، باعتبار ان الاحرار والاشتراكيين والشيوعيين قد ناضلوا معاً ضد اليمين ليجعلوا الدستور الجديد محترماً من الجميع. ولم يكن اخلاص الحزب الشيوعي الايطالي في مواقفه الجمهورية والديموقراطية موضع شك من حلفائه على الاطلاق. لقد قدّم الحلف الجرماني السوفياتي وما تبعه من تميّع لدى الشيوعيين الفرنسيين سلاحاً ضدّهم. اما الشيوعيون الايطاليون فلم يُبهِت ايُّ ظلّ مقاومتَهم للفاشية؛ وقد كان جميع مناهضي الفاشية — اي معظم سكان البلاد تقريباً — يحيّون فيهم شجاعتهم.

كان وضع الحزب الشيوعي الايطالي افضل من وضع الحزب الشيوعي الفرنسي لأسباب تعود الى عهد بعيد. ففي فرنسا قادت البورجوازية التي نجحت في ثورتها عام ٨٩ الصراع ضد الطبقة العاملة بالاجماع وبلا تردّد. اما في ايطاليا، فقد جعلت نفسها طبقة قائدة في القرن التاسع عشر فقط، عبر انقسامات وأزمات؛ وكان لابدّ لها في اثناء صعودها، من ان تعتمد على العمال، ولاسيما في مطلع القرن العشرين. وقد كان لهذا التفاهم عواقب ثقافية هامة. من ذلك ان فيلسوفاً بورجوازياً كلابريولا كان باديء الامر هيغلياً، قد اقترب من الماركسية. وبالتبادل فتح الفكر البورجوازي

الفكر الماركسي . فقد استردّ مثلاً المفكر الماركسي غرامسكي لحسابه النزعة الانسانية البورجوازية، بعد عملية تركيبية واضحة . وكان للحزب الشيوعي الايطالي حظوظ تاريخية اخرى . إن انحسار المدّ العمالي الاوروبي بعد الحرب العالمية الاولى قد ألقى ايطاليا في الفاشية ، والحزب الشيوعي الايطالي في السرّية : فحارب على الارض الوطنية ، مما جنّبه كثيراً من العقبات . اما الحزب الشيوعي الفرنسي ، وهو أقلية ، ولا سلطة له تقريباً على البلاد ، فقد كان اول هدف له الأممية ؛ كان مطيعاً لتوجيهات الكومنترن ومجبراً على قبول سياسة ستالين — ومنها محاكمات موسكو — فكان يبدو كأنه « حزب الأجانب » وقد ادّت لاشعبيّته الى تصلّبه . وقد كسب في المقاومة شهادة وطنية وحصل في الانتخابات على أصوات تفوق أصوات ايّ من الحزبين الآخرين : وهو مع ذلك لم يصبح حزب جماهير . وكانت فرنسةُ ١٩٤٥ مجتمعاً صناعياً وطبقياً ؛ ولم يكن للفلاحين مصالح العمال نفسها ؛ وكان بين هؤلاء بالذات طبقات مختلفة متعارضة : وكان الشيوعيون يُختارون خصوصاً بين العمال المتخصصين . وبالرغم من زبائنهم الانتخابيين ، فان عددهم كان يظلّ محدوداً ؛ فكان لابدّ لهم ، لكي يظلّوا اقوياء ، من ان يشكلّوا كتلة متراصّة لا انشقاق فيها .

اما ايطاليا ، المسلوبة من الحديد والفحم — اي انها تكاد تكون بلداً متخلّفاً — فقد كانت مجتمعاً في طريق الامتزاج ؛ كانت المسافة قصيرة بين العمال والفلاحين الذين كان كثيرون منهم — ولا سيما في الجنوب — يشكلون قوة ثورية . وكانوا جميعاً يعتقدون ، وقد دمغتهم ذكرى الفاشية الّتي كانت جثّتها ما تزال حارّة ، ان الشيوعية وحدها كانت قادرة على تثبيت الهزيمة . وإذن ، فقد كان للحزب الشيوعي الايطالي قاعدة عريضة في مجموع السكان . إنه لم يكن يجد نفسه ، على اي صعيد ، محبوساً في تفرّده . فلم يكن ثمة ما يدفعه الى اعتبار الاختلافات الواناً من المعارضة . وكان بالأخص يعتبر المثقفين أصدقاء له ، لا خصوماً ، لأنهم في ايطاليا كانوا جميعاً يساريين ، وكانوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتعاطفون معه .

وكان تحالفه مع الحزب الاشتراكي يسهم كذلك في تجنيبه العزلة التي كان الحزب الشيوعي الفرنسي يعاني منها . وبفضل الانشقاق الذي أحدثته الفاشية ، كان الحزب الاشتراكي الايطالي قد استطاع عام ٤٥ ، مع نيني ، ان يتجدّد : ولقد اختار ان يحافظ على اتفاقه مع الحزب الشيوعي الايطالي ، بعد سنوات من الكفاح المشترك . اما في فرنسا ، فكانت الاشتراكية قد استعادت ميراث الـ S.F.I.O. ونزعتـه المناهضة للشيوعية . فلئن كـان الحزب الشيوعي الفرنسي يعتبر اللاشيوعيين اعداء له ، فلأنهم كانوا كذلك في معظم الحالات : فكان الحذر الذي يبرّره وضعه يمنعه من ان يستثني أحداً .

ولم نكن في تلك الفترة نفهم جيداً الفروق التي نلاحظها بين شيوعيي البلدين ؛ ولكننا بعد ان أحزننا عداء الفرنسيين لنا ، أفدنا من صداقة الايطاليين ببهجة لم تضعف قط خلال ست عشرة سنة .

تركت سارتر في ميلانو لأتنزّه ثلاثة أسابيع في جبال الدولوميت . وقضيت في ميرانو ليلتي الأولى من ليالي الوحدة : وتلك واحدة من اثمن ذكرياتي . لقد تناولت عشائي وانا أشرب خمراً ابيض ، وسط رائحة اللبلاب ، تجاه ساعة نحاسية كانت تبدو وكأنها ساهرةٌ عليّ من أعلى الجدار ؛ وكان قـد انقضى وقت طويل لم أر فيه جبالاً وصمتاً : وكانت الأخطار التي لم أكن أجهلها ، تضفي على فرحي شيئاً ما مؤثّراً كان يندّي عينيّ .

بولزانو بروابيها المغطّاة بالكروم الشقر ، وفيتيبينو بشوارعها الملونـة كرسوم متحركة : لقد اكتشفت هذه الايطالية النمسوية . ثم مشيت من قمة الى قمة ، ومن ملجأ الى ملجأ ، عبر المراعي والصخور . وقد وجدت من جديد رائحة العشب ، وضجيج الحصى بمحاذاة الردوم ، والجهد اللاهث للتصعيد ، وشهوة التحرّر ، حين تنزلق الحقيبة عن الكتفين اللتين تلتصقان بالأرض ، والانطلاق تحت السماء المصفرّة ، ومتعة اعتناق خطّ النهار المائل منذ الفجر حتى الليل .

وذات مساء ، كنت في قلب الجبل ، بعيدة عن جميع الدروب ، وطلبت غرفة في فندق ــ ملجأ ، وعشاء ؛ وقُدِّم لي الطعام ، ولكن من غير كلمة ولا بسمة . ولاحظت على الجدار صورة شاب تحيط بها قطعة حرير سوداء . وحين نهضت عن المائدة ، انتزعت صاحبة الفندق كلمة ، فسألتني : « ألمانية ؟ » فقلت ان لا ، وانما انا فرنسية . فأشرقت الوجوه . واوضحوا لي اني كنت أتكلم الايطالية بلهجة المانية جافة . وكان ابن الاسرة قد قتل في أعمال المقاومة السرية .

لقد كانت واحدة من أقسى رحلاتي التي قمت بها سيراً على الاقدام . واحدة من أجملها ــ وهي الأخيرة ، كما كنت قد استشعرت .

* * *

حين عُدت الى باريس علمت تفاصيل « الجريمة الوجودية » التي شغلت الصحف طوال بضعة أسابيع . فقد كان « ب »[1] يملك في « سيف سورايفيت » جناحاً كان يعيره في اثناء الاسبوع لـ « فرانسيس فانتنون » وكان يقضي فيه نهاية الاسبوع . وروى لنا انه ذات سبت لم يجد المفتاح في المخبأ الذي كانا متفقين عليه ؛ ولم يكن الباب مغلقاً ، ففكر : « إن فرانسيس ما زال نائماً » . وأمل ان يفاجئه مع صديقته ، فمشى بحذاء الممر يسترق الخطى ؛ وكان في البيت رائحة غريبة . وقال لنا : « ودخلت الغرفة ، فألقيت نظرة على السرير ثم صحت مذعوراً : زنجي ! » كان فرانسيس مسودّ الوجه ، ورصاصة في صدغه ، وجسمه محترق بالفوسفور . وكان قد رُوِي رجل ملتحٍ يرود في القرية ؛ وكان « ب » وصديقه الرسام باتريكس ملتحيين : ولم يكن لهما ادنى علاقة بهذه الجريمة . ويبدو ان فانتنون الذي انخرط عام ٤٣ في المقاومة ، قد قتل على يد احد المتعاونين القدماء : بل لقد ذُكر احد الاسماء ؛ ولكن القضية خُنقت .

* * *

(١) طبيب ، تلميذ قديم لسارتر .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان ثمة مخرج ايطالي يتمنى ان ينتج « جلسة سرية » في السينما . وقد سافر سارتر الى روما من جديد ، في نهاية ايلول ، ليشتغل السيناريو وليتناقش مع المخرج؛ وجاء كذلك لوفيفر – بونتاليس ، الذي طلب منه سارتر ان يساعده ، وكانت تصحبه زوجته . وقد نزلنا في فندق مينرفا ، في قلب المدينة ، وفقاً لاذواقنا . ولم يكن قد سبق لي ان رأيت روما في نور تشرين العذب ، كما لم يسبق لي ان قضيت فيها اياماً حلوة ، وانا متحررة من كل واجب سياحي او اجتماعي . وقد أصبحت لي روما ، وانا اشتغل فيها ، أليفة ألفةً عذبة ، كما لو أن جمالها لم يكن الا شيئاً اضافياً : واذن ، فانه يبقى لي بعدُ طرقٌ غير متوقّعة للافادة من خيرات هذا العالم .

* * *

كانت رحلتي لاميركا قد تقرّرت ، بفضل « سوبو » الذي كان قد عمل لدعوتي الى القاء محاضرات في عدد كبير من الجامعات الاميركية ؛ وكانت « العلاقات الثقافية » قد وافقت على ان تدفع تذكرة الطائرة ؛ وكان المقرر ان اسافر في كانون الثاني . وقد كانت هذه الأشهر الثلاثة مشرقة بهالة هذه الرحلة ؛ كانت حقبة محمومة بالنسبة لي . فان عامين لم يتمكّنا من إخماد فرحتي : فلم اكن أعرف بعدُ بمَ أغذّيها . ولم أتخلَّ عن الأوهام القديمة : على اني كنت مع ذلك قد كففت عن الايمان بها . كان اختيار المواقف السياسية يصبح أصعب فأصعب ، وكانت صداقاتنا تتأثّر بهذه الالوان من الحيرة والتردّد .

وقد قبل الفرنسيون الدستور المقترح من المجلس ، بالرغم من النصائح الآمرة التي عبّر عنها ديغول عند عودته الى الحياة العامة بالخطب التي ألقاها في « بايو » و « ابينال » . واستعاد الحزب الشيوعي ، في انتخابات تشرين الثاني ، صفّ الحزب الاول لفرنسا . ولكن « الحركة الجمهورية الشعبية » ظلّت قوية ، وكان « الاتحاد الديغولي » يقوى : ولم نكن نفكّر في الابتعاد عن الشيوعيين بالرغم من عدائهم المستمر لنا (فقد نشر كانابا رواية عن المقاومة صوّر فيها سارتر كطائش منتفخ بالأهمية ، وكجبان ، بل حتى

كعميل) ونشر ميرلو- بونتي في « التان مودرن » مقالاً بعنوان « اليوغي والبروليتاري » وهو ضد كتاب كوستلر الأخير « اليوغي والمفوض » وضد روايته الاولى « الصفر واللانهاية » . وكان يوضّح فيه معنى محاكمات موسكو ، ولا سيما معنى محاكمة بوخارين . وكان يقول : إن الحقيقة الموضوعية لتصرّفاتنا تفوتنا ، ولكن الناس يحكمون علينا على أساسها لا على أساس نوايانا ؛ وبالرغم من ان الرجل السياسي غير قادر على التنبؤ بها ، فهو يضطلع بها منذ اللحظة التي يقرّر فيها ، ولا يحق له قطّ أن يغسل منها يديه متبرّئاً . ففي الاتحاد السوفياتي الذي كان عام ١٩٣٦ ، معزولاً ، مهدّداً ، غير قادر على إنقاذ الثورة إلاّ باتخاذ سياسة صارمة مكتّلة ، كان الوجه الموضوعي للمعارضة هو الخيانة . وكان ميرلو- بونتي يذكّر الروس بأن الخونة ، مقابل ذلك ، لم يكونوا الا معارضين . إنه يربط الاخلاق بالتاريخ ، بتصميم لم يسبق لأيّ وجودي أن أبداه . وقد قفزنا هذه الخطوة معه ، مدركين ان النزعة الاخلاقية كانت آخر قلعة للمثالية البورجوازية - من غير ان نكون قد انفصلنا بعدُ عن تلك الاخلاقية . وكانت دراسته بعيدة اكثر مما ينبغي عن الماركسية الرسمية ، فلم يتقبّلها الشيوعيون . كما انه أثار الغيظ في صفوف اليمينيين : فاتهموه بأنه يمدح الستالينية .

وكان موقفنا لا يروق كامو . وكانت نزعته المناهضة للشيوعية قد احدثت بيننا اختلافات ؛ وكان قد أقلّني ذات يوم من نوفمبر عام ٤٥ في سيارته ليوصلني الى البيت ، فدافع عن ديغول ضد توريز ؛ وحين تركني ، صاح من باب السيارة : « الحق ان للجنرال ديغول سحنة تختلف عن سحنة السيد جاك دوكلو[١] . » وهذه الحجة المزاجية كانت قد آلمتني لصدورها عنه . اما الآن ، فانه كان في موقفه بعيداً عن ديغول ، وأبعد عن الحزب الشيوعي . وقد عاد من نيويورك وهو أقلّ وداً للولايات المتحدة من سارتر ، على ان

(١) احد زعماء الشيوعيين الفرنسيين (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عداوته للاتحاد السوفياتي لم تخفّ من جرّاء ذلك. وفي غيابه، كان آرون واوليفييه قد أيّدا في «كومبا» الـ S.F.I.O. الذي كـان الآن يختار معظم زبائنه في طبقة البورجوازية الصغيرة؛ فلم ينكر عليهما ذلك. وبعد رجوعه بفترة قصيرة، استقبل بوست في مكتبه الذي كان آرون خارجاً منه لتوّه وهو يقول بلهجة ساخرة: «اني ذاهب لأكتب افتتاحيتي اليمينية.» فدهش كامو؛ وشرح له بوست رأيه في خطّ الجريدة الحالي، فقال له كامو:

– إن لم تكن مسروراً، فبوسعك ان ترحل!

– هذا ما سأفعله!

وقطع بوست علاقته بـ «كومبا». وابتعد كامو مغتاظاً: «هذا هـو الاعتراف بالجميل!» على انه إن كفّ مدة طويلة عن الكتابة في «كومبا» فلأنه، على ما قيل لي، كان حانقاً من التأثير الذي يمارسه آرون على الجريدة. وأعتقد كذلك انه كان حرداً من السياسة. كان قد انصرف اليها بمقدار ما كان يرى فيها «التوجّه المباشر للانسان نحو بشرٍ آخرين»، اي بمقدار ما كان يرى فيها اخلاقية. وكان سارتر قد أخذ عليه يوماً هذا الخلط، إذ قال له: «إن كومبا تمارس اخلاقية مبالغاً فيها، ولا تمارس السياسة بما فيه الكفاية» فامتنع كامو عن الكتابة. ومع ذلك، فقد عاد من جديد الى الجريدة في منتصف تشرين الثاني عام ٤٦ بمقاله «لا ضحايا ولا جلاّدون» وكان مقالاً مليئاً باعتبارات اخلاقية. إنه لم يكن يحبّ التردّدات ولا المخاطر التي يقتضيها التفكير السياسي؛ وكان ينبغي له ان يكون واثقاً من افكاره ليكون واثقاً من نفسه. وكان ردّ فعله على تناقضات الموقف انقطاعه عن الاكتراث بها، وكان العمل الذي يقوم به سارتر لكي ينسجم مع هذه التناقضات يستنفد صبره. وقد كانت الوجودية تزعجه. وحين قرأ في «التان مودرن» بداءة «اخلاقية الالتباس» وجّه اليّ بعض الانتقادات العنيفة؛ كنت في رأيه اقترف ذنباً ضد «الوضوح الفرنسي»؛ وكنّا نجد انه باسم هذا المثال كان غالباً ما يكتفي بفكرٍ قصير النظر اكثر مما ينبغي؛ ولم يكن ذلك بدافعٍ من الخفة، بل بدافع

من الانحياز : كان يحمي نفسه . إن من الشاقّ ان يتوقّف المرء على آخرين حين يكون قد ظنّ نفسه سيّداً : وهذا الوهم المشترك بين المثقفين البورجوازيين لم يُشْفَ أحدنا منه بغير مشقة . وقد كان التفكير الأخلاقي لدى الجميع يهدف الى استرداد ذلك التفوّق . ولكن سارتر ، وانا على أثره ، كنّا قد قمنا بكثير من التضحيات ؛ كان وجود الجماهير قد تأكّل قيمنا القديمة : كرم النفس الذي كنّا قد حرصنا عليه حرصاً شديداً ، وحتّى الصدق والصحة . كان سارتر ، في تنقيبه ، يستطيع ان يتلمّس ، ولكنه لم يكن ينغلق قط . وكان كامو يتحفّظ ويتّقي . وكان قد كوّن عن نفسه فكرةً لا يستطيع ايّ عملٍ ولا اي كشف ان يجعلاه يتخلّى عنها . وكانت علاقاتنا تظلّ ودّية جداً ؛ ولكن ظلاً ما كان بين الفينة والفينة يغشّيها ؛ وكانت تقلّباتُها معزوّة لكامو اكثر مما كانت معزوّة لسارتر او لي : كان مناسباً أن يجتذب حضُورنا ودّه ، ولكنه على البعد كان غالباً ما يحنق علينا .

وفي تشرين الاول اقتحم فريقنا قادمٌ جديد ذو شخصية صاخبة : هو كوستلر الذي كانت مسرحيةٌ له بعنون « حانة الشفق » على وشك ان تخرج على احد مسارح باريس . وكان بعض الاصدقاء قد أكّدوا له ان مناهضته للستالينيه لم تُلقِهِ نحو اليمين ؛ وكان قد صرح لجريدة اميركية انه لو كان فرنسياً لآثر ان ينفي نفسه الى باتاغونيا [١] على ان يعيش تحت ظل ديكتاتورية ديغوليــــة .

وقد تمّ لقاؤنا الاول في مقهى « بون ــ رويال » فقد اقترب من سارتر ببساطة باشّة ، قائلاً :

ــ مرحباً ، انا كوستلر .

ورأيناه ثانية في الشقة التي نزل فيها سارتر مع أمه ، في حي سان جرمين دي بريه . وصرح كوستلر لسارتر بلهجة حاسمة كانت ترقّق وقعها بسمة شبه نسوية :

---

(١) مقاطعة في الارجنتين (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– انت أفضل مني روائياً ، ولكنّك دوني فيلسوفاً .

وكان بسبيل كتابة مؤلّف فلسفي شرح لنا خطوطه الكبرى : كان يريد ان يضمن للانسان هامشاً من الحرية ، من غير ان يبتعد عن المادية الفيزيولوجية . وقد استوحى بعض الكتب التي كنا نعرفها ليوضح لنا أن الأجهزة المؤتمرة بأمر المخيخ والطبقات النظرية والمخّ كانت تتراكب من غير ان يأمر بعضها بعضاً بصرامة : وقد كان بين الادنى والأعلى مكان لـ « فقاعة » من الحرية ؛ وكنت أتذكّر كتاب بوترو : « عَرَضية نواميس الطبيعة » فأقول لنفسي إن كوستلر كان بلا ريب روائياً افضل منه فيلسوفاً ؛ وكان يوحي لي برغبة الضحك حين كان يتحدث عن الطبقات النظرية لأنه كان ينطق الكلمة بشكل يذكّرني بحلوى كنت آكلها في صغري . ولقد ازعجنا ذلك اليوم تحذلقه الشبيه بتحذلق العصاميين وبثقته النظرية ونزعته العلمية التي ورثها من ثقافة ماركسية متوسطة او دون ذلك . وقد طال هذا الانزعاج . وفي حين اننا لم نكن مع كامو نتحدث قط عن الكتب ، كان كوستلر يصيح في كل مناسبة « اقرأوا ما كتبته في هذا الموضوع ! » كان النجاح الذي احرزه قد جعله يركب رأسه : فكان مغروراً ، يضفي على نفسه أهمية مبالغاً فيها . ولكنه كان كذلك شديد الحرارة ، يملك كثيراً من الحياة ومن الفضول ؛ وكان يضفي على المناقشات جواً من الحماسة التي لا تكلّ ؛ وكان على استعداد دائم ، في اية ساعة من ساعات النهار والليل ، لإثارة أية مسألة . وكما كان كريماً بوقته وبشخصه ، كان كريما بماله ؛ إنه لم يكن يحب الفخفخة ، ولكننا حين كنا نخرج معه ، كان يريد دائماً ان يدفع وينفق بلا حساب . وكان فخوراً بشكل ساذج ان تكون زوجته « مامين » منتمية الى اسرة انكليزية ارستوقراطية. كانت شقراء جداً ، وجميلة جداً ، ذات فكر حادّ ، وصحّة رقيقة ، وكانت مصابة بالمرض الرئوي الذي سقطت تحت ضرباته بعد ذلك بعشر سنوات .

وقد التقينا كثيراً بكوستلر في الاسابيع الثلاثة أو الأربعة التي قضاها في باريس ، وكان كامو موجوداً غالباً : وكانا صديقين حميمين ؛ وقد صحبنا

بوست ذات مرة . وحدث ان تحوّل النقاش الى نزاع ، بعد ان دافع بوست عن سياسة الحزب الشيوعي . وفي اليوم التالي ، قال لنا كوستلر بلهجة قاسية :

ـ ما كان ينبغي لكم ان تصحبوه . فتلك كانت غلطة .

كان يحتقر الشبّان : كان يُحسّ نفسه مُبعداً عن مستقبلهم ، ويرى كل إبعاد إدانة . كان عاطفياً شديد الحساسية ، متبرماً ، متعطشاً الى الحرارة البشرية ، ولكنه كان مقطوعاً عن الآخرين بألوان هوسه الخاصّة؛ كان يقول : « إن لي غضباتي » ـ وكانت لنا معه علاقات متموجة . وذات مساء تناولنا معه العشاء بصحبة مامين وكامو وفرانسين ، وقصدنا مرقصاً صغيراً في شارع غرافيلييه ؛ ثم دعانا بلهجة آمرة الى مرقص « شهرزاد » ؛ ولم نكن نحن ولا كامو نضع أقدامنا قط في مثل تلك العلب . وطلب كوستلر فودكـا وزاكوزكي[1] وشمبانيا. وبعد ظهر اليوم التالي، كان المفروض ان يلقي سارتر في السوربون ، تحت رعاية الاونسكو ، محاضرة عن « مسؤولية الكاتب » لم يكن قد أعدّها بعد ؛ وكنّا ننوي ألاّ ننام في ساعة متأخرة . ولكن الشراب والموسيقى الغجرية ، ولا سيما حميّا ثرثراتنا جعلتنا نفقد الرقابة على الزمن . وعاد كامو الى فكرة كانت أثيرةً لديه : « ليت الكاتب يستطيع ان يكتب الحقيقة ! » واغتمّ كوستلر وهو يصغي الى « العيون السود » ، فقال لنا بلهجة اتّهام :

ـ من المستحيل ان يكون الناس اصدقاء اذا لم يتفاهموا سياسياً !

وكان يردّد مآخذه ضد روسيا ستالين ، ويأخذ على سارتر وحتى على كامو ان يتحالفا معها . ولم نحمل شراسته على محمل الجد : فاننا لم نكن نقيس جنون نزعته ضد الشيوعية . وفيما كان يحدث نفسه ، كان كامو يقول لنا : « ما هو مشترك بيننا ، انا وانتم ، هو أن الافراد هم الذين في نظرنا يأتون أولاً ؛ اننا نفضّل المحسوس على المجرّد ، والناس على النظريات ، ونضع

---

(١) مشهيات روسية (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصداقة فوق السياسة . » وأقررنا ذلك بانفعال كان يستخفه الكحول والساعة المتأخرة . وكان كوستلر يردّد « مستحيل ! مستحيل ! » وكنت أجيب بصوت منخفض وبصوت مرتفع : « هذا ممكن ، ونحن نثبته هذه اللحظة نفسها ، ما دمنا ننظر الى بعضنا في فرح ، بالرغم من اختلافاتنا » . لقد كانت السياسة تحفر بين بعض الناس وبيننا هوّات ؛ ولكننا كنا ما نزال نعتقد ان ما كان يفصلنا عن كامو انما هي فروق كلامية .

وفي الساعة الرابعة صباحاً ذهبنا نأكل ونستمر في الشراب في حانة من « الهال » ؛ وكان كوستار ثائر الأعصاب ؛ ولقد قذف من فوق الطاولة ، بدافع من المزاح او الحنق ، قطعة من الخبز أصابت « مامين » في عينها : فاعتذر ، وقد زال بعض سُكره ؛ وكان سارتر يردّد بابهجة جذلة :

– من يصدّق انني بعد بضع ساعات سأتكلم عن مسؤولية الكاتب ؟!

فيضحك كامو . وكنت أضحك كذلك ، ولكن الشراب كان قد اعتاد دائماً ان يُميلني الى الدموع ، وحين وجدتني عند الفجر وحيدة مع سارتر في شوارع باريس ، رحت أنتحب على ما في الوضع البشري من مأساوي؛ وإذ كنا نجتاز احد جسور السين ، ارتفقت احد الحواجز وقلت :

– إنني لا أفهم لماذا لا نلقي بأنفسنا الى الماء !

فقال سارتر ، وكان قد ذرف بعض الدموع ، هو ايضاً ، بفعل العدوى :

– هيّا بنا ... لنلق بأنفسنا !

وعدنا الى البيت حوالي الثامنة . وحين لقيت سارتر ثانية في الرابعة بعد الظهر ، كان وجهه متعباً؛ كان قد نام ساعتين او ثلاثاً، وتناول عدداً كبيراً من اقراص التنبيه ليُعدّ محاضرته. وكنت اقول لنفسي وانا ألج قاعة المحاضرات الغاصّة :

– لو انهم رأوا سارتر ، في الساعة السادسة صباحاً !

وتعرّفنا بواسطة كوستلر على مانيس سبيربر الذي كان يعتبره استاذَه واكفأ عالم نفسي في العصر . كان ذا سحرٍ مغلّف وكان من اتباع ادلر [1] الامناء ،

---

(١) الفريد ادلر (١٨٧٠-١٩٢٧) عالم نفسي نمسوي مؤلف دراسة عن علم النفس التحليلي قائمة على الطبع . (م. ه)

ومناهضاً للشيوعية ضارياً ؛ وقد نفّرتنا اعتقاديته. وروى لنا ان مالرو كان قد حدّثه عن سلاح سوفياتي سرّي افظع من القنبلة الذرية : انه حقيبة ذات مظهر بسيط لا يوحي بالايذاء ، ملآى بالبارود الاشعاعي ؛ وسوف يتولى اعضاء الطابور الخامس — اي الشيوعيون — في اليوم المحدّد وضع تشكيلة منه في امكنة مختارة ، وبعد أن يُحرّكوا آلة معينة ، يبتعدون على رؤوس أصابعهم : وسوف يسقط سكان شيكاغو ونيويورك وبتسبورغ وديترويت كالذباب . فمن المفهوم ، امام هذا الخطر ، ان ينادي اليمين بالحرب الوقائية .

بعد اسبوعين من خروجنا مع كوستلر ، أقام « فيان » وزوجته أمسية ساهرة ؛ وكان ثمة كثير من المدعوين ، بينهم ميرلو — بونتي . وكان « فيان » قد نشر في « التان مودرن » بضع مقالات بعنوان : « أحاديث الكذّاب » ، وقصة بعنوان « النمل » ومقاطع من « زبد الأيام » التي كان قد تقبّل بنفس راضية ، على ما يبدو ، عدم نجاحها . وذلك المساء ، تحدثنا كثيراً ، فيما كنا نستمع الى موسيقى الجاز ، عن « فرنون سوليفان » مؤلف رواية « سأبصق على قبوركم » التي كان « فيان » قد ترجمها الى الفرنسية : وكان ثمة شائعة بأن « سوليفان » لا وجود له . وحوالي الحادية عشرة مساء وصل كامو ، وكان سيء المزاج ، بعد عودته من رحلة في الجنوب ؛ فهاجم ميرلو — بونتي على مقاله « اليوغي والعامل » واتهمه بأنه يبرر محاكمات موسكو ، وغضب ان يكون بالامكان تشبيه المعارضة بالخيانة . ودافع ميرلو — بونتي عن نفسه ، وأيّده سارتر ، فما كان من كامو ، وقد تغيّرت ملامحه ، الا ان صفق الباب خلفه ؛ وهرع سارتر وبوست فلحقا به الى الشارع ، ولكنه رفض ان يعود . وقد ظلّ هذا الخصام حتى آذار ١٩٤٧ .

لماذا تلك الفضيحة ؟ أعتقد ان كامو كان في ازمة لأنه كان يشعر أن عهده الذهبي يزول . كان قد قضى بضعة أعوام مجيدة ؛ كان يروق الناس ، وكانوا يحبونه «كانوا يجدونني جذّاباً ! تصوّروا هذا ! أتعرفون ما هي الجاذبية ؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن يسمع المرء نفسه يجيب بنعم من غير ان يطرح ايّ سؤال واضح »[1] وكان ما ناله من حظوظ يُشمله : كان يحسب انه يستطيع كلّ شيء : « لفرط ما غُمرت به ، كنت أحسبني مرصوداً للمجد ، واشك في البوح بذلك » وكان نجاح « الغريب » وانتصار المقاومة قد أقنعاه بأن كل ما كان يباشره كان مكتوباً له النجاح . وقد حضرنا بصحبته حفلة غنائية كانت تجمع علية القوم ، وكانت ترافقه مغنية شابة كان مهتماً بها ؛ وقد قال لسارتر : « تصوّر أننا ستتمكن غداً من فرضها على هذا الجمهور ! » وكنس القاعة بحركة انتصار . وكتب سارتر ، بناء على طلبه ، الكلمات الاولى من اغنية : « إن لي عاداتي في جهنم » على ان المسألة بقيت عند هذا الحدّ . وتناول الغداء معي ذات يوم في « البوتي سان بنوا » ، بعد قنبلة هيروشيما ، فقال لي إنه ، من أجل منع الحرب الذرية ، سيطلب الى علماء العالم كافة ان يوقفوا أبحاثهم . فاعترضت قائلـــة :

ــ أليس هذا طوبائياً بعض الشيء ؟

فصعقني بنظراته وقال :

ــ كان يقال ايضاً بأنه طوبائي ان نريد تحرير باريس بأنفسنا . إن الواقعية ، هي الجرأة .

وكنت أعرف غضباته المتعالية ؛ وكان بعد ذلك يتغيّر ، من غير ان يعترف . فهو مثلاً قد كف عن التحدث بذلك الموضوع . ولاحظ بسرعة ان الامور ليست بالسهولة التي يتصور ؛ فبدلاً من ان يواجه المصاعب كان ينفر منها . وقد كنت ذات يوم أُعدّ محاضرة ، فوجّه إليّ نصيحة شدهتني :

ــ اذا طُرح عليك سؤال مُربك ، أجيبي بسؤال آخر !

وقد خاب ظن الطلاب اكثر من مرة ازاء تهرّبه من الجواب . كان يقلّب الكتب بدلاً من ان يقرأها وكان يحسم بدلاً من ان يفكر . وقد تحدثت عن الحكمة التي يتلبّسها هذا الكسل . كان يحب الطبيعة التي يملكها ، ولكن

---

(١) « السقوط » .

التاريخ كان ينكر فرديته ، وقد رفض ان ينحني له . ومن جرّاء هذا الرفض ، حوّله التاريخ من « حقيقة مثالية » الى « توكيد فارغ من المعنى » كما كتب سارتر عام ٥٢ . وقد كان يتخبّط امام هذا التدخّل بدلاً من ان يقرّر طرد أحلام قديمة . ورويداً رويداً أخذ يغذّي احقاداً على مناقشات محدّثيه واعتراضات على الانظمة الفلسفية ، وعلى العالم إجمالاً . كانت تلك الاعتراضات تجرحه كأنها ضروب من الظلم ، لأنه كان يعتقد أن له حقوقاً على الناس والأشياء ؛ كان كريم النفس ، فكان يطلب الاعتراف بالجميل ، وحين كان يُنتقد او يُعارَض ، كانت كلمة « الجحود » تطفر سريعاً على شفتيه . الى درجة انه قد بلغ من أمره ، بعد المجد الذي أصابه ، أن تمنّى « ان يموت بلا حقد »[١]

في تشرين الثاني ، اقيم العرض الاول لـِ « موتى بلا قبور » . وكان سارتر قد كتبها قبل ذلك بعام : في الوقت الذي بدأ فيها المتعاونون القدامى يرفعون رؤوسهم ، فأراد ان يُنعش ذاكرة الناس . وكان طوال اربعة أعوام قد فكّر كثيراً بالتعذيب ؛ وكان المرء يتساءل ، وحده ، وبين الاصدقاء : أتراني لن أتكلم ؟ كيف ينبغي مواجهة الأمر للصمود ؟ وكان قد تأمّل كذلك علاقة المعذّب بضحيته . فألقى في المسرحية بجميع تلك الصور والتأملات . وقد نصب فيها مرة اخرى النزعة الاخلاقية و « التطبيق » : إن لوسي تتعثر في كبريائها الفردية ، في حين ان المناضل الشيوعي ، الذي يعطيه سارتر الحق ، يهدف الى الفعالية .

وكان سارتر قد وزّع الأدوار على فيتولد وكوني وفيبير وشوفار وماري اوليفييه . وسيتولى فيتولد الإخراج . ولكن لم يكن يسيراً إيجاد مسرح . وفي أثناء مكوث سارتر في أميركا ، كنت قد ضاعفت مساعي محنقة . وكان مشهد التعذيب يخيف ويبعث الذعر . وقال صاحب مسرح هيبرتو : « بالنظر إلى مواقفي في أثناء الحرب ، لا أستطيع أن أقدّم هذه المسرحية » وبعد أن جعلني « بيير » آمل أنه سيتقبل تقديمها على مسرح « الأوفر »

(١) « البحر عن كثب » .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيته يتهرب هو أيضاً . وأخيراً ، قبلتها سيمون بيريو التي كانت قد استعادت « مسرح انطوان » . وقام ماسون بتجهيز الديكورات . وكتب سارتر ، إتماماً للحفلة ، « البغي الفاضلة » في بضعة أيام ، وقد استوحاها من حادثة واقعية كان قد قرأها في « الولايات اللامتحدة » لبوزنر . وألوان التعذيب ، في « موتى بلا قبور » تجري كلها تقريباً خلف الديكورات ؛ وقد كانت ، وهي تُرى من الكواليس ، لا تُذعر إلاّ قليلاً . بل هي كانت تضحكنا لأن الشهيد ، فيتولد ، الذي يبدو شديد الجوع في تلك الساعة ، يرتمي على سندويش فيمضغها بين الآهات . أما في مساء العرض العام الأول ، فقد كنت في القاعة ، ورأيت كل شيء قد تغيّر . كنت قد عشت لحسابي العملية التي تغيّر لعبةً بلا نتائج إلى حدث ، على أن ثمرة هذا التغيّر كانت ، كما توقّع المدراء الحذرون ، فضيحة . وقد بلغتني هذه الفضيحة : ذلك أن صرخات فيتولد ، حين سمعتها عبر آذان أجنبية ، بدت لي غير محتملة تقريباً . وقد نهضت السيدة ستيف باسور وصاحت ، منتصبةً تحت قبعتها : « إن هذا مخجل ! » وفي قاعة الحضور ، بلغ الأمر ببعض المشاهدين أن تضاربوا . وخرجت زوجة آرون ، في فترة الاستراحة ، بعد أن كاد يغمى عليها ، وتبعها آرون . وكان معنى هذا الضجيج واضحاً : لقد كانت البورجوازية تتأهب لتتّحد ، وكانت ترى من قلة الذوق إيقاظ ذكريات غير عذبة . وأُخذ سارتر نفسُه بالضيق الذي كان يبعثه ، وفي الليالي الأولى من عرض المسرحية ، كان يشرب الويسكي حين تبدأ ألوان التعذيب ، حتى يمنح نفسه الشجاعة ، وكان غالباً ما يكون مترنّحاً حين يعود إلى بيته . وشبّه النقّاد البورجوازيون التمثيل بالتهريج ، وأخذوا على سارتر أنه يلهب الأحقاد . وأرسلت صحيفة جديدة اسمها « فرانس — ديمانش » تهتم بالفضائح صحفياً التقط بسرعة ، حين فتح الباب ، صورة نشروها على أنها صورة أمه : ولم تكن إياها . ونشرت مقالاً أشدّ إغثاءً من مقال كانت نشرته قبل عام صحيفة « سامدي — سوار » .

وفي التاريخ نفسه تقريباً ، عرض جان لوي بارو على مسرح « ماريني » تمثيلية « ليالي الغضب » التي كان سالاكرو يروي فيها هو أيضاً قصة مقاومة . وكان تكنيكه يستعير من السينما المناظر الخاطفة وسواها ؛ وقد وجدنا الحوار رائعاً ، وكانت مادلين رينو وجان ديسايي ينتقلان فيه من محاولات الاغتيال إلى الخيانة : فكانت الدرامة « الإيجابية » تخرج بصورة أقل توفيقاً . وفي « موتى بلا قبور » كذلك ، كانت أحاديث الميليشيا تؤثّر أكثر من أحاديث ضحاياهم . إن وصف البطولة غير مربح ؛ ولكي يغامر مسرحيون مهرة من مثل سارتر وسالاكرو في أن يفعلوا ذلك ، فلا بد من أن تكون أخلاقية الحقبة غير قابلة للمقاومة[1] . وبعد ذلك بقليل ، في يناير ٤٧ ، قُدمت على مسرح « الرونيسانس » تمثيلية « أربع نساء » لمولوجي ؛ ولقد استوحى الكاتب حادث اعتقال « اولا » فكتب الحياة اليومية لأربع أسيرات . ولم تنجح المسرحية ؛ وقد كرّر النقّاد بانزعاج أنه آن الأوان لدفن الماضي .

كان الشيوعيون بالإجمال قد أيّدوا « موتى بلا قبور » . ومع ذلك ، فحين رأى سارتر للمرة الأولى اهرنبورغ في حفلة غداء أقامتها دار نشر ناجيل ، وهي وكيلة سارتر المسرحية ، عاتبه اهرنبورغ في مرارة أنه جعل مقاوميه جبناء ومقامرين . ودهش سارتر وسأله :

— هل قرأت المسرحية ؟

فأقرّ اهرنبورغ أنه قد تصفّح فقط اللوحات الأولى ، ولكنه كوّن رأيه فيها ، وقال :

— ولئن كان لي هذا الانطباع ، فلا بدّ أن هناك أسباباً وجيهة .

وأما بشأن « البغي الفاضلة » ، فقد كان الشيوعيون يأسفون أنّ سارتر

(١) نسبت الضجة العامة وهنري جاكسون لسارتر تعليقاً خبيثاً : « لقد كان سالاكرو أنجح في تصوير المتعاونين منه في تصوير المقاومين : فهو أشد معرفة بهم » وكان سارتر قد قال ان سالاكرو اكثر معرفة بالبورجوازية اجمالا منه بالمقاومين .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يقدّم للجمهور، بدلاً من زنجي مرتجف خوفاً واحتراماً، مصارعا حقيقياً. فأجاب سارتر: «ذلك أن مسرحيتي تعكس الاستحالة الحالية لحلّ مشكلة الزنوج في الولايات المتحدة»[1] ولكن كان لهم مفهوم حاسم للأدب، وكان أحد مآخذهم أن سارتر لا ينطوي طائعاً أمام هذا المفهوم.

كانوا يطالبون الكتّاب بآثار مهيّجة ومحمّسة: ملاحم ومؤلفات تفاؤلية. وكذلك كان سارتر، ولكن على طريقته. وقد شرح وجهة نظره في مذكرات لم تنشر: لقد كان يرفض «الأمل مسبّقاً»: وكان رأيه في العمل حداً وسطاً بين نزعة أخلاقية مستوحاة من المقاومة، وبين واقعية «التطبيق»؛ إن المشروع لا ينبغي أن يؤسّس على حساب للحظوظ: فهو نفسه الأمل الوحيد المسموح به. إن الكاتب لا ينبغي له أن يَعِدَ بأيام مقبلة تغنّي، وإنما عليه حين يصوّر العالم كما هو، أن يثير الرغبة في تغييره. وبمقدار ما تكون اللوحة التي يرسمها له مقنعة، يبلغ هدفه بصورة أفضل: إن أشد أثر فنّي ظلامــاً ليس هو تشاؤمياً إذا نادى الحريّات وتغنّى بها، وكان في صالح الحرية. وهكذا فان «البغي الفاضلة» تثير نقمة المشاهدين؛ ومن جهة أخرى، فان في جهد «ليزي» للتخلّص من وضعها المزيّف حظاً ببلوغ غايتها. والحق أن سارتر كان يفهم وجهة نظر الشيوعيين: فالأمل، على مستوى الجماهير، عنصر عمل؛ ذلك أنّ الصراع أقسى جداً من أن يجازفوا بخوضه إن لم يكونوا يؤمنون بالنصر. وما كان يدعوه «تفاؤلية قاسية» كان يناسب فحسب جمهوراً لا يأخذ الواقع بخناقه. لا بدّ من التفكير، والنظر من بعيد، والثقة، لتجاوُز الموقف الانتقادي بدلاً من التدويم فيه. ولقد غيّر سارتر تلقائياً نهاية «البغي الفاضلة» حين أخرجت في السينما: إن ليزي تستمرّ في محاولتها إنقاذ الزنجي البريء. ذلك أن أسلوب المسرحية، وهي هزلية، كان يُبعد الحلّ ويجعله غير مألوف أو متوقّع؛ ولو ظلّ كذلك في السينما

---

(١) كان ذلك عام ١٩٤٦.

لبدا حقيقياً بصورة كريهة . ثم اننا حين نظهر لفئة من الناس تملك بعض الامتيازات التي تخوّلها الذهاب إلى المسرح أن هناك اليوم مواقف قطيعة لا مخرج لها ، فانما نحن نُقلقهم ، ونهزّهم : وهذا حسن جداً ؛ أما الفيلم ، فهو يعرض أمام ملايين المشاهدين الذين يرون في حياتهم الخاصة نفسها مصيبة لا حلّ لها : فالهزيمة ، ستكون هزيمتهم هم ؛ وحين نشارك في تثبيطهم ، نخونهم . وقد كتب سارتر ، بعد ذلك بسنوات ، يقول : « إن الشيوعيين على حق ، وأنا لست على خطأ . إن الأمل ضروري دائماً بالنسبة لأشخاص مسحوقين ، متعبين . فان فرص اليأس أمامهم متوفرة أكثر مما ينبغي . ولكن يجب كذلك أن نحافظ على إمكانية مشروع لا أوهام فيه . » ولقد حافظ عليها . [1]

كنت أعمل في بحثي وأهتمّ بـ « التان مودرن » . وكنت أستشعر إحساساً بالمغامرة كلما فتحت مخطوطاً . كنت أقرأ كتباً انكليزية وفرنسية مجهولة في فرنسا . وكنت أحضر كل ثلاثاء لدى غاليمار اجتماع القراء : كان

---

(١) ان سارتر في مسرحياته ورواياته قريب جداً من الجمالية التي عرفها ، بصدد الرواية ، الفيلسوف الهنغاري الماركسي لوكاكس . يقول غولدمان في مقدمة كتبها عن مؤلفات لوكاكس الاولى (ونشرت في « التان مودرن » عدد آب ١٩٦٢) إن « بطل الرواية في نظره هو كائن إشكالي » وهو « يبحث عن القيم المطلقة على شكل لا حقيقي ومنحط » . والعالم الروائي « لا يستطيع ان يتحمل البطل الايجابي لسبب بسيط هو أن جميع القيم التي تحكمه هي « مضمرة » ، وان جميع الاشخاص هم بالنسبة لهذه القيم ذوو طبع سلبي وايجابي في وقت واحد . » ولكن ما ان يتوجه الادب الى المضطهدين ، لا الى ذوي الامتيازات ، حتى يصبح طرح المسألة من غير رسم جواب لها على الاقل امراً غير كاف . ولقد دهشنا عام ٥٥ حين اكتشفنا « لوزان » كاتب اعوام ١٩٣٦ الصيني الكبير ، وحين لاحظنا أنه قد حدث بينه وبين رفاقه الشيوعيين نزاع شبيه بنزاع سارتر : لقد كان يعطي عن المجتمع الذي كانت الثورة فيه آنذاك مستحيلة وصفاً انتقادياً محضاً ؛ وكان يطلب اليه ان يتنبأ فيه بصورة للمستقبل . وقد انتهى به الأمر الى الخضوع ، باسم اوامر العمل : ولكنه اعتبر آثاره بعد ذلك خالية من أية قيمة جمالية . وللاسباب نفسها ، كان بريخت مشبوهاً لمدة طويلة في الاتحاد السوفياتي : ان سلاحه هو السخرية ، لا الانفعال الفاضل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثمة لحظات مرح ، لا سيما حين كان « بولان » يهاجم بذكاء أحد الكتب ويختم هجومه قائلاً : « بالطبع ، يجب نشره » . وكنا نستقبل في مكتب المجلة ، مرة في الأسبوع ، أشخاصاً يحملون إلينا مقالات أو اقتراحات أو يأتون ليطلبوا نصائح . وكانت قد حدثت في هذه السنوات الأخيرة أشياء كثيرة لم يكن لدى الصحافة ولا الطباعة الوسائل المادية لإشاعتها ؛ كان الشهود يتدفّقون ، كنت مسرورة حين كان بوسعي أن أقول لمؤلف إن عمله كان مقبولاً ؛ ولكن حين كان لا بدّ من إجراء بعض الحذف ، كان كل سطر يبدو جوهرياً بالنسبة لمن كتبه . وكانت مهمّة أشدّ عقوقاً أن أقول : لا . كان المعنيّ يثور ؛ وكان يورد الحجج على أن مقاله كان طيباً ، وانه يملك موهبة . وكان يذهب ، مقتنعاً بأنه كان ضحية مؤامرة . كان ثمة شبّان يريدون بأي ثمن أن يبرزوا فوراً ، وشيوخ يجرّبون فرصهم الأخيرة ، وأشخاصٌ غير مفهومين يحلمون بأن يفلتوا من سأم البيت ، ورجال ونساء من مختلف الأعمار كانوا بحاجة إلى مال . وكان كثيرون يلتمسون في الأدب نوعاً من الخلاص ، ولكن معظمهم كانوا يريدون أن يحصلوا عليه بأجر مخفض ، من غير أن يدفعوا ما يستحقه من عمل وهمّ . وبالإجمال ، فقد كانت لهم أفكار غريبة عن علاقة الحياة بالكتابة . وقد أعطتني سيدة شابة مخطوطة رواية كانت البطلة تتخبّط فيها بين زوج بورجوازي كريه وعاشق بروليتاري ، ينعم بجميع الفضائل ؛ كانت البطلة تكتب قصتها ، وقد قبلها أحد الناشرين ، فربحت من نشرها ملايين الفرنكات وذهبت في رحلة مع الحبيب . وقد انتقدت أشياء كثيرة في الرواية ، منها ملائكية العشيق ، فقالت : « انني أفهمك ، ولكنك لا تعرفينه : إنه هكذا حقاً ! » وقد كتبت لي بعد عامين تقول : «كانت انتقاداتك صائبة ؛ ولقد أخطأت : كان يمثّل تمثيلاً ، ولم يكن الرجل الذي كنت أعتقد » . وكنت أحياناً أضحك ؛ وفي أحيان أخرى ، كان ذلك يبدو لي محزناً ، المطامع المتواضعة والمجنونة التي كانت تختمر في ذلك المكتب . كان البعض

يلامس المأساوي ، والبعض يسقط غالباً في التهريج . وقد كان من زوارنا الصاخبين الأب جانجانباك ، وهو سريالي ، نصف خالـع جبته ، وكان يهين ثوبه الكهنوتي ، ويشرب الخمر بقوة ، ويظهر مع النساء ، ثم يحبس نفسه فجأة في دير ، ليستغفر عن ذنوبه . وكان يأتي ليعطينا مقالات ، ملآى بالحيوية أحياناً ، ويطلب مالاً ، وكانت الخمرة تثير فيه الحميّا والفورة . وقد حدثني يوماً عن « بريتون » : « ولكن لماذا تراه يحتقر الله ؟ » قالها وهو يبكي بغزارة حتى اضطررت إلى مرافقته إلى صالة خالية . وذات يوم آخر ، اجتازت إحدى السكرتيرات القاعة كأنها هبوب الريح ، لتخبرنا أن هناك مؤلّفاً رفض المسؤلون استقباله فشقّ أحد عروقه في مكتب « لومارشان » .

وفي تشرين الثاني سافرت إلى هولندا لإلقاء بعض المحاضرات ، فقالت لي امرأة شابة استقبلتني في محطة أمستردام : «كنت منذ عامين أزيد عشرين كيلوغراماً عن وزني الحالي . » وحدّثني الجميع عن المجاعة . لقد اكتُسحت جميع الحظائر ، وكانت الأشجار قد قطعت لملء المواقد . وقد اجتزت مع السيدة المسنّة التي نزّهتني في روتردام أراضي كثيرة جرداء : «كانت هذه هي الأحياء القديمة ؛ وكان بيتي قائماً هنا » لم يبق من المدينة كلّها إلاّ أنقاض . ولم تكن البلاد لتستعيد نهوضها بسرعة ؛ لم تكن الواجهات تعرض إلا بضائع « مزوّرة » ؛ وكانت المستودعات فارغة ؛ وكانت البطاقة مطلوبة لشراء أية حاجة : وقد عدت إلى باريس وفي جيبي عملة هولندية لم أنجح في صرفها .

وكنت أعرف كيف قاوم الهولنديون الاحتلال ؛ فأحسست الصداقة لمعظم الذين لقيتهم . على أن الجانب الرسمي من هذه الرحلة قد ثقل عليّ . فقد كنت بحاجة إلى الوحدة لأستطيع أن أستسلم لجمال المدن وكنوز المتاحف : ولكنهم ، بداعي اللطف ، لم يكونوا يعطونني ذرة من هذه الوحدة . وقد ثرت مرة او مرتين ؛ وغالباً ما لجأت الى الحيل ؛ وقد قصدت « هارلم »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في قطار صباحي وتظاهرت بأني لم أصل الا في المساء : وهكذا تمكنت من التفرّج بلا شاهد على رسوم فرانز هالس .

ولحق بي سارتر بعد اسبوع ؛ وكان قد حضر العرض الاول لـ « حانة الشفق » : كارثة . وتفرّجنا معاً على لوحات لرمبرانت وفرمير : شقة حائط صغيرة حمراء مؤثّرة كالجدار الأصفر الذي كان يحبّه بروست . وكان سارتر يتساءل : « لماذا هي جميلة الى هذا الحد ؟ » كنّا في قطار يجري عبر عشب الخلنج ؛ وكنت أستمع إليه بفضول لم تضعفه خمسة عشر عاماً ؛ ومن ذلك القرميد المطليّ استوحى تعريف الفنّ الذي عرضه بعد اسابيع في : « ما هو الادب » : أن تأخذ حريةٌ ما العالم على عاتقها .

وقضينا يومين في « اوترخت » ؛ وقد لمسنا فيها ما أحدثه التأثير الايطالي على فنّاني الواقع العنيف من ألوان الاضطراب والخراب ؛ كانوا اولاً حقيقيين اقوياء ، وبعد ان قاموا برحلة الى فلورنسا ، كفّوا عن ان يرسموا إلاّ التفاهات. وزرنا المعهد البسيكولوجي الذي كان يديره « فان لينيب » . وكان قد كتب لسارتر ، وكان قد تناقش معه في باريس ؛ وكان يسأل : ايّ نصيب من الفرار يتطلّبه « المشروع » ؟ وكان هذا السؤال يلمسني لمساً عنيفاً ، انا التي كنت مغراةً وقتاً طويلاً بأن انظر الى كل انشغال على انه تسلية . واجرى لنا فان لينيب فحصاً غرافولوجياً ؛ وكان قد اخترع جهازاً يتيح قياس الضغط والسرعة وايقاع الملامح لشخص وهو يكتب ؛ وبعد ذلك ، عُرضت على شاشة صورةٌ مكبّرة عن كتابتينا : فاذا فيها من المفارقات والتناقضات ما جعل التكنيكيين الحاضرين يحزنون علينا . واستجبنا لتجارب تصويرية اخترعها فان لينيب وكانت غير معروفة كثيراً . وقد أرانا صور حصان يخبّ ، وقارب آليّ ، وقطار ، ورجل يمشي : أيّها كان يعطي الشعور الأكثر بداهة بالسرعة ؟ وقلت بلا تردّد : الرجل : فلديه وحده كانت السرعة تبدو لي معاشة بوعي واحساس . وبلا تردّد اختار سارتر القارب لأنه « ينتزع نفسه » عن السطح الذي يلتهمه . وقد جعله جوابي يضحك ، كما ضحكت من جوابه ، لأن

كلاً منا يعتبر ان صاحبه قد كشف عن نفسه ببراعة .

وعدنا الى باريس ، فوجدنا « كالدر » [1] يعرض فيها « متحرّكاته » التي لم نكن قد رأيناها في فرنسا قط . وكان سارتر قد التقاه في اميركا . وكان يجد في « أعياده المحلية الصغيرة » سحراً كبيراً ؛ وقد كتب مقدّمة مجموعته . وكان كالدر طويلاً ، بطيناً ، جسيماً ، ذا وجه ضخم نضر يعلوه شعر كثيف أبيض ، فكان يبدو مقدوداً بقصد أن يذكّر ، اذ هو بين مخترعاته الهوائية ، بثقل المادّة . وكان يتسلّى باختراع اللآلىء ؛ وقد أعطاني يوم افتتاح معرضه دبوساً مرصّعاً حلزونياً زيّنت به صدري وقتاً طويلاً .

كنا نجتمع بكثير من الناس ، ومنذ عام ٤٣ لم أكن قد غيّرت آرائي : كان لدى الكتّاب والفنّانين الذين كانوا يروقون لي شيء ما يجتذب دائماً ودّي . على اني فوجئت بأن ألتقي لدى بعضهم نقائص كانت تحدّ من ذلك كالغرور او التعالي ، فبدلاً من ان يعيش أحدهم علاقته مع القارىء عيشاً متبادلاً ، يلتفت نحو نفسه ، ويلتقط ذاته في بُعْد « الآخر » : ذلك هو الغرور . ولقد كنت أجدها لدى الشبّان مؤثّرة تقريباً ؛ انها تسجّل ثقتهم الساذجة بالآخرين . ولكن هذه النضارة سريعاً ما تنكشف ؛ ذلك ان السذاجة اذا طالت انقلبت الى طفولية ، وكذلك تنقلب الثقة الى مذلّة . ربما كان المغرور المغتبط عذب العلاقة بالآخرين ، بالرغم من انه يفرط بالتحدث عن نفسه ، ولكنه يدعو الى الضحك ؛ إنه ساذج : فهو يعتبر جميع ألوان التأدّب مرابح نقدية له . إنه محروم ، ينزلق الى حب الكذب ، ويروي لنفسه اكثر مما يقال له ؛ او هو يتمرّر فيمضغ أحقاداً وثارات كريهة الرائحة . إنه على اي حال يغشّ . فانّما يناقض اكتفاءه الذاتي توقّفُه على الغير الذي يُخضع نفسه له : فهو اذ يستعطي ضروب التملّق ينخفض حين يزعم انه يرتفع . ولفرط التذاذه بصورته ، ينتهي به الأمر الى الانحباس فيها ؛ انه يسقط سقوطاً قَدَرياً

(١) الكسندر كالدر (ولد في فيلادلفيا عام ١٨٩٨) مثال اميركي اشتهر بصنع محاولات بخيوط الحديد . (م. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في التعالي الذي هو ذروة الغرور.

كلما لاحظت ذلك عند زميل، كنت مندهشة: كيف يمكن للمرء ان يهدم نفسه لصالح شخصه؟ لقد علّمتني الأحداث أن هناك طيشاً في تجاهل حقيقته؛ إن ما يمثّله المرء للآخرين، ينبغي ان يضطلع به؛ ومن جهة اخرى، ان كان المرء يملك كفاءات، فمن المستحسن استعمالها؛ ومن المشروع عند اللزوم التباهي بها؛ إن حقيقة انسان تشمل وجوده الموضوعي وماضيه: ولكنها لا تتقلص الى هذه التحجّرات؛ إن المتعالي حين ينكر باسمها تجدّد الحياة المستمر، انما يجسّد بعيني ذاته «السلطة» التي يتحطّم عندها كل حكم: وهو بدلاً من ان يجيب اجابات شريفة على الاسئلة الجديدة دائماً التي تُطرح عليه، يستمدّها من هذا الانجيل: أثره الادبي؛ او هو يقدّم نفسه كمثال، كما كان في السابق؛ إنه بهذه الألوان من التكرار، مهما كان بريق انتصاراته، انما يتأخّر عن سير العالم ويصبح أثراً متحفياً. وهذا التصلّب لا يتمّ من غير نية سيئة: اذا كان المرء يمنح نفسه قليلاً من حظوة، فلماذا ينسحب خلف اسمه، وشهرته، وأعماله الرفيعة؟ إن المتعالي إما انه يتظاهر باحتقار الناس او يطلب احترامهم: ذلك انه لا يجروٌ ان يقف امامهم على قدم المساواة؛ إنه يتنازل عن حريته لأنه يخشى مخاطرها. وهذا العمى، وهذه الأكاذيب تصدمني بصورة خاصة لدى الكتّاب الذين ينبغي ان تكون فضيلتهم الاولى — حتّى ولو اختاروا ابعد ألوان الضلال — الأخلاص والصراحة بلا خوف.

لم أكن مغراة بأن أنسحر بنفسي، لأني لم أكن قد كففت عن الاندهاش بفُرصي وحظوظي. فبالرغم من مصاعب السفر، كنت قد زرت بلاداً عديدة، وكنت على وشك ان اسافر الى اميركا. وحين كان أحد يوقظ فضولي، كنت غالباً ما أستطيع التعرّف اليه. كنت أُدعى كثيراً: ولئن لم أضع قدمي قط في الصالونات، فذلك لأني لم أكن راغبةً في ذلك. لقد كنت بحاجة لكي تروق لي صحبة الناس، ان أحسّني منسجمةً معهم؛

ولم تكن نساء الصالونات ، حتى اكثرهن تحرّراً ، من حزبي ؛ ولو شاركت في طقوسهن ، لضجرت وبخت نفسي . من أجل هذا لم املك قط ثوب سهرة : لقد كنت أنفر ، لا من ارتداء ثوب جنسي (فكثيراً ما كنت ارتدي تلك الاثواب التي توصف بأنها نسائية جداً) وانما من إرتداء ثوب طبقتهن . كان جينيه يأخذ عليّ بساطة ملابسي ؛ وقد قالت لي سيمون بيريو ذات يوم :

– انك لا ترتدين ملابس أنيقة !

وفي البرتغال ، لذّ لي أن أشتري مجموعة من الملابس ؛ وكنت أجد الأشياء الجميلة جميلة ؛ ولكن عبادة الأناقة تتطلب نظاماً من القيم لم يـــكن نظامي . ثم إن المال كان يمكن استعماله في اشياء كثيرة وهو أهمّ من ان يبذّر في الثياب الأنيقة .

* * *

كان المال يطرح عليّ مسائل عديدة . وانا احترمه لأن الحصول عليه ، بالنسبة لكثير من الناس ، شديد الصعوبة ؛ وحين تبيّن لي ، خلال هذا العام ، ان سارتر سيحصل على مال كثير ، أصبت بالذُعر . كان علينا ان ننفقه بأفضل الطرق الممكنة : ولكن كيف السبيل الى الاختيار بين جميع اولئك الذين كانوا محتاجين اليه ؟ لقد تكلّمنا ، في دروب « لابويز » الصغيرة ، عن مسؤولياتنا الجديدة بقلق ، والواقع أننا تجنّبناها . لم يكن سارتر قد حمل المال قط على محمل الجدّ ، وكان يكره ان يعدّ . ولم يكن يملك الميل ولا الوقت لكي يتحوّل الى مؤسسة مختصّة بحبّ البشر ؛ والحقّ انه كان ثمة ما يُزعج في ضروب الاحسان المنظمة تنظيماً مبالغاً فيه . ولقد أعطى كل ما كان يكسبه تقريباً ، ولكن بصدف الصداقات واللقاءات والطلبات . وكنت آسف ان يُدخل الطيش في أعمال سخائه ، وأهدّىء انزعاجي بأن أنفق اقل ما يمكن . وقد كنت بحاجة الى ثوب ، لرحلتي الى اميركا ؛ فاشتريت من حانوت صغير فستاناً مشغولاً كنت أجده فتّاناً ، ولكنه مرتفع الثمن : ٢٥

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ألف فرنك. وقلت لسارتر: « إنه تنازلي الاول » وشرقت بدموعي. وقد أضحك ذلك أصدقائي، ولكنني أفهم نفسي. كنت ما أزال أتصوّر – بالرغم من انني دلّلت على العكس في « دم الآخرين » – ان ثمة وسيلة يستطيع بها المرء ألاّ يشارك في الظلم الاجتماعي، وكنت آخذ على أنفسنا ألاّ نلتمس تلك الوسيلة. والواقع، ان ليس ثمة مثل هذه الوسيلة، وقد انتهيت الى التفكير بأن حلّ سارتر يعادل ايّ حلّ آخر. والحق انه لم يكن راضياً عنه، لأن الامتيازات كانت تثقل عليه. كانت لنا نزعات بورجوازيين صغار، وقد ظلّت طريقة عيشنا متواضعة. على اننا كنا نقصد المطاعم والحانات التي كان يتردّد عليها الميسورون، وكنا نلتقي فيها رجالاً يمينيين: وكان يزعجنا ان نقع في كل مكان على « لويس فالون ». ولم أعتد قطّ على وضعنا الجديد، ولكني أخذت رويداً رويداً أتخلّى عن تردّدي في الافادة منه: فكم كان اعتباطياً عرَضياً الشكل الذي كان به المال يأتي ويروح! ولقد جررت سارتر عدة مرّات في رحلات باهظة التكاليف: كنت شديدة الرغبة فيها، وكانت تعود عليّ بمتع كبيرة حتى أني لم اكن اواخذ نفسي على القيام بها والانفاق عليها. وبالاجمال، فان الطريقة التي وافقت بها على بعض « التنازلات » فيما رفضت تنازلات اخرى، كانت بالتأكيد مبتسرة؛ ولكني أحسب من المستحيل على هذا الصعيد رسم خطّ للسلوك منسجم. وسأعود الى التحدث عن ذلك.

* * *

حين عدت من هولندا، علمت أن « جميع البشر ميتون » قد صدرت. وقال لي الناشر « ناجيل »: « إن زوجتي قد أحبّت كثيراً روايتك الأخيرة. انت تعلمين ان الناس يجدونها دون مستوى أعمالك الأخرى. اما هي، فتحبّها كثيراً. » ولم أكن أعرف ذلك. وكنت قد عملت فيها بمتعة كبيرة حتى اني حسبتها أفضل كثيراً من الأخرى. وكان عديدٌ من أصدقائي الذين قرأوا

المخطوطة يشاطروني رأيي . وكنت قد سمعت من يقول (وربما كان ذلك خطأ) ان «كونو» كان قد عرض على غاليمار ان يصدر منها دفعة واحدة ٧٥ ألف نسخة . وقد أقلقني ان يأخذ عليّ ليريس ان استعمل ما هو خياليّ استعمالاً عاقلاً اكثر مما ينبغي ؛ وقلت لنفسي لأطمئنها : انه سيريالي يتكلّم . ولقد فاجأتني عبارة «ناجيل» وحدثت لي صدمة صغيرة . وما لبثت ان تلقيت توكيدات اخرى . على ان النقّاد لم يراعوني إلا قليلاً : وقد ذهب «روسو» الى اعلان حسرته انه سبق ان تحدّث عني بحماسة وقال انني لم اكتب بعدُ شيئاً ذا قيمة . وقد احتفظ كتابي ، في دائرة أخصّائي ، بأنصاره ، بل كان له أنصار خارج هذا الوسط ؛ ولكنه كان اخفاقاً صريحاً بالنسبة لكتبي التي نجحت سابقاً . وكنت حسّاسة امام حكم بعض النقّاد وحكم الجمهور : فلئن كانوا قد أدانوني ، فلأني قد خسرت في صفقتي ، على نحوٍ ما . وقد أسفت على ذلك ، ولكن من غير ان ابالغ في الانفعال . وظللت على رفضي ان اسائل نفسي ، وأُبرم ذاتي ، كما ظللت على ثقتي بالمستقبل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث

لم أكن أنوي وضع كتاب عن اميركا ، ولكني كنت اريد ان أراها جيّداً ؛ وقد كنت أعرف أدبها ، وبالرغم من لهجتي المزعجة ، كنت اتحدث الانكليزية بطلاقة . وكان لي هناك بعض الأصدقاء : ستيفا ، وفرنان ، وليز ، وأعطاني سارتر عناوين . وقد تغدّيت مع ألين وريتشارد رايت اللذين كانا يستعدّان للعودة الى نيويورك قبل أن يستقرّا نهائياً في باريس .

وذهبت أودّع اولغا التي كانت تستشفى في لايزن ، وقد عزمتْ على ألاّ تبقى هناك بعدُ مدة طويلة ، إذ كان السأم يخلّف عندها الهُزال ؛ وكان المكان حزيناً ك «بيرك» ؛ وبعد اربع وعشرين ساعة، كنت قد بدأت أحسّني مرهَقة . وعدت الى باريس . وانتظرت . وكان قليلاً بعدُ عدد الطائرات التي تجتاز الاطلنطي ، وقد كان ذلك الشتاء من شدة العقوق بحيث كان يتفق لها غالباً ، وهي في وسط المحيط ، ان تعود القهقرى ؛ ولم يكن من اليسير الحصول على مقعد . واخيراً ، صحبني سارتر ذات مساء الى « الانفاليد » وقضيت في « اورلي » ساعتين تائهتين : كان المساء ، وطول غيبتي ، وألوان النفوذ الاميركية ، وكل شيء في هذه الرحلة يثير حماستي وذعري ؛ وها

هي الطائرة تعلن انها لن تطير الا في اليوم التالي . وتلفنت الى « مونتانا » فوجدت فيه ثانية سارتر وبوست ، ولكني لم أكن بعدُ في اي مكان ، وطوال اليوم التالي كلّه عمتُ في الظلمات ، وأخيراً طرت .

وفي نيويورك ، التقيت م . كانت تستعدّ للسفر الى باريس حيث ستمكث حتى عودتي . وكانت جذّابة بالقدر الذي وصفه لي سارتر ، وكانت لها أجمل بسمة في العالم .

كانت فرنسا ما تزال صائمة ، وكذلك ايطاليا ؛ وكانت سويسرا باهتة . اما غزارة اميركا فقد هزّتني هزّاً : الشوارع ، الواجهات ، السيارات ، التسريحات والفراء ، الحانات ، « الدروغستورز » ، جريان النيون ، المسافات التي تلتهما الطائرة والقطار والسيارة ، و « الغريهاوند » ، روعة المشاهد المتغيّرة ، من ثلوج نياغرا الى صحاري الاريزونا الملتهبة ، وجميع الناس المختلفي الأجناس الذين تحدثت معهم طوال النهارات والليالي ؛ ولم أعاشر الا مثقفين ؛ ولكن ما أبعدها مسافة بين أنواع السَلَطة مع الجبن الأبيض في « فاسار » وبين الماريهوانا التي دخّنتها في احدى غرف « بلازا » مع بوهيميين من غرينووش ! وقد كان من حظوظ هذه الرحلة انها ، على كونها موجّهة بمنهاج محاضراتي ، كانت تفسح مكاناً كبيراً للمصادفة والاختراع . اما كيف أفدت من تلك الفرصة ، فقد رويته بالتفصيل في كتابي « اميركا يوماً فيوماً » .

كنت على استعداد لأن احبّ اميركا ؛ صحيح انها كانت وطن الرأسمالية ؛ ولكنها كانت قد شاركت في انقاذ اوروبا من الفاشية ؛ وكانت القنبلة الذرية تضمن لها زعامة العالم وتوفّر عليها الخوف من أيّ شيء : كانت كتب بعض الاحرار الاميركيين قد أقنعتني بأن قسماً كبيراً من الامة كان يملك وعياً بالمسؤوليات صافياً وواضحاً . ولكني سقطت من عل . ذلك ان نزعة اميركية ، كانت شوفينية أبي جديرة بها ، كانت منتشرة بين جميع المثقفين ، حتى بين اولئك الذين يقولون انهم يساريون . ولقد أقرّوا خطب ترومان ، وكانت مناهضتهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للشيوعية تلامس العُصابية ؛ ولقد كانوا ينحنون على اوروبا وعلى فرنسا في تعالٍ متكبّر . ومن المستحيل زحزحتهم ، ولو لحظة ، عن الوان يقينهم ؛ وقد بداً لي النقاش معهم غالباً لا مجدياً كمثل النقاش مع المصابين بالبارانو يا [١] ومن هارفارد الى نوفيل اورليان ، ومن واشنطن الى لوس انجلس ، سمعت طلاباً وأساتذة وصحفيين يتساءلون بجدّ أليس من الواجب إلقاء قنابل على موسكو قبل ان يصبح في مقدور الاتحاد السوفياتي ان يردّ ؟ وكانوا يشرحون لي ان الدفاع عن الحرية يقتضي اولاً القضاء عليها : كانت مطاردة الجنّيات تبدأ .

وكان أشدّ ما أقلقني جمود جميع هؤلاء الأشخاص الذين كانت دعاية ضالّة تطاردهم . ولم يكن الحديث قد جرى بعد عن « تنظيم الانسان » ، في علمي على الأقل ، ولكنه هو ما وصفته في ريبورتاجي بعبارات تكاد لا تختلف عن تلك التي استعملها فيما بعد علماء الاجتماع الاميركيون ؛ وقد ميّزوه قبل كل شيء بطابع « التكليف الخارجي » ؛ وقد استلفت نظري انعدام كل تعليل داخلي حتّى عند الفتية والفتيات ؛ لقد كانوا عاجزين عن ان يفكروا او يخترعوا او يتصوروا او يختاروا او يقرروا بأنفسهم ؛ وكانت انقياديتهم تفسّر هذا العجز ؛ كانوا يستخدمون في جميع الميادين ذلك المعيار المجرّد ، المال ، لأنهم لا يلجأون الى تقديراتهم الخاصة . وكانت احدى مفاجآتي الأخرى ، المرأة الاميركية ؛ فلئن كـــان صحيحاً ان روحها المطالبة قـــد توتّرت حتّى جعلت منها « راهبـــة » فانها مع ذلك كائن غير مستقلّ ونسبيّ : إن اميركا عالمُ ذكور [٢] . وهذه الملاحظات وما علّقته عليها من أهمية تجعل تجربتي الاميركية صالحةً في نظري حتّى اليوم .

على اني التقيت بعض الكتّاب، وهم اصدقاء متفاوتو الصلة لريتشارد

---

(١) عصاب يتميز المصاب به بكبرياء مغالية او بانانية او بحساسية متطرفة او بالحذر (هـ.م)

(٢) كتبت ايف ميريام مقالا نشر في مجلة « لاناسيون » أظهرت فيه ان الرجل الاميركي مسحوق بـ « التنظيم » لا بالمرأة .

رايت الذي كنت متفاهمة معه كلّ التفاهم ؛ انهم مسالمون تقدّميون ، وهم إن كانوا يحذرون روسية ستالين ، فلا يقصّرون في توجيه النقد لبلادهم ذاتها . ولكنهم كانوا يحبّون فيها كثيراً من الأشياء، وقد شدّوني اليها الى حدّ ان تبنيت تاريخها وأدبها وألوان جمالها . وقد غدت أشدّ قرباً إليّ حين ارتبطت في آخر ايام اقامتي بعلاقة حميمة مع « نلسون الغرين » . وبالرغم من اني رويت — بشكل غير صحيح — هذه القصة في « المثقفون » ، فاني اعود اليها ، لا تلذّذاً بالحكاية ، ولأنما لأنظر عن كثب الى مسألة اعتبرتها في « قوة العمر » محلولة بصورة مفرطة اليُسر : هل ثمة توفيق ممكن بين الأمانة والحرية ؟ وما ثمن ذلك ؟

إن الامانة الكاملة الموعوظ بها ، والتي لا تُراعى إلاّ قليلاً ، انما يُحسّ بها الذين يفرضونها على أنفسهم نوعاً من الإتلاف والحرمان : وهم يتعزّون منها بالأعمال النبيلة او بالخمر . ولقد كان الزواج التقليدي يسمح للرجل بـ « بعض ضربات من المدية في العقد » ، من غير تبادل ؛ اما الآن فقد وعى كثير من النساء حقوقهن وشروط سعادتهن : فلئن لم يكن ثمة ما يعوّضهن عن عدم استقرار الرجل ، فان الحسد سيتأكلهن والسأم . وعديدون هم الرجال والنساء الذين يعقدون الميثاق نفسه تقريباً القائم بين سارتر وبيني : المحافظة ، عبر بعض الانحرافات ، على « امانة واخلاص » ما . « لقد كنت اميناً على طريقتي ، يا سينارا » . ولا شك أن للمشروع مخاطره : فقد يحدث ان يفضّل احد الشريكين علاقاته الجديدة على القديمة ، فيعتبر الآخر نفسه ضحية خيانة ظالمة ؛ وهنا يتواجه ضحية وجلاّد ، بدلاً من شخصين حرّين .

وفي بعض الاحوال ، لسبب او آخر — كالأولاد ، او مشروع مشترك ، او قوة التعلّق — يكون الشريكان غير قابلين للكسر . فاذا كانا لا يسمحان لنفسيهما بغير رغبات جنسية موقتة ، فليس ثمة صعوبة ، ولكنّ الحرية التي يتنازل عنها أحدهما للآخر في هذه الحالة لا تستحق اسمها . لقد كنا ، سارتر وانا ، أشدّ طموحاً من ذلك ؛ كنّا نريد ان نعرف « غراميات عارضة »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن ثمة سؤالاً كنا قد تجنّبناه بطيش : كيف يقتنع الطرف الثالث بتسويتنا ؟ والذي حدث انه انطوى لذلك بلا مشقة ؛ كان اتحادنا يترك مجالاً كافياً لصداقات او رفقات غراميـــة ، او اغنيات عابرة . اما اذا كـــان الشريك يتمنّى اكثر من ذلك ، فقد كانت المنازعات تنفجر آنذاك . وفي هذه النقطة كان تحفّظ ضروري قد أفسد صحّة اللوحة المرسومة في « قوة العمر » ؛ ذلك انه اذا ظلّ تفاهمي مع سارتر قائماً منذ اكثر من ثلاثين عاماً ، فان هذا لم يتمّ من غير خسائر وضجيج شارك فيها « الآخرون » . ونقص نظامنا هذا ظهر بشكل حادّ في اثناء الفترة التي أصفها الآن .

* * *

كانت نللي بانسون ، وهي مثقفة شابة تناولت لديها العشاء في نيويورك ، قد قالت لي :

ــ حين تمرّين في شيكاغو ، اذهبي لرؤية الغرين بالنيابة عني . إنه رجل مدهش وهو صديق كبير لي .

وقد كتبت في « اميركا يوماً فيوماً » سرداً أميناً للقائي الأول به : ليلتنا الاولى في احياء المدينة الشعبية ، وبعد ظهر اليوم التالي في حانات الحي البولوني ؛ ولكني لم أتحدّث عن التواطؤ الذي قام بيننا على الفور ، ولا عن الخيبة التي حدثت لنا اذ لم نستطع ان نتناول العشاء معاً : فكنت مضطرة الى ان أقبل دعوة ضابطين فرنسيين . وقبل ان أتجه الى المحطة ، تلفنت له : فكان لا بدّ من ان تُنتزع السمّاعة من يدي ، لطول ما تحدثت اليه . وفي قطار لوس انجلوس ، قرأت أحد كتبه وفكرت فيه ؛ كان يعيش في كوخ خشبي ، لا حمّام فيه ولا برّاد ، على طرف ممرّ ينبعث منه دُخان القمامات وتدوّم فيه صحف قديمة ؛ وكان هذا الفقر قد أثلج نفسي ، لأني كنت لا أطيق كثافة رائحة الدولارات التي كانت تنبعث في الفنادق الكبرى والمطاعم الأنيقة ؛ وقلت لنفسي : « سأعود الى شيكاغو » ؛ كان الغرين قد طلب مني ذلك ،

وكانت لي رغبة بهذا ؛ ولكن لئن كان هذا الفراق قد بدا لنا مؤلماً ، أفلن يجرحنا الفراق القادم جرحاً أعمق ؟ وطرحت السؤال في الرسالة التي بعثت بها اليه ، فأجابني : « الأمران سيّان إن كان لا بدّ من ان يكون الفراق الجديد شاقاً . »

ومرّت الأسابيع ؛ ولدى عودتي الى نيويورك تعزّزت لديّ صداقات ، وكان من بينها واحدة شغلتني كثيراً . وقد طلب مني سارتر في مطلع ايار ، في احدى رسائله ، بأن أؤخر عودتي ، لأن « م » كانت ستبقى عشرة أيام أخرى في باريس . وأحسست اذذاك بذلك الحنين الذي نسبتُه لـ « آن » في « المثقفين » : كنت قد مللت ان أكون سائحة ؛ وكنت اريد ان أتنزّه وذراعي في ذراع رجل يكون ، موقتاً ، لي ، وكنت افكر بصديقي النيويوركي ؛ ولكنه لم يكن يريد ان يكذب على زوجته ولا ان يعترف لها بمغامرة : فعدلنا وقررت ان أتلفن لألغرين ، وسألته :

ــ هل تستطيع ان تجيء الى هنا ؟

ولم يكن يستطيع ؛ ولكنه كان يتمنّى كثيراً أن يراني في شيكاغو . وواعدته على اللقاء في المطار .

وكان نهارنا الاول شبيهاً بذلك الذي قضاه في « المثقفين » آن ولويس : قلق ونفاد صبر ، وسوء تفاهم ، وتعب ، ثم ذلك الذي يبهر في اتفاق عميق . ولم أبق الا ثلاثة أيام في شيكاغو ؛ وكانت لديّ أعمال يجب أن أقضيها في نيويورك ؛ فدعوت الغرين لأن يصحبني إليها : وكانت تلك هي المرة الأولى التي يركب فيها طائرة . وكنت أقوم بالترتيبات وأتبضّع الحاجات وأودّع الاصدقاء : وحوالي الخامسة عُدت الى غرفتنا ، ولم نفترق حتى الصباح . وقد حدث ان كلّموني عنه كثيراً ؛ وكان يوصف بأنه غير مستقرّ على حال ، وانه جفول ، بل حتى عصابي : وكان يروق لي أن أكون وحيدةً في التعرّف عليه . ولئن كانت له ألوان من الفظاظة والقسوة ، كما كانوا يزعمون ، فان ذلك لم يكن الا بداعي الدفاع عن النفس . ذلك انه كان يملك تلك الهبة النادرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الناس التي يمكنني أن أسمّيها الطيبة لو لم يُسأ استعمالها كثيراً : فلنقل إذن إنها هبة الاهتمام اهتماماً حقيقياً بالبشر . وقبل ان أتركه ، قلت له إن حياتي كانت قد صُنعت في فرنسا الى الأبد ؛ فصدّقني من غير ان يفهم من ذلك شيئاً . وقلت كذلك إننا سنلتقي مرة اخرى ، ولكننا لم نكن نعرف متى ولا كيف ، ووصلت الى باريس ، مضطربة مترنّحة . وكان سارتر يعاني كذلك بعض المضايقات ، ذلك أن « م » كانت قد كتبت له قبل ان تبحر الى فرنسا تقول بكل صراحة : « اني قادمة ، وأنا عازمة على ان أفعل كل شيء لكي تطلب إليّ أن ابقى . » فلم يطلب اليها ذلك . وأرادت ان تطيل إقامتها حتى تموز . وبالرغم من انها كانت في نيويورك كثيرة الودّ لي ، فانها لم تكن تحملني في قلبها . وتجنّباً للاصطدامات ، أقمت مع سارتر في احدى ضواحي باريس ، في فندق صغير قريب من « بور رويال » ؛ كان هو الريف تقريباً ، وكان في الحديقة ورود ، وفي الحقول بقر ، وكنت أشتغل خارجاً تحت الشمس . وكنّا نتنزّه في ممرات جان راسين التي كان العشب يكتسحها . وكان سارتر يقصد باريس في بعض الأيام ليلتقي فيها « م » . وقد كان هذا الطراز من العيش يناسبني لو انها اقتنعت به : ولكن لا . ففي الأمسيات التي كان سارتر يبقى فيها في « سان — لامبير » كانت تتلفن له بصورة مأساوية . ولم تكن تستسلم لأن يتركها تذهب . ولكن كيف السبيل الى عمل مختلف ؟ إن الظروف لم تكن تشجّع الحلول الوسط . فلو كانت « م » تستقرّ في باريس مضحيّة بمركزها وصداقاتها وعاداتها ، بكل شيء ، لكانت على حق في أن تنتظر كل شيء من سارتر : وكان ذلك اكثر مما كان يستطيع ان يمنحها اياه . ولكن إن كان يحبّها ، فكيف كان يتحمّل ألاّ يراها طوال أشهر ؟ كان يتلقّى شكاواها بندم : فقد كان يُحسّ انه آثم . صحيح انه كان قد حذّر « م » : فلم يكن وارداً ان يبني حياته معها ؛ ولكنه حين كان يقول لها إنه كان يحبّها ، فقد كان يكذّب ذلك التحذير ؛ ذلك ان الحبّ — في نظر النساء خاصة — ينتصر على جميع الحواجز . ولم تكن « م » مخطئة

تماماً : فان أيمان الحبّ لا تعبّر إلاّ عن عنف لحظة ؛ وإن التحفّظات والاحتراسات لا تقيّد اكثر من ذلك ؛ وفي جميع الحالات ، تكنس حقيقة الحاضر الكلمات القديمة بصورة عنيفة . وكان طبيعياً أن تفكر « م » : إن الامور ستتغيّر . وكان خطأها ان تعتبر مجرّد احتياطات كلامية ما كان لدى سارتر معرفةً اكثر منه قراراً ؛ ومن الممكن ان نعتبر أنه ضلّلها بمقدار ما كان مستحيلاً عليه ان ينقل إليها بداهة هذا الأمر . ثم إنها من جانبها لم تقل له إنها حين تنخرط في تلك القصة كانت ترفض حدودها ؛ وربما كان هو خفيفاً في انه لم يتصور ذلك ؛ وعذره أنه فيما هو يرفض أن يعكّر علاقاته معي ، كان متعلقاً بها تعلقاً عنيفاً ، وكان قد اراد ان يعتقد أن من الممكن اجراء توفيق ۵

وبالرغم من عذوبة الصيف المبتديء ، فقد قضيت شهرين شاقّين . وكنت قد ابتلعت في حينه إخفاق روايتي الأخيرة ، بعد اخفاق « الافواه اللامجدية » ؛ ولكن هذا الاخفاق الجديد كان صميمياً يحزنني . انني لم اكن اتقدّم بعدُ ، وانما كنت آسن . ولم اكن قد استطعت ان اقرّر الانفصال عن اميركا ، وحاولت ان أُطيل رحلتي بكتاب ؛ ولم أكن قد سجلت ملاحظات ولكن رسائل طويلة بعثت بها الى سارتر ، وبعض المواعيد المسجّلة على دفتر مذكرات ، ساعدا ذاكرتي . وكان هذا الريبورتاج يثير اهتمامي ؛ ولكنه ، كدراستي عن المرأة التي تركتها موقتاً ، لم يعطني ما كنت حتى ذلك الحين قد التمسته من الأدب : الشعور بأني في وقت واحد أجازف وأتجاوز نفسي ، وفرحاً شبه دينيّ . وكنت أقول لسارتر : « انني اقوم بعمل المرموط [1] » وعلى ايّ حال ، لم تكن مشقة الكتابة ولا بهجتها بكافيتين لتهدئة ذكرى ايامي الأخيرة في اميركا . ولم يكن مستحيلاً ان اعود الى شيكاغو ، باعتبار ان قضية المال الآن لم تكن واردة ؛ ولكن ألم يكن من الأفضل التخلّي عن ذلك ؟ كنت أطرح على نفسي هذا السؤال بضيق يبلغ حدّ الشرود . ولكي

(١) حيوان من فصيلة القارضة ينام طوال الشتاء (هـ . م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أهدّيء نفسي ، كنت أتناول اقراص الاورتدرين ؛ وقد كان ذلك يعيد إليّ التوازن في اللحظة نفسها ؛ ولكني أفترض أن هذه الحيلة لم تكن غريبة على ألوان الضيق التي عرفتها آنذاك ؛ ولو كانت ضروب قلقي حقيقية ، قائمة على أسس ، لكان بالامكان حصرها على الأقل في أشكال متحفّظة : والواقع أنها كانت مصحوبة باضطراب جسدي لم يسبق لأكبر ألوان يأسي أن خلّفته ، حتى حين كان الشراب يفاقمها . ولعلّ هزّة الحرب وما بعد الحرب قد جعلتني مهيّأة لهذه التطرّفات . وربما كانت هذه الأزمات ايضاً ، قبل ان أستسلم للسنّ ولنهايتي ، تمرّداً أخيراً : كنت ما أزال اريد ان أفضل الظلمات عن النور . وكنت فجأة أصبح حجراً ، كان الفولاذ يشقّه : انه الجحيم .

* * *

بمناسبة عودتي ، أقمت حفلة ، ليلة استجمام ، في الكهف ، بشارع لامونتانيي – سانت – جنفياف ، حيث كان « اللورينتيون »[1] قد انتقلوا . وقد سارع « فيان » الذي كان يشرف على الحانة الى تقديم أمزجة رائقة من المشروب ؛ وسقط كثير من المدعوين في البلاهة ؛ اما جياكومتي فقد نام ؛ واما انا فكنت حكيمة ، وظللت صاحية حتى الصباح ؛ وحين ذهبت ، نسيت محفظتي ، وبعد الظهر عدت أبحث عنها مع سارتر . وسألنا الخادم :

– والعين ؟ الا تريدان العين ؟

كان صديق لـ « فيان » وزوجته ، وكانا يسميانه « الماجور » ، قد وضع عينه الزجاجية على البيانو وتركها هناك . وبعد مرور شهر ، فتحت حانت « التابو » ، وهو كهف في شارع دوفين ، كانت آن – ماري كازاليس ، وهي شاعرة روسية شابة ، حاملة جائزة فاليري ، تستقبل فيه الزبائن قبل ذلك بسنوات ؛ وأقام فيان وجوقته في التابو الذي نجح على الفور نجاحاً كبيراً .

---

(١) كان هذا اسم جمعية كلود لوتر .

وكان الناس يشربون ويرقصون وكذلك يتنازعون كثيراً في الداخل وامام المدخل . وقد أعلن سكان الحيّ الحرب على آن ـ ماري كازاليس ؛ وكانوا في الليل يقذفون بدلاء الماء على رؤوس الزبائن ، بل حتى على جميع المـــارة .

وكان سارتر قد أطلعني على مجرى حياته بواسطة الرسائل ، وعدنا نتحدث في ذلك ، وكان قد حضر مسرحية جينيه « الخادمات » التي كان جو فيه قد قدّمها على غير حقيقتها . والتقى ثانية بكوستلر ، وكان يريد ان يعطيـــه « نظرات في القضية اليهودية » التي كانت قد صدرت حديثاً ، فأوقفه كوستلر قائلاً له : « لقد ذهبت الى فلسطين ، وانا مُشبع بهذه المسألة ؛ وينبغي ان اصارحك بأني لن اقرأ كتابك . » وبفضل تدخل « م » التي كانت تعرف كامو ، تصالح سارتر معه . وظهرت « الطاعون » في تلك الفترة ؛ وكان القاريء يجد فيها ، بين الفينة والفينة ، نكهة « الغريب » ؛ كان صوت كامو يؤثر فينا ؛ ولكنه كان يشبّه الاحتلال بوبأ طبيعي ، فقد كان يلجأ مرة اخرى الى وسيلة للفرار من التاريخ ومن القضايا الحقيقية . وكان من اليسير ان يتفق الجميع على المغزى الاخلاقي اللامتجسد الذي كان ينبعث من تلك الاسطورة . وبعد عودتي بقليل ، انفصل كامو عن «كومبا » : وكان اضراب الصحف قـــد هزّ توازن الجريدة المـــالي ، فدعمهـــا « سمادجا » واستعادها بورديه الذي كان قد أسسها، ولكنه كان في معسكر اعتقال حين خرجت الجريدة من السرّية . وكان هذا التغير ، على نحوٍ ما ، موفقاً : فقد اتخذت «كومبا » من جديد ، مواقف يسارية ؛ ولكن كامو كان قد شارك فيها مشاركة وثيقة جداً حتى أنّ تخليه سجل في رأينا نهاية مرحلة .

ولم تكن هذه المرحلة مرحة . كان فقر فرنسا قد استحوذ على انتباهي منذ حطت بي الطائرة . وكانت سياسة بلوم ـ منع اخراج الرواتب والاسعار ـ قد أخفقت ! وكانت البلاد بحاجة الى الفحم والقمح ؛ وكان توزيع الخبز

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد أُنقص ، فكان من المستحيل على المرء ان يأكل ويلبس من غير ان يلجأ الى السوق السوداء ، ولم يكن راتب العمال يسمح لهم بذلك . واحتجاجاً على تخفيض مستوى الحياة ، أضرب عشرون ألف عامل يوم ٣٠ نيسان في شركة رينو . وأحدث الجوع اضطرابات جديدة لدى عمال السفن والغاز والكهرباء والسكك الحديدية عزاها رامادييه الى رئيس جوقة خفيّ . وعلمت ايّ عقاب مارسه الجيش ضد المدغشقريين [1] : ٨٠ الف قتيل . وكان القتال قائماً في الهند الصينية [2] . وحين سافرت الى اميركا ، كانت الصحف ممتلئة بقصص تمرّد هانوي . وعند عودتي فحسب ، علمت ان سبب هذا التمرد هو قصف هايفونغ : ذلك ان مدفعيتنا كانت قد قتلت ستة آلاف شخص ، من الرجال والنساء والاطفال . وكان هوشي منه قد بدأ حرب المقاومة السرية . وكانت الحكومة ترفض المفاوضات باعتبار ان «كوست – فلوريه » كان يؤكد : ليس من مسائل عسكرية بعدُ في الهند الصينية ؛ في حين ان لوكلير كان يتوقع سنوات وسنوات من حرب العصابات .

وكان الحزب الشيوعي ضد هذه الحرب ؛ وكان قد احتجّ على اعتقال خمسة نواب مدغشقريين ؛ وقد أيد الوزراء الشيوعيون اضراب معامل رينو وخرجوا من الحكومة . وفي هذه الاثناء كان ديغول يخطب في « برونوفال » فيعلن في ستر اسبورغ تشكيل« تجمع الشعب الفرنسي »،وكان صراع الطبقات يكشف القناع . ولم تكن الخطوة بعدُ في جانب البروليتاريا ؛ كانت البورجوازية قد أعادت تشكيل بنياتها وكانت الظروف تساعدها .

والواقع أن انشقاق الوحدة الفرنسية كان الى حدّ بعيد تابعاً لانشقاق التضامن العالمي . وكان قد مرّ فقط عامان منذ ان رأيت في السينما جنوداً

---

(١) كانوا قد قتلوا في آذار ٢٠٠ من المعمرين . ولم تكذب الحكومة رقم الثمانين ألفاً . وقد نشر هذا الرقم ، بينما ظل رقم ضحايا ستيف مخبوءاً ، لأن الشيوعيين كانوا الآن في المعارضة .

(٢) كانت فرنسا قد اعترفت يوم ٦ آذار ٤٦ بجمهورية فيتنام التي يرأسها هوشي منه. ولكن مناورات سايغون « وسياسة الحزم » التي اتبعها بيدو كانت قد عاكست هذه الاتفاقات .

أميركيين وجنوداً روساً يرقصون معاً من الفرح في تورغو ، على ضفاف « الإلب » . اما اليوم ، فان الولايات المتحدة كانت تهدف ، في موجة من الكرم ، الى ان تجعل من اوروبا كوكباً يدور في فلكها ، بما في ذلك بلاد الكتلة الشرقية ؛ فأحزنها مولوتوف حين رفض مشروع مارشال . فكانت الحرب الباردة مفتوحة . فحتى في اليسار ، وافق قليل جداً من الأشخاص على رفض الشيوعيين : وبين المثقفين المفكرين كان سارتر وميرلو بونتي الوحيدين تقريباً اللذين اعتنقا وجهة نظر توريز عن « الفخ الغربي » .

على ان الجسور كانت مقطوعة بين سارتر والشيوعيين . وكان مثقفو الحزب يشنّون عليه حملة ضارية لأنهم كانوا يخشون ان يسلبهم زبائنهم : كانوا يحكمون انه يزداد عليهم خطراً بقدر ما يقترب منهم . وقد قال له غارودي : « انك تمنع الناس من ان يجيئوا الينا » ؛ وقالت له ايلسا تريوليه : « انك فيلسوف ، فأنت اذن ضد الشيوعية » . وكانت « البرافد » قد بصقت على الشيوعية شتائم تثير الضحك ، ولكنها مع ذلك تثير الأسى . وكان لوفيفر قد « حكم عليه بالاعدام » في كتاب مجّده « ديزانتي » في جريدة «الاكسيون» و « غي لوكلير » في مجلة « لي ليتر فرانسيز » وكان قد صدر في مجلة «لابانسيه» مقال بعنوان « الاسرة الوجودية المقدسة » بقلم موجان ، وهو على حد قول العارفين في الحزب الشيوعي حكم آخر بالاعدام . وقد نعت غارودي سارتر بأنه « حفّار قبور الأدب » ولكنه كان يحتفظ ببعض الحشمة في الشتيمة ، ولكن كانابا كان في « الوجودية ليست فلسفة انسانية » يصفنا بلهجة قذرة بأننا فاشست « واعداء البشر » . وكان سارتر قد قرّر ألاّ يجبر نفسه بعدُ على المراعاة . وكان قد أخذ توقيع عدد من المفكرين – بينهم بيار بوست ، وفومبور ، وشلامبيرجه ، ومورياك ، وغيهينو – على بيان يحتج على الشتائم التي صبّت على « نيزان » ، وقد نشرته الصحف . وردت اللجنة الوطنية للمقاومة ، وكان سارتر قد قرّر الردّ في «التان مودرن» عدد تموز . ولم يكن ثمة مفرّ من هذا الانشقاق ما دام قد كتب في « ما هو الأدب ؟ » التي كانت « التان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مودرن » تنشرها آنذاك تباعاً قوله : « إن سياسة الشيوعي الستاليني لا تتطابق مع الممارسة الشريفة للمهنة الأدبية » وكان يأخذ على الحزب الشيوعي نزعته العلمية البدائية ، وتذبذبه بين النزعة المحافظة والانتهازية ، والنفعية التي كانت تنحطّ بالأدب الى درجة جعله دعاية . وكان سارتر ، وهو المشبوه في نظر البورجوازيين ، والمقطوع عن الجماهير ، يحكم على نفسه بألاّ يكون له جمهور ، وانما قراء فحسب ؛ وهذه الوحدة ، كان يتقبّلها طائعاً لأنها كانت تتملّق نزعته للمغامرة . ولم يكن ثمة ما هو أشدّ يأساً من هذه المحاولة ، ولا اكثر جذلاً . كان الشيوعيون حين يرفضونه يرصدونه سياسياً للعجز ؛ ولكن ما دامت التسمية تعني كشف الستار ، وكشف الستار يعني التغيير ، فان سارتر كان وهو يعمّق فكرة الالتزام ، يكتشف في الكتابة عملاً « تطبيقياً » كان يُردّ الى تفرّده كبورجوازي صغير . وكان يرفض هذا التفرّد ، فيُحسّ بنفسه « وعياً بائساً » ؛ ولكنه لم يكن يحبّ الانتخابات ولم يكن يشكّ في انه بالغٌ يوماً تجاوز هذا الوضع .

حضرت عرضاً لفيلم « تمت اللعبة » الذي انتجه « ديلانوي » اقتباساً من سيناريو لسارتر قديم . وبعد ذلك ، تناولت العشاء مع بوست واولغا ، التي كانت قد عادت من « لايزن » بصحة متحسّنة ، في مطعم « فيفور » . وكانت ميشلين بريل في الفيلم تفيض جمالاً وموهبة ؛ ولكن « باغليارو » الذي كنت قد أحببته في فيلم « رومة مدينة مفتوحة » — وكنت قد رأيت هذا الفيلم في نيويورك — كان يتكلم الفرنسية بلكنة وجب معها دبلجة صوته ؛ وكانت النتيجة موسفة . وكان الابطال يبدون بعد بعثهم امواتاً كما كانوا قبل ذلك .

وفي حزيران ، مُنحتْ — للمرة الأخيرة — جائزة « لابلياد » . وقد روى لي سارتر ان الجلسة كانت عاصفة ؛ وقد استطاع اقناع معظم الأعضاء بتتويج مسرح جينيه — « الخادمات » و « مراقبة عليا » — ولكن « لومارشان » قدّم استقالته احتجاجاً . وككل عام ، دُعيت الى تناول الشاي مع اعضاء

لجنة التحكيم . وحين دخلت ، كان مالرو يتكلم وكل شيء صامتاً ؛ كان يتحدث عن « الطاعون » ، فكان يقول : « القضية هي ان نعرف هل كان باستطاعة ريشليو ان يكتب « الطاعون » . فأجبت أن نعم . والحق ان الجنرال ديغول قد كتبها : وكان اسمها « بحدّ السيف » . وقال كذلك بلهجة هجوم : « من أجل ان يتمكن شخص ككامو من كتابة « الطاعون » كفّ أشخاصٌ مثلي عن الكتابة . »

وبالرغم من تقدّم الموسم المسرحي ، كان احد مسارح لندن يقدّم « البغي الفاضلة » و « موتى بلا قبور »، وقد نقل الناشر « ناجيل » الى سارتر دعوةً من مدير المسرح ؛ وقد كنت أكون مسرورة جداً لو انه لم يصحبنا ؛ فلقد كان يخشى الطائرات ، ففرض علينا ان نقوم بالرحلة في القطار ، ولم يكفّ عن الحديث . وفي لندن ، كان قد حجز شقّة غريبة تقاسمها معنا ، وهي من جهات محطة سانت جيمس . وقد ذهبنا وحدنا نتفرج على المتاحف والشوارع . وقصف الطائرات V_1 و V_2 : انقاض في كل مكان . وكانت هذه الأنقاض التي تكتسحها أشجار الورد العالية تشقّ لها في قلب هذه المدينة الكثيفة بعض الحيّز الحرّ والجنائن . ومن جديد ، استحوذت لندن علينا ، بعد خمسة عشر عاماً من الغياب . وأسفت ألاّ أقضي فيها الا اربعة أيام .

وكان « ناجيل » قد نظّم لسارتر مؤتمراً صحفياً ؛ وقد شُده حين أخبرته أني لن أحضره ؛ ثم أشرق وجهه وقال : « آه ! انك ذكية جداً ! » لم يكن يتصوّر ان كل ما في الأمر اني كنت راغبة في التنزّه ؛ بل كان ينسب إليّ حساباً دقيقاً : هو اني سأنتظر أن تُزعج الصحف البريطانية نفسها من « أجلي أنا » . ولقد رأينا في ديكور مرهق البذخ ــ أثاث قديم ، ولوحات لكبار الرسّامين ــ الحاكم القدير ألكسندر كوردا . والتقينا في المطاعم والحانات رجال المسرح . وقد حضرنا حفلة العرض الاولى . وكان المخرج قد قال بصوت ضاحك لسارتر : « ستكون له مفاجأة ... » وقد كانت فعلاً مفاجأة : فهو قد حذف احدى اللوحات . وفي اثناء العرض ، ظهرت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في القاعة ريتا هايوارث وهي ترتدي ثوب سهرة مخملياً قصيراً اسود ، تتبعها وصيفة . وقد تناولنا العشاء معها في بيت أحد الهولنديين : ولم يكن ثمة الا سبعة أشخاص او ثمانية ، فكان الاجتماع كئيباً . وكانت ريتا هايوارث رائعة بكتفيها المذهبتين وصدرها العالي المستدير ؛ ولكن كوكباً بلا زوج هي ادعى للحزن من طفل يتيم . وقد تحدثتْ بلطفٍ عن ماضيها . ونطق الهولندي بعبارات عنصرية ، فاحتجت على كلامه ، فقال لها : « ولكن لو كانت لك ابنة ، هل كنت تسمحين بأن تتزوج زنجياً ؟ » فأجابت : « انها ستتزوج الشخص الذي تريد . » ولا شك في انها لم تكن أقلّ ذكاءً من متوسط النساء اللواتي لا يتخذن من جمالهن مهنة .

وبعد ذلك بوقت قصير ، صحب سارتر « م » الى مرفأ الهافر . وقد سافرت وهي تشكو أنه كان عنيفاً معها . وكتبتْ له أنها لن تعود أبداً ، او انها تعود الى الأبد ، اذا كان موافقاً . وقضينا في باريس اياماً مرهقة ، بسبب ارتفاع الحرارة الى اربعين درجة (وكانت الصحف تقول اننا لم نشهد صيفاً كهذا) . وأخبرنا « بانييز » الذي لم نكن نراه بعد قطّ ، ولكننا كنا نحفظ له ودّاً عميقاً ، ان زوجته كانت تشكو مرضاً في الدم يقتل صاحبه في عام او عامين . وكان سارتر يعاني بعض ألوان الندم . وقد استقللت — بشعور من عزاء — الطائرة التي حملتنا الى كوبنهاغ . وكان الطقس رطباً في تلك المدينة الجميلة الحمراء الخضراء . ولكن نهارنا الاول ذكّرني تلك الساعات المظلمة التي كانت أنواع من السرطان تطارد فيها سارتر ؛ وكان ذلك يوم أحد ، وقد اختلطنا بأسر تجرجر أقدامها على شواطيء البحر : وكان سارتر صامتاً ، وكذلك أنا ، وكنت أتساءل في ذعر هل أصبحنا غريبين احدنا عن الآخر . وفي الايام التالية ، تبدّدت وساوسنا المهووسة ، فيما كنا نتنزّه بين مسلّيات « تيفولي » وفي حانات البحرية حيث كنا نشرب خموراً بيضاء ، حتى ساعات متأخرة من الليل .

ونزلنا في السويد ، في مرفأ هلسنبورغ . وقضينا ثلاثة أيام في قوارب

وبحيرات كانت تسبح فيها بقايا من جذوع الأشجار ، قبل ان نبلغ ستوكهلم . وقد أحببت هذه المدينة الملوّنة كلها من الواجهات الزجاجية والمياه ، كما احببت بطء الليالي الأبيض المتردّد على حافة الليل .

ورافقنا بعض السويديين الذين كان سارتر يعرفهم ، فأرونا شوارع قديمة ، ومطاعم قديمة ، ومسرحاً لطيفاً قديماً قائماً بين غابات وبحيرات . وقد شهدنا ذات ليلة ، في الريف الذي كنا نتنزّه فيه معهم ، فجراً شمالياً . وكانوا غالباً ما يزعجونني : أنّى للمرء ان يُحسّ بالأشياء حين ينبغي له بلا انقطاع ان ينطق بعبارات التأدّب ؟ وكانت هذه الضروب من المضايقات تفاقم توتّراً لم يكن قد زال . فكانت تطغى عليّ في الليل كوابيس ، منها أنّ لي عيناً صفراء خلف رأسي تفقأها ابرة طويلة للخياطة . وتعاورتني من جديد الوان من الضيق . وحاولت ان أبدّد هذه الازمات بالكلمات : « الطيور تهاجمني — يجب ان أبعدها عني ؛ انها معركة مرهقة ، يجب ابعادها ليل نهار : الموت ، موتانا ، الوحدة ، الغرور ؛ انها في الليل تنقضّ عليّ ؛ وهي في الصباح تتباطأ كثيراً في الطيران . واذا حدث ان استرخى في جسمي شيء ، عادت إليّ بخفقة جناح . في مقهى ستوكلهم ، كان ثمة لونان يهدران : برتقالي وأخضر ، وقد كان هذا الالتقاء عذاباً لي . لقد أخذتني يدٌ بجلدة رأسي وراحت تشدّ ، وتشدّ ، فيتمدّد الرأس الى مالانهاية ؛ لقد كان هو الموت ، يريد ان يختطفني . آه ! لننته من هذا ! سآخذ مسدساً ، وسأطلق الرصاص . كان ينبغي ان أتمرن . ربما على أرانب ، في باديء الأمر ... »

ونحو الشمال ، صعّدت وحدي مع سارتر في القطار ، ثم في الباخرة ، عبر سبحة من البحيرات . واكتشفنا مشاهد جديدة : غابات قزمة ذات ارض بلونٍ الجمشت ، مزروعة بشجيرات حمر قانية وصفر مذهبة ؛ وكانت توحي لي بشعور طفولة وأسرار : إن قطاراً كهربائياً على وشك ان يبرز في منعطف ممرّ . وبالفعل ، فوجئنا مرةً بتجلّ : مؤخّرة شديدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البياض لامرأة سمينة ؛ كان ثمة رجلان وامرأتان يسبحون ، وهم عراة ، عند اسفل شلاّل . ونزلنا من البحر الى قرية كان يعيش فيها افراد من «لابونيا »[1] ، قصار جداً ، ذوو وجوه تكسوها ابداً بسمة جامدة ، وكانوا يلبسون ثياباً زرقاء ، مطرّزة بالأصفر ، وقبعات من الموكاسين ؛ وكانت طائرة هليكوبتر تحطّ كل يوم في الساحة : ولم يكن للطبيب وسيلة اخرى لزيارة ذلك المكان الذي كانت تقصده سفينة واحدة على الأكثر كل اسبوع . وتوقفنا بضعة ايام في « ابيسكو » ؛ وكان الفندق من الخشب ، وكان في كل غرفة حبلٌ ذو عقد يتمكّن به النزيل من الفرار في حالة حدوث حريق [2] وكانت تمتد حوله غابة واسعة ، وحين كنت أجلس فيها وبيدي كتاب ، كانت بعض حيوانات الرنة تقترب مني .

ولم يكن في ابيسكو اي طريق ، وانما كان فيها سكة حديد وحسب : وكان ساعي البريد وبائع الحليب يستعملان هذه السكة بواسطة قاطرات عجيبة ذات مداوس ، ولونها شديد الحمرة . على ان التلفون رنّ مع ذلك ، ذات مساء في تلك العزلة ؛ وأخبر صحفيّ من ستوكهلم سارتر بأن الشرطة قد أغلقت « التابو » لمدة خمسة عشر عاماً ، على اثر شكوى تقدّم بها الجيران ، فما كان رأيه في ذلك ؟!! وقد صعدنا ذات يوم جبل « نجوبلجا » فأدهشنا ان نجد على ارتفاع ١٤٠٠ متر ثلوجاً أبدية ، وتأثرنا لأننا لن نعود ثانية الى ذلك المكان ، وحتى سارتر ، الذي كان أقلّ مني تأثراً لدى ابتعاده عن الأشياء الأثيرة قد وجد نفسه متأثراً لذلك : إن هذا المشهد من الأحجار المبرقشة والمتوّجة بالثلوج ، حيث يذوب الشفق مع الفجر ، سيظلّ ماثلاً حين يكون نظرنا قد هجره الى الأبد . وذات صباح ، استقللنا القطار الى نارفيك : كانت المدينة متناثرة ؛ وكان بؤسها يتناقض مع البذخ السويدي .

---

(١) منطقة في اقصى الشمال الاوروبي ، تقع بين النروج والسويد وفنلندا والاتحاد السوفياتي، ويعيش سكانها البالغون ثلاثين الفاً من تربية حيوان الرنة . (هـ. م)

(٢) وقد شب بالفعل حريق بعد ذلك بعامين ، ١٩٤٩ ، فأتى على الفندق برمته .

لا شك في ان التاريخ كان يسخر من الأخلاق.

وفي طريق العودة ، توقّفنا عند امير سويدي شيخ ، صديق للآداب والفنون ، كان قد سبق لسارتر ان التقاه ، وكان متزوجاً بفرنسية ، وكانا يسكنان في بيت جميل ، بين رواب هادئة ، وكانا مسحورين بسعادتهما. وقلت لنفسي وانا أترشّف قدحاً من «الاكفافيت» المعتّق في براميل خشبية : «ستكون لنا ، نحن ايضاً ، شيخوخة سعيدة !» ولا بدّ أني كنت أشدّ اهتزازاً واضطراباً اذ احتميت بمثل هذا الحلم البعيد العاقل ؛ ولكن الواقع انه قد رفع معنوياتي فعدت الى فرنسا وقد أفرخ روعي.

* * *

وما لبثت أن غادرتها ؛ وكنت قد عزمت على العودة الى شيكاغو في منتصف ايلول ؛ وكنت قد سألت الغرين برقياً إن كان موافقاً على ذلك ، فأجاب بالايجاب. وقد صعدت الى إحدى طائرات شركة «ت. ف. ا» كانت تحمل من أثينا الى اميركا فلاحين وتجاراً يونانيين. وكانت طائرة قديمة لاهثة تطير على ارتفاع الفي متر وتقضي اثنتي عشرة ساعة لتقطع المسافة بين شانون وجزر الاسور. وقد استسلمت للنوم في هذه الرحلة ، واستيقظت منتفضة : كانت الطائرة تجنح للعودة ، فقد توقف أحد محركاتها فاضطرت للعودة الى شانون. وطوال خمس ساعات لم يتركني الخوف لحظة ؛ وكنت اقرأ قصصاً من قصص العلم - التخيّلي ، وكنت افرّ لمدة عشر دقائق الى كوكب آخر او الى ما قبل التاريخ ثم أجدني فوق المحيط : اذا توقّف محرّك آخر ، فسوف أغرق فيه. آه ! كم تمنيت ان يجيئني الموت متنكراً ، من غير ان يكبّدني قرب وقوعه ولا سيما وحدته ! وحولي لم يكن ثمة من يتحرّك ! ولكن ايّ انفجار ثرثرة وقع فجأة حين حطّت الطائرة ! ونقلتنا سيارة كبيرة الى قرية تابعة للمطار ، واقعة على ضفة واد بحري : وكان لكلّ منا بيت صغير كانت تشتعل فيه نار تراب نفطيّ. ومكثت هناك يومين. وكنت أجرجر قدميّ على شوارع كانت اللافتات والأنصاب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيها تحمل كتابات لا تُقرأ ، وكنت أجلس في حقول منحدرة ذات اخضرار رماديّ ، تقطعها جدران واطئة جداً من الحجارة الصهباء . وفي المشرب ، كنت أتناول الويسكي الايرلندي فيما انا اقرأ رواية الغرين الاولى التي كانت تروي لي شبابه . ولم اكن بعدُ متأكدة من انه موجود ، ولا شيكاغو ولا باريس . وحلّقنا ثانية في الجوّ ؛ وحين حطّت الطــائرة في جزر الاسور ، انفجرت احدى العجلات ، وانتظرت مرة اخرى قرابة ثماني عشرة ساعة في احدى الباحات . ثم عبرنا عواصف : وقد سقطت الطائرة بين الغيمة والغيمة ١٥٠٠ متر . وحين وصلنا ، كنت مثخنة جسماً وروحاً . وظلّ رجال الجمرك طويلاً يثمّنون كيلومترات الدانتيل التي كان اليونانيون يحملونها في حقائبهم : وحين خرجت ، لم يكن الغرين موجوداً في قاعة الاستقبال ، وفكرت بأنني لن ألقاه ثانية أبداً .

وكان ينتظرني ، منذ اربعة ايام ، في بيت « وابانيزا » وعرفت منذ النظرة الاولى انني كنت على حقّ في العودة .

وفي هذين الاسبوعين ، اكتشفت شيكاغو (١) : السجون ، ومراكــز الشرطة والمستشفيات والمسالخ ومسارح التهريج والاحياء الفقيرة بأراضيها الجرداء وقُرّاصها . ورأيت قليلاً من الأشخاص . وكان بين أصدقاء الغرين من يعمل في الاذاعة والتلفزيون ؛ والحق انهم كانوا يجدون مشقّة كبيرة في الاحتفاظ بمراكزهم ؛ وفي هوليوود ، كان التطهير المعادي للشيوعيين يزرع الرعب ، وكان جميع الاحرار في الولايات المتحدة يعتبرون من الحمر ؛ اما الآخرون ، فكانوا مقامرين او متعاطين للمخدرات او مومسات او لصوصاً او محكومــين سابقين ، او مجرمين ملاحقين ؛ كانوا يُفلتون من الانقيادية الاميركية ؛ من أجل هذا كانت معاشرتهم تروق ألغرين ؛ ولكنهم لم يكونوا يملكون حسّاً عميقاً للحفاوة والودّ . وكان يتحدث عنهم في الرواية التي كان بسبيل كتابتها . وقد قرأت مسودّة لها على اوراق صفراء

---

(١) في « اميركا يوماً فيوماً » دمجت تفاصيل هذه الاقامة مع تفاصيل الاقامة الاولى .

مضروبة على الآلة الكاتبة وملآى بالشطب. وقرأت كذلك المؤلفين الذين كان الغرين يحبّهم: فاستيل لندسامي، وساندبورغ، وماسترّس، وستيفان بينيت، وهم متمرّدون قدامى كانوا قد دافعوا عن اميركا ضد ما كانت تصبحه تدريجياً. وأعدت قراءة صحف ومجلات لأتمّ ريبورتاجي.

ومن جديد سألني الغرين اذا لم أكن راغبة بالبقاء معه نهائياً، فشرحت له ان ذلك كان مستحيلاً. ولكننا افترقنا بحزن أقل من حزن نوار لأننا اتفقنا على ان اعود في الربيع، وان نقوم معاً برحلة تستغرق عدة أشهر، الى البلاد التي تحاذي المسيسيبي، والى غواتيمالا والمكسيك.

* * *

كان ديغول قد وصف الشيوعيين، في تموز، بأنهم « انفصاليون » ووصف الحزب الشيوعي بأنه « العدو العام رقم ١ ». وكانت البورجوازية الفرنسية تحلم بحرب وقائية. وكانت تتذوق بالتذاذ كتب كوستلر وكرافتشنكو ومؤلفات اخرى من هذا القبيل، موقعة بأسماء شيوعيين نادمين.

وقد التقيت عدداً من هؤلاء المرتدّين فأدهشوني بالطابع الغنائي الهاذي الذي يتسم به حقدهم. وهم لم يكونوا يعرضون تحليلاً للاتحاد السوفياتي ولا انتقادات بنّاءة: وانما كانوا يروون روايات متسلسلة. كانت الشيوعية في نظرهم « مؤامرة » عالمية، وطابوراً خامساً، ونوعاً من « الكاجول »[١] او « الكو – كلوس كلان »[٢]. وكان الشرود الذي يُقرأ في عيونهم يتهم نظام الحكم الذي هو جدير بخلق هذا الشرود؛ ولكن كان مستحيلاً رسم خطّ فاصل بين تنسيق حوادثهم الروائية والأكاذيب الستالينية. وقد

(١) اسم اطلق على « اللجنة السرية للعمل الثورش » التي كانت مسؤولة عن عدة اغتيالات بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٤٠ ومنها اغتيال الاخوة روزيللي، وهم من المناهضين الايطاليين للفاشية (١٩٣٥). (هـ م)

(٢) جمعية سرية اميركية لارهاب الزنوج ومنعهم من ممارسة حقوقهم المدنية؛ وكان اعضاؤها يرتدون معاطف ذات طاقيات مثقوبة عند العينين. (هـ م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانوا يحذرون فيما بينهم حذراً ضارياً ، وكان كل منهم يعتبر الذين تركوا الحزب بعده مجرمين .

وكان ثمة فئة اخرى من الناس لم تكن هي ايضاً تروق لنا : المناصرون بأي ثمن . وقد كان أحدهم يقول باعتزاز : « ان الشيوعيين يستطيعون ان يركلوني في مؤخرتي ما حلا لهم : فانهم لن يثبطوني » وكانوا ازاء الاحداث التي تثير النفوس اعظم الاثارة – ومنها في تلك الآونة شنق بتكوف [1] – يغمضون عيونهم ويقولون : « لا بدّ من تصديق شيء ما » . اما في نظرنا فقد كان الاتحاد السوفياتي البلد الذي تتجسّد فيه الاشتراكية ، ولكنه كذلك احد قوّتين تتمخّض بهما حربٌ جديدة؛ ولاشك في انه لم يكن يريد الحرب : ولكنه يعتبرها لا مفرّ منها ، فيتهيّأ لها ، وهو بذلك يضع العالم في خطر . وقد أكّد سارتر في « ما هو الأدب ؟ » أن رفض الانحياز الى جانبه ، لم يكن موقفاً سلبياً : فهو حين يُزيح الاختيار بين الكتلتين ، يتخذ قراراً بخلق مخرج آخر .

وكان أحد زملائه القدامى يعرف جيداً رامادييه ، وقد اقترح عليه ان يعهد لنا في برنامج بالراديو . وقبـــل سارتر . لم نكن نريد ان نكون تابعين لرئاسة الوزارة ؛ وقد أُلحق برنامج « التان مودرن » بقسم « البرامج الادبية والدراماتية » . وفي الاسبوع الاول ، دعا سارتر المستمعين – وكان حاضراً في الندوة عدد من اصدقائه وكنت بينهم – الى رفض سياسة التكتّلات : فان الانضمام الى هذه الكتلة او تلك ليس من شأنه إلاّ ان يفاقم نزاعها ؛ وأكّد أن السلام كان ممكناً ، وهاجم محرّري جريدة « فرانس ديمانش » التي تركت – بصورة مسرحية – مكان العنوان الرئيسي في احد اعدادها الأخيرة أبيض ، رافضةً – على حد تفسيره – طبع الكلمات التي كانت تفرض نفسها « ستنشب الحرب قبل الميلاد . »

---

(١) سياسي بلغاري اجرى في موسكو محادثات الصلح مع الاتحاد السوفياتي ، ولكنه انسحب من الحكم في آب ١٩٤٥ بعد اختلافه مع الشيوعيين ، ونفذ فيه حكم الاعدام(١٩٤٧) (م . ه)

وفي اليوم التالي للفوز الذي احرزه « تجمع الشعب الفرنسي » في الانتخابات البلدية ، وجّهنا اذاعتنا ضد ديغول . وقد اتبعنا طريقة باسكال في « الريفيات » فكنا نهدم — سارتر وبونافيه وميرلو — بونتي وبونتاليس وانا — حجج تمجيد لديغول كان يحمل لواءه « شوفار » ؛ وكانت جميع الأقوال التي ننسبها اليه مأخوذة من صحف « التجمّع » ، وأكدنا أن الشخص كان مؤلّفاً من ممثّل : فلم يحل ذلك دون اتهامنا بالمزايدة . وقد أخذوا على بونافيه عنفاً كان في الحقّ أخرق ؛ ولكنهم كانوا سيغتاظون على اي حال : ولم يسبق للصحافة قطّ أن قذفتنا بالوحل كما فعلت آنذاك . وطلب بينوفيل وتوريس من سارتر ان يستأنفا المناقشة معه امام المذياع : فقبل ؛ ولكنهما خشيا بلا شك أن يصفّي حسابهما بسهولة مفرطة ؛ ذلك انهما تركا سارتر مزروعاً في احد مكاتب الاذاعة ، واجتمعا في مكتب آخر للتشاور ، وحين عادا صرّحا انهما يعتقدان ، بعد التفكير ، بأن سارتر قد تجاوز حدوده ، وانهما يرفضان محادثة عامة معه . وكان آرون قد رافق بينوفيل وتضامن معه في موقفه . وكان من شأن هذا أن قوّى الخصام الذي كان قائماً بينه وبين سارتر منذ ان بدأ يكتب في « الفيغارو » ويعلن تأييده لتجمع الشعب الفرنسي .

وقد اذيع حديثنا عن الحزب الشيوعي بعد ذلك باسبوعين . كان الشيوعيون مُبعدين عن الحكومة ، وكان الاشتراكيون يهاجمونهم والبورجوازية تحقد عليهم ، ومع ذلك فان عزلتهم لم تكن تدعوهم الى المرونة ؛ على أنّ هرفيه كان قد طلب بصورة شبه رسميه من سارتر ان يأخذ مبادرة « لجان الاحتياط » المناهضة للفاشية . وكان أن قسّنا انتقاداتنا وتحفّظاتنا بحيث لا يكون الصراع المشترك مستحيلاً . ولكن بلا جدوى . فلقد أنكروا علينا المسعى الذي اوحى به هيرفيه ، فهزمنا هزيمة كبيرة . وسجّلنا بعض المحادثات الاخرى ، ومنها مقابلة مع « روسيه » الذي كان عائداً من ألمانيا ؛ وكانت تلك مناقشة حول ما كان اليمين يسمّيه « مادية الجموع القذرة » ولكن حين حلّ شومان محل راماديه في ٣ كانون الاول أسرع بالغاء البرنامج .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفيما كان شومان منشغلاً بخلق « قوة ثالثة » ، كانت الأسعار ترتفع ٥١ بالمائة ، اما الرواتب فقد زيدت ١٩ بالمئة فقط ؛ وألغى رامادييه مساعدات الفحم : وسرعان ما حدث ارتفاع يساوي ٤٠ بالمئة على الفحم والغاز والكهرباء والنقليات . وانفجرت الاضرابات في المناجم في باريس ومرسيليا ، وتحوّلت الى اضطرابات حين اراد شومان أن يشرع قانوناً ضد الاضراب ، وخُرّبت طرق للسكك الحديدية ، وتقاتل عمّال المناجم مع افراد « لجنة الأمن الجمهورية » الذين ارسلهم « موخ » ليضمنوا « حرية العمل » . على ان الوحدة النقابية قد تحطّمت ، فسقط عـــدد المضربين من ثلاثة ملايين الى مليون ، وانفصلت « القوة العمالية » عن « اتحاد العمل العام » ؛ وألفت الطبقة العاملة نفسها أضعف من ان تستطيع منع فرنسا من ان تشارك في مشروع مارشال .

وكان ثمة بعض الاشتراكيين — ومنهم مارسو — بيفير وغازييه — الراغبين في تكوين معارضة في قلب الحزب الاشتراكي ، فطلبوا مساعدة رجال يساريين لا ينتمون الى اي حزب : وحرّروا معاً نداء الى السلام ، بخلق اوروبة اشتراكية ومحايدة . وكنّا كل اسبوع نلتقيهم عند « ايزار » مع روسيه وميرلو بونتي وكامو وبريتون وآخرين . وكنّا نناقش كل كلمة وكل فاصلة . وفي كانون الاول ، وقّع على البيان مجلتا « اسبري » و « تان مودرن » وكامو وبورديه وروسيه ، ونشرته الصحف . وطرح كامو وبريتون اذذاك على بساط البحث مسألة الحكم بالاعدام : وكانا يطالبان بالغائه في الميدان السياسي . وكان كثيرون منا يفكّرون ان ذلك هو ، على العكس ، الميدان الوحيد الذي يُبرّر فيه الاعدام . وكان ان تفرّقنا .

وكانت لنا مع كامو خلافات اخرى ؛ غير انه كان يبقى بيننا سياسياً نقاط مشتركة ؛ كان يكنّ الكره « لتجمع الشعب الفرنسي » ؛ وكان قد تنازع (او كان على وشك ان يتنازع) مع اوليفييه الذي انضم الى تأييد الديغولية والذي كان يكتب في « كارفور » . وكانت صداقتنا باقية ، وان

كانت اقل وداً وحرّية من السابق ، وبالمقابل ، قطعنا علاقتنا بكوستلر ، ذلك الشتاء. لقد بدا في البدء كثير الودّ . وكنت ذات صباح أشتغل في مقهى الفلور ، فدخل مع « مامين » واقترح :

– هل نشرب قدح خمر ابيض ؟

وتبعتهما الى حانة مجاورة ؛ وهناك سألني :

– اننا ذاهبان الى نادي لعبة الكرة ، فهل تصحبيننا ؟

فقلت : – ولمَ لا ؟

فضحكا : « اننا نجيء فنجدك حرّة ؛ انت دائماً حرّة ، هذا مدهش .»

وكانا سعيدين ان يلقيا باريس ثانية ، وكان لذيذاً ان أتفرّج معهما على اللوحات . وفحص كوستلر الصورة الكبيرة المعروضة في الطابق الأرضي فثنى جفونه بخبث وقال :

– لاحظي ان جميع الرسّامين الذين يملكون رؤوساً كبيرة جميلة ، رؤوساً عبقرية ، هم فنانون متوسطو الموهبة او دون ذلك . في حين أن سيزان وفان غوخ يملكان رأسين صغيرين ... كرأس سارتر ورأسي ...

وكان غرور طفولي كهذا يبدو لي مؤثراً تقريباً . ولكني كنت اكثر انزعاجاً حين كان يتحدث بلهجة الاستعلاء :

– كم طُبع من « الطاعون » ؟ ٨٠ الفاً . لا بأس في ذلك ...

ثم يذكّرنا بأن « الصفر واللانهاية » قد طبع منه ٢٠٠ الف .

وحين رأيته ثانية مع سارتر وجدناه اكثر غمّاً واضطراباً من العام الفائت . وكان قلقاً حول نجاح كتابه الأخير الذي صدر في لندن . وكان غالباً ما يُلمّ بمكتب فندقه « البون رويال » ليرى ان كان ناشره قد ارسل له مقتطفات من الصحف التي تحدثت عن كتابه . وكانت فرق الاحتلال قد غادرت ايطاليا حيث بدأ الاستعداد للانتخابات الاولى ، فانتدبته صحيفة انكليزية للسفر الى ايطاليا لكتابة ريبورتاج عن الانتخابات ، وحين عاد كان واثقاً من انها ستكون نصراً كبيراً للشيوعيين ؛ وكان يرى ان الحزب الشيوعي الفرنسي ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيتشجّع ويأخذ السلطة ، وهكذا تسقط اوروبا كلها في يدي ستالين . وكان يريد ان يمنع على جميع معاصريه هذا المستقبل الذي سيكون مُبعداً عنه : إن آليات الفكر نفسها ستنقلب رأساً على عقب ؛ وكان يؤمن بالتلباثي : وهذا العلم سيزدهر بشكل يتحدّى جميع التكهّنات . وكانت نزعته الكارثية تفضي لديه الى انواع من الصداع والاسترخاء والسويداء .

واراد أن يكرر ليلة شهرزاد . فتبعناه انا ومامين وكامو وسارتر ـ وكانت فرانسين غائبة ـ الى علبة ليل روسية اخرى . وقد حرص على إفهام صاحب المطعم انه كان يحظى بشرف خدمة كامو وسارتر وكوستلر . وعاد بلهجة اشدّ عداء من لهجة السنة الماضية ، الى موضوع : « ليس ثمة صداقة بلا تفاهم سياسي . » وكان سارتر ، رغبة منه في التسلية ، يغازل مامين غزلاً مكشوفاً جداً بحيث لا يمكن اعتباره عادم الحشمة ، وكان سُكرنا المشترك يخفّفه . وفجأة ، قذف كوستلر رأس سارتر بزجاجة تحطمت على الجدار . فرفعنا الجلسة ؛ ولم يكن كوستلر يريد ان يعود الى بيته ، ثم انه كان قد فقد محفظته ، فتأخّر في الحانة ؛ وكان سارتر يترنّح على الرصيف وهو يضحك حين قرّر كوستلر اخيراً ان يصعد السلّم على أربع . وأراد ان يستأنف نزاعه مع سارتر ، فقال له كامو وهو يدفعه برفق من كتفه : « كفى ! كفى ! اننا عائدون الى بيوتنا » ولكنّه تخلّص وضرب بشدة كامو الذي اراد ان يرتمي عليه : ولكننا منعناه . وكان هو قد سكر كذلك بالفودكا والشمبانيا فكانت الدموع في عينيه حين قال : « لقد كان صديقي ! وقد ضربني ! » وارتمى على المقود ، تاركاً السيارة تقفز قفزات مرعبة ؛ وأنهضناه وقد أزال الخوف سكرنا . وفي الأيام التالية ، تذكّرنا كثيراً تلك الليلة العجيبة ؛ وكان كامو يسألنا في تبرّم :

ـ أتعتقدون ان بامكاننا ان نستمر هكذا في الشرب وفي العمل ؟

كلا . وبالفعل ، فان هذا السلوك المتطرّف كان قد أصبح لدينا ، نحن الثلاثة ، نادراً جداً ؛ وقد كان له ما يبرّره حين كنّا ما نزال نرفض ان

يُسرق النصر منا : اما الآن ، فكنّا قد اتخذنا منه موقفنا .

وكان كوستلر يصرّح آنذاك بأن الديغولية ، بعد طول التفكير ، كانت افضل حلّ لفرنسا . وقد تنازع عدة مرات مع سارتر . وكنت ذات يوم مع « فيوليت لوديك » في مشرب « بون – رويال » حين اقترب مني يصحبه عضو من « تجمّع الشعب الفرنسي » ما لبث ان هاجمني بقوله : إن سارتر يحارب ديغول علناً ؛ ولكن « التجمّع » كان قد اجرى معه اتصالات ، فقُدّمت له وعودٌ هامة ، وقد تعهّد بدعم الحركة . وهززت كتفيّ لامبالية . وألحّ الديغولي في استثارتي ، فتحمّست ؛ وكان كوستلر يصغي الينا وعلى شفتيه بسمة ، ثم قال : « الأفضل ان تتراهنا ، وانا شاهد : فمن يخطيء يدفع ثمن زجاجة شمبانيا » . وتوقّفت عن النقاش عند ذلك . وحين عاتبه سارتر على موقفه ، أجاب كوستلر ضاحكاً بأن المرء يستطيع ان ينتظر كل شيء ، من الناس جميعاً ، واني كنت قد أخذت هذه القضية على مأخذ الجدّ اكثر مما ينبغي . وانتهى الى القول :

– إنها قصة نسوية !

وكان يلتمس مع سارتر تواطوءاً رجالياً لم يعثر عليه . وترك باريس ، وحين عاد بعد ذلك بقليل ، التقى بنا امام « بون – رويال » فسألنا : « متى نلتقي ؟ » فأخرج سارتر مفكرته ثم عدل قائلاً :

– ليس لدينا بعدُ ما نقوله لبعضنا .

فقال كوستلر في تناقض اثار انشداهنا :

– ولكن هل نختصم لأسباب سياسية ؟

وأعاد سارتر مفكرته الى جيبه ، وهو يقول :

– حين يكون الناس على مثال هذا الخلاف في الآراء ، لا يستطيعون حتى ان يروا معاً أحد الأفلام [1]

وظلت علاقاتنا عند هذا الحدّ . وبعد ذلك بأسابيع قرأنا في « كارفور »

---

(١) روى كوستلر هذه القصة ، فنسب إلى بصورة غير صحيحة مبادرة قطع العلاقة معه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقالين بعنوان « الى اين تمضي فرنسا ؟ » كان كوستلر يتهم فيهما الحزب الشيوعي الفرنسي باعداد حرب مدنية بطريقة سرية ، وكان يتمنى ويتنبأ بانتصار الديغولية .

* * *

وكان اعداء سارتر يغذّون باستمرار الإبهامات التي نشأت حول الوجودية . وتحت هذا النعت ، كانت قد صُنّفت جميع كتبنا – حتى تلك التي صدرت قبل الحرب – وكذلك كتب اصدقائنا ، وبينهم مولوجي . وأعمال بعض الرسّامين والموسيقيين . وقد خطر لآن – ماري كازاليس ان تُفيد من هذا الاعتبار . وكانت تنتسب ، كـ « فيان » وآخرين ، الى السان جرمان دي بريه الأدبي والى عالم الجاز القائم تحت الأرض ، في وقت واحد ؛ وقد كانت تتحدث يوماً الى الصحفيين فعمّدت الفريق الذي كان يحيط بها والشبيبة التي كانت تذرع المجال بين « التابو » و « البرغولا » بأنهم وجوديون . وقد قامت الصحافة بدعاية هائلة لمقهى « التابو » ، ولا سيما جريدة « سامدي – سوار » التي كان نجاح المقهى يهمّها مالياً . ولم يكن يمضي في خريف ذلك العام ١٩٤٧ اسبوع واحد من غير ان يتحدث الناس عن منازعات المقهى واحتفالاته والمتردّدين اليه من الكتّاب والصحفيين والرجال السياسيين . وكانت آن – ماري كازاليس تستجيب بسرعة للمصوّرين وللمقابلات الصحفية ، وبدأ الناس يهتمّون كذلك بصديقتها الممتلئة التي كانت قد أصبحت فتاة جميلة ذات شعر طويل أسود : جولييت غريكو . وكانت قد مثّلت في « فيكتور ، او الاولاد في الحكم » في مسرح « غيتيه مونبارناس » . وكانت ترتدي الثوب « الوجودي » الجديد : كان موسيقيو الكهوف قد هبطوا في أثناء الصيف الى « الكوت دازور » ، فجلبوا منها الموضة الصادرة من « كابري » – والمستوحاة من التقاليد الفاشستي – وهي موضة ارتداء الصدرة الصوفية والقميص والبنطال الاسودين .

وكانت آن – ماري كازاليس قد بدت لي مستحبة حين لمحتها في

« الفلور » يوم نالت جائزتها ؛ وكانت وثيقة الصلة بـ « استروك » ؛ وكان بوست يكنّ له الصداقة ، ويعتقد انها ذكية جداً ومثقفة ثقافة عميقة . كانت ذات تربية بروتستنانتية ، فكان التحفّظ في سلوكها وأحاديثها يتناقض مع الصورة التي كان تجّار الحيّ قد كوّنوها عنها ، وهي صورة « دوّامة ملآى بالخمر » ، ولكني كنت حاقدة عليها لأنها هي التي كتبت معظم المقال الذي نشرته « فرانس – ديمانش » عن « فضيحة سارتر » . لقد كنا خارجين ذات مساء مع هيرفيه ، فأخذته الرغبة في الهبوط الى « التابو » . وكان المكان صاخباً ومدخّناً وغاصّاً بالناس حتى اننا كنا نجد مشقة في ان يسمع احدنا الآخر او ان يتنفّس . ومع ذلك ، فقد تمكنّا من التحدّث ونحن جالسون في ركن مع كازاليس ؛ وقد بدت طريفة وأريبة ، وبارعــة في استعمال الإضمار وبلاغــة التعبير والايماء . ودافعت عن نفسها بصدد مقال « فضيحة سارتر » وانتهت الى القول : « إن استروك هو المسؤول في الحقيقة » وكنت أحبّ كثيراً استروك ، فانتفضت لهذه الوشاية . ولم يتجاوز الحديث هذا الحدّ . وكلما كنت أرى آن – ماري كازاليس بعد ذلك ، أتأثّر بجاذبيّتها الحادّة ، وبدهائها ، ولكنها كانت تدفع الخبث في أحاديثها الى درجة قلة اللياقة .

وكان سارتر الذي يحبّ الشباب والجاز منزعجاً لألوان الهجوم الموجّهة الى « الوجوديين » ؛ فأين هو الجرم في ان يتسكّع المرء ، او يرقص ، او يصغي الى فيان وهو ينفخ في بوقه ؟ والواقع ، أن هؤلاء كانوا يُستغلّون للهجوم عليهم شخصياً . فما هي الثقة التي ينبغي ان تُعلق على فيلسوف توحي نظريته بالإنهماك في الملذات ؟ وكيف يستطيع المرء ان يؤمن بالأخلاص السياسي لـ « معلّم من معلّمي التفكير » لايعيش تلاميذه إلاّ ليعبثوا ويتسلّوا ؟ لقد كانت الضجة التي تثور حول اسمه اقوى من تلك التي ثارت حوله عام ٤٤ – ٤٥ ، ولكنها كانت ادعى الى الاستياء والانزعاج ؛ ولم تكن صحافة المقاومة قد صمدت ، فرأى الناس عودة الصحافة الممتهنة التي لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكن ايّ انحطاط يخيفها. وقد كان « لازاريف » في اثناء حفلة العشاء الكبرى التي أقامها لدى عودته من اميركا، وكان يتهيأ لاستعادة « فرانس - سوار »، قد صرّح بقوله:

- سأسلخ جلد الوجودية!

ولم يكن الوحيد الراغب في سلخ هذا الجلد. ولكن كان لا بدّ لتهديم سارتر من التحدّث عنه، بحيث ان الصحافة نفسها كان تقوم له بالدعاية التي كانت تتهمه بالتماسها. وبين استعراض (سامّ) لبرنامجه عن الديغوليه، وتقرير (سيء النية) لمؤتمر عقده عنه بعض اللاهوتيين، كانت توصف ليالي « التابو » الذي قيل إنه كان احد أعمدته [1]. وكانوا يوردون عنه الف تفصيل سيء أو مضحك، وهو دائماً كاذب - من مثل تلك القبعة الرمادية المتلألئة المتناقضة مع بذلاته المهملة والتي كانوا يزعمون انه يغيّرها كل شهر في اناقة، يوم كان استاذاً: انه لم يلبس قط في حياته قبعة. وكانت الانظار التي تنسحب علينا في الامكنة العامة قد اتسخت بهذا الوحل، ولم اكن احبّ بعدُ ان اخرج كثيراً.

وقضينا عطلة الميلاد في « لابويز ». وكانت مدام لومير تجد افكار سارتر السياسية متطرفة جداً، وكنّا نحن نتهمها بالانحياز الى « الحركة الجمهورية الشعبية ». وكانت تعارض مجانية التعليم (فكان اعطاء المنح في رأيها كافياً) وتعارض الضمان الاجتماعي (بسبب الاستغلال) وتعارض التعريفات النقابية (باسم حرية العمل) ولكننا لم نكن لنعلّق على آرائها اكثر مما تعلّق هي من أهمية على آرائنا. وكنّا سعيدين دائماً ان نراها لنفسها اولاً، ولأنها كانت تربطنا بماض ضائع. اما بانييز، فكان، كما ذكرت، قد ابتعد كثيراً. وكان ماركو قد خرج من حياتنا: ففي آخر الحرب، كان حبّ شقيّ، واخفاق مطامحه، وصلعه وبدانته، قد جعلته نصف

---

(١) وقد قصدناه مرتين فقط.

مجنون . وكان يبكي بدموع غزيرة بين ذراعي سارتر الذي كان ، لاخلاصه ، يراه كل اسبوع تقريباً . وقد أخضعه عالم نفسي تحليلي الى سلسلة من التجارب الكهربائية ، فكفّ عن ان يبكي ، ولكنه بدأ يحقد على الوسط الذي يحيط به . ونشر إشاعة بأن مدام لومير كانت تدسّ له السمّ ، واني كنت قد سرقت له مكتبته . وكان ما يزال يزورها بين فترات متباعدة [1] . وفي اثناء تلك الاقامة واصلت بحثي عن المرأة . وفكّر سارتر ثم اشتغل في مسرحية جديدة : « الأيدي القذرة » .

وفي شباط ، دُعينا الى برلين لنحضر العرض الأول « للذباب » . وقال لنا « سبربر » الذي لقيناه في تلك الفترة :

ـ احذّركما ألاّ تضعا قدميكما في المنطقة السوفياتية : فان ثمة سيارة تحاذي الرصيف ، ويُفتح بابها ، فتختطفكما يدٌ مجهولة ؛ ولا يراكما بعدُ أيّ انسان !

وكنت منزعجة حين صعدت قطار برلين : كانت رؤية الألمان والتحدث اليهم يزعجانني . ومهما يكن ، كنت قد عُلّمت في الماضي أن التذكّر هو النسيان ؛ كان الوقت يجري بالنسبة لجميع الناس ، وكان يجري بالنسبة لي أيضاً . وما ان وضعت قدمي في برلين ، حتى خفّ حقدي : كانت الخرائب والأنقاض في كل مكان ؛ كم كان عدد العُرج كبيراً ، وأيّ بؤس ! كان كل شيء متناثراً : الكسندر بلاتز ، انتردن ليندان الخ ... وكانت ابواب عظيمة تفغر فمها عن جنائن منزلية ، وشرفات تتدلّى مائلة من واجهات مبقورة . وكما كتبت « كلودين شونيز » في « التان مودرن » ، إذا وجدت مظلّة وآلة خياطة على طاولة تشريح هنا ، لم يبد لك شيء من ذلك في غير محله ؛ فحتى الأمكنة نفسها لم يكن لها بعدُ مكان . وكان من اللامجدي تقويم اضطراب الحسّ ؛ كانت الأشياء في هذيان وترنّح . وانا

---

(١) وقد مات في حادث سيارة في الجزائر عام ١٩٥٧ .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت أمشي لحماً وعظماً عبر انقاض ذلك الكابوس الاسطوري : مستشارية هتلــــر .

كنّا نسكن في المنطقة الفرنسية ، في الضواحي التي كانت ما تزال بعض المقاصير فيها قائمة ؛ وكنّا نتناول طعامنا في منزل الملحق الثقافي او لدى بعض الافراد او في النوادي ؛ وحاولنا مرة ، وكانت معنا بطاقات ، ان نتناول الغداء في مطعم برليني : فلم نحصل الا على صحن حساء . وتحدّثنا الى طلاّب ؛ ليس ثمة كتب ، حتى في المكتبات العامة ؛ ولم يكن ثمة شيء للأكل ، وكان البرد قارساً ، وكان على المرء ان يقطع كل يوم مسافات طويلة لساعة أو ساعتين كل يوم ، وكان ثمة سؤال موجع : إننا لم نفعل شيئاً ، فهل من العدل ان يكون علينا ان ندفع ؟

كانت مسألة العقاب تقلق جميع الألمان ؛ وكان البعض يفكرون – ولا سيما في اليسار – بأن عليهم ان يحتفظوا من أخطائهم بذكرى ناشطة ؛ وكان ذلك موضوع الفيلم « القتلة هم بيننا » الذي أُنتج في القطاع الروسي . وكان آخرون يتقبّلون في الضغينة المصائب الحالية . كانت الرقابة تغلق أفواههم ؛ وكانت الكتب والمنشورات الصادرة تتجنّب الرقابة باللعب على تعدّد القطاعات : كان الاميركيون يُقرّون السخرية بالروس ، والروس بالاميركيين . وقد حضرنا « استعراضاً » ذا فكاهة معتمة كان هجاء لهذا الاحتلال .

ولقد استأنا من اخراج « الذباب » ؛ فقد قُدّمت المسرحية بأسلوب تعبيري، في ديكورات جهنّمية : وكان معبد ابولون يشبه داخل خلوةٍ محصنة ؛ ولم أجد ان الممثلين قد اجادوا التمثيل ؛ ومع ذلك فقد كان الجمهور يصفّق للمسرحية في حماس لأنها كانت تدعوه الى ان يتحرّر من ندمه . وكان سارتر يردّد في محاضراته – التي لم أحضرها ، اذ كنت اوثر السير بين الانقاض – ان من الأفضل بناء المستقبل ، لا البكاء على الماضي .

وكنّا قد تنزّهنا في القطاع السوفياتي ، من غير ان نتنبّه الى اننا دخلناه ، ولم تحتطفنا أية سيارة؛ ولكن الروسيّين اللذين التقيناهما لدى الملحق الثقافي

كانا جدّ باردين. وحين أُقيم لنا عرض خاصّ لفيلم «القتلة هم بيننا» لم يكن ثمة أحدٌ لاستقبالنا: لا المخرج ولا مدير القاعة. وكان سارتر يفكر بأنّ ذلك لم يكن مبرّراً لنا لكي نستجيب للعبة الاميركيين الذين كانوا يريدون الاستيلاء على سارتر؛ وقد قبل فقط دعوة الى عشاء خاص لدى اميركية كانت تريد ان تجمعه ببعض الكتّاب الألمان. وحين فُتح الباب، وجدنا نفسينا امام مئتي شخص؛ وكان ذلك شَرَكاً: فقد وجب على سارتر، بدلاً من ان يتناول العشاء، ان يجيب على اسئلة. وكانت «آنا سيغرز» موجودة، مشرقة بشعرها الأبيض، وعينيها الشديدتي الزرقة وبسمتها التي صالحتني تقريباً مع فكرة الشيخوخة؛ ولم تكن متفقة مع سارتر، وكانت تؤكّد:

– اننا، نحن الالمان، بحاجة اليوم الى الندم.

وهاجم ماركسيٌّ اسمه «ستانيجر» سارتر، وكان قد صوّره في احدى الصحف على انه عميل من عملاء الرأسمالية الاميركية؛ فأجابه سارتر، واقتنع ستانيجر تقريباً بوجهة نظره. وعلى اثر هذه الامسية، دُعينا لتناول الغداء في نادٍ سوفياتي، وهذه المرّة ذوّب الروس جليدهم بعض الشيء: بِعض الشيء. وكان سارتر جالساً بين روسية وألمانية طلبت منه ان يكتب اهداء على كتاب له، فاستجاب لطلبها، والتفت الى جارته الأخرى ببعض الانزعاج وسألها:

– أفترضُ انك انت، تجدين الاهداءات شيئاً بليداً..

فسألتني: – ولماذا تفترضين ذلك؟

ثم مزّقت قطعة من خوان المائدة الورقي؛ ولكن زوجها نظر اليها نظرةً ما، فلفّت الورقة بين أصابعها. لقد خلّفت المانيا، بعد انتهاء زيارتنا لها، شعوراً كئيباً في نفسينا. وكنّا بعيدين عن التنبوء بـ «المعجزة» التي ستحوّلها تحويلاً كبيراً بعد بضعة أشهر.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان مزراحي عضواً في جمعية « شترن » ، وقد اعتقل لحيازته اسلحة ومتفجرات ، ووضع في سجن « لاسانتيه » . وقد مَثُل سارتر يوم ١٥ شباط للشهادة في صالحه ؛ وكان مزراحي يتمتع بعطف الجمهور والمحكمة . وحين كان سارتر يصرح بأنه كان طالباً طيباً ، استوقفه القاضي وسأله :

– طيب ؟ أتقصد انه كان ممتازاً ؟

فأدرك سارتر ان عليه ان يتخلّى عن ايجازه المعتاد وأجاب قائلاً :

– بالتأكيد .

وأطلق سراح مزراحي بغرامة قدرها ١٢ الف فرنك . وكانت « بيتي كنوت » حاضرة المحاكمة .

وفي هذه الفترة ، جرت محادثة طويلة بين « التمان » و « روسيه » وبين سارتر . وقد كان روسيه ، بين جميع الأشخاص الذين لقيناهم لدى « ايزار » أضخمهم إن لم يكن أهمهم . وكانت قد سبقت لميرلو – بونتي علاقةٌ به قبل الحرب ، حين كان « روسيه » تروتسكياً ؛ وكان قد وصفه لنا لدى عودته من النفي : هيكل دقيق يطفو في برنس ياباني ؛ وكان وزنه اربعين كيلو ؛ وحين عرّفنا ميرلو – بونتي عليه ، كان قد استردّ بدانته ؛ وكان مربّعٌ أسود يغطي احدى عينيه ، وكانت بعض اسنانه ناقصة ، فكان شبيهاً بالقرصان ، وكان له صوت هائل . وكنا قد قرأنا أولاً في « لاريفو انترناسيونال » دراسته عن « عالم معسكرات الاعتقال » ثم قرأنا «ايام موتنا» ؛ وكنت معجبة بارادة الحياة التي كانت تضيء كتاباته . وبوحي من « النداء » الذي حرّرناه عند « ايزار » ، كان يعمل مع « التمان » و « جان روس » و « بوتبيان » و « باديو » و « روزنتال » وآخرين بتكوين « تجمّع ديمقراطي ثوري » . وكانت الغاية تجميع جميع القوى الاشتراكية غير المتحالفة مع الشيوعية وبناء اوروبة مستقلة عن الكتلتين . وكانت ثمة حركات عديدة تناضل من اجل اوروبة موحدة ، وكان المفروض ان يعقد مؤتمر لممثلي الشعوب الاوروبية في « لاهاي » بشهر ايار . ولكن فكرة التجمع الديمقراطي

الثوري كانت ان تتمّ الوحدة في القاعدة ، على صعيد اشتراكي وحيادي . وكان القائمون على الحركة يتمنّون ان يدخل سارتر في المجلس الاداري . وكنت أخشى ان يضيع كثيراً من الوقت في هذه المغامرة : وكان حسبنا ما ضيّعناه عند ايزار ! فاعترض عليّ بأنه لم يكن يستطيع ان يدعو الى الالتزام ثم يتهرّب حين تسنح فرصة العمل . وكان انشاء الكومنفورم ثم « ضربة براغ » يوم ٢٥ شباط قد أغاظا نزعة محاربة الشيوعية وعصابية الحرب . وكان كثير من الاميركيين يُلغون رحلاتهم الى اوروبا . وكان الحديث في فرنسا يتردّد كثيراً عن غزو روسي ، من غير ان يفكر أحدٌ بالرحيل . وكان سارتر يعتقد ان ثمة دوراً ينبغي ان يُضطَلَع به بين حزب شيوعي يرسم خطّه بوحي من الاتحاد السوفياتي وبين الحزب الاشتراكي المتبرجز . وهكذا وقّع بياناً يشترك فيه مع روسيه ورفاقه ؛ وقد عقدوا يوم ١٠ آذار مؤتمراً صحفياً ناقشوا فيه فكرة « ان الحرب ليست مما لا يمكن تجنّبه » . وعقدوا اجتماعاً يوم ١٩ آذار ، في قاعة « واغرام » حضره عدد ضخم من الناس وانتسب الى الحركة كثيرون . ولم يدخلها بورديه ، ولكنه أيدها بالمقالات . ثم قام في « كومبا » بحملة من أجل السلام والوحدة الأوروبية . ولم يكن هذا التأييد يعني ان التجمع الديمقراطي الثوري لم يكن محتاجاً الى صحيفة خاصة به . ووجد سارتر طبيعياً ان يجعل « ألتمان » من « فران — تيرور » صحيفة الحركة ، باعتبار انه كان مع روسيه من مؤسسيها ؛ ولكن ألتمان رفض ذلك ؛ فكان لا بدّ من الاكتفاء بجريدة نصف شهرية « اليسار الديمقراطي الثوري » التي صدر عددها الأول في ايار ولكنها لم تنجح قط : باعتبار أنها كانت بحاجة الى المال . وكان روسيه يقول إن هذا ايضاً هو السبب في ان حركة التجمع الديمقراطي الثوري لم تكن تتحرّك الاّ ببطء : ولكن كان ثمة ثقة مُعديةٌ بالمستقبل . على ان ديغول ، في خطابه بـ « كومبيين » الذي ألقاه في شهر آذار ، ضاعف هجومه العنيف على الشيوعيين ؛ وانعقد مؤتمر كبير « لتجمّع الشعب الفرنسي » في مارسيليا بشهر نيسان .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان الاميركيون يطالبون بطرد جوليو- كوري [1] من لجنة المراقبة الذرية . وفي الانتخابات الايطالية انتصر دوغا سبيري. ولم يكن سهلاً مكافحة هذا اليمين والاحتفاظ بالمسافة الضروروية بالنسبة للستالينية . وقد شرح سارتر موقفه في « المحاورات » مع روسيه التي ظهرت اولاً في « التان مودرن » ثم في كتاب .

ولم يعط عن انتسابه للتجمع الديمقراطي الثوري الا أسباباً موضوعية : ولكن لماذا تراه قد أحسّ بالحاجة الى الدخول في حركة هي على الأقل مناضلة ؟ لقد شرح ذلك بعد أعوام في مذكرات غير منشورة :

« فكرتي العميقة في تلك الفترة : لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً الا أن يكون شاهداً على شكل من الحياة محكوم عليه بأن يزول ، ولكنه سيولد من جديد ؛ وربما كانت أفضل الآثار هي التي ستشهد على مستقبل هذا الشكل من الحياة وستسمح بانقاذه . واذن فالمرغوب فيه هو التأرجح بين اتخاذ موقف ايديولوجي وبين العمل . ولكن اذا طالبت بموقف ايديولوجي ، فسرعان ما سيدفعني اناس الى العمل : إن مقال « ما هو الأدب ؟ » قد قادني الى « التجمّع الديمقراطي الثوري » .

وقد وافق على هذا المقطع ، لأنه كان له مع نفسه علاقة جديدة وُلدت من الأحقاد التي كان يُحدثها : « نتائج طيبة للحتمد . ينبغي للمرء ان يُحسّ نفسه مكروهاً ، فذلك عنصر للثقافة . » ولقد أدهشه ذلك في أول الأمر ؛ فباسم النزعة الانسانية البورجوازية والمثل الأعلى الديمقراطي ، كان مع الجموع : وكانت هي ضدّه ! ولكن اذا لم يكن الله موجوداً ، فان حكم « الآخر » هو المطلق : « ان حقد الآخرين يكشف لي موضوعيتي . » وفيما كان من قبل يتخذ ردّ فعله على الموقف في البراءة ، من غير اهتمام بنفسه ، فقد كان يعرف الآن ان البراءة كانت تحتوي حقيقته من أجل الآخرين :

---

(١) ايرين جوليو كوري (١٨٩٧ - ١٩٥٦) عالمة فيزيائية اشتهرت باعمالها في الحقل الذري والنووي . (ه. م)

وكان لا بدّ له من ان يستردّ تلك الموضوعية ، يعني ان يجعلها متوافقة مع قراراته الداخلية . « وابتداء من عام ٤٧ كان لي مرجع مزدوج : لقد كنت احكم ايضاً على مبادئي انطلاقاً من مبادىء الآخرين ـ من الماركسية . » وكان ذلك يفترض ألاّ يستطيع الاكتفاء بأن يعطي نفسه الحق بصورة ذاتية . إنه لم يكن يحتمل ان « يكون » عدواً للمضطهدين : كان ينبغي ان يغيّر علاقته معهم بالاسهام في تغيير الموقف الداخلي والعالمي . كان ينبغي المشاركة في عمل .

« لنفرض أن هذا التناقض الذي أُظهره (وانا حائر بين البورجوازية والبروليتاريا) والذي أعرفه حالياً أنه « من العصر » ، بدلاً من أن أمثّل حرية ، ومحتوى ايجابياً ، ليس إلاّ التعبير عن شكل من الحياة خاص جداً (المثقف البورجوازي المتعاطف مع الاشتراكية) ولنفرض أن المستقبل يبتلعه ؟ انني بالاجمال متأرجح بين هذه الفكرة : إن وضعي ذا الامتياز يعطيني الوسيلة للقيام بتركيب الحريات الشكلية والحريات المادية ؛ وبين هذه الفكرة : إن وضعي المتناقض لا يعطيني اية حرية ! إنه يعطيني الشعور البائس ، هذا كل ما في الأمر . وما يزول ، في الحالة الثانية ، انما هو تفوّقي . فأنا لا أفعل الا ان أعكس وضعي . واتجاه جميع جهودي السياسية هو ايجاد التجمّع الذي يعطي تفوّقي معنى ، والذي يثبت حين يوجد (التجمع الديمقراطي الثوري الأوروبي) ان وضعي المتمزّق هو وضعي الحقيقي .

« على اني اذا كنت مخطئاً ، فان وضعي هو من الأوضاع التي يستحيل فيها التركيب . وحتى التجاوز نفسه مزوّر . فالمرغوب فيه في هذه الحالة هو العدول عن الفكرة التفاؤلية التي تتضمن أنّ بامكان المرء في كل وضع ان يكون انساناً . الفكرة المستوحاة من المقاومة : إن بامكان المرء ، حتى تحت التعذيب ، ان يكون انساناً . ولكن المشكلة لم تكن هنا : وانما هي في ان بعض الأوضاع هي « قابلة لأن تُعاش » تماماً ، ولكن التناقضات الموضوعية تزوّرها بصورة لا تحتمل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« إن التجمع الديمقراطي الثوري هو في رأيي :
١ – الطبقات المتوسطة والبروليتاريا (أنني لا أفهم ان تختار البروليتاريا اللاشيوعية البورجوازيين فانّ لها بنية مختلفة عنهم .)
٢ – اوروبا . لا اميركا ولا الاتحاد السوفياتي ، وانما التوسط بين الاثنتين (يعني الأخذ قليلاً من كل جانب) .
٣ – الحريات الديمقراطية والحريات المادية . كنت بالاجمال اريد ان أحلّ النزاع من غير ان « أتجاوز » وضعي .

وكان الاستياء الذي دفع سارتر الى دخول التجمع الديمقراطي الثوري هو الذي قاده ايضاً الى القيام بمراجعة ايديولوجية . وقد عمل طوال عامين ، وبدأب ، في مقابلة الديالكتية بالتاريخ ، والاخلاق بالتطبيق ، على أمل ان يتوصل الى تركيب « للعمل » و « للوجود » تقوم فيه قيمٌ محض أخلاقية .

وكان انشغالنا بالمجلة اقل من انشغالنا بها في الأعوام السابقة . وكان ميرلو – بونتي هو الذي يوجّهها عملياً . وادّعى بعض الناس انني كنت أنا مؤلفة « حياة مومس » التي نشرناها فيها : وقد كنت في الحقيقة أعجز من أن اكتب هذه القطعة المدهشة من الأدب الخام . كانت ماري – تيريز موجودة ، وكانت قد كتبت هي نفسها ، دفعةً واحدة ، مذكراتها قبل ان تعود الى مهنتها التمريضية السابقة .

كنا نخرج قليلاً . وصادف يوم تقديم « باريس ١٩٠٠ » اضراب وسائل النقل ، وكنّا نركب فيه عربة . وكانت نيكول فيرديس قد قامت بعمل جيّد حين حطّمت اسطورة « العهد الجميل » . وبفضل جيرار فيليب وميشلين بريل ، لم يبدُ لنا « الشيطان في الجسد » الذي شاهدناه في جلسة خاصة غير جدير برواية « راديغيه » . وكنا قد عرفنا من السينما الايطالية « روما مدينة مفتوحة » « سيوسيا » و « اربع خطوات في الغيوم » . ولكن « بايزا » ولا سيما المقطع الذي صوره روسيليني عن القصب ، كان اروع من جميع الافلام . وجاءنا من اميركا فيلم « عناقيد الغضب » وأنتج دولان

« ارخبيل لو نوار » لسالاكرو . وكان قد طُرد من مسرح ساره برنار ، ولم يكن له بعدُ من مسرح خاص ، وقد خلق دور الجدّ ذي رجليْ التيس في مسرح مونبارناس . وذهبنا ايضاً الى مسرح ماريني حيث كان جان لوي بارو يقدّم « إهتمّ بأميلي » . وزرنا في « الاورانجوري » معرض « تورنر » . وكنا بين الفينة والفينة نحضر حفلة موسيقية . وبدأ سارتر يتشبّث بـ « شونبرغ » و « بيرغ » .

وقد انشغل بعملية تقديم « الايدي القذرة » على المسرح . وكان قد استوحى الموضوع من اغتيال تروتسكي . وكنت قد عرفت في نيويورك واحداً من امناء سر تروتسكي ، فروى لي ان القاتل كان قد نجح في ان يتوظّف هو ايضاً كأمين سرّ ، فعاش مدة طويلة الى جانب ضحيته ، في بيت محروس حراسة شديدة . وكان سارتر قد تأمّل هذا الوضع مدة طويلة ، وتصور شخصية شيوعي شاب وُلد في الطبقة البورجوازية ، واراد ان يعمل عملاً يمحو فيه جذوره الأصيلة ، ولكنه كان عاجزاً عن انتزاع نفسه من ذاتيته ، حتى ولو بثمن حادث اغتيال ؛ وقد نصب سارتر في وجهه مناضلاً مخلصاً كليّاً لأهدافه (مقارنة الاخلاق بالتطبيق مرة اخرى) وكما قال في مقابلاته الصحفية ، لم يكن يريد ان يؤلّف مسرحية سياسية . ولكنها أصبحت سياسية لأنه اتخذ ابطالاً له أعضاء من الحزب الشيوعي . ولم تكن المسرحية تبدو لي ضد الشيوعية . فقد كان الشيوعيون يشكّلون ضد الوصيّ وضد البورجوازية الفاشستية القوة الوحيدة لصالحه ؛ فاذا عمد احد القادة ، من أجل صالح المقاومة ، والحرية ، والاشتراكية والجموع ، الى ازالة قائد آخر ، فانه يفلت من اي حكم أخلاقي ، على ما كنت ارى ويرى سارتر : لقد كانت تلك هي الحرب ، وكان هو يقاتل ؛ ولم يكن ذلك يعني ان الحزب الشيوعي مكوّنٌ من قتلة . وكما ان هنري الأناني المتغطرس في « موتى بلا قبور » يستولي عليه أخلاقياً الشيوعي اليوناني ، فكذلك كان عطف سارتر في « الايدي القذرة » متجهاً الى هودرر . إن هوغو يعزم على القتل ليثبت لنفسه أنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جدير بذلك ، من غير ان يعرف ان كان لويس مصيباً وهودرر مخطئاً . وهو يختار بعد ذلك ان يطالب بهذا العمل الطائش في حين ان رفاقه يطلبون منه ان يصمت . وهو على خطأ فاحش ، حتّى ان المسرحية يُمكن ان تمثّل – في فترات الانفراج السياسي – في بلد شيوعي : وهذا ما حدث فعلاً في يوغوسلافيا أخيراً . ولكن الظروف في باريس ، عام ١٩٤٨ ، كانت مختلفة .

وكان سارتر يدرك ذلك ، وقد اتخذ قراره بصدد هذا . وكان انتسابه للتجمع الديمقراطي الثوري قد كلّفه ألواناً جديدة من الهجوم . وقد نشرت « اكسيون » في شباط ايماءات مغفلة ومغثية عن حياتنا الخاصة . ونشرت جريدة « الليتّر فرانسيز » مقالاً بعنوان « عبقرية الساعة السادسة » كــان « مانيان » يرسم فيه عن سارتر صورة مشوّهة ، قذرة . وآنذاك كان « كانابا » يهاجم الجزء الأول من « اوضاع » ، وكانت إلسا تريوليه تكتب كتاباً وتلقي محاضرات تطالب فيها بمقاطعة الأدب الموحل الذي ينتجه سارتر وكامو وبريتون ؛ وكانت أختي قد سمعتها في بلغراد تتحدث علناً ضد سارتر ، وفمها مليء بالحقد . ولم يكن ممكناً ان يسوء الموقف اكثر من ذلك .

وقبلت « سيمون بيريو » على الفور « الأيدي القذرة » . وأُسند دور هودرر الى « لوغيه » وجسيكا الى « ماري اوليفييه » ؛ ولكن من كان يستطيع ان يمثل دور هوغو ؟ وقُدّمت أسماء ، وأُخّرت غيرُها . وذات مساء ، كنّا في مقهى « فيفور » فقالت سيمون بيريو :

– سأنطق الآن بحماقة ؛ ما رأيكم بأن نجرّب « بيرييه » ؟

وكنّا نتصوّر هوغو هزيلاً متبرّماً ؛ ولكن مع ذلك ، ليكن ، إن بوسعنا ان نجرّب هذا . ومنذ التمرينات الاولى ، أحرز بيرييه النجاح : انه كان هوغو ، كما كان « فيتولد » في « جلسة سرية » غارسين . وعُهد في الاخراج الى « فالد » الذي ساعده كوكتو على سبيل الصداقة ؛ وأعطى « بيرار » بعض النصائح ، فيما يخص الديكور : وكانت رائحة أثير تطفو

دائماً حول لحيته ... وكانت لغة أهل المسرح تسحرني دائماً . وكان لوغيه ، في البدء ، يضفي على المناضل الشيوعي شيئاً من شخصية « أناس البولفار » ، فقال له كوكتو :

– إن لك ، لو تعلم ، جاذبية عظيمة ؛ إنك تسيل جاذبية ؛ فعليك إذن « ألاّ تكون » جذّاباً ؛ بل على العكس : حاول ألاّ تكون جذّاباً ؛ وإلاّ فان شخصيتك لن تكون حقاً صحيحة ، رغم أن إبداعك رائع .

وأجابه « لوغيه » في تكشير :

– إنك على العموم تجدني رديئاً كالخنزير ؟

وكان في المسرحية جوابٌ يغيظه ، وهو قول جسيكا لهوغو متحدّثة عن هودرر : « إنه مبتذل » ؛ وقد شرح سارتر هذا بأن جسيكا تكذب لإخفاء الاهتمام الذي يوحيه اليها هودرر . وانتهى لوغيه الى القول :

– اوه ! إن كنتم تظنّون ان الجمهور سيجدني مبتذلاً ، فهذا من حقكم !

وكان سارتر غائباً ليلة العرض الاول (وكان يلقي محاضرة في خلية ماسونية ، بعد أن أكّد له بعض الماسونيين ان بوسع منظمتهم ان تدعم دعماً قوياً التجمّع الديمقراطي الثوري : وقد رأى ، وسمع ، وفهم) ومثّل جميع الممثلين ادوارهم جيداً : بحيث ان الصحف أعلنت في اليوم التالي بأن « ساشا غيتري » جديداً قد وُلد مع بيرييه . وكنت في مقصورة مع بوست ، وكان الناس يشدّون على ايدينا مهنئين : « رائع ! مدهش ! » على ان الصحافة البورجوازية لم تعط رأيها على الفور : كانت تنتظر حكم الشيوعيين . وقد أعلن هؤلاء احتقارهم للمسرحية ؛ وكتب ناقد روسي :

« لقد باع جان بول سارتر ما بقي له من شرف وطيبة لقاء ثلاثين فلساً وصحن عدسٍ اميركي » .

وعند ذاكً غطّت البورجوازية سارتر بالزهور . ومرّ كلود روي ذات مساء بسطيحة « الروميري مارتينيكيز » فشدّ على يدي : إنه لم يسمح لنفسه قطّ ان يوجّه اية ضربة منحطّة لسارتر . وقلت له :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أية مصيبة في انكم ، انتم الشيوعيين ، لم تتبنّوا « الايدي القذرة » !

والواقع أنّ هذا الاسترداد ، في تلك الحقبة ، لم يكن معقولاً قط . كانت التمثيلية توحي بأنها ضد الشيوعية لأن الجمهور كان ينحاز الى هوغو . وقد شُبِّه القتل الذي قام به هودرر بالجرائم التي كانت تُعزى الى الكومنفورم . وكانت مكيافيلية القادة خصوصاً وتغيير رأيهم هما اللذان يدينان الحزب الشيوعي ، في نظر خصومه خاصة . وكانت تلك سياسياً أكثر لحظات المسرحية حقيقةً ، ففي جميع الاحزاب الشيوعيةفي العالم،حين تحاول معارضةٌ ما ان تُنجح حظّاً جديداً وصحيحاً ، فسرعان ما تُصفّى (بعنف جسدي او بلا عنف) : ثم يأخذ القادة التغيير المنشود على عاتقهم . وفي حالة « ايليريا » [1] – المستوحاة من هنغاريا – كانت تذبذبات الحزب وقراره النهائي مبرّرة بالظروف ؛ غير أنّ مصاعبه الداخلية قد عُرضت امام أناس كانوا ينظرون اليها من الخارج نظرة عداء . وهكذا اعطوا المسرحية المعنى الذي كان لها حقاً في نظرهم . من أجل هذا ، رفض سارتر عدة مرات ان تُمثّل في الخارج .

في تشرين الاول ، كان عددٌ كبيرٌ من الفيشيين قد انضمّوا الى « تجمّع الشعب الفرنسي » فعاد « المتعاونون » يلتمع نجمهم . وكان « فلاندان » يكتب في « الاورور » ومونترلان يعرض مسرحية « سيّد سانتياغو » ، وساشا غيتري مسرحية « الشيطان الأعرج » وهي دفاع شفّاف عن التعاون . وأقام « موراس » دعوى على « ستيفان » و « بورديه » . وكانت مجلة « لا تابل روند » التي كفاها مورياك تفتح صدرها بصورة اخوية للمتعاونين القدامى وأصدقائهم . (وقد أخطأ كامو فكتب في العدد الاول ، ولكنه فهم بعد ذلك ، ولم يعد الى الكتابة فيها) وصدر عدد كبير من الكتب التي تعذر سياسة بيتان او تبررها ، وهذا ما لم يكن معقولاً قبل ذلك بعامين . وذهب « بارديش » في « رسالة الى مورياك » الى حدّ الدفاع عن مجلة

(١) منطقة جبلية بلقانية على شاطيء الادرياتيك ، سكانها من السلاف ، وهي اليوم تابعة لايطاليا ويوغوسلافيا والنمسا . (هـ. م.)

« جو سوي بارتو » . وكان « بوتانغ » يلقي محاضر ات لمجد موراس. وكانت الهتافات تتعالى لبيتان في الاجتماعات ، وقد شُكّلت في نيسان « لجنة للافراج عن بيتان » . وفي بعض الاوساط كان الناس يتحدثون في سخرية عن « المقاومجية » مشبّهين « المقاومة » بموضة من الموض . وكانت مناهضة التطهير شائعة في كل مكان : كان المقاومون يُتهمون بأنهم قاموا بعمليات اعدام سريعة ، وكانوا يُلاحقون واحياناً يُدانون .

بعد ان انتهت التجارب المسرحية ، لم يكن ثمة ما يمسكنا في باريس ، فهبطنا الى الجنوب . وقد اخترت « راماتويل » حيث وجدنا فندقاً ريفياً ذا غرفٍ مطلية الجدران بالأحمر ؛ وكانت قاعة الطعام المزجّجة تشرف على حديقة وعلى البحر ؛ وكانت نارٌ من خشب تلتهب مساء في المدخنة ؛ وكنت صباحاً أعمل في الشمس ، تحت الأشجار المزهرة . كنّا وحدنا ، حتى لقد كنا نحسب اننا في بيت خاصٍ بنا . وكنا نصعد الى الأبراج الاسماعيلية ونهبط الى سان تروبيز لنشرب قدحاً في المرفأ أو نشتري من حانوت « فاشون » تنانير ريفية . كنت أشتغل ؛ وكنت اقرأ الذكريات التي كتبها هنري دومولين دولابارتيت عن فيشي ، ومراسلات جيد مع جيمس .

واقبل بوست يقضي يومين معنا ، وكان قد استأجر بيتاً صغيراً مع اولغا في كابريس . وكان موجوداً حين وصلتْ في ساعة الغداء سيمون باريو ، معتمرة بقبعتها ذات الرباطين ، يتبعها زوجها برانديل وإيف ميراند ، وقد هبطوا جميعاً من سيارة اميركية ؛ وكانوا قادمين من « موفان » بالقرب من « هيير » حيث كان لها ملك خاص . ودخلت غرفة الطعام وصاحت وهي تشير الى زوجها :

ـ انك لا تعرف ما صنعه معي ، هذا السيد ، صباح اليوم ؟

وروت لنا الخبر . فقال ميراند :

ـ حسناً ، ولكن لم تكن بك حاجة الى إخبار الخدم بهذا .

وقضينا اربعاً وعشرين ساعة في موفان ؛ وحين كانت جالسة معي صباحاً ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على السطيحة ، اخبرتني أسراراً مفصّلة أرفقتها بغمزات عين متواطئة رغبت معها ان تنشقّ الأرض وتبتلعني . كانت تقوم – عن طوع – بدور الدلاّلات وتجد من غير المعقول ان ترفض ممثّلة شابّة دخول سرير اول صاحب مايارات تانتقيه . كانت لديها حيوية وضراوة ، ولكنها كانت تستعملهما لخدمتها الخاصة دون سواها . على انها كانت تبدو متعلّقة تعلقاً مخلصاً بميراند الذي كان يعيش تحت سقف بيتها ؛ وكان ميراند ، بالرغم من كبر سنّه ، تجسيداً بالياً لروح البولفارات ، تلك الروح التي كانت عزيزة على أبي ، وكان مأخوذاً ابداً بالنساء ؛ وكان خلاعياً ولكنه طريف ؛ وقد روى لنا انه كانت له مع غريتا غاربو في هوليوود علاقة مهووسة ، وقد قطعها في الألم والمضض ، وقال في ذلك : « لأنني لم اكن أريد ان ابدو مضحكاً » وأضاف عبارة بدت لي ملآى في فمه بالألغاز : « ثم إنها كانت فاجرة » . وكان لطيفاً جداً مع سارتر . وكانت فكاهاته وضحكاته ولطفه تخفّف من جوّ اللقاءات التي كان وجود زوج سيمون باريو لا يضفي عليها ايّ جذل .

* * *

كانت رسائل « م » قاتمة ؛ وكانت قد وافقت على مضض أن تقضي أربعة أشهر مع سارتر حين اكون في رحلتي مع الغرين . وقبل أيام من سفري ، كتبتُ الى سارتر انها بالتأكيد لن تراه ثانية ، على تلك الشروط . وسقطتُ في حيرة كبيرة . لقد كانت بي رغبة هائلة في ان أجدني مرة ثانية بالقرب من ألغرين ؛ ولكني في الحقيقة لم أكن قد عشت معه الا ثلاثة اسابيع ؛ ولم أكن أعرف الى اي حدّ كنت متعلقة به : قليلاً ام كثيراً ؟ كان السؤال يكون عديم الفائدة لو أنّ الظروف هي التي اتخذت لي القرار ؛ ولكني فجأة كنت مدعوة للاختيار : كنت أعرف انه كان بوسعي ان أبقى مع سارتر ، فكنت أعرّض نفسي لحسرات ستنقلب الى حزن وغضب على نفسي ، إن لم تنقلب الى حقد على ألغرين . واخترت حلاً وسطاً : شهرين في رحلة اميركا بدلاً من أربعة . وكان الغرين ينوي استبقائي فترة طويلة ، ولم أجروْ على

إخباره بقراري الجديد سواداً على بياض : ولسوف أتدبّر الأمور معه شفهياً .

وركبت هذه المرة طائرة تحلّق عالياً وبسرعة . وقد حطّت بنا عند الساعة الثانية صباحاً في ايسلندا حيث احتسيت فنجان قهوة بين ذئاب بحريين ملتحين ؛ وحين قامت الطائرة ، بهرني المنظر : نورٌ فضّي ينحدر من أعلى جبال بيضاء تقع على شاطيء بحر منبسط ، على ارضية من سماء وردية . وحلّقت فوق « اللابرادور » الثلجي ، وهبطت في « لاغوارديا » . وكان جوازي يشير الى ان سبب السفر : محاضرات . وقد سئلت في دائرة الدخول : « محاضرات في أيّ موضوع ؟ » وارتجف الموظف لكلمة فلسفة ...

ـ أية فلسفة ؟

وأعطاني خمس دقائق لأشرحها له ، فقلت إن هذا مستحيل .

ـ هل لذلك علاقة بالسياسة ؟ هل انت شيوعية ؟ انك على اي حال لن تعترفي بذلك .

وداخلني شعور بأن الفرنسي هو مبدئياً مشبوه . وبعد أن راجع القسائم ، أعطاني اذناً بثلاثة أسابيع .

وقضيت النهار مع فرنان وستيفا ؛ وكان المطر يهطل بشدة ، بينما كنت ارتدي ثياباً خفيفة . وبدت لي نيويورك اقلّ بذخاً من العام الماضي لأن باريس كانت أقلّ منها ايضاً ؛ وكانت التنانير المفرطة الطول تضفي على النساء مظهر الخادمات غاسلات الصحون . وفي اليوم التالي بدت نيويورك على ضفة « الايست ريفر » كمرفأ جنوبي كبير . ولقيت عدداً من أصدقائي ، وشهدت « البغي الفاضلة » : وكانت فاجعة ؛ فقد حُذفت نصف المشاهد بين ليزي والزنجي ؛ وكانا يتحدثان من غير ان ينظر أحدهما الى الآخر ، ومن غير حرارة في الصوت . ومع ذلك ، فقد كانت تلك هي الحفاة المئة ، وكانت القاعة غاصة .

وفي منتصف الليلة التالية هبطت في شيكاغو ، وتساءلت طوال اربع وعشرين ساعة ماذا كنت أفعل هناك . وصحبني ألغرين بعد الظهر الى عصابة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من اللصوص الذين يتعاطون المورفين ، وكان عليّ في رأيه ، ان أراهم ؛ وقضيت ساعتين في كوخ يحيط بي مجهولون يتكلّمون باهجة سريعة جداً حتى اني لم أفهمهم . وكانت ثمة امرأة أربعينية محكومة سابقة ، وكانت مخدّرة حتى العظم ، وزوجها السابق ذو السحنة الكبيرة المتقعة الذي كان أشدّ تخدّراً منها ، وكان ينفق لياليه وهو يدقّ الطبل ليكسب المال ، حتى اذا طلع النهار أصبح سائق تاكسي يبحث عن المخدرات في المدينة ، وعشيقها الذي تلاحقه الشرطة بتهمة السرقة والاحتيال . كانوا يعيشون معاً ؛ وكانت للمرأة فتاة ساحرة ومتزوجة زواجاً محترماً منذ شهرين ، وقد جاءت كزائرة . وكان الثلاثيّ أمامها يجتهد بأن يظهر بمظهر الاحتشام . ومع ذلك ، فقد هرع الزوج السابق الى الحمّام حيث حقن نفسه ، تحت عيني الغرين الذي كانوا يحاولون عبثاً ان يدخلوه في طقوسهم . وقال لي الغرين انهم لم يكونوا يجدون لذّة في التحدث عن الحقن الا بين متعاطي الكوكايين . وتبدّد ضيقي بسرعة حين وجدتني وحيدةً معه . وصحبته في اليوم التالي الى بيت امرأة لص كان يختبيء هو ايضاً من الشرطة ، وكان قد بدأ يكتب منذ تعرّف بالغرين ؛ وكانت تنتظر زوجها وهي تبكي ، ولكنها كانت تقلّب في اعتزاز صفحات الكتاب الذي كان قد ضربه على الآلة الكاتبة على نفقته ؛ وكانت تربّي طفلين أصمّين أبكمين . على اننا كنّا نقوم ، تحت المطر ، بنزهات ومساع للسفر . وطوال ساعة ، شرح لي الموظف الغواتيمالي الذي أعطاني جوازي كم كان بلده يحبّ فرنسا . ولكنه كان جافّاً جداً مع الغرين ، لا سيما حين أعلن هذا عن جنسيته :

ــ مواطن اميركي .

فصحّح له عبارته بقوله :

ــ مواطن من الولايات المتحدة . فأنا اميركي مثلك .

وبعد نهارٍ من الاضطراب الخامل ، استقللنا قطار الصباح الى سينسناتي : ٧٠٠,٠٠٠ نسمة ؛ ومحطات ورواب خضر وطيور وهدوء ريفيّ . وتناولنا

العشاء ونحن ننظر الى التلفزيون الذي بدأ ينتشر في جميع الأمكنة العامة. ومساء اليوم التالي، أبحرنا في باخرة ذات عجلات. وكانت سينسناتي في عيد: كانت طائرات وانوار كشّافة تدوّم في السماء، وكانت نيران تلتمع على الضفاف، وكانت أضواء السيارات تنير الجسور المعدنية الكبرى؛ ثم انسللنا في ليل الأرياف الصموت.

وأحببت رتابة السفر في هذا المشهد المائي العريض. وكنت وانا على ظهر السفينة، تحت أشعة الشمس، أترجم قصة قصيرة لألغرين، وكنت اقرأ ونتحدث ونحن نشرب الويسكي؛ وكان الغرين يجهد لالتقاط صور بواسطة آلة المانية لم يكن يُحسن استعمالها؛ وكان مسروراً أنه قد نجح في ان يخرج منها صوتاً صغيراً حين ضغط على أحد الازرار. ورأيت في ضوء المساء مياه الاوهيو تختلط بمياه المسيسيبي: وكنت قد حلمت بذلك النهر وانا استمع الى أغنية Old man river وكذلك وانا أكتب «جميع البشر ميتّون» ولكني لم أعرف أن أتخيّل سحر هذه الألوان من الغروب الشفقي ومن ضوء القمر.

وكنا نتوقّف كل يوم بضع ساعات. لويزفيل، الكئيبة تحت المطر؛ مدينة صغيرة من مدن الكانتوكي ذات حانات رديئة غاصّة بمزارعين مبتهجين؛ ممفيس: حزم من القطن، بمحاذاة احواض السفن، عمّال قطنيات، ودور لتجارة القطن؛ ناتشيه، واحدة من اقدم مدن الجنوب، بأربعين الف نسمة من السكان. وكان المرسى قائماً عند قدم المدينة. وقد عرض علينا رجل سمين ان يقودنا في السيارة حتى وسط المدينة. وكان يرتدي، بالرغم من الحرّ الكثيف، ياقة منشّاة وطقماً كاملاً، كجميع «البيض» الآخرين. وشرح لنا ان الزنوج كانوا يعيشون في ناتشيه عيشة مريحة جداً، وكان يتجنّب تسميتهم بـ «الزنوج»: ومرة واحدة، افلتت منه الكلمة. وقد تركناه قرب الحيّ الأسود. وذهبنا في سيارة أجرة نتفرّج على حدائق زراعية قديمة، منها حديقة جفرسون ديفيس. وقد توقّفنا عند بيت عجيب ذي أعمدة، كانت الحرب المدنية قد اوقفت بناءه، وكان يأسن وسط أشجار عملاقة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحيط بها أعشاب اسبانية . واحتجّت سيدة عجوز ، حين أراد الغرين ان يأخذ صورة . وهزّ السائق كتفيه ، قائلاً في اشمئزاز :

ـ انها شقيقة صاحب الملك : « وهي من نيويورك » !

وشرح لنا ان السود والبيض هنا متفاهمون ، لأن كلاً منهم يبقى في مكانه ، ولأن السود مهذّبون . وأضاف بغضب مفاجيء : « ولكنهم في كاليفورنيا لا ينزعون قبعاتهم ، وهم يقولون « يس . نو » باختصار ، ثم إنهم يتحدثون الى النساء البيض ! » وكانت أعصابه ثائرة ان يضطر الى ان يكون دليلاً لأشخاص من الشمال . ومررنا في المساء امام « باتون روج » : كانت الافران العظيمة ، خلف انوار المرفأ والبنايات المضاءة ، تبصق اللهيب . وبعد ظهر اليوم التالي نزلنا في « تيوفيل اورليانز » .

وعثرنا في قلب « الحيّ الفرنسي المربّع » على غرفة فندق كبيرة ، ذات مروحة هائلة وشرفة خشبية تطلّ على ساحة داخلية . وكانت راقصات ومومسات صبيّات يتنقّلن في برانسهنّ بين ممرات الفندق التي أصدرت صاحبته ، وهي امرأة روسية سمينة ، نصف مجنونة ، قراراً بأني كنت روسية . وبعد ان تناولنا عشاء خليطاً ، رحنا نلتمس موسيقى جاز في بعض الاندية ، ولكن كان يبدو انه لم يكن ثمة بعدُ جاز زنجي في الحي الأبيض . وكان الربيع قد انقضى فلم يكن ثمة بعدُ مطرٌ ، بل طقس جاف ثقيل : فقضينا نهارنا ونحن نسبح في بحيرة « بونشارتران » . ولم تنجح اية صورة من صور الغرين .

ثم شاهدنا « يوكاتان » وغابته الوحشية وحقوله المزروعة بالباهرة الزرقاء ، وازهاره الحمراء . و « ميريدا » بكنائسها الاسبانية ، وسط اللزوجة نصف الاستوائية . وقد رويت في « المثقفين » رحلتنا الى شيتشن ـ ايتزا . وكانت آثار « اوكسمال » أجمل من ذلك ايضاً ، ولكن مشاهدتها اقتضت أخذ باص في الساعة السادسة صباحاً ، ولم نجد حتّى مقهى نشرب فيه ؛ وكان ان استولى اليأس على الغرين امام تلك الاحجار العنيدة ، فرفض ان يوليها اية نظرة ؛ وكان ان نقبّت فيها وحدي ، بلا جذل . وكان هذا العبوس نادراً لدى

الغرين ؛ فقد كان يحتمل كل شيء ، وكان مأخوذاً مثلي بالهنديات الصغيرات ذوات التنانير الطويلة ، والشعر اللامع ، واللواتي كنا نجد ملامحهن على نقوش معابد الهنود الماياس . وقد صوّرت ما احببنا في غواتيمالا . ولكن الشوارع كانت كئيبة : كانت النساء يسرن عاريات الاقدام ، ويرتدين أقمشة رائعة وقذرة ؛ وكان الرجال ينطنطون ، مسحوقين تحت أحمال ثقيلة . وامام الأكواخ الخشبية او اللبنية التي تعتمر قبّعات من قش ، كان يُرى اطفال ذوو بطون منتفخة ، وعيون تعميها التراخوما . لم يكن الهنود الذي يشكّلون ٦٧ بالمئة من مجموع السكان قد نالوا حريتهم الا منذ اثني عشر عاماً ؛ فقبل عام ٣٦ كانوا مجبرين على العمل الشاق بحجّة ان عليهم ديوناً ينبغي ايفاؤها ؛ وكانوا يعيشون اليوم - كما كانوا بالأمس - في بؤس لا أمل منه ، وخيّل إليّ أنهم كانوا يتقبّلونه في جمود مذهول .

اما مكسيكو فقد كانت مدينة حقيقية تحدث فيها أشياء وأشياء ؛ ولقد تسكّعنا في الضواحي والأحياء السيئة السمعة . وذات مساء اقتنعنا بحضور جلسة « رقصات غريزية » نظّمها اميركي محتال : كان ثمة سوّاح متزايدون يصفّقون لفتيات يرتدين اثواباً باذخة ويقلّدن رقصات قروية . وكان ان افرنقعنا بعد نصف ساعة ، ولكي نثأر لنفسينا سقطنا في اردأ حانة من حانات الاحياء الرديئة ؛ وكانت ترقص فيها غانيات هنديات ومكسيكيات واسبانيات ؛ وكنّ ينظرن الينا في دهشة ويقتربن ليتحدثن معنا فيما نحن نفرغ اقداح « التكيلا » . وتُعتبر مكسيكو ، في نظر كثير من الاميركيين ؛ غابة متوحشة يجري فيها القتل والاغتيال في زوايا الشارع . ولكن الغرين كان قد عرف في حياته ألف زقاق مخيف من غير ان يرى قط رقبة واحدة تقطع . وكان يقول إن نسبة الجرائم في مكسيكو هي دونها في نيويورك او في شيكاغو . وكنا أيام الأحد نقصد الميادين الهائلة لنتفرج على مصارعة الثيران . وقد اعجبنا بثلاث حفلات او اربع من مجموع اثنتي عشرة حفلة . وما كان يزعج الغرين هو ان كل حفلة مصارعة تشكّل حدثاً مغلقاً ، في حين أن انتصار

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ملاكم يفتح دورة جديدة من المنافسة واللقاء. وكنا، ساعة الخروج، نختلط بالجموع ونتبعها حتى الضواحي البعيدة؛ ثم نعود الى وسط المدينة لنأكل قطعة من ديك الحبش بالشوكولا او بعض مآكل اخرى. وكان المطر يهطل ليلاً؛ وفي الصباح كنا نمشي في المستنقعات، تحت سماء عذبة الزرقة.

ولم اكن قد أثرت بعد موضوع عودتي؛ فأنا لم اجرؤ على طرحه عند وصولي، وفي الاسابيع التي تلت، لم أوت الشجاعة لذلك. وكان هذا يصبح كل يوم أشد إلحاحاً وأكثر صعوبة. وفي أثناء رحلة طويلة بالباص، بين مكسيكو وموريليا، أخبرت ألغرين، بلامبالاة خرقاء، انه كان يتوجّب عليّ ان اعود الى باريس يوم ١٤ تموز، فقال: «آه! حسناً!» وأنا اليوم مشدوهة كيف تركتُ لعدم الاكتراث ذلك ان يخدعني بمظهره. وقد وجدت من الطبيعي، حين بلغنا موريليا، ألاّ يكون الغرين راغباً في التنزّه؛ وخرجت وحدي، بجذل، عبر شوارع المدينة الاسبانية القديمة وساحاتها. وكان المرح مستولياً عليّ وأنا في سوق «بازكورايو» حيث كان هنود يرتدون الثياب الزرق يبيعون أقمشة زرقاً. وقد عبرنا البحيرة حتى جزيرة «جانيتزيو» المزدانة من أعلاها الى اسفلها بشباك الصيّادين؛ واشتريت سترات مطرّزة. ثم عدنا مشياً على الاقدام الى الفندق، وبدأت ارسم المشاريع ليوم الغد، فأوقفني الغرين ليقول لي: انه حسبُه ما رآه من الهنود والأسواق، ومن المكسيك ومن السفر. وفكرت بأن القضية هي، كما حدث في «اوكسمال»، قضية ازمة مزاج لا نتيجة لها، على انها استمرت طويلاً، فقلقت. كان يمشي امامي بخطوة سريعة جداً؛ وحين كنت أدركه، لم يكن يردّ عليّ. وتابعت في الفندق طرح الاسئلة عليه:

– ماذا هناك؟ كان كل شيء على ما يرام، فلماذا تفسد كل شيء؟

وتركني مزروعة وحدي، من غير ان يتأثّر بالضيق الذي بلغ حدّ البكاء. ولدى عودته، تصالحنا، من غير ان نتفاهم: وكان حسبي ذلك لأهدأ. وقضيت الايام التي تلت بعيدة عن الهموم. وشاهدنا «كولولا»

ذات الثلاثمئة كنيسة ؛ وفي « بيوبلا » التي كانت شوارعها تذكّرني شارع « بوكوري » ، كانت المومسات الصغيرات ينزعن قمل أولادهنّ على عتبات الغرف المفتوحة للمارّة ، وكانت أشجار هائـلة خضراء تظلّل ساحات « غوارنافاكا » الاستعمارية القديمة . وفي « تاكسو » المكوّنة كلها من الروابي ، وسط مناجم الفضة ، كانت تباع على عرض الطرق مجوهرات فضية ؛ وشربنا قدحي ويسكي لذيذين على سطيحة فندق ، فيما كنا نتفرّج على كنيسة جميلة غريبة . وقال لي الغرين :

ـ بعد يومين ، سأطاق رصاصات مسدس في الشوارع ، ليحدث شيء ما . ولا شك في أن هذا البلد كان يضجره . فليكن . واستقللنا طائرة الى نيويورك .

وكانت النساء يتنزّهن في الشوارع الحارّة ، وهن يرتدين قبعات كوكتيل ، كاشفات صدورهن حتى ملتقى النهدين ، والسُرّة منهنّ في الهواء : كانت المدينة قد تكوّنت بالوان الكرنفال ، فيما ظلّت منهمكة بالعمل ، قاسية . وبدأت ادفع ثمن جبني ولاوعيي . لم يكن ألغرين يُحدّثني بعدُ كما يحدّثني من قبل ، بل إن لهجته العدائية كانت احياناً واضحة . وقد سألته ذات مساء :

ـ ألستَ متعلّقاً بي بعدُ كما كنت من قبل ؟

فقال : ـ لا . لقد اختلف الأمر .

وبكيت طوال الليل ، وانا مرتفقة النافذة ، بين صمت السماء وضجيج المدينة اللامكترثة . وكنا نسكن في « البريتاني » ، اسفل الجادة الخامسة ؛ وكنا نتنزّه في « غرينوش » ؛ وكنت اجرجر نفسي على الاسفلت الملتوي من الحرارة ؛ وكنا نشتري قطعاً من المرطبات بالكشمش كنا نأكلها في غرفتنا : وكان حلقي يظلّ ملتهباً . وقد قضينا ساعات شاقّة في المطاعم الفرنسية القائمة شرقاً ، وكنت آخذه اليها بحثاً عن بعض الرطوبة ، وفي مطاعم الغرب الخانقة التي كان يفضّلها لأنه لم يكن مجبراً فيها على ان يرتدي سترة وربطة عنق . وبدوري ، حقدت عليه بسبب شراسته . وذات مساء تناولنا العشاء في حانةٍ بالهواء الطلق ، وسط « سانترال بارك » ، ونزلنا نستمع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الى موسيقى الجاز في «كافيه سوسيتي» فبدا مزعجاً الى حدّ بعيد ؛ وقلت لــه :

– يمكنني ان اذهب منذ الآن .

وتبادلنا بعض الردود ، ثم قال لي باندفاع :

– انني مستعدّ أن أتزوّجك الساعة .

وفهمت انني لن أحفظ له بعد الآن ايّ حقد او ضغينة : فقد كنت مسؤولة عن جميع الاخطاء .

وتركته يوم ١٤ تموز ، وانا أشكّ في ان اراه بعد ذلك أبداً . وايّ كابوس كان ذلك الرجوع فوق الاوقيانوس ، حيث غرقت في ليل لا بدء له ولا نهاية ، متناولة المنوّمات ، عصيّة النوم ، ضائعة ، ملهوفة !

لو أوتيت اللياقة والحكمة بأن أخبر الغرين ، قبل ان ألتقي به ، عن حدود إقامتي ، لجرت الأمور أفضل مما جرت : لو فعلت لاستقبلني بلا شك باندفاع أقلّ ، ولما كنت أتحت له ان يكنّ مثل تلك الضغينة . ولقد تساءلت غالباً عن أهمية خيبة أمله في قصتنا . أحسب انه لم يكن من شأنها الاّ ان تكشف له عن وضعٍ ما كان ليقبله مدة طويلة على ايّ حال . إنها للوهلة الاولى شبيهة بخيبة أملي . فحتى لو لم يكن سارتر موجوداً ، لما أقمت في شيكاغو : أو لو أنني حاولت ، لما تحمّلت اكثر من عام او عامين من النفي الذي كان يهدم اسبابي وامكانياتي للكتابة . ولم يكن الغرين من جهته ليستطيع ، بالرغم من اني طلبت منه ذلك مراراً ، ان يقيم في باريس ، حتى ولا نصف عام ؛ كان لابدّ له ، لكي يكتب ، من ان يبقى مرتبط الجذور ببلده ، بمدينته ، بالوسط الذي خلقه لنفسه : لقد كانت لكل منا حياتُه الناجزة التي لم يكن وارداً نقلها الى مكان آخر . غير أنّ عواطفنا كانت ، لكل منا ، شيئاً آخر غير التسلية او حتى الهروب ؛ كان كلّ منا يأسف بمرارة ان يرفض الآخر البقاء الى جانبه .

ولكن كان بيننا اختلاف كبير . كنت أتحدّث لغته ، وأعرف أدب

بلاده وتاريخها معرفة لا بأس بها ، وكنت أقرأ الكتب التي كان يحبّها ، وتلك التي كان يكتبها ؛ وكنت بقربه أنسى نفسي وأدخل عالمه. اما هو فكان يجهل كل شيء عن عالمي تقريباً ؛ وكان قد قرأ لي بعض المقالات ، ولم يقرأ لسارتر الا قليلاً اكثر من ذلك ، وكان المؤلفون الفرنسيون بالاجمال قلّما يؤثرون به. ومن جهة اخرى ، كنت اكثر إقامة واستقراراً في باريس مما كان هو في شيكاغو ؛ لقد كان يشكو الوحدة الاميركية القاسية. وحين وُجدت ، أصبح هذا الفراغ حوله يمتزج بغيابي ، من أجل هذا كان حاقداً عليّ. وقد كان الوداع ، بالنسبة لي انا ايضاً ، تمزّقاً ؛ ولكن ذلك كان خصوصاً بسبب عدم التيقّن الذي كان الغرين يخلّفني فيه من ألاّ اراه بعدُ ابداً. فلو قال لي بتصميم : « الى العام القادم » ، لكنت مسرورة تماماً. ولا شك في اني ظللت « شيزوفرانية » [١] — بالمعنى الذي نعطيه انا وسارتر لهذه الكلمة — حين تصوّرت انه سيتدبّر الأمر على هذا الشكل. ولقد أسفت غالباً انه لم يبذل الجهد ليوافق على ذلك : ولكني أعرف جيداً كذلك انه لم يكن يستطيعه.

أكان عليّ إذن ان ارفض هذه القصة وأكتفي بالودّ الذي كان ألغرين يوحيه لي ؟ أن يكون متفقاً معي على احتقار هذا الاحتراس ، إن ذلك لن يكون كافياً لتبريري ؛ فما قاته بصدد سارتر و « م » يصلح هنا ايضاً. لقد كنت أعرف علاقاتي مع سارتر معرفة غير قابلة للاشتراك فيها ؛ في البدء كان الزهر مزوّراً : فقد كانت أصدق الكلمات تخون الحقيقة. ولكن في هذه الحالة ايضاً كانت المسافة تُعجز كلياً او لا تُعجز قطّ : فان المرء لا يعبر المحيط ، ولا ينفصل عن حياته طوال أسابيع لمحض الودّ : انها لم تكن تستطيع ان تدوم إلاّ بأن تتحوّل الى شعور أعنف. وانا لست آسفةً على أن هذه العاطفة قد وُجدت. فهي قد جلبت لنا من النعمة اكثر

---

(١) مصابة باضطراب نفسي يأخذ شكل اللانسجام واللاتوازن العقلي (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جداً مما مزقتنا .

* * *

كان سارتر قد أطلعني على ما كان يجري في فرنسا ؛ وقد كتب لي في اواخر أيار :

« اختطف بعض مقاومي « الشاربونيير » ، بالقرب من ليون ، ساشا غيتري فيما كان خارجاً من واحدة من محاضراته الخالدة التي يبرّر فيها نفسه (او ربما وهو داخل الى المحاضرة ، لست أدري) وأجبروه على ان يحسر عن رأسه امام نصب للمقاومين الذين ماتوا عام ٤٤ ، ثم على ان يهرب ، وقد اشترت جريدة « باري بريس » بمليون فرنك صورة ساشا (المهزوزة ولكن الشديدة التأثير) وهو عاري الرأس ، وعيناه شبيهتان بعيني أرنب مذعور ، وهو يُمرّ يده على رأسه الأصلع . فالناس لا يتحدثون الا عن هذه القصة . »

وكان ذلك فصلاً من الصراع بين المقاومين القدامى والمتعاونين السابقين . وقد احرز الفيشيون نصراً هاماً : ففي يوم ٢٠ حزيران حيّا ديغول ، في فردان ، « قاهر فردان » وبرّر تقريباً سياسة بيتان « الذي حمله تيّار التخلّيات تحت تأثير السنّ . »

وكان سارتر يعلّق آمالاً على القطيعة بين تيتو والاتحاد السوفياتي ، وكان هذا موقف اليسار اللاشيوعي كلّه . فلئن رفضت يوغوسلافيا الانحياز لاحدى الكتلتين ، فان الحياد سيتعزّز . اما الآن ، فان حظوظ السلام كانت غير يقينية : كان طرح الاميركيين للمارك الألماني في التداول مقدّمة لإقامة حكومة في المانيا الغربية ؛ وكان ردّ الروس وحصار برلين قد دفعا التوتر العالمي الى ذروته . وفي فرنسا وايطاليا ، كانت هذه الأزمة تفاقم الانقسامات . وكنت قد وصلت الى باريس في ١٤ تموز حين أقدم طالب يُدعى « بالانت » ، وهو ابن متطوع فاشستي قُتل على الجبهة الروسية ، على اطلاق ثلاث رصاصات على توليياتي . وكان ردّ فعل البروليتاريا الايطالية عنيفاً جداً ، حتى ظنّ

الناس ان هنالك ثورة .

* * *

كان كتاب « اميركا يوماً فيوماً » قد صدر عن دار « موهريان » ونال نجاحاً وتقديراً . وعدت الى دراستي عن وضع المرأة . وكان سارتر يقرأ كثيراً عن الاقتصاد السياسي والتاريخ ؛ وكان مستمراً في ملء الدفاتر بخطّه الصغير عن كتابه في الاخلاق . وكان قد بدأ دراسة عن مالارميه[1] . كما كان يعمل في « الحزن العميق » . وكنّا ننوى ان نذهب معاً في إجازة حوالى آخر تموز ؛ وعلى غير انتظار ، تلفنت له « م » من نيويورك : انها لم تكن تطيق بعدُ هذا الفراق ، وكانت تطلب ان تقضي شهراً معه ؛ كانت تنتحب عبر المحيط ؛ وكانت تلك دموعاً غالية ، ولكنها مع ذلك صادقة : واستجاب لها . ولكنّه ظلّ حاقداً عليها طوال الشهر الذي قضياه في الجنوب ، بسبب هذه الضربة – النزوة : كان قد استبدل بالندم ضغينة ، وكانت تلك صفقة رابحة بالنسبة له .

وأسفت أنْ اكون قد قصّرت إقامتي في الولايات المتحدة ؛ فعرضت برقياً على الغرين ان أعود الى شيكاغو ، فأجابني : « لا . إن عندي عملاً اكثر مما ينبغي » . وشقّ عليّ ذلك : لم يكن العمل الا حجّة ؛ ولكني مع ذلك تعزّيت : فقد كانت تلك اللقاءات العائدة ، وتلك السفرات وتلك الردود الجافّة تُجهدني . وطوال شهر ، عملت في باريس وقرأت والتقيت اصدقائي .

واخيراً ، أبحرت مع سارتر الى الجزائر ؛ كنّا متشوّقين الى الشمس ، وكنّا نحبّ البحر الابيض المتوسط ؛ وكانت تلك عطلة ، ورحلة استجمام : سوف نتنزّه ، وسوف نكتب ، وسوف نتحدث . وكان كامو قد قال لنا ذات يوم : « إن السعادة شيء موجود ، وله أهميته ؛ فلماذا نرفضها ؟

---

(١) وقد كتب منها مئات الصفحات التي فقدها فيما بعد .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إننا حين نقبلها لا نفاقم شقاء الآخرين ؛ بل إن ذلك يساعد على الكفاح من أجلهم . أجل ، إنني أجد أمراً يؤسف له ذلك الخجل الذي يستشعره المرء اليوم في أن يُحسّ نفسه سعيداً . » وكنت أقرّه على هذا ؛ ومن غرفتي في فندق سان جورج بمدينة الجزائر ، رحت أنظر ، صباح اليوم الأول ، في جذل ، إلى زرقة البحر . ولكننا بعد الظهر تنزّهنا في « القصبة » وفهمت أن السياحة ، كما مارسناها من قبل ، كانت قد دُفنت ؛ ذلك أن الطابع البارز للمدينة قد تحلّل ؛ ولم يكن ما لقيناه في تلك الأزقة إلاّ بؤساً وضغينة .

ومكثنا زهاء خمسة عشر يوماً في مدينة الجزائر ، وأسرّ مدير الفندق للصحفيين بأن « بساطة » سارتر كانت تدهشه : فلقد ركبنا في اليوم الأول الترولباص لكي نهبط إلى المدينة ! وقد كان برنستاين ، حين يعمل ، يُطلب إيقاف جميع بنادل الساعات : وكان صاحب الفندق خائباً ألاّ يطلب سارتر شيئاً . وكنت أكتب أمام نافذتي ؛ وكنّا نتناول العشاء في الحديقة تحت أشجار النخيل ونحن نشرب خمراً ثقيلاً من خمر « مسكارا »[١] ؛ وكنّا نحاذي في التاكسي طرق الشاطىء ، ونسير بين أشجار الصنوبر ، فوق الروابي . وإذ أفكر الآن بكلمة كامو ، أرى أنه قد طرح الموضوع طرحاً سيئاً : إننا لم نكن نرفض أن نُحسّ أنفسنا سعداء ، بل نحن لم نكن نستطيع ذلك .

لم يكن الغرين يكتب لي ؛ وقد أرسلت له برقية لم يجبني عليها . وعزمت ظاهراً على أن أنساه : إنني لم أكن راغبةً بعدُ بذلك الحزن والكآبة . وذات صباح ، كنت أتنزّه في « تيبازا » ، على شاطىء البحر ، وأنا أدعك ورق نعناع ، وأتشمّم رائحة شمس قديمة من ايام المقاومة ، وفجأة كان لي من العمر عشرون عاماً : لا حسرة ، ولا انتظار ، وإنما الأرض والماء ، وحياتي . ولكني كنت في المدن أتثلّج : كم كانت « شرشل » كئيبة ! ودفعنا الفضول إلى متابعة هذه الرحلة : ولم نكن ننتظر بعدُ أية متعة .

وكان أحد نزلاء فندق السان جورج يقول :

---

(١) مقاطعة جزائرية في مستغانم شهيرة بصنع خمر يحمل اليوم اسمها . (هـ. م)

– لا تذهبوا إلى منطقة القبائل . وأنا أحمل المسدس حين أكون مجبراً على الذهاب إليها .

وكان بعض المعمّرين الآخرين قد ذهبوا مذهبه . وقد أقمنا بضعة أيام في فندق « ترانساتلانتيك » بمدينة « ميشليه » وتنزّهنا في القرى ، عبر أكواخ من الطين ، ملتصق بعضها بالآخر ، وأزقة ضيقة جداً ، ولم يكن ثمة عيون ولا أحواض . وكان الرجال يعملون بعيداً في الوادي ، ولم نكن نرى على عتبات البيوت إلا أولاداً ونساءً مفروكات العيون بالكحل . وكان من المستحيل الوقوف على عواطفهن . وقامت سوق في ميشليه ، لم يكن فيها إلا رجال وماشية ؛ وكانت تنبعث منها رائحة المصالة . وأخذني شعورٌ غريب حين عُدت مساء إلى غرفتي : كانت علبة السكاير التي تركتها على طاولتي مفقودة ؛ ولاحظت أن قطعاً من الصوف وبعض المال الموضوع في حقيبتي قد أخذت مني ؛ كما أن ثمة من قاء على شرفتي . وكان لا بدّ من إخبار مدير الفندق بأن هناك من دخل غرفتي ، فسألني : « وهل افتقدت شيئاً » ؟ فأنكرت ، ولكني بذلت جهداً لإقناعه . وفي الليل ، أحكمت إغلاق الباب ، ومع ذلك فان قبضته ما لبثت أن استدارت بصخب . وعند الصباح ، وجدوا في غرفة غير مشغولة جزّار قرية مجاورة نائماً ، متعتعاً من السكر . وتردّد مدير الفندق ، ولكنه عدل عن رفع شكوى . وقد كان في هذه السرقة الخرقاء الموجبة الشفقة شيء محزن بقي على قلبي وقتاً طويلاً .

وانضمّ إلينا بوست في « بوجي » . وقضينا بضعة أيام معاً في فندق فارغ ، على شاطىء جيجالي ، ولم نكن نلمح حولنا إلا الصحراء والبحر ، وكنا نسبح ليل نهار . وكان بودّي لو أرى غاردهايا التي فاتتني رؤيتها قبل ذلك بعامين . وهبطت بالباص مع سارتر حتى بوسعده ؛ وحملتنا سيارة إلى جلفا حين لم يكن الناس يعيشون حتى في الأكواخ ، بل في الثقوب . وكانت الحرارة هناك أيضاً غير محتملة ، ولم تكن الباصات تسير إلاّ ليلاً . وكان لا بدّ لي هذه المرة أيضاً من أن أعدل عن زيارة غاردهايا .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الرابع

مللت العيش في الفندق ؛ ولم أكن محميّةً فيه من الصحفيين ومن ألوان الفضول إلاّ حماية سيئة . وقد حدّثني مولوجي ولولا عن غرفة موئثثة كانا قد سكنا فيها ، في شارع « دولا بوشوري » : وكانت المستأجرة التي حلّت فيها بعدهما تريد أن تتركها . وقد نزلتها في تشرين الأول ؛ ووضعت ستائر حمراء على النوافذ ، واشتريت مصابيح من البرونز الأخضر صنعها أخو جياكوميتي ، بناء على تصميم أخيه ؛ وعلّقت بالجدران وبعمود السقف الضخم أشياء كنت قد جلبتها من أسفاري . وكانت إحدى نوافذي تشرف على شارع « أوتيل كولبير » الذي كان يفضي إلى الضفاف : فكنت أرى السين ، واللبلاب ، وأشجار « نوتردام » . وقبالة النافذة الأخرى كان يقوم فندق مليء بالإفريقيين الشماليين ، وفي طابقه السفليّ مقهى ، هو « كافيه ديزامي » وكانت المعارك فيه لا تنتهي . وكانت لولا قد قالت لي :

– إنك لن تسأمي أبداً ، فحسبك أن تقفي على النافذة وتنظري .

وفي الواقع ، كان بائعو خرق يحملون صباحاً إلى تاجر بالجملة كيلوغرامات

من الصحف القديمة المكدّسة على عربات أطفال ؛ وكان متشرّدون ومتشرّدات جالسون على الرصيف يشربون زجاجات من الخمر الأحمر ، ويغنّون ويرقصون ويحدّثون أنفسهم ويتنازعون . وكانت جيوش من القطط تتنزّه عند البلاليع . وكان في شارعي بيطريّان تسوق لهما النساء دوابّهن . أما البيت الذي كان فندقاً قديماً بدأ يتصدّع ، فقد كان يُصدي بنباحٍ يتجاوب من العيادة « التي يشرف عليها دوق وندسور » إلى غرفة البوّابة التي كانت تملك كلباً كبيراً أسود ، حتى يبلغ سطيحة شقّتي : ذلك أن إبنة متعهّدة الفنّانين بتي ستيرن التي كانت تسكن قبالتي كانت تملك أربعة كلاب . كان جميع الناس متعارفين . وكانت السيدة د. البوّابة ، وهي امرأة قصيرة حيّة ودقيقة العود تعيش مع زوجها وابن وحفيد طويلين ، تساعدني على ترتيب شقّتي . وكانت بتي امرأة جميلة جداً ، وقد سبق أن عرفت مارلين دياتريش معرفة حميمة كما عرفت ماكس رينهارت ، وكانت غالباً ما تتحدّث إليّ : كانت قد قضت عاماً كاملاً وهي مختبئة في مخابىء المقاومين في أثناء الاحتلال الألماني . وكانت تسكن تحتها اختصاصية بالمونتاج السينمائي ما لبثت أن تنازلت عن شقتها لبوست وزوجته . وأخيراً كانت تسكن فوقي خياطة كنت ألجأ إليها أحياناً . ولم يكن مظهر الواجهة ولا السلّم مرضياً ، ولكني كنت مرتاحة في شقّتي الجديدة . وكنّا نقضي فيها معظم أمسياتنا ، لأن كثيراً من الناس كانوا يزعجوننا في المقاهي .

كنت أجد في صندوقي كل أسبوع مغلّفاً يحمل طابع شيكاغو ؛ وعرفت لماذا تلقّيت ، وأنا في الجزائر ، أخباراً نادرة جداً من الغرين : فهو قد كتب إلى « تونس » بدلاً من « تينس » وعادت له الرسالة ، فردّها إليّ ، وقد كان من حظّي أنها ضاعت ، لأنها لو بلغتني آنذاك ، لشقّت عليّ كثيراً . فقد حدث أنه — كما كتب لي — كان يخطب في بعض الاجتماعات في صالح والاس ، فوقع في حب امرأة شابة ؛ وكانت آنذاك في دعوى طلاق ، وكان قد فكر في أن يتزوجها ؛ وقد كانت مخضعةً نفسها لعلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التحليل النفسي ، فلم تشأ أن تنخرط في قصّة كالزواج قبل أن ينتهي علاجها ؛ وحين وصلتني الرسالة في كانون الأول ، كانا قد انقطعا تقريباً عن اللقاء. ولكنه كان يزيد موضّحاً :

« لن يكون لي شأن مع هذه المرأة ، فهي لا تمثّل لي بعدُ شيئاً كثيراً. بيد أنّ ما لا يتغيّر هو رغبتي في أن أمتلك ذات يوم ما عَنَتْه لي طوال ثلاثة أسابيع أو أربعة : مكاناً لي أعيش فيه. مع زوجة لي ، وحتى مع ولدٍ لي. وليس عجيباً خارقاً للعادة أن يتمنى المرء هذه الأشياء ، بل إنها لرغبة مشتركة جداً ، إلاّ أنني لم أستشعرها قط من قبل. ربما كان ذلك لأني سأبلغ الأربعين. أما أنت ، فالأمر عندك مختلف. إن لك سارتر وكذلك شكلاً من الحياة : أصدقاء كثيرون ، واهتمام حيّ بالأفكار. إنك مستغرقة في الحياة الثقافية الفرنسية ، وأنت كلّ يوم تصيبين لذةً من عملك ومن حياتك. في حين أن شيكاغو هي في مثل بُعد « أوكسمال » عن كل شيء. إنني أحيا حياة عقيمة ، مركّزة على نفسي دون سواها : وأنا لا أتدبّر أمري معها على الإطلاق. إنني مشدود هنا ، لأنني كما قلت لك وكما أدركت بنفسك ، إنما أتخذ عملاً لي أن أكتب عن هذه المدينة ولا أستطيع أن أقوم بهذا إلا هنا. من العبث العودة إلى هذا كله. ولكن ذلك لا يترك لي تقريباً أحداً أتحدث معه. إنني بعبارة أخرى ، قد وقعت في شَرَكي بالذات. لقد اخترت ، من غير أن أريد بوضوح ، الحياة التي تنسجم أكبر الانسجام ونوع الأدب الذي أنا جدير بصنعه. إن الناس الذين يهتمون بالسياسة ، والمثقفين ، يضجرونني ، ويبدون لي ولا حقيقة لهم ؛ والأشخاص الذين أعاشرهم الآن يبدون لي أكثر حقيقة : المومسات واللصوص ، ومتعاطو المخدّرات الخ ... على أن حياتي تبدو ، من جرّاء ذلك ، مضحّىً بها. وقد ساعدتني هذه القصة على أن أرى الأمور بيننا رؤية أوضح ؛ لقد كنت أخشى في العام الماضي أن أفسد شيئاً إذ لم أكن أميناً لك. وأنا الآن أعلم أن ذلك كان بليداً ، لأن ذراعين ما لن تكون لهما أية حرارة ، حين

تكونان فيما وراء المحيط ، ولأن الحياة تكون أقصر وأشد برودة مما ينبغي حين يتخلّى المرء عن أية حرارة طوال مثل تلك الأشهر . »

وفي رسالة أخرى ، كان يضرب على الوتر نفسه :

« بعد يوم الأحد ذلك الشقيّ الذي بدأت فيه أفسد كل شيء ، في مطعم سنترال بارك ، احتفظت بذلك الشعور الذي حدثتك عنه في رسالتي الماضية : ان أريد شيئاً ما « لي » . وقد كان ذلك إلى حدّ كبير بسبب تلك المرأة التي بدت لي خلال بضعة أسابيع قريبة جداً وأثيرة جداً (ليس الأمر الآن كما كان ، ولكن ذلك لا يغيّر منه شيئاً) فلو لم تكن هي ، لكان سواها ؛ وهذا لا يعني أني كففت عن أن أحبّك ، ولكنك كنت بعيدة جداً ، وكان يخيّل إليّ أن وقتاً أطول مما ينبغي سينقضي قبل أن أراك ثانية ... يبدو لي لامعقولاً بعض الشيء أن أتحدث عن هذه الأشياء التي تجووزت . ولكن الأمر سواء ، ما دمت لا تستطيعين أن تعيشي منفيةً في شيكاغو ولا أنا منفياً في باريس ، وينبغي لي دائماً أن أعود إلى هنا ، إلى آلة الكتابة وإلى وحدتي ، وأن أحسّ الحاجة إلى واحدٍ قريب ، لأنك بعيدة جداً ... »

ولم يكن ثمة ما أجيب به ؛ كان محقاً ، على الاطلاق : غير أن ذلك لم يكن أكثر تعزية لي ؛ لقد كنت أستشعر أسفاً كبيراً لو تحطّمت تلك القصة آنذاك . فان مثل هذه النهاية العجلى كان من شأنها ان تجعل سعادة أيام شيكاغو والمسيسيبي وغواتيمالا ولياليها سراباً . ومن حسن الحظّ ان رسائل الغرين عادت رويداً رويداً تستردّ حرارتها . وكان يروي لي حياته يوماً فيوماً . كان يرسل لي قصاصات من الصحف ومناشير بنّاءة ضد الكحول والتبغ ، وكتباً وشوكولا ، وزجاجتين من الويسكي المعتق مخفية داخل اكياس كبيرة من الدقيق . وقال لي ايضاً إنه قادم الى باريس في حزيران ، وقد حجز مكاناً له على باخرة . واستعدت طمأنينتي ، ولكني كنت بين الفينة والفينة أتحقق في قلق ان قصتنا مرصودة للانتهاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعمّا قريب. اربعون عاماً. واحدٌ واربعون. كانت شيخوختي تحت الرماد. وكانت تترصّدني في قعر المرآة. وكان يشدهني ان تسير إليّ بخطوة مطمئنة في حين أن شيئاً فيَّ لم يكن ينسجم معها.

* * *

كانت دراستي عن «المرأة والخرافات» قد بدأت تظهر في «التان مودرن» منذ شهر أيار. وقال لي ليريس إن ليفي-ستروس كان يسجّل عليّ بعض المآخذ، بصدد المجتمعات البدائية. وكان بسبيل ان ينهي رسالته عن «بنيات القُربى» فطلبت منه ان يعيرني إياها. وقد قصدت منزله لبضعة أيام متتالية عند الصباح؛ وكنت أجلس الى طاولة، فأقرأ نسخة من كتابه مضروبة على الآلة الكاتبة؛ وكان يؤكد فكرتي عن المرأة بصفتها «الآخر»؛ وكان يثبت ان الذكر يبقى الكائن الجوهري، حتى في قلب تلك المجتمعات المسمّاة بالمجتمعات الامومية. وكنت ما أزال أتردّد الى دار الكتب الوطنية؛ ولقد كانت لذةً وراحة ان أملأ عينيّ بكلمات سبق ان وجدت، بدلاً من ان انتزع جملاً من الفراغ. وكنت في فترات اخرى اكتب، في غرفتي صباحاً، وبعد الظهر في بيت سارتر: وكنت، ما بين سطرين مشطوبين، انظر من طاولتي سطيحة مقهى «الدوماغو» وساحة سان جرمان ديبريه. وقد انجزت الجزء الاول في اثناء الخريف، وقررت ان أحمله فوراً الى غاليمار. ولكن كيف أعنونه؟ لقد فكرت طويلاً انا وسارتر بذلك. «اريان»، «مالوزين»: لم يكن هذا النوع من العناوين مناسباً، ما دمت ارفض الخرافات. وكنت أفكر في «الآخر» او «الثانية»: ولكن هذا قد سُبق إليه. وذات مساء، في غرفتي، قضينا ساعات ونحن نطرح الكلمات: سارتر، وبوست، وأنا. واقترحت «الجنس الآخر»؟ لا. واقترح بوست: «الجنس الثاني»، وبعد التفكير، رأينا ان ذلك مناسب. وأخذت آنذاك أعمل جادّة في الجزء الثاني. وكنت ألتقي، مرتين في الاسبوع في مكتب سارتر، المساعدين المعتادين

في « التان مودرن » : ميرلو – بونتي ، كوليت اودري ، بوست ، كو ، ارفال ، غويونه ، جانسون ، لوفور ، بونتاليس ، بويون ، ج – ه . روي ، رينيه سوريل ، ستيفان ، تود ؛ كان عددهم اكبر مما ينبغي بالنسبة لتلك القاعة الصغيرة التي كانت تمتليء بالدخان ؛ وكنا نشرب خمراً أبيض كان سارتر يتلقّاه من اسرته في الألزاس ، وكنا نستعرض العالم ونقوم بمشاريع .

وفي شهر تشرين الاول او تشرين الثاني ، طلب غاستون غاليمار محادثة مع سارتر . ذلك ان مالرو كان قد هوجم في عدد تموز من « التان مودرن » هجوماً أغمّه . وكان ميرلو – بونتي في هذا المقال يستشهد بكلام لجريدة نيويورك تايمس كان يهنيء مالرو بانضمامه الى الديغولية ، وببقائه على هذا الشكل اميناً لموقفه التروتسكي القديم ؛ ثم يورد المقال جواب ارملة تروتسكي المغتاظة : « إن مالرو لم يسبق له قط ان كان مؤيداً للتروتسكية ، بل على العكس ... فان مالرو الذي قاطع الستالينية في الظاهر لم يفعل الا ان يخدم أسياده القدامى حين حاول ان يقيم صلة بين التروتسكية والرجعية . » وكانت تتمة الوثيقة رسالة من امريكي تكشف ان تروتسكي قد دعا مالرو مرتين للشهادة في صالحه ، فتهرّب في المرتين . وكان ميرلو بونتي يذكّر بان مالرو قبل ٣٩ كان قد اختار فعلاً ستالين ضد تروتسكي ؛ وكان يأخذ عليه ان يدّعي العكس وان يشبّه الديغولية بالتروتسكية . والذي حدث ان مالرو سارع يلقى غاليمار ، مهدداً إياه بالعقوبات إن هو لم يصرفنا من الخدمة . وقد تلقى سارتر الأمر بمرح ، مما عزّى غاستون غاليمار الذي قال لمساعديه بلهجة مقتنعة :

– إن هذا ديموقراطي حقيقي !

وعرض علينا جوليار ضيافته . وحاول مالرو ان يخيف شريكه ، لافون ، الذي كان المفروض ان يصدر مذكرات ديغول : فانه لن يروق طبعاً للجنرال ان تصدر كتابه الدارُ نفسها التي تصدر « التان مودرن » ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن الممكن ان يستردّ مخطوطته ... ومع ذلك ، فقد انتقلنا في شهر كانون الاول الى الجانب المقابل من شارع « لاونيفرسيته » حيث تقوم دار جوليار .

وتعرّض سارتر لإزعاج آخر . فقد كان انتاج « الايدي القذرة » في نيويورك سقوطاً ذريعاً . كان النصّ قد خُرّب وشُوّه ؛ وقد اضيف مقطع عن مقتل لنكولن ، وقُلب كل شيء رأساً على عقب ، بحيث أصبحت المسرحية ميلودرامه ؛ وحاول سارتر ان يعمل على ايقاف العرض ، وأقام دعوى على « ناجيل » الذي كان قد أذن للاميركيين من غير موافقته .

وكانت الاوضاع السياسية على سوئها . كان « تجمّع الشعب الفرنسي » قد انهار : ذلك ان البورجوازية لم تكن بعدُ بحاجة اليه ؛ وكانت بعد ان توحّدت من جديد وقويت قد احرزت نصراً مظلماً على البروليتاريا المنقسمة التي كانت قد خسرت معركة الرواتب . فبالرغم من مساعدة مارشال ومن ازدياد الانتاج ومن نتيجة الحصاد الممتازة ، كانت الأسعار قد تضاعفت بين صيف ٤٧ وخريف هذا العام ٤٨ ؛ ولم يسبق لطاقة الشراء لدى العمال ان انخفضت الى هذا الحدّ . ويوم ٤ تشرين الاول بدأ ٣٠٠,٠٠٠ عامل من عمال المناجم اضراباً دام ثمانية أسابيع . ومن جديد أرسل لهم جول موخ « فرقة الأمن الجمهورية » التي قتلت منهم اثنين . وقد أعتقل ألفا عامل ، وطرد ٦ آلاف من مصانعهم . واوقف عمّال احواض السفن وعمال السكك الحديدية أعمالهم كذلك . ولكن عبثاً . لقد ماتت آمال ٤٤ الاشتراكية ، وأخفق منهاج « اللجنة الوطنية للمقاومة » في جميع جوانبه . وكانت الطبقة الحاكمة استعمارية بكل تأكيد . وقد صدر الحكم في قضية تاناناريف يوم ٥ تشرين الاول : فحكم على ستة بالاعدام ، بينهم نائبان . وفي الهند الصينية ، كان القادة يدبّرون ضد الفيتميين عملية باوداي [1] التي كانت لاجداوها بارزة للعيان . وكانت « التان مودرن » منذ ١٩٤٧ تفضح

---

(١) الذي وقع يوم ٨ آذار اتفاقات اوريول – باوداي .

سخف تلك الحرب وفظائعها . وكنّا غالباً ما نلتقي « فان ثي » الملحق الثقافي في مفوضية الفيتنام – التي كانت ما تزال موجودة بشكل متناقض – والذي عرّفنا على رئيسها . وكان بورديه يشارك في تلك الأحاديث .

كان حصار برلين مستمراً ، وفي الصين كان ماوتسي تونغ يحرز انتصارات ساحقة ،وكانت نانكين تنهار : فكان الناس يتساءلون عما اذا كانت الولايات المتحدة لن تتدخل . وكان الظنّ في هذه الحالة انها ستجمّع قواتها في الشرق الأقصى ، تاركة موقتاً اوروبا للروس الذين سيكتسحونها ، وبعد ذلك تتواجه القوتان الكبيرتان في فرنسا والمانيا . وقد استولت اوهام مريعة على واحد من أشدّ الغاضبين الاميركيين ضراوة ، فورستال ، فتخيّل الجيش الأحمر مكتسحاً نيويورك ، وراح يهدر ويصرخ حتى اضطرت السلطات الى الحجر عليه : فقذف بنفسه من الطابق السادس للعيادة . وفي فرنسا ، كان اليمين يشيع الذعر في معرفة ودراية ، فكان يصيح بصوتين متوازيين او متتابعين : « ١ » ان الحكم السوفياتي مريع « ٢ » ومن غير المساعدة الاميركية لن يكون بالامكان الدفاع عنا : فالجيش الأحمر سيدرك « برست » في اقل من اسبوع ، وستصاب بفظائع الاحتلال . وبهذه الروح من الذعر الموجّه أطلقت جريدة « كارفور » – في العدد نفسه الذي أعلنت فيه بلهجة انتصار : « توماس ديوي الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة يدخل البيت الابيض وفي يده مكنسة » – تحقيقاً بعنوان « ماذا تفعلون اذا احتل الجيش الأحمر فرنسا ؟ » وقد كان الخطر الحقيقي هو بالفعل ميثاق الاطلنطي الذي كان روبير شومان ، نصير « اوروبا الصغيرة » ، يستعدّ لتوقيعه : وبهذا سيشطر العالم نهائياً الى قسمين ويلقي فرنسا في الحرب اذا أعلنتها يوماً اميركا .

وفي تلك الفترة ولد عدد كبير من الحركات السلمية او تنامى . وكان اشدها صخباً حركة غاري دافيس . وقد عسكر « هذا الرجل القصير » كما كانوا يسمّونه آنذاك تحت أروقة الامم المتحدة المعتبرة ارضاً عالمية ؛ وصرّح في مقابلاته الصحفية انه يتنازل عن جنسيته الاميركية ليصبح « مواطن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العالم » . ويوم ٢٢ تشرين الاول تشكّل حوله « مجلس تضامن » كان يضم بريتون وكامو ومونييه وريتشارد رايت ، الذي قدم حديثاً يقيم في باريس ؛ ويوم أثار دافيس في تشرين الثاني حركة صاخبة في الامم المتحدة ، عقد كامو في مقهى مجاور مؤتمراً صحفياً دافع فيه عنه ؛ وسانده بورديه بافتتاحية ، وكرّست كومبا كل شهر صفحة لحركة « من اجل حكومة عالمية » . ويوم ٣ كانون الاول ، عُقدت في قاعة بلايل جلسةٌ دافع فيها كامو وبريتون وفيركور وبولان عن هذه الفكرة . وجُرح كامو لأن سارتر رفض ان يشارك فيها ، وكان يقول لنا بلهجة انتصار إن الاجتماع الذي عقد يوم ٩ كانون الأول في « فيل ديف » قد جمع عشرين ألف شخص . وكان سارتر متفقاً تماماً والشيوعيين على التفكير بأن قضية غاري دافيس لم تكن الا قبض الريح . وكان يُضحكنا ان نسمع اليمين يتهم دافيس بأنه « قابض من موسكو » . لم تكن فكرته جديدة ؛ فان الحديث عن « اتحاد فيدرالي عالمي » كان يشيع منذ عام . ولم يكن في حركته كذلك أي شيء مدهش : كانت اميركا تنغل بأناس متطرّفين شاذّين يطلقون الشعارات السطحية في ضجة كبيرة . ومما له مغزى أن يكون مثقفون « يساريون » في اوروبا ، قد حملوا حركته على محمل الجدّ .

بعد ايام من انعقاد اجتماع ٩ كانون الاول الذي تحدّث فيه كامو لصالح السلام ، قدّم له « فان شي » عريضة كان سارتر وبورديه يطوفان بها وهي ضد الحرب في الهند الصينية . فلم يوقّعها : « انني لا اريد ان العب لعبة الشيوعيين » . وكان نادراً ما ينزل من المبادىء الكبرى الى الحالات الخاصة . وكان سارتر يعتقد ان العمل من اجل السلام في العالم انما يكمن في النضال ضد جميع الحروب واحدة واحدة .

كان « التجمع الديمقراطي الثوري » يريد ان يجعل قوى اوروبا الاشتراكية مؤيّدة لسياسة محدّدة : هي الحياد . وكان سارتر يواجهها كغريق محصور ولكنه يملك من الحيوية ما يؤثّر به على الرأي العام ، ومن ثم على الأحداث .

وكان روسيه يميل الى عملٍ للجموع . وكان يقول في شباط : « اننا خمسون الفاً (والرقم الأصح هو خمسة آلاف) وسوف نكون ثلاثمئة الف في تشرين الاول ، وإلاّ خسرنا . » وكانت عاطفة الودّ التي كنّا نكنّها له في البدء قد ضعفت . لقد كان يستولي عليها طموح مقلق بقدر ما هو فارغ ؛ وكان وثوقه يغطّي هوّات من التردّد والجهل ؛ وكان رضاه عن نفسه مدوّخاً ؛ فقد كان صوتُه بالذات يُسكره : كان حسْبُه ان يتكلّم ليصدّق نفسه . وكان يتحدّث عن « ضخامة » عدد « الجمهور » الذي كسبته الحركة من غير ان يقلق للتقصير الفادح في العمل التنظيمي : فقد حدث غالباً حين كان الناس يأتون لاجتماع من اجتماعات الأحياء أن يجدوا باب المنظمة مغلقاً ، ولم يكن المفتاح مع أحد . وهو لم يكن يحبّ إلاّ الاجتماعات العامة : فقد كان يتحدّث فيها بلهجة مفرطة الفخامة والحماسة . وقد أقام التجمّع أحدها في قاعة « بلايل » مطلع كانون الاول ، ودعا للتحدث فيه عن السلام عدداً من مثقفي مختلف البلدان . وقد تكلّم كامو وروسيه وسارتر وبلايفيه ، مؤلف « ستالينغراد » ، وكارلو ليفي وريتشارد رايت الذي ترجمتُ خطابه الى الفرنسية . وكان الحضور كثيرين والتصفيق مستمراً . وقد هاجم روسيه الشيوعيين . وكان تشقّق واضح بسبيل ان يتمّ في قلب التجمّع الديمقراطي الثوري ؛ كانت الأكثرية تريد ان تماشي العمل الاجتماعي للحزب الشيوعي ، في حين ان أقلية كانت تنزلق الى اليمين ، بحجة ان الشيوعيين كانوا يعاملون « التجمّع » بعداوة .

وأعلمنا روسيه انه كان قد وجد وسيلة الحصول على المال الذي كان التجمّع بحاجة اليه : فقد كان مسافراً الى الولايات المتحدة مع « ألتمان » في مطلع شباط ، وسوف يتصلان « بمؤتمر التنظيمات الصناعية » [1] . وكنا ما نزال نجهل الى ايّ حدّ كان هذا المؤتمر يساعد الحكومة في مكافحتها للشيوعية ، ولكننا كنا نعرف أنه يقوم بالتعاون الطبقي ، ولم يقرّ سارتر هذا المسعى .

---

(١) نقابة اميركية كانت اكثر النقابات انحيازاً الى اليسار ، وكان روسيه يستغل هذا الالتباس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد كان التجمع الديمقراطي الثوري حركة اوروبية : وقد كان بوسع الاميركيين من امثال ريتشارد رايت ، ان يتعاطفوا معه ، لا ان يموّلوه .

والحق أن سمة « اميركي يساري » لم تكن تمثّل الا ضمانة مشكوكاً فيها ؛ وقد أدركنا ذلك يوم جمع ريتشارد رايت في صالونات احد الفنادق مثقفين فرنسيين واميركيين . وتعرّفت الى « دانيال غيرين » الذي تناقشت معه حول المظاهر الاقتصادية لمسألة الزنوج الاميركيين ، كما تعرفت الى انطونينا فالانتين ، مؤلفة سِيَرٍ ممتازة عن « هاين » و « ميرابو » . وألقى سارتر وآخرون بعض الكلمات . وخطب الاميركي لويس فيشر ، الذي كان لبضعة اعوام صحفياً في موسكو وشيوعياً ، فهاجم الاتحاد السوفياتي . وقد اختلى بسارتر في احدى الزوايا وشرح له فظائع الحكم السوفياتي . واستمرّ في ذلك فيما كنا نتناول العشاء عند « ليب » مع رايت وزوجته . كان يروي ، حتى يكاد يفقد نَفَسه ، وعيناه تلتمعان بتعصّب مضلّل ، حكايات عن اختفاء أشخاص ، وتصفية آخرين ، وخيانات لا شك في انها صحيحة ، ولكن لم يكن يفهم معناها ولا مغزاها . وبالمقابل ، امتدح امامنا فضائل اميركا : « اننا نكره الحرب : ومن أجل هذا نواجه امر إلقاء القنابل قبل ذلك . »

كان سارتر يريد من « التجمّع الديمقراطي الثوري » ان يكون توسّطاً بين الجناح التقدميّ للبورجوازية الاصلاحية الصغيرة والبروليتاريا الثورية : وفي هذه الاوساط ، كان الشيوعيون يختارون منتسبيهم . وإذن ، فقد كان سارتر خصماً لهم اكثر من اي وقت مضى . وكان فادييف [١] ، في مؤتمر « ووركلاو » الذي كان المفروض ان يعزّز تحالف مثقفي العالم كله من اجل السلام ، قد وصفه بأنه « ابن اوى ذو قلم حبر » واتّهمه بأنه « يُركع الانسان

(١) روائي سوفياتي (١٩٠١ – ١٩٥٦) صاحب روايتي « الهزيمة » و « الحرس الشاب » ، وقد كان رئيس اتحاد الكتاب السوفيات ، وقد وجهت اليه انتقادات عنيفة في مؤتمر الكتاب عام ١٩٥٥ . وانتحر في اثناء ازمة من ازمات الخدر الأتيلي . (هـ.م)

على أربع ». وقد ثبت في قضية ليسنكو [1] ان العقائدية الستالينية كانت تتدخل حتى في العلم ؛ وكان اراغون الذي لم يكن يفهم شيئاً في القضية ، قد دلل في مجلة « اوروبا » على ان ليسنكو كان على حق ؛ ولم يكن الفن اكثر من ذلك حرية : فقد كان لا بد لجميع الشيوعيين من ان يعبّروا عن إعجابهم بلوحات « فوجورون » [2] التي عنوانها « بائعات السمك » والتي عرضت في « صالون الخريف ». وحين مرّ لوكاس بباريس ، في كانون الثاني ، هاجم « المعرفة المنحطّة للوجودية ». وفي مقابلة أعطاها سارتر لجريدة « كومبا » ردّ على لوكاس بأنه لا يفقه شيئاً في الماركسية. وصدر جواب لوكاس وردّ سارتر الثاني معاً في عدد لاحق. وشرح اهرنبورغ حين زار باريس في شباط أن سارتر كان قد أوحى له بالشفقة : ومنذ « الايدي القذرة » لم يكن يشعر نحوه بعدُ إلاّ بالاحتقار. وأخيراً ، كان كانابا قد تولّى الاشراف على « لانوفيل كريتيك » التي كان كل عدد من اعدادها تقريباً يضمّ هجوماً على الوجودية عامة ، وعلى سارتر خاصة.

ولم تهاجمه أقلّ من ذلك المجلة التي صدرت في شباط بادارة كلود مورياك تحت عنوان « ليبرته دو لاسبري » [3] والتي كانت ترصد نفسها للدفاع عن « القيم الغربية » وكانت هيئة تحريرها تضمّ افراداً من « تجمّع الشعب الفرنسي » ومن المتعاونين القدامى. وقد برز في عددها الاول قادمٌ جديد يُدعى روجيه نيمييه ، مؤلف رواية رديئة صغيرة بعنوان « السيوف » ، وقد كتب بصدد الحرب : « اننا لن نخوضها بكتفيْ السيد سارتر ، ولا برئتي السيد كامو واقلّ من ذلك ايضاً بروح السيد بريتون الجميلة. » وقد أثارت الاشارة الى رئتي كامو ، اشمئزاز كثير من الناس حتى اضطر الى الاعتذار. وفي الأعداد التي تلَت ، كانت القيم الغربية تلمع بغيابها ، ولكن الصليبية المناهضة

---

(١) عالم بيولوجي سوفياتي ولد عام ١٨٩٨ وهو نائب في السوفيات الاعلى منذ عام ١٩٣٧ (هـ.م)

(٢) رسام فرنسي ولد عام ١٩١٣ وهو من دعاة الواقعية الاشتراكية . (هـ.م)

(٣) اي حرية الفكر . (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للشيوعية كانت تـُغذّى باندفاع .

كانت النزعة المناهضة للسوفيات تلتهب التهاباً كبيراً . وفي تشرين الثاني ألقت روسيةٌ بيضاء تـُدعى « كوزانكينا » بنفسها من نافذة القنصلية السوفياتية في نيويورك ، فأثيرت حول هذه المأساة ضجة كبيرة .

وفي كانون الثاني ، بدأت دعوى كرافتشنكو الذي كان يلاحق فيها بتهمة الاحتقار مجلة « ليلتر فرانسيز » ، وكانت قد أعلنت ان كتابه « اخترت الحرية » قد فبركته الدوائر الاميركية . وقد حضرت مع سارتر احدى الجلسات التي كانت لذيذة ؛ ومع ذلك ، فان هذه القضية التي ملأت الصحف طوال أسابيع كانت ذات أهمية كبيرة : ذلك انها كانت قضية الاتحاد السوفياتي . وقد جنـّد مناهضو الشيوعية ، بتأييد من السيد كوي [1] وواشنطن ، موجات من الشهود ؛ وارسل الروس من جانبهم شهوداً من موسكو . ولم يربح أحد . وحصل كرافتشنكو على تعويض ، ولكنه دون ما طلب بكثير ، وخرج من المحكمة فاقد النضارة . ومع ذلك ، واياً كانت أكاذيبه وطمعه المالي ، وبالرغم من ان معظم شهوده كانوا مشبوهين بمقدار ما كان هو ، فان حقيقةً كانت تبرز من شهاداتهم : هي وجود معسكرات الاعتقال . وكانت شهادة السيدة « بوبر نيومن » المنطقية الذكية المدعمة بعدة وقائع تحمل على الاقتناع ، بأن الروس ، بـُعيد توقيع الميثاق الجرماني السوفياتي ، سلـّموا هتلر منفيـّين ذوي أصل ألماني . انهم لم يكونوا يـُعدمون المعتقلين بصورة جماعية ، ولكن استغلالهم ومعاملتهم السيئة كانتا تبلغان حداً بعيداً حتى انهم كانوا يموتون . اما عدد الضحايا ، فكانت نسبته مجهولة . ولكننا بدأنا نتساءل هل الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية كانت تستحقّ ان توصف بأنها بلاد اشتراكية . لا شك في ان الكاردينال منذزنتي [2] كان مذنباً : ولكن

---

(١) رئيس الوزارة الفرنسية في اعوام ١٩٤٨ – ٤٩ – ٥٠ . (م.م)

(٢) حبر هنغاري (ولد عام ١٨٩٢) اشتهر بعدائه للنظام الشيوعي ولا سيما في ميدان التعليم وقبض عليه عام ١٩٤٨ وحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة . وقد أخلي سبيله عام١٩٥٥ =

كيف أقنعوه بالاعتراف بذلك ؟ كان يعترف بكل ما كان يُراد منه . وما الذي كان يحدث في بلغاريا ؟ وما كان معنى إقالة ديمتروف [1] ؟ كان الشيوعيون يشهرون في جميع البلاد حملة من أجل السلام ، وكنّا نعتقد انهم يفعلون ذلك لأن مصلحتهم هي ان يطيلوا الهدنة التي تتيح لهم ان يهيئوا الحرب .

كان سارتر يتابع التفكير في وضعه المنقسم وفي وسيلة تجاوزه ؛ كان يقرأ وكان يجمع ملاحظات . وكان يكتب كذلك تتمة « الحزن العميق » التي كان المفروض ان تحمل عنوان « الفرصة الأخيرة » . ولكي نعمل بهدوء ، سافرنا الى الجنوب . وقد اخترت على ضفة « الاستيريل » فندقاً منعزلاً ، على شكل سفينة ، قائماً مباشرة على المياه ؛ وفي الليل ، كان صوت الأمواج يدخل غرفتي فأحسبني في عرض البحر . ولكن البذخ المظهري لوجبات الطعام في القاعة الكبرى الخالية كان يقطع شهيتنا . وكانت امكانيات التنزّه قليلة ، اذ كان الجبل ينهض خلفنا بوعورة . وقد انتقلنا الى مكان أفسح وأرحم : « لوكانيار » في أعلى « الكاني » . وكانت لنا في الطابق الأخير غرفتان لطيفتان ، وكان لغرفتي سطيحة كنّا نجلس عليها لنتحدث . وكان يتصاعد من سقوف الآجرّ دخان خفيف تنبعث منه رائحة طيبة لحطب محترق ، وكنا نلمح البحر في البعيد . وكنا نمشي بين الأشجار المزدهرة ، ونقصد « سان بول دوفانس » التي كانت أقل تصنّعاً منها الآن ؛ واحياناً كنا نتنزه بسيارة اجرة . وكان سارتر مرحاً جداً ، ولكنه قلق لأن « م » كانت تتأهّب للإقامة في فرنسا ؛ وكان يحاول ان يثنيها عن ذلك .

كان الجزء الأول من « الجنس الثاني » على وشك الظهور ؛ وكنت أنجز الثاني الذي كنت اريد ان أعطي منه مقتطفات الى « التان مودرن » . اي

= ولكنه وضع تحت الاقامة الجبرية . وقد استعاد عمله عند ثورة ١٩٥٦ ولكنه ما لبث ان اضطر الى اللجوء للسفارة الاميركية . (هـ.م)

(١) سياسي بلغاري (١٨٨٢ — ١٩٤٩) اكتسب الجنسة الروسية واصبح سكرتيراً عاماً للكومنترن ، ثم رئيساً للوزارة البلغارية بعد التحرير .(هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المقتطفات ؟ كانت الفصول الأخيرة مناسبة ، ولكنها لم تكن قد أنجزت نهائياً . وانتهينا الى اختيار الفصل الذي فرغت منه ، والمتعلق بالحياة الجنسية النسوية .

وكنت منذ حين افكر بكتابة رواية جديدة . وكنت غالباً ما أحلم بها فيما كنّا نسير عبر غابات الصنوبر ، ونمشي في حقول الخزامى . وبدأت أسجّل بعض الملاحظات .

وحين عدنا الى باريس بعد ثلاثة أسابيع ، كان الموعد المحدّد لتوقيع ميثاق الاطلنطي – الرابع من نيسان – يقترب . وكان « جيلسون » يهاجمه في « لوموند » يؤيده في ذلك « بوف – ميري » . واقترح « بورديه » في « الكومبا » انشاء « كتلة محايدة » مزوّدة بالأسلحة ، وعازمة على ان تدافع عن استقلال اوروبا ، لا عن القواعد الاميركية . ومن جهة اخرى ، جمّعت « حركة السلام » التي خلقها الشيوعيون ، « أنصارها » يوم ٢٠ نيسان في قاعة بلايل ، تحت رئاسة جوليو – كوري . وانتهى المؤتمر الذي رسم بيكاسو شعاره ، وهو حمامته الشهيرة ، بمظاهرة جموع كبيرة في « بوفالو » .

كان « روسيه » قد عاد الى فرنسا ، حاملاً من اميركا مشروعاً لـ « أيام دراسية » مخصصة للسلام ، وكان المفروض ان تفتتح بعد عشرة ايام من مؤتمر بلايل . وأدركنا على الفور انه كان يتصوّرها ردّاً على « حركة السلام » . وكان « ألتمان » ينشر في « فران – تيرور » ريبورتاجاً عن الولايات المتحدة . اية قطعة غرامية ! صحيح ان الحكم لم يكن اشتراكياً ، ولكنه ليس كذلك رأسمالياً : وانما كان حضارة نقابية . وصحيح ان المساواة لا تسود فيه ، بل لقد كان ثمة أكواخ وأقبية ؛ ولكن اي ترف وراحة ! وصحيح أنه كانت قد فُتحت محاكمة للشيوعيين ، ولكنهم كانوا يتكلمون بحرية في الشوارع . كان البيض والسود متآخين . وعلى العموم ، كان العمال هم الذين يحكمون ١ . واما « روسيه » فقد خلّف لديّ اسوأ انطباع . لقد روى كم كانت رحلته مجيدة منتصرة ، وأية وجبات طعام قُدّمت له ،

---

(١) « ان الكرامة والدفاع العاليين يثقلان بكل وزنهما على القضايا العامة » .

واية « حظوة » حصل عليها ، وامتدح القادة النقابيين ، ومدام روزفلت ، ونزعة الحرية الاميركية . وكان قد تلقّى ثناء وتملّقاً ، وبعض المساعدات ، وكان قد قلب سترته [1] (او لعلّه كان يلبسها على قفاها من قبل ...) واحتججت على اللوحة التي رسمها عن الولايات المتحدة ، فصوّب نحوي اصبعاً متّهماً ، وأدار صوته في فمه قائلاً :

– إن من السهل ، يا سيمون دوبوفوار ، ان تقولي في فرنسا اليوم أشياء سيئة عن اميركا !

وكان بين الأشخاص الذين فكّر في دعوتهم للاشتراك بالمناقشات « سيدني هوك » : وكنت قد التقيته في نيويورك ؛ وهذا الماركسي القديم ، كان قد أصبح مناهضاً عنيفاً للشيوعية . وطلب سارتر ، بدلاً من مناقشة عامة مع أجانب ، مؤتمراً داخلياً يجمع اكبر عدد ممكن من مناضلي الأرياف . فاعترض روسيه بأن المال غير كاف . من ذا الذي كان إذن يموّل « يوم مقاومة الديكتاتورية والحرب » ؟ ثم اية ديكتاتورية هي المقصودة حقاً ؟ واستُعجل ريتشارد رايت من قبل السفارة الاميركية ، للمشاركة في المؤتمر ، فقال لسارتر إنه كان يجد هذا الإلحاح مشبوهاً . وكان سارتر يتساءل عما اذا كان سيمثل فيه ليدافع عن وجهات نظره الخاصة تجاه روسيه ام انه كان من الأفضل ان يستنكف . ولأول مرة ، أعطيته نصيحة سياسية : إن حضوره سيكون أشدّ ظهوراً وملاحظةً من كلامه ؛ وكان ان امتنع عن حضور المؤتمر . ويوم ٣٠ نيسان ارسل ميرلو – بونتي ورايت وسارتر الى مكان الاجتماع رسالةً مشتركة ضد سياسة وزارة الخارجية الاميركية . وقرئت رسائل ضبابية لغاري ديفيس ومدام روزفلت . وتحدث سدني هوك ونائب اشتراكي هولندي يُسمى « كادت » بلهجة تمجيد عن مشروع مارشال ، مهاجمين ديكتاتورية ستالين ؛ وامتدح أحدهم سياسة القنبلة الذرية ؛ فحدثت ضجة في القاعة واستولى بعض التروتسكيين على منبر الخطابة . واستدعى سارتر على نفقته

---

(١) عبارة تعني بالفرنسية انه قد غير رأيه (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعضاء « التجمّع الديمقراطي الثوري » فشجبوا موقف روسيّه . وكفّت الحركة عن ان توجد . وآنذاك ، اعتقدنا ان خطأ سارتر الوحيد هو أنه وثق بروسيه والتمان اللذين انتصرا ، لكونهما أشدّ طمعاً واكثر اضطراباً ، على رجال شرفاء ؛ كان الجمع محصوراً جداً حتى ان القضايا الصغيرة ، ولا سيما القضايا الشخصية ، كانت تلعب دوراً هاماً على هذا الصعيد . على أنّ تمزّق التجمّع لم يكن يثبت انه كان مرصوداً اكثر من ذلك للهزيمة . بل إن سارتر ما لبث ان فكّر بهذا الصدد : « تمزّق التجمّع الديمقراطي الثوري » ضربة قاسية . تعلّمٌ جديد ونهائي للواقعية . إن الحركة لا تُخلق ١ » إنه لم يطمح الى اجتذاب الجموع ؛ ولكن الاكتفاء بحركة صغيرة كان شيئاً مثالياً : فلو كان اربعة عمّال ينتمون الى التجمع الديمقراطي الثوري يشاركون في اضراب ينظمه الشيوعيون ، فانهم لن يغيّروا محتواه . « إن الظروف لم تكن ملائمة للتجمّع الا في الظاهر . صحيح أنه كان يستجيب لحاجة مجرّدة ، محدّدة بالموقف الموضوعي ، ولكنه لم يكن يستجيب لحاجة حقيقية واقعية لدى الناس . وهم من أجل ذلك لم يجيئوا . » [1]

* * *

أصبت متعة كبيرة في قراءة « سان غلانفلهين » « لكونو » ، للغته الوحشية ورؤيته للعالم ، تلك الرؤية الفظيعة فظاعة هادئة . وأُعجبت بـ « مواكب الدفن » لـ « جينيه » — وإن كان هذا الاعجاب اقل منه بكتبه الاولى — . اما « ستالينغراد » بليفييه ، فكان وثيقة مريعة . وفي اميركا ظهر تحقيق الدكتور كنيسي عن « سلوك الذكر الاميركي » : ضجّة كبيرة لشيء قليل .

بعد ان عاشت اختي وليونيل فترة في فيينا ثم في بلغراد ، قدما الى باريس ، فأستأجرا في « لوفوسيان » فندقاً جميلاً يعود عهده الى القرن الثامن عشر ، وهو مخرّب بعض الشيء ، تكتنفه حديقة كبيرة ملآى بالزهور الوحشية . وأصبحنا نتقابل دائماً . وذهبت ذات مساء مع اولغا استمع الى الجاز في

(١) مذكرات غير منشورة .

« الروز روج » التي كانت تشرف عليها في شارع « لاهارب » احدى صديقات مقهى الفلور : « ميراي تريبيل » بالاشتراك مع « نيكو » ؛ وما لبثا ان انتقلا الى شارع « دورين » تجاه المبنى الذي قضيت فيه حداثتي . وقد استمعت هناك الى « الاخوة جاك » الذين كانت شهرتهم هائلة ، وعن استحقاق . وفي مسرح « الشانزليزيه » ، كان « موريس بوشنو » يقدّم باليه جديدة : « اللقاء » ؛ وطلب كوكتو وبيرار من سارتر نصّاً للتقديم ؛ وحضرنا إحدى التجارب ، فرأينا « لسلي كارون » وهي ترتدي بنطالاً ضيقاً أسود ، وتضفي على « أبي الهول » سرّ أعوامها الخمسة عشر . وسرعان ما أسرت الجمهور في حفلة العرض الأولى . أما باليه « كاترين دونهام » التي كان الباريسيون يهرعون لحضورها ، فقد ألفيناها قليلة الأهمية . وامتنعنا عن حضور « حالة الحصار » لكامو ، لا بدافع من نقص الصداقة ، ورأينا على مسرح ماريني « مخادعات سكابين » : وكان « بارو » قد أختار ألاّ يكون إلا تاجراً .

وطلب مني سارتر أن أحضر بعد ظهر أحد الأيام حفلة كوكتيل أقامتها « ايدا » زوجة بورديه الذي كان سارتر قريباً منه جداً من الناحية السياسية ، — وقد كتب « للتان مودرن » بعد ذلك مقالات سياسية — . وكانت ايدا تستقبل بكل ترحيب ، وكان ثمة أناس كثيرون : بل أكثر مما ينبغي . وجميع هؤلاء الناس الذين تفصل بينهم أمورٌ كثيرة ، كانوا يلقونني في انزعاج عميق . وقد رأيت « ألتمان » — الذي كنت أحسبه آنذاك من اليساريين — يسقط في ذراعي « لويس فالون » ؛ وأنا نفسي ، أية أيدٍ لم أصافحها ! وكان « فان شي » يشرد في الجمع ، وهو يبدو شقياً مثلي . إن الابتسام الوديّ للخصوم كما للأصدقاء يعني ردّ الالتزامات إلى آراء ، وردّ جميع المثقفين ، يمينيين كانوا أم يساريين ، إلى وضعهم البورجوازي المشترك . وهذا الوضع هو ما كان يُفرض عليّ هنا على انه حقيقيّ ، وهذا ما جعلني أشعر باحساس الهزيمة هذا المريع .

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في مطلع حزيران ، ارتديت المعطف الأبيض الذي كنت قد لبسته منذ عامين في شيكاغو ، ورحت أستقبل ألغرين في محطة سان لازار ، لدى وصول قطار عبر الاطلنطي . كيف ترانا سنلتقي من جديد ؟ لقد افترقنا افتراقا سيئاً ؛ ولكنه كان قادماً . ورصدت الخطوط الحديدية والقطار وموج المسافرين : فلم ألمحه ؛ وكانت الحافلات الأخيرة تفرغ ، فكانت فارغة : لم يكن ألغرين فيها . وانتظرت فترة طويلة ، وحين عزمت أخيراً على إدارة عقبيّ ، كانت المحطة قد خلت تماماً . وابتعدت ببطء وأنا ما أزال ألقي بعض نظرات من فوق كتفي : ولكن عبثاً . وقلت في نفسي : « سأذهب لانتظاره في القطار التالي » وعدت إلى بيتي بسيارة عمومية . وجلست على ديواني ، وأشعلت سيكارة ، وأنا أشدّ أضطراباً من أن أستطيع القراءة . وفجأة ، ارتفع صوت أميركي في الشارع ؛ كان ثمة رجل يحمل متاعاً مُربكاً ثقيلاً يدخل مقهى « ديزامي » ، ثم يخرج منه ، ويقترب من الباب . إنه ألغرين . وكان قد عرف معطفي وهو في حافلته ، ولكنه كان من فرط ارتباكه بأمتعته بحيث أنه لم يتمكن من النزول إلاّ بعد انقضاء وقت طويل بعد هبوط باقي المسافرين .

كان يجلب لي شوكولا وويسكي وكتباً وصوراً وثوباً داخلياً مزهراً . وكان قد قضى وهو في الجندية يومين في باريس ، في فندق « شيكاغو الكبير » من جهة « باتينيول » . ولم يكن قد رأى شيئاً تقريباً . وكان غريباً أن أقول لنفسي ، وأنا أمشي إلى جانبه في شارع « موفتار » : « إنها نظرته الأولى على باريس ؛ فكيف تبدو له هذه البيوت وتلك الحوانيت ؟ » كنت قلقة ؛ ولم أكن أريد أن أجد ثانية ذلك الوجه الشرس الذي أداره لي أحياناً في نيويورك . وقد صرّح لي فيما بعد أن فرط مساعدتي له قد أزعجه في الأيام الأولى . ولكني استعدت طمأنينتي بسرعة ؛ وكان هو ذا هيئة مشرقة .

وقد صحبته في النزهات إلى كل مكان ، مشياً على الأقدام ، وفي

السيارة ، وفي عربة أحياناً ؛ وكان يحبّ كل شيء : الشوارع والجموع والأسواق . وكانت بعض التفاصيل تثير دهشته واستنكاره : ليس ثمة سلالم إنقاذ عند الواجهات ؛ وليس ثمة حواجز واقية على طول قناة سان مارتان :

— وإذن ، إذا نشب ثمة حريق ، يحترق المرء حيّاً ؟ لقد بدأت أفهم الفرنسيين : إذا احترق أحدٌ احترق ! وإذا غرق طفل غرق : فلا مجال لمعاكسة القَدَر !

وكان يجد سائقي السيارات مجانين . وقد اغتبط بالطبخ الفرنسي وبخمر « بوجوليه » ، بالرغم من أنه فضّل الكبد المسمّنة على المقانق . وكان يحبّ كثيراً أن يتبضّع من حوانيت الحيّ ؛ وكان المظهر الاحتفالي للأحاديث يسحره : « صباح الخير يا سيدي ، كيف حالك ، شكراً جزيلاً ، حسناً جداً وأنت ، طقس جميل ، طقس رديء جداً اليوم ، إلى اللقاء يا سيدي ، شكراً سيدي . » وكان يقول لي أن الناس في شيكاغو يشترون وهم صامتون .

وجمعته بأصدقائي . وكانت المحادثة مع سارتر شاقة بعض الشيء لأنه لا يعرف الانكليزية ، وكان يعوزني الصبر لأترجم . ولكن أحدهما راق الآخر . وتحدثنا قليلاً عن تيتو وكثيراً عن ماوتسي — تونغ : كانت الصين مجهولة جداً حتى انها كانت تفتح الأبواب لكل هذر ، وكنّا معجبين بماوتسي — تونغ لأنه ينظم الشعر ، لأننا كنا نجهل أن كل جنرال هناك يستعمل الريشة ؛ كان يُنسب لأولئك الثوريين الذين كانوا مثقفين أيضاً حكمة قديمة تشكّل مع الماركسية مزيجاً فاتناً عجيباً ؛ وكانت تُروى قصص جميلة ، حقيقية ، عن تعليم الأبجدية في الحقول ، وإقامة المسارح في الجيوش ، وتحرير النساء . وكان الاعتقاد سائداً بأن « الدرب الصينية نحو الشيوعية » ستكون أوفر مرونة وتحرّراً من الدرب الروسية ، وان وجه العالم الاشتراكي كلّه سيتغيّر من جرّاء ذلك .

وقارن بوست وألغرين ، في « الروز روج » ذكرياتهما الجندية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسحرت أولغا ألغرين حين كانت تصغي ، بعينين مدهوشتين ، إلى جميع القصص التي كان يرويها وكان يعرف الكثير منها ، وحين كانت تعوزه ، كان يخترعها . وتناولنا العشاء ذات ليلة في مطعم برج « ايفل » — الذي كان غاصّاً بالأميركيين ، والذي كان الطعام والشراب فيه رديئاً ولكنه كان يشرف على منظر رائع — فتحدث طوال ساعتين عن أصدقائه اللصوص أو متعاطي المخدرات ، فعجزت عن تمييز الحقيقة من الأسطورة ؛ وكان بوست لا يصدق شيئاً ، بينما كانت أولغا تقبض كل شيء . وأقمت أمسيةً في منزل أسرة فيان دُعي إليها كازاليس وغريكو وسيبيون . وصحبت ألغرين إلى حفلة كوكتيل أقامتها دار غاليمار على شرف كالدويل . وكنا غالباً ما نقصد « المونتانا » مع هؤلاء أو أولئك فنشرب فيه قدحاً . وفي البدء ، كان « يساريو » فريقنا ، وبينهم سيبيون ، ينظرون في ريبة إلى هذا الأميركي . وقد أزعجه هذا الارتياب ، فلذّه أن يتظاهر بمتناقضات وحقائق ماجنة . ولكن حين عُرف أنه قد صوّت لوالاس ، وأن أصدقاءه قد طُردوا جميعاً من الراديو والتلفزيون بتهمة مناهضة النزعة الأميركية ، وحين عُرف خصوصاً معرفة أفضل ، تبنّاه الجميع . وكان يكنّ وداً كبيراً لميشيل فيان التي كان يدعوها « زازو » وكانت تترجم أقواله ترجمة دقيقة ، حتى حين كانت تستخف بنا حرارة الحديث . ويوم ١٤ تموز ، بعد أن تنقّلت عصابتنا في جميع مراقص الحيّ ، استقرّ بنا المطاف في مقهى صغير لا يغلق أبوابه إلا عند الفجر . وكان « كونو » في أحسن حالاته ، وكنت بين الفينة والفينة ألتفت نحو ألغرين لأقول له : « لقد قال شيئاً طريفاً جداً ! » فكان ألغرين يرسم على شفتيه بسمةً مبتسرة بعض الشيء . وجلست ميشال أمامه وترجمت كل شيء . وكان يحب كثيراً سيبيون بسبب ضحكته ، ويجد أنفه أجمل أنفٍ في العالم . وكان يلتقي في « المكتبة » تحت نادي سان — جرمين ، « غيونيه » الذي كان يحاول أن يترجم روايته الأخيرة ، وكان يجد مشقة في ترجمة لغة شيكاغو

المحلية. وقد دعاه غيونيه ذات صباح للقيام بدورة ملاكمة معه ومع جان كو. وحين لقيني عند الغداء، على سطيحة «بوتاي دور» المشرفة على ضفة السين، تداعى للسقوط على كرسيّه، وقال: «هؤلاء الفرنسيون، جميعاً مجانين!» لقد أطاع تعليمات غيونيه، فدخل غرفة في طابق سادس حيث استقبل بالهتاف: «هو ذا الأميركي الشجاع!» وكان قد رأى من النافذة كو وغيونيه اللذين كانا يشيران له بأن ينضمّ إليهما على سطيحة كان يُفضى إليها من المزراب. وكانت تلك، بالنسبة لألغرين الذي كان يشكو الدوار، مغامرة مرعبة. فقد كانت السطيحة بحجم منديل الجيب ولم يكن لها حواجز: وكانت الملاكمة تجري على حافة هاوية. وكرّر ألغرين: «جميعهم مجانين!» بلهجة ما تزال شاردة...

ولكي أريه الجمهور الباريسي، صحبته إلى عيد ١٨ تموز: وكانت جادة أورليان قد عُمدت من جديد باسم «جادة الجنرال لوكلير» في حفلة ترأستها زوجته. وفيما كنا سائرين بين الجموع، تحت شمس محرقة، عرفني أحد الرجال فقال لي: «ليس هذا مكانك!» وكانت عينه الديغولية تغتالني. ورأينا معاً لوحات فان كوخ وتولوز – لوتريك في معرض «جودوبوم». وزرت معه متحف غريفين؛ وقد اعجب اعجاباً شديداً بـ «قصر السراب» وبلانهاية غاباته وبأعمدته وبكواكبه ومناوراته، وبحيل أضوائه – ولاسيما بـ «ضوئه الأسود» – حتى أنّه نصح فيما بعد جميع مواطنيه الذين يقصدون باريس بان يزوروه. وبعد ظهر أحد الأيام، استأجر سارتر سيارة «سلوتا»، فقمنا مع بوست وميشال وسيبيون بنزهة طويلة في الضواحي. وزرنا في «كليشي» مقبرة الكلاب: وهي جزيرة صغيرة يحيط بها «السين»؛ وقد استقبلنا فيها تمثال كلب من منطقة سان – برنار أنقذ، على ما اعتقد، تسعة وتسعين شخصاً. وكانت على المقابر عبارات تؤكّد تفوّق الحيوان على الانسان؛ وقد كانت تحميها كلاب من جصّ، من مختلف الأنواع. وفجأة ركل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الغرين ركلةً قوية رأس جروٍ سقط على الارض ، فسألناه ونحن نضحك : « ولكن لماذا فعلت ذلك ؟ » فأجاب :

– لقد كان ينظر إليّ نظرة لم تَرُقني .

كانت عبادة الحيوان تلك تغيظه .

وحسبت اني سأسلّيه حين صحبته الى ميدان سباق « اوتواي » ، ولكنه لم يفهم شيئاً من النظام الفرنسي المتعلّق بالمراهنات والاعلانات . وبالمقابل ، اهتم كثيراً لحفلات ملاكمة « السنترال » . وكان يملأني بشعور الخجل لأني كنت قد كسبت بعض الاحترام البشري منذ شبابي ، ولم يكن هو يملك منه ذرة . وكان يلتقط الصور ، في إبان الملاكمة ، مستعملاً الضوء والعاكس .

وهبطت معه الى نادي سان جرمين الذي كان قد افتتحه « بوبال » قبل ذلك بعام ، وكان قد انتقل اليه فيان وكازاليس . وكان اسلوب « نوفيل اورليان » الذي كان ما يزال شائعاً في « تابو » ،قد أخلى مكانه فيه لـ « البيوب » . كان الكهف غاصّاً بالناس ؛ وكان ثمة امرأة ذات لحية تبتسم في إطار ، وفي « الروز رُوج » استمعت مرة اخرى الى « الاخوة جاك » في « تمرينات الاسلوب » وقد أحبّهم الغرين ، ولكنه احب اكثر منهم ايف مونتان الذي كان يغني في « الا . ب . ث » ومولوجي . وللمرة الاولى في حياتي شربت شمبانيا في « الليدو » بسبب برنامج ترفيهي كان سارتر قد اوصاني بحضوره ؛ كان ثمة ممثل يتكلم من بطنه اسمه « وينس » كان يستعمل يده اليسرى كدمية ؛ وكان زرّان من حذاء يمثلان العينين ، واصبعان مصبوغان بالأحمر يمثلان الشفتين ؛ فكان يلبس شعراً مستعاراً هنا ، ويسوّي جسماً ماثلاً هناك ؛ كانت الدمية تحرّك فمها وتوسعه حتى يبتلع ذنب طاولة بلياردو ، وكانت تدخن وتمدّ لسانها – وهو اصبع ثالث . كانت من الحيوية بحيث يعتقد المرء انه يسمعها حقاً تتكلم ، وحين تتحلل تشبه كائناً صغيراً وقحاً وجذاباً وقد مات .

كان الغرين راغباً في معرفة العالم القديم. وكانت اسبانيا محظورة علينا: لم يكن وارداً ان نضع اقدامنا على ارض فرانكو. فاستقللنا الطائرة الى روما: وأدهشني أن أعانق بنظرة واحدة المدينة والبحر وريفاً واسعاً محروقاً. وايّ انشداه ان أستطيع، وقد غادرت باريس صباحاً، تناول الغداء في ساحة «نافوتا»! ومشينا كثيراً وتطلعنا كثيراً. وتناولنا العشاء في مطعم صغير بـ «الجانيكول»، ولعبنا بالكرة مع كارلو ليفي؛ وتناولنا الغداء مع سيلوني وزوجته؛ ورأينا اوبرا «عايدة» في حمامات «كاراكالا»: وقد احببت صوت طائرة تحلق فوق لحن عظيم لفيردي. وذات ليلة، حملتنا عربة تحت العاصفة، عبر شوارع سائلة سوداء. ولكن كان ثمة خرائب اكثر مما ينبغي، وكانت المدينة عاقلة اكثر مما ينبغي بالنسبة لذوق ألغرين. واستقللنا الباص الى نابولي. وتوقفنا في كاسينو: كانت الخرائب المحترّقة تحت الشمس تبدو في مثل بُعد خرائب بومبايي.

واحبّ ألغرين نابولي؛ كان قد ألف البؤس، وكان يحاذيه كل يوم، فلم يكن يجد اي انزعاج في التنزّه عبر الاحياء الشعبية الغاصّة. وكنت اشدّ ارتباكاً مما كنت في «السنترال» حين بدأ يلتقط الصور: وبالفعل، كان الناس يضحكون لأضوائه، وكان الاولاد يتنازعون لالتقاط اللمبات الحارّة. وقد استقبل كأنه صديق حين عاد يوزّع تجارب الصور.

كان الايطاليون يجتذبونه. وحين وصلنا الى «بورتو ديشيا» حيث كنا نريد قضاء عدة أيام، اتجهنا الى المطعم، فطلب قدح حليب، فلم يكن متوفراً، وقال الخادم الذي لم يكن يتجاوز في الطول نطاق الغرين:

— يجب الا تشرب الحليب، بل الخمر يا سيدي: فهكذا يصبح الانسان طويلاً وقوياً!

ولم يرق لنا ذلك المرفأ الجاف المغبّر والخيل المزيّنة بالريش؛ فتابعنا طريقنا الى «فوريو»؛ وكان الفندق الصغير المشرف على البحر خالياً؛ وكانت فيه قاعة طعام مظلّلة، وسطيحة؛ وكان صاحبه يحشونا بـ «اللازاني»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالفرن . وفي الساحة التي جلسنا نشرب فيها القهوة ، دلّونا على ارملة موسوليني . وقمنا بنزهات في المركبة . وبقينا ساعات على شاطيء البحر . وفي ذكرياتنا، ظلّت « ايشيا » جنّتنا . ولكنا كنّا سعيدين ايضاً في « سورنانت » و « امالفي » ورافليو ، وأُخذ مع ذلك بأنقاض بومبايي .

وحملتنا طائرة من روما الى تونس : وقد سحرت الغرين الأسواق والأحياء اليهودية . ولا اذكر بعدُ كيف لقينا عمر حسين ، سائق السيارة الذي كان يحمل اسرته الى جربه للاحتفال بعيد رمضان : وقد نقلنا اليها بأجرة متواضعة . وقد كانت الجزيرة في حالة من الجنون ليلة وصلناها؛ كان لدى مسلمي العالم كلّه مراقبون يرصدون القمر ؛ فاذا روُي في اثناء الليل بلّغوا برقياً جميع زملائهم ، وانتهى الصوم ، وإلاّ بقي الصوم حتّى مساء اليوم التالي . كان الناس يأكلون ويشربون ويرقصون ويرقبون السماء ويقتلون الساعات بعصبية لم تكن تبرّرها في رأيي مهلةُ نهار واحد . وجلس الغرين الى طاولة مقهى يدخن النرجيلة مع عمر حسين ، وسط موسيقى صاخبة ؛ واعترف لنا عمر انه في اثناء العام كان يشرب الخمر أحياناً ، ويعصي اوامر القرآن : ولكنه في رمضان لا يشرب قطرة ولا يدخن سيكارة بين الفجر والغروب وقال :

– إن الله لا يغفر هذا !

كان توتّر الجمهور وإرهاق ايام الصوم تلك يشرحان عصبيته النافدة الصبر . وظلّ القمر مختبئاً ليلتذاك : وكانت الليلة التالية هادئة ، لأنه لم يكن ثمة شك بعد : لقد انتهى رمضان .

بقينا ثلاثة أيام في الجزيرة ، وفي القرية اليهودية ، تطلّع الغرين بدهشة الى النساء الجميلات ذوات العيون المعتمة ، المعتمرات الشال التقليدي ، وقال لي :

– لقد عرفت شبيهاتهنّ تماماً في شيكاغو .

وزرنا الكنيس الذي يقصده للحج يهودٌ من العالم كلّه . وكنّا نقضي اوقاتاً طويلة داخل مغارة محوّلة الى حانة ؛ وكانت زجاجات البيرة نائمة في

ماء حوض صغير كان صاحب الحانة يخوضه عاري القدمين ليأتي بها مبردة . وقد أعطى الغرين كمية من الحشيش وقال له :

— دخـّنها ، وسترى انك ستطير !

وكان جميع الزبائن يترقـّبون . وبعد ان دخـّنها الغرين أحسّ بهزّة خفيفة فصلته عن الأرض : ولكنه ما لبث ان سقط ثانية .

وأكلنا في بيت اقرباء لعمر حسين طعاماً قرمزياً متبلاً ومشروباً بنفسجيّ اللون . وعدنا معه الى تونس عن طريق مدنين والقيروان . وباعد الغرين عينيه امام الغرفة قائلاً :

— لا أدري حقاً بعدُ اين انا !

وأرانا عمر حسين صورة كانت تمثّله وعلى أُذنه سمّاعة ، وقال لنا بلهجة مجيدة :

— كنت أتلفن لباريس !

وكان فخوراً ان ينقل في سيارته اميركيّاً ، ولكنه لم يكن يفهم ألاّ يملك هذا الاميركي سيارة ، فقال الغرين :

— ليس الجميع هناك اغنياء !

وفكر حسين . واذ كنّا نشتري غالباً رقائق وحلويات ، سألنا :

— هل في اميركا بيض ؟ وهل هناك حليب ؟

— ...

— إذن خذاني إليها . فهناك نقيم عند مفترق طرق ونصنع فطائر ورقائق فنصبح أغنياء .

وقد كان يكره اثنتين : فرنسا واسرائيل ؛ ولم يعبّر عن كرهه للاولى الا بكلمات مستورة ؛ اما اليهود ، فقد افرغ قلبه عليهم ، لا سيما وان الغرين لم يبُد حراكاً :

— لم يكن لهم قط راية ، وهم يريدون الآن وطناً لهم !

وبعد تونس ، زرنا مدينة الجزائر ثم فاس ثم مراكش ؛ كان ثمة كثير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من الاضواء والالوان والجمال ، وكان ثمة كثير من الجروح كذلك : كانت عينا الغرين تزدادان اتساعاً من الدهشة . كان يتمنى ان يرى مرسيليا ثانية حيث سبق له ان إنتظر ، بعد الحرب ، الباخرة التي تقله الى الولايات المتحدة . وبعد ذلك ، استقبلتنا اولغا وبوست في منزلهما بكابريس : وكانت النوافذ تطلّ على سطيحات من شجر الزيتون وعلى البحر البعيد . ولم تكن القرية قد تغيّرت قط منذ سنة ١٩٤١ . وذات مساء استأجرنا سيارة لنذهب فنخسر قليلاً – قليلاً جداً – من المال في كازينو مونت كارلو . وفي عليّة من « الانتيب » كان قد هاجر اليها « نادي الفيو كولومبييه » سمعنا « لوتر » ؛ وغنّت جولييت غريكو : « لو كنت تتصوّر » و « شارع البلان مانتو » . وشرب الغرين كثيراً ؛ ورقص مع اولغا ، ثم رقص مع كرسيّ رقصاً رشيقاً جداً .

وكان شهر ايلول في باريس رائعاً . وقد بلغ تفاهمنا حداً لم يبلغه من قبل قطّ . واتفقنا ان اسافر في العام التالي الى شيكاغو : فكنت واثقة ، وانا اترك الغرين ، أني سألقاه ثانية . ومع ذلك ، فقد كان قلبي في ملزمة حين صحبته الى مطار اورلي . ولقد اجتاز باب دائرة الجمرك واختفى : كان ذلك يبدو من شدة الاستحالة بحيث كان كل شيء يصبح ممكناً ، حتى مسألة ألاّ أراه بعد ابداً . وعدت الى باريس بالتاكسي : وكانت الاضواء الحمراء ، في رؤوس الأعمدة ، تنذرني بمصاب فظيع .

ولا شك في اني كنت مخطئة . كانت رسالة الغرين الأولى تفيض جذلاً . فقد اخبرته احدى المجلات ، حين توقّف في « غاندر » ان جائزة بوليتزر قد أُعطيت له . حفلات كوكتيل ، مقابلات ، راديو ، تلفزيون : هكذا احتفلت به نيويورك . وكان صديق قد عاد به بسيارته الى شيكاغو . كان سعيداً برحلته الى اوروبا ، وسعيداً بعودته الى بيته . وقد كتب لي :

« لقد قضينا بالسيارة طوال يومي السبت والأحد ؛ وكان رائعاً ان أشاهد من جديد اشجاراً اميركية ، والسماء الاميركية الكبيرة ، والانهار الكبيرة

والسهول . إنها ليست بلداً في مثل ألوان فرنسا ؛ وهي لا تستحوذ على قلبك كالسقوف الصغيرة الحمراء التي يراها في باريس من يركب قطار عبر الاطلنطيك او من يحلّق فيها بطائرة مارسيليا – باريس . وليست هي مريعة كأنوار مراكش الرمادية الخضراء . ولكنها واسعة ، حارّة وسهلة ، مطمئنة وناعسة ، وذلك كله بطيء . لقد كنت مسروراً ان انتسب اليها ، وكان يعزّيني اني أعرف ، حيثما ذهبت ، انها البلد الذي استطيع دائماً ان اعود اليه . »

وكان يكرّر لي انه ينتظرني ، فعاودتني الثقة .

* * *

صدر الجزء الأول من « الجنس الثاني » في حزيران ؛ وكان قد ظهر في عدد ايار من « التان مودرن » الفصل المعنون « المبادىء الجنسية للمرأة » وتبعه في عددي حزيران وتموز فصلا « المرأة الجنسية الشاذة » و « الامومة » . وفي تشرين الثاني صدر الجزء الثاني عن دار غاليمار .

وقد ذكرت كيف وضعت هذا الكتاب : بصورة عفوية تقريباً ؛ كنت اريد ان اتحدث عن نفسي ثم رأيت أن عليّ ان اصور وضع المرأة ؛ وأخذت اولاً في الاعتبار الأساطير التي صنعها الرجال عن المرأة عبر الاديان والكوسمولوجيات والايديولوجيات والوساوس والآداب . وحاولت ان أرتّب في اللوحة التي تبدو للوهلة الاولى غير منسجمة : كان الرجل في جميع الأحوال يبدو « فاعلاً » ويعتبر المرأة « موضوعاً » ، يعتبرها « الأخرى » . وهذا الادعاء كان يُفسّر طبعاً بظروف تاريخية ؛ وقال لي سارتر ان عليّ كذلك ان أشير الى قواعده الفيزيولوجية . وكان ذلك في « راماتويل » ؛ وقد تحدثنا في ذلك طويلاً ، وترددت : فأنا لم افكر بكتابة مؤلف واسع الى هذا الحد . ولكن دراستي عن الخرافات في الواقع كانت تبقى في الهواء اذا لم يكن القارىء يعرف أي واقع كانت تغطيه . وهكذا استغرقت في كتب الفيزيولوجيا والتاريخ . ولم اقتصر على التجميع والتقميش ؛ فالعلماء أنفسهم ، علماء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجنسين ، كانوا مشبعين بالأحكام الرجالية المسبقة ، وقد حاولت ان أجد وراء تعليلاتهم الوقائع الصحيحة . واستخرجت من التاريخ بضع افكار لم يسبق لي ان التقيتها في اي مكان : لقد ربطت تاريخ المرأة بتاريخ الإرث ، أعني انها بدت لي ردّ فعل للتطور الاقتصادي في عالم الرجل .

كنت أحاول ان انظر الى النساء نظرة جديدة ، فكنت انتقل من مفاجأة الى مفاجأة . وكان غريباً ومحرّضاً ان أكتشف فجأة ، في الاربعين من عمري ، مظهراً للعالم يبهر العيون ، ومع ذلك لا يراه الناس . وقد كان من ألوان سوء التفـاهم التي خلقها الكتاب الاعتقاد بأني كنت انكر فيه بين الرجل والنساء اي فرق : فالحقيقة هي اني كنت بالعكس قد قست ، وانا اكتب الكتاب ، ما يفصل الجنسين ؛ ولكن ما ذهبت اليه هو أن تلك الاختلافات هي ثقافية وليست طبيعية . وأخذت على عاتقي ان أروي بانتظام كيف كانت تنشأ هذه الاختلافات ، من الطفولة حتى الشيخوخة ؛ ودرست الامكانات التي يقدّمها هذا العالم للنساء ، والامكانات التي يمنعها عليهن ، وحدودهنّ ، ونحوسهنّ وحظوظهنّ ، وفرارهنّ وانجازاتهنّ . وهكذا ألّفت الجزء الثاني : التجربة المعاشة .

ولم أنفق الا عامين في تأليف هذا الكتاب [1] . كانت لدي معلومات في علم الاجتماع وعلم النفس . وكنت مدينةً لثقافتي الجامعية بمناهج للعمل مجدية : كنت أحسن تصتيف الكتب وجردها بسرعة ، واسقاط الكتب التي لم تكن إلاّ مقتبسة او قائمة على الأهواء ، وقد قمت بجردة شاملة تقريباً لكل ما كان قد صدر بالفرنسية او الانكليزية عن هذا الموضوع الذي أنتج أدباً ضخماً ، ولكن عدداً صغيراً من هذه الدراسات فقط يُعوّل عليه ، كما هو الشأن في الموضوعات الاخرى . وأفدت كذلك ، ولا سيما للجزء الثاني ، من ذلك التنبّه الذي كنّا انا وسارتر قد أوليناه للأشخاص طوال

(١) لقد بدأته في تشرين الأول ٤٦ وأنهيته في حزيران ٤٩ ؛ ولكني قضيت في عـام ٤٧ أربعة أشهر في اميركا ، وشغلتني « اميركا يوماً فيوماً » ستة أشهر .

أعوام : وقد قدّمت لي ذاكرتي مادة غزيرة .

وقد استقبل الجزء الأول استقبالاً طيباً : وبيع منه اثنان وعشرون الف نسخة في الاسبوع الأول . وقد اقبل الناس كذلك على شراء الثاني ولكنه أثار الاستنكار . وقد شدهت للضجة التي أثارتها الفصول المنشورة في « التان مودرن » . كنت قد تجاهلت تجاهلاً جذرياً تلك « الكلبيّة الفرنسية » التي تحدث عنها جوليان غراك في مقال هنّأني فيه على « جرأتي » ، بالرغم من انه شبّهني ببوانكاريه وهو يخطب في المقابر . وقد أدهشتني كلمة « جرأة » حين سمعتها للمرة الاولى . وقد قالت لي كلودين شونيز باعجاب لا يخلو من شفقة :

– لكم كنت جريئة !

– جريئة ؟

– ستفقدين اصدقاء كثيرين !

وكنت افكر : اذا فقدتهم ، فهذا يعني أنهم ليسوا أصدقاء . على اي حال ، كنت سأكتب هذا الكتاب كما كنت راغبة في كتابته ، ولكن لم تراودني لحظة واحدة نزعة البطولة . وقد كان الرجال الذين يحيطون بي – سارتر ، بوست ، مير لو – بونتي ، ليريس ، جياكومتي وفريق « التان مودرن » – ديمقراطيين حقيقيين في هذا الصدد ؛ ولو لم أفكر الا بهم ، لخشيت بالأحرى أن اخرق ابواباً مفتوحة . والحق اني قد أوخذت على ذلك ، ولكني أوخذت أيضاً على ان أخترع وأزيّف واهذي وأهرف . لقد أخذت عليّ أشياء كثيرة : كل شيء ! أولها عدم حشمتي ،وقد اختُطفت اعداد حزيران وتموز وآب من « التان مودرن » كالخبز ، ولكن الذين قرأوها كانوا يقرأونها وهم يغطّون وجوههم بأيديهم ، اذا جرؤت على قول ذلك . حتى لقد كان الظنّ ان فرويد وعلم التحليل النفسي لم يوجدا قط . فأي مهرجان للدعارة ، بحجّة اخفاء دعارتي ! وسالت الروح الغولوازية الطيبة أمواجاً . وتلقيت رسائل هجوم وقصائد هجو وتوبيخ ومواعظ كان يوجّهها إليّ مثلاً : « اعضاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عاملون جداً من الجنس الاول » . كنت في رأيهم مكبوتة ، باردة ، متوتّرة ، شاذة جنسياً ، مجهضة مئة مرة ، بل فوق ذلك كله كنت أمّاً تخفي أمومتها . وعرض عليّ البعض ان يشفوني من برودتي ، ويشبعوا نهمي الغولي ، ووعدني البعض بكشف أمورٍ هامّة ، بكلمات قذرة ، ولكن باسم الحق والجمال والخير والصحة وحتّى الشعر التي خرّبتها بقلمي . حسناً . إنه لممل ّ كتابة العبارات الماجنة في بيوت الخلاء والمراحيض ؛ وقد آثر كثير من المهووسين الجنسيين ان يرسلوا لي مؤلّفاتهم ، وهذا ما كنت أستطيع فهمه . اما مورياك ! لقد كتب لأحد محرّري « التان مودرن » :

– « لقد عرفت كل شيء عن فرج معلّمتك » .

وهذا يدلّ على انه ، في حياته الخاصة ، لم يكن يخشى الكلمات . اما ان يراها مطبوعة ، فانه يتألم جداً ، حتّى انه فتح تحقيقاً في « الفيغارو ليترير » : وكان يحثّ الشبيبة ان تدين الدعارة إجمالاً ومقالاتي بصورة خاصة . وكان نجاحه هزيلاً . وبالرغم من خنق أجوبة « بويون » و « كو » اللذين هرعا الى نجدتي – واجوبة غيرهما بلا ريب – فقد كان لي مدافعون ، بينهم « دوميناك » ؛ لم يغتظ المسيحيون الا قليلاً ، وبالاجمال لم تبدُ الشبيبة منزعجة جداً بتجاوزاتي الكلامية . وقد حزن مورياك لذلك . وقبيل انهاء التحقيق ، ارسلت له فتاة ملائكية رسالةً كانت تستجيب لرغباته بصورة دقيقة جداً حتّى ان كثيرين منا اغتبطوا لهذا الحظّ ! على انه حدث مراراً ، في المطاعم والمقاهي التي كنت أترددّد اليها مع الغرين اكثر مما اعتدت ، ان قهقه اناس لرؤيتي وهم يومئون إليّ بأنظارهم او بأصابعهم . وكنت مرة أتناول العشاء في مطعم « نوبروفانس » ، بجادة مونبارناس ، فقضى أشخاص يجلسون الى طاولة مجاورة الوقت كلّه وهم يحدجونني وينفجرون ضاحكين ؛ وكان يزعجني أن أورّط الغرين في منازعة ؛ ولكني حين خرجت ، قلت بعض الكلمات لأولئك الأشخاص .

وقد أبرمني عنف هذه الأرجاع وانحطاطها . لقد شجّعت الكاثوليكية ،

لدى الشعوب اللاتينية ، طغيان الرجال ، بل لقد دفعته حتى السادية ؛ ولكن الطغيان ان كان يتحالف لدى الايطاليين مع الفظاظة ، ولدى الاسبان مع الغطرسة ، فان القذارة محض فرنسية . لماذا ؟ لأن الرجال في فرنسا هم ، قبل كل شيء ، يحسّون أن المرأة تنافسهم اقتصادياً ، ولكي يحافظوا ضد النساء على توكيد تفوّق لا تضمنه الأخلاق ، فان خير وسيلة هي في إذلالهن . وهناك تقليد خلاعيّ يقدّم ترسانة برمّتها تتيح ردّ النساء الى وظيفتهن كموضوع جنسي : وهذه الترسانة تتألف من امثال سائرة وصور وحكايات ومفردات لغوية كثيرة ؛ ومن جهة اخرى ، فان الاسطورة القديمة للتفوّق الفرنسي ، على الصعيد الغرامي ، هي في خطر ؛ فالعاشق المثالي ، في مظاهر التمثيل الجماعية ، هو اليوم ايطالي لا فرنسي ؛ واخيراً ، فالموقف النقدي للنساء المتحرّرات يجرح او يُتعب رفاقهن الرجال اذ يبعث لديهم ذكريات مهينة . إن القذارة ، هي المجون الفرنسي القديم حين يتولاّه ذكور حاقدون قابلون للانجراح [١] .

وحدث في تشرين الثاني هياج عام جديد . وكان النقاد يصابون بدهشة شديدة ؛ لم يكن ثمة من مشكلة : لقد كانت النساء ، في جميع العهود والازمان ، مساويات للرجال ، ولقد كنّ الى الأبد دونهم ، كل ما كنت اقوله كان معروفاً من قبل ، لم يكن فيما كنت اقوله كلمة صحيحة واحدة . وتنافس « بواديفر » « ونيميه » في تحقيري في مجلة « ليبرتيه دولاسبري » . كنت في رأيهما « فتاة مسكينة » عصابية ، مكبوته ، محرومة ، مقطوعة الميراث ، مسترجلة ، لا تجد من يضاجعها ، حاسدة ، متبرمة ، محشوّة بعقد النقص ازاء الرجال والنساء ، تتأكلها ذكرى الحرمان [٢] . وكتب « جان

(١) إن لدى الأميركيين حقداً على المرأة . ولكن أشد الهجائيات سماً ، من مثل « جيل من الأفاعي » لفيليب ويللي ، لا تنحدر الى الدعارة ؛ انها لا تتشبث باذلال المرأة جنسياً .

(٢) حين ظهرت ، بعد عشر سنوات ، رواية كريستيان روشفور « راحة المحارب » التي أثارت ضجة كبيرة ، ظهر من جديد نقاد من الذكور ليغنوا لازمة « انها مكبوتة قبيحة ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غيتون » ، في كثير من الشفقة المسيحية ، انه تأثّر تأثّراً شاقاً بكتاب « الجنس الثاني » لأن القاريء كان يكتشف فيه « حياتي الحزينة » . وتجاوز « ارمان هوغ » ذلك فقال : « لقد أذلّها ان تكون امرأة ، وان تكون واعية وعياً مؤلماً أنها محبوسة بانظار الرجال في وضعها . فهي ترفض في الوقت نفسه ذلك النظر وهذا الوضع . »

وقد ردّد موضوع الإذلال هذا عدد كبير من المعلقين المشبعين إشباعاً ساذجاً بعقدة تفوقهم الرجالية الى درجة انهم لم يكونوا يتصورون أن ذلك التفوق لم يثقل عليّ في يوم من الايام . إن الرجل الذي كنت أضعه فوق جميع الآخرين لم يكن يرى أني دونهم . وكان لي اصدقاء كثيرون من الرحال الذين لم يكن نظرهم يحبسني في حدود ، بل كانوا يتعرفونني كائناً بشرياً على قدم المساواة ، وكانت هذه الحظوظ قد منعت عليّ كل حقد او غيظ : وقد رأى القراء ان طفولتي وشبابي لم يتأثّرا بذلك ايضاً .[1] وقد وجد قرّاء أدقّ من اولئك أني من عدوات الرجل ، واني كنت أدينهم ، حين أدّعي الانحياز الى المرأة ؛ وهذا خطأ : انني لا أمجّدهن ، وقد صوّرت النقائص الناجمة عن وضعهنّ ، ولكني أظهرت كذلك مزاياهن وميزاتهنّ . وقد منحت نساء كثيرات محبّة واحتراماً يحولان دون أن اخونهنّ باعتبار نفسي « ذَكَر شرف » ؛ ولم أُجرح قطّ بأنظارهم . وانا في الواقع لم أتعرّض لألوان السخريات الا بعد « الجنس الثاني » ؛ اما قبل ذلك ، فقد كان الرجال يظهرون نحوي اللامبالاة او اللطف . وبعد ذلك هوجمت مراراً بصفتي امرأة ، لأن المهاجمين كانوا يعتقدون انهم يصيبونني في نقطة قابلة للجرح : ولكني كنت أعرف جيداً أن هذا الغيظ كان يتوجّه في الحقيقة الى مواقفي الأخلاقية والاجتماعية . لا ؛ لم أكن اعاني من انوثتي ، بل انا قد جمعت ،

---

(١) انني بعيدة جداً عن احتقار الغضب او العقد او اي من هذه العواطف السلبية: فالظروف غالباً ما تبررها ، وبالامكان القول إني ناقصة التجربة لأني لم أعرفها . ولئن كنت هنا أدحضها ، فلأني أتمنى ان يُفهم « الجنس الثاني » كما أردت ان أكتبه .

ابتداء من عامي العشرين ، حسنات الجنسين ؛ وقد عاملني وَسَطي بعد صدور « المدعوة » على اني « كاتب »[1] و « امرأة » في وقت واحد ؛ وكان هذا أشدّ بروزاً في اميركا : ففي « الحفلات » كانت الزوجات يجتمعن ويتحدثن فيما بينهن ، بينما كنت أتحدث الى الرجال الذين كانوا يظهرون لي مع ذلك من اللطف واللياقة اكثر مما يظهرون لبني جنسهم . وهذا الوضع « الامتيازي » بالذات هو الذي شجّعني على تأليف « الجنس الثاني » . وقد سمح لي أن أعبّر عن آرائي بكل اطمئنان وصفاء . وخلافاً لكل ما زعموا ، فان هذا الصفاء هو الذي أغاظ كثيراً من قرّائي الذكور : فلو كان كتابي صرخة كبيرة غاضبة ، وثورة روح جريح ، لتقبّلوه في تلذّذ منفعل ؛ ولكنهم لم يغفروا لي موضوعيّتي ، فتظاهروا بأنهم لا يصدّقونها . مثال ذلك اني انتقدت عبارة لكلود مورياك كانت مثالاً على تعالي الجنس الخشن ؛ فتساءل : « لماذا هي عاتبة عليّ ؟ » انني لست عاتبة عليه : بل على الكلمات التي كنت أستشهد بها . ومن الغريب ان يرفض هذا العدد الكبير من المثقفين تصديق المشاعر الفكرية المهووسة[2] .

وأثرت ألواناً من الغضب حتى بين أصدقائي . وقد توقّف أحدهم ، وهو جامعي تقدّمي ، عن قراءة كتابي وقذف به الى الجانب الآخر من الغرفة . واتهمني كامو ، ببعض عبارات شرسة ، أنّي هزّأت الذكر الفرنسي . انه ، هو المتوسطي الذي يغذّي كبرياء اسبانية ، لم يكن يعترف للمرأة الا بالمساواة في الفرق ، وقد كان بالطبع هو اكثر الاثنين مساواة ، كما قد يقول جورج اورويل . وكان قد اعترف لنا ذات مرة ، بلهجة مرحة ، انه لم يكن يحتمل فكرة ان تحكم عليه او تقوّمه امرأة : فهي قد كانت الموضوع ، وكان هو

---

(١) لا تمييز ، في الفرنسية ، بين الكاتب والكاتبة ، من حيث استعمال أداة التعريف والضمير . (هـ. م)

(٢) هاجم بوست في « التان مودرن » روائياً وعظياً ، فصرخ هذا آسفاً : « ولكن لماذا هذا الحقد كله ؟ إنه لا يعرفني حتى ! »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشعور والنظر ؛ كان يضحك لذلك : ولكن من الصحيح انه لم يكن يقرّ التبادل . وانتهى الى القول بحرارة مفاجئة: «كان ثمة حجة كان عليك ان تقدّميها على سواها : إن الرجل هو نفسه يعاني من انه لا يجد في المرأة رفيقة حقيقية ؛ إنه ينشد المساواة . » لقد كان هو ايضاً يوثر على الأسباب العقلية صرخة قلب : ومما يزيد الطين بلّة انها صرخة تُطلق باسم الرجال . ولقد اعتبر معظمهم شتمية شخصية ما كنت قد رويته عن البرودة النسوية ؛ كانوا حريصين على ان يتصوروا انهم يوزّعون اللذة وفق هواهم ؛ والشكّ في ذلك هو بمثابة خصيٍ لهم .

ولم يكن اليمين يستطيع ان يحتقر كتابي ، الذي وضعته روما في الحقيقة على لائحة الحرم . وكنت آمل ان يستقبل استقبالاً حسناً في أقصى اليسار . وكنّا آنذاك في أسوأ علاقة مع الشيوعيين ؛ ومع ذلك ، فقد كانت دراستي مدينةً بالكثير للماركسية ، وكانت تعترف بكثير من فضائلها بحيث اني كنت أتوقّع من جانبهم بعض التجرّد ! وقد اكتفت ماري – اويز بارون في « الليتر فرانسيز » بالتصريح بأن « الجنس الثاني » سيحمل عاملات « بيلانكور» على الضحك ... فأجابتها كوليت اودري بأن في هذا الرأي عدم احترام لعاملات بيلانكور ، ونشرت هذا في « استعراض للنقاد » بجريدة «كومبا » . وخصصت لي « اكسيون » مقالاً بلا توقيع ، وغير قابل للفهم ، وكان مرفقاً بصورة تمثّل معانقة بين امرأة وقرد .

ولم يكن الماركسيون اللاستالينيون اكثر تشجيعاً من ذلك . وقد ألقيت محاضرة في « ايكول ايمانسيبيه » فأجابوني بأن مشكلة المرأة لن تطرح بعد ، حين تتمّ « الثورة » . وقلت : فليكن ؛ ولكن بانتظار ذلك ؟ لم تكن الأزمان الحاضرة تهمّهم ، على ما يبدو .

وقد خلق خصومي وغذّوا ألواناً عديدة من سوء التفاهم حول « الجنس الثاني » . وقد هوجمت خصوصاً بصدد فصل الأمومة . وصرّح رجال كثيرون بأنه لم يكن يحقّ لي التحدّث عن النساء لكوني لم أنجب اولاداً :

تُرى ، هل أنجبوا هم[١] »؟ على انهم كانوا يعارضونني بأفكار ليست دون ذلك حسماً وقطعاً . أتراني قد رفضت كل قيمة لشعور الامومة والحب ؟ كلا . لقد طلبت ان تعيشهما المرأة حقاً وبشكل حرّ ، في حين انهما غالباً ما يخدمانها كحجة ، وانها تخضع لهما ، الى درجة ان الخضوع يبقى ، إذ يكون القلب قد جفّ . وهل دعوت الى الحرية الجنسية ؟ إني لم أنصح قط أحداً بأن ينام مع أي كان ، وكيفما كان ، إن ما أراه هو أن ضروب الاختيار والقبول والرفض ، في هذا الميدان ، ينبغي ألاّ تخضع لمؤسسات ومواضعات ومصالح ؛ فاذا لم تكن الأسباب من قبيل العمل نفسه الذي تسبّبه ، أفضت الى أكاذيب وتشويهات .

وكنت قد خصصت فصلاً لموضوع الإجهاض ؛ وكان سارتر قد تحدث عنه في « سن الرشد » ، وانا في « دم الآخرين » وقد هُرع الى مكتب « التان مودرن » أشخاص يطلبون من السيدة « سوربيه » ، السكرتيرة ، عناوين لقابلات يتولّين الإجهاض . وقد انزعجت من ذلك كثيراً حتى انها اومأت ذات يوم الى خزانة وهي تقول :

— اننا نقوم بذلك هنا ، نحن انفسنا !

وكنت ذات صباح ما أزال نائمة حين طُرق بابي ، فقال لي شاب بهيئة شاردة :

— إن زوجتي حامل . فأعطيني عنواناً ...

فقلت له : — ولكني لا أعرف عناوين !

فذهب وهو يلعنني :

— ليس هناك شخص يساعد شخصاً !

والواقع اني لم أكن أعرف عناوين ؛ وأية ثقة ينبغي ان أوليها لغريب يسيء مراقبة نفسه الى هذا الحدّ ؟ إنهم يحشرون النساء والازواج في السريّة ؛ فاذا كان بوسعي ان أساعدهم ، فعلت دون تردّد . ولكن لم يكن يروق

---

(١) لقد سألوا أمهات : وانا ايضاً .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لي ان أبدو وكأنني سمسارة ممتهنة .

وقد كان « للجنس الثاني » من يدافعون عنه : فرانسيس جانسون ، مونييه ، نادو . وقد أثار مناقشات عامة ومحاضرات ، وجاءني بسببه بريد وافر . كان يزرع الاضطراب في النفوس حين تُساء قراءته ، ويساء فهمه . وربما كان ، بعد كل حساب ، اكثر كتاب من كتبي حمل لي ألواناً صلبة من الرضى . واذا سئلت كيف أحكم عليه اليوم ، لما ترددت في ان اجيب : انني بجانبه .

اوه ! انا أقرّ ان يُنتقد أسلوبه ، وتأليفه . ومن اليسير أن أقدّ منه ، لو طُلب إليّ ذلك ، كتاباً أرشق وآنق ؛ فانا اذ كنت اكتشف افكاري فيما كنت أعرضها ، لم أستطع ان اؤلفه بأفضل مما فعلت . اما بصدد المضمون ، فلو كان لي ان اعدّل فيه ، لاتخذت في الجزء الاول موقفاً أكثر مادية ، ولأقمت فكرة « الآخر » وما تجرّه من مانويّة على الندرة والحاجة ، لا على صراع الضمائر المسبّق والمثالي : وهذا ما فعلته في « المسيرة الطويلة » حين تكلمت عن استعباد الصينيات القديم . وهذا التغيير لن يبدّل شيئاً في التفصيلات التي تلي. إنني أظلّ موافقة ، بالاجمال، على ما قلته . انني لم أُغذّ يوماً الأمل بأن أغيّر وضع المرأة ؛ إنها متوقفة على مستقبل العمل في العالم ، وهي لن تتغيّر تغيّراً جدّياً إلاّ بثمن انقلاب في الانتاج . من أجل هذا ، تحاشيت ان أحبس نفسي في ما يسمى بـ « النزعة النسوية » . ولم أحمل ، بعد ذلك ، علاجاً لكل اضطراب خاصّ . كل ما هنالك اني ساعدت ، على الأقل ، معاصراتي بأن يعين أنفسهنّ ووضعهنّ .

ولا شك في ان كثيرات منهنّ قد انكرن كتابي : لقد كنت أزعجهنّ ، او أرتاب فيهنّ ، او اغيظهنّ او أذعرهن . ولكني أدّيت خدمة لأخريات ، وانا أعرف ذلك من شهادات عديدة ، ومن مراسلة مستمرّة منذ اثني عشر عاماً . لقد وجدن في فصولي عوناً لهنّ ضدّ صورهنّ انفسهنّ التي كانت تثيرهنّ ، وضد الخرافات التي كانت تسحقهنّ ؛ وقد تحقّقن ان صعوباتهنّ

لم تكن تعكس بليّة فريدة ، وانما تعكس وضعاً عاماً ؛ وقد جنّبهن ّ هذا الاكتشاف ان يحتقرن أنفسهن ّ ، واستمد ّ بعضهن ّ من ذلك القوة على الصراع ، إن التبصّر لا يصنع السعادة ولكنّه يسهّلها ويمنح شجاعة . وقال لي علماء نفسٍ تحليليون انهم كانوا يدعون مريضاتهم الى قراءة « الجنس الثاني » ، ولم تكن مريضاتهم مثقفات فقط ، بل بورجوازيات صغيرات ومستخدمات وعاملات . وقد كتبت لي نساء من جميع الأعمار وفي مختلف الاوضاع : « إن كتابك قدّم لي عوناً كبيراً . إن كتابك قد أنقذني . »

ولئن ساعد كتابي النساء ، فلأنه كان يعبّر عنهن ّ ، وبالمقابل ، فقد أضفين عليه حقيقته . فهو بفضلهن ّ لا يثير بعدُ الدهشة والاستنكار . لقد تقشّرت وتعرّت خرافات الذكور في هذه السنوات العشر الأخيرة . وكثيرات من الكاتبات هن ّ اللواتي تجاوزنني في الجرأة . وأعتقد ان عدداً مبالغاً فيه منهن ّ يتخذ له الشؤون الجنسية موضوعاً وحيداً ؛ ولكي يتحدّثن عنها ، فهن ّ على الاقل يتموضعن كنظر ، وفاعل ، ووعي ، وحرية .

لو قيل لي وانا في الثلاثين إنني سأهتم ّ بالمسائل النسوية ، وأن جمهوري الأرصن سيكون من النساء ، لفوجئت بل لاغتظت . وانا لست آسفة على ذلك . فالنساء مقسّمات ، ممزّقات ، مظلومات ، ولهن ّ ، اكثر مما للرجال ، مخاطرات ، وانتصارات وهزائم . إنهن ّ يثرن اهتمامي ، وانا اوثر ان يكون لي على العالم ، عبرهن ّ ، تملّك محدود ، ولكنه صلب ، على ان اطفو في المطلق الكلّي .

* * *

كان الطقس ما يزال جميلاً جداً ، وحاراً جداً ، حين عُدت الى «كاني » مع سارتر ، في منتصف تشرين الاول . ووجدت ثانيةً غرفتي ، وفطورنا الصباحي على شرفتي ، وطاولتي ذات الخشب اللامع ، تحت نافذة صغيرة ذات ستائر حمراء . وكانت اطروحة ليفي ــ ستروس قد ظهرت فقدّمت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عرضاً عنها في « التان مودرن » . ثم باشرت الرواية التي كنت افكر فيها منذ وقت طويل ؛ وكنت اريد أن أضع فيها كلّ شيء مني : علاقاتي بالحياة ، وبالموت ، وبالزمن ، وبالأدب ، وبالصداقة وبالرحلات ؛ وكنت اريد كذلك أن أصوّر أشخاصاً آخرين وان اروي خصوصاً تلك القصة المحمومة المخيّبة : فترة ما بعد الحرب . وألقيت كلمات — هي بداية مونولوج « آن » الاول — ولكن فراغ الصفحات كان يصيبني بالدوار . لم تكن تعوزني الأشياء التي ينبغي ان تقال : ولكن كيف أبدأ ذلك ؟ كنت متحمسة ، ولكني كنت مذعورة . كم تراها ستدوم هذه المغامرة ؟ ثلاثة أعوام ؟ اربعة ؟ انها على كل حال ستدوم طويلاً جداً . والى أين تراني سوف أفضي ؟

ولكي أرتاح وأحمّس نفسي كنت اقرأ « مذكرات اللص » لجينيه ، وهو واحد من أجمل كتبه . وكنت أتنزّه مع سارتر ؛ وأقبل بانييز ، الذي كان يقيم في « جوان ليبان » عند مدام لومير ، يرانا مع اولاده . وكان موت زوجته قد قرّب بيننا . لم يكن الاطباء مخطئين . فهي قد سُلّت طوال عامين . وكان يُمزّق الروح ان تُسمع في سريرها وهي ترسم المشاريع ، وصحتها تزداد سوءاً وجسمها نحولاً . وكانت تحسب انها بسبيل الشفاء حين وافاها الموت في الشتاء .

ذهبنا بالتاكسي الى « سوسبيل » والى « بيرا — كافا » وتناولنا الشاي على السطيحة . وفوجئنا بعد ايام ، ونحن نفتح « فرانس — ديمانش » ان نجد فيها تقريراً عن تلك الرحلة . كان الرسّام سورو الذي يثرثر في أعمدة الجريدة يقضي بعض الوقت في « الكانيار » : وكان قد بدا له طريفاً ان يزورنا ربّ اسرة . وكان يتحدث بلهجة ساخرة عن أحاديثي مع سارتر من غير ان يقرّر هل يأخذ عليها إحكامها ام بساطتها . وقد كنت غير مبالية تفصيلاً بهذه الهذيانات ، ولكن كان يسوءني ان أحسّني مطارَدَةً حتى في عزلتي .

صدر « الحزن العميق » ، الجزء الثالث من « دروب الحرية » ، بعد عودتنا بقليل الى باريس . وانا أفضّله على الجزئين الاولين ؛ إن العالم يحتفظ

بكثافته في شفافية كل روية فريدة ؛ فكل شيء في الخارج ، وكل شيء في الداخل ؛ والمرء يلتقط الحقيقة بوجهها المزدوج ، ثقل الأشياء وما ينبغي ان يُسمّى حرية . ومع ذلك ، فقد كان نجاح هذا الجزء دون نجاح الجزئين الاولين . وقال غاستون غاليمار الذي كان يودّ ان يصدره في وقت واحد مع الجزء الأخير : « انه تتمة من غير ان يكون نهاية ، ولذلك يتردّد الجمهور في شرائه . » وصدم سارتر اليمين حين صوّر ضباطاً يلوذون بالفرار ، تاركين رجالهم . وأغاظ الشيوعيين لأن الشعب الفرنسي ، بمدنيّيه وجنوده ، كان يبدو سلبيّاً وكارهاً للسياسة .

كان « الحزن العميق » ينتهي بعلامات استفهام : هل مات ماتيو [1] ام لا ؟ منْ كان شنايدر هذا الذي يثير تساؤل برونيه ؟ ما هو مصير الشخصيات الاخرى ؟ لقد كان المفروض ان يجيب الجزء الرابع « الفرصة الأخيرة » على هذه الأسئلة . وقد ظهر المشهد الأول في « التان مودرن » بنهاية عام ٤٩ ، تحت عنوان ، « صداقة عجيبة [2] » . وملخصه ان أسيراً شيوعياً وصل حديثاً الى معسكر الاعتقال ، ويدعى شاليه ، تعرّف في شنايدر الى الصحفي فيكاريوس الذي كان قد ترك الحزب عند توقيع الميثاق الجرماني السوفياتي : وكان قد صدر بيانٌ من الحزب الشيوعي يحذّر الرفاق منه ويعتبره مخبراً . وكان شاليه يؤكد ان الاتحاد السوفياتي لن يدخل الحرب ابداً وان جريدة « الاومانيتيه » كانت تعطي امرأ بضرورة التعاون مع الألمان . وحين يعلم برونيه من فيكاريوس بأنه ينوي الهرب ليواجه المفترين عليه ، يبلغ به القلق والغيظ والتمزّق ان يقرّر الذهاب معه . وكان هذا الفرار المشترك يشدّ صداقة برونيه الى فيكاريوس ضد الجميع . ويُقتل فيكاريوس وهو يحاول الفرار ، ويُعاد برونيه الى المعسكر . اما باقي القصة ، فقد ظلّ في حالة المسودّة ، وفيها

---

(١) كان سارتر ، في البيان الذي ارسله مع المخطوطة للطبع ، يشير الى ان ماتيو ما يزال على قيد الحياة ، ولكن ذلك لم يكن ظاهراً في القصة.

(٢) وهي القصة التي نشرت بالعربية ضمن مجموعة « قصص سارتر » التي صدرت عن دار الآداب . (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نرى برونيه يحاول القيام بتجربة جديدة. وكانوا قد حدثوه عن أسير كان يرأس شبكة تسهّل أعمال الفرار، فراح يبحث عنه: فاذا هو ماتيو الذي كان، حين لقيه برونيه ثانية، يشترك في اعدام أحد «المتعاونين». كان ماتيو قد فرّ من غير ان يصاب بأذى، وأحسّ التعب ان يكون منذ ولادته حراً من أجل لا شيء، فعزم اخيراً، وبجذل، على ان ينتقل الى العمل. وبفضل مساعدته، فرّ برونيه وذهب الى باريس؛ وأدهشه، حين رأى الاتحاد السوفياتي يدخل الحرب، ان يلاحظ ان الحزب الشيوعي كان يدين التعاون، وكان هذا شبيهاً بالارتداد الذي يدفع هوغو في «الايدي القذرة» الى الانتحار. ونجح برونيه في إعادة الاعتبار لشنايدر، فاستعاد في المقاومة مهمته النضالية؛ ولكن الشك والفضيحة والوحدة كانت قد كشفت له ذاتيته: كان قد استردّ، في قلب الالتزام، حريته. اما ماتيو فكان يسلك الطريق المعاكس. وكان دانيال، الذي يتعاون مع الألمان، قد خدعه بأن عمل على استدعائه الى باريس كمحرّر لجريدة يراقبها الألمان. ولكن ماتيو تهرّب ودخل في المقاومة السرية. كان عمله، في معسكر الاعتقال، هو عمل مغامرٍ فردي؛ اما الآن، وقد خضع لنظام جماعي، فانه يفضي الى الالتزام الحقيقي. لقد كان برونيه وماتيو اللذان انطلقا احدهما من العبودية الى «القضية»، والآخر من الحرية المجرّدة، يجسّدان كلاهما رجل العمل الحقيقي، كما يراه سارتر. وكان ماتيو واوديت متحابّين، فتركت أخاه جاك، زوجها، وعاشت مع ماتيو زخم عاطفةٍ جامعة. واعتقل ماتيو، ثم مات تحت التعذيب، بطلاً لا «بالجوهر» وانما لأنه «جعل نفسه» بطلاً بسلوك سبيل البطولة. وكان فيليب يقاوم هو ايضاً ليثبت لنفسه انه لم يكن جباناً قذراً، ولأنه كان حاقداً على دانيال. وقد قُتل، في أثناء هجوم على مقهى بالحي اللاتيني. وجُنّ دانيال من الألم والغضب، فأخفى في حقيبته متفجّرة كان فيليب يخبّئها في المنزل؛ وقصد اجتماعاً كان يحضره شخصيات المانية كبيرة، فنسف المكان ونسف نفسه

معه . وكانت ساره قد هربت الى مرسيليا ؛ ويوم أوقفها الألمان ألقت بنفسها مع طفلها من نافذة . وكان بوريس قد نزل بمظلّة في امكنة المقاومة السرية . وهكذا مات الجميع ، او معظمهم ، فلم يبق ثمة من يطرح على نفسه مسائل ما بعد الحرب .

ولكن هؤلاء هم الذين كانوا الآن يستأثرون باهتمام سارتر ؛ اما المقاومة ، فلم يكن ثمة ما يقال عنها لأنه كان يواجه الرواية كطرح للقضية ، ولأن الناس في اثناء الاحتلال ، قد عرفوا كيف يتصرّفون . وكانت اللعبة قد تمّت في نهاية « صداقة عجيبة » بالنسبة لأبطاله : فلقد كانت اللحظة الحرجة من قصتهم ، هي اللحظة التي عانق فيها دانيال الشر في اندفاع ، واللحظة التي بلغ فيها ماتيو نقطة عدم احتمال فراغ حريته ، واللحظة التي حطّم فيها برونيه عظاماً في رأسه ؛ ولم يكن باقياً لسارتر إلاّ ان يقطف ثماراً ناضجة : ولكنه يفضّل ان ينكث الأرض البور ويفلحها ويزرعها . ومن غير ان يترك فكرة إنجاز الجزء الرابع ، كان يجد دائماً من العمل ما هو اكثر جذباً له وإغراء . وأن يقفز عشر سنوات ، ويلقي ابطاله في قلق الفترة الراهنة ، إن ذلك ليس له من معنى : ولو فعل لكان في الجزء الأخير تخييب وتكذيب لكل ما كان منتظراً في الجزء قبل الأخير . لقد كان الأخير مصوّراً سلفاً في السابق بشكل أشدّ حسماً من ان يستطيع سارتر تغيير مشروعه ، ومن ان يروقه التقيد به .

* * *

سرّني ان تنال رواية « نهاية اسبوع في زويدكوت » التي نشرت في « التان مودرن » جائزة غونكور . وقد شاهدت عدة أفلام ؛ وشاطرت كوكتو رأيه في « سارق الدراجة » : انها روما ، وهو رائعة من الروائع . واكتشفت باريس مع « أبهات الجحيم » لغيلدورود . وكانت مسرحية كونو : « حدود الغابة » تمثّل على مسرح انياس كابري ، وكان الدور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرئيسي فيها لكلب ؛ وكان ثمة مشاهد اخرى . ولفتت نظري « برباره لاج » اللذيذة التي ستمثّل « البغيّ الفاضلة » . وكان معظم الحضور من الخمسينيات اللابسات المجوهرات واللواتي كانت ترافقهنّ فتيات كان الواضح أنهنّ يُعيّشْنَهنّ .

وعاد كامو من اميركا الجنوبية ، وكان قد أرهق نفسه ، وكان يبدو متعباً جداً ليلة العرض الاول لـ « العادلون » ؛ ولكن حرارة استقباله بعث ذكرى اجمل ايام صداقتنا . وبدت لنا المسرحية التي مثلت تمثيلاً رائعاً ، اكاديمية . وقد تلقّى ببساطة باسمة وشاكّة المصافحات والتهاني . وقد قفزت اليه روزموند جيرار ، محدّبةً ، رثّة ، مزخرفة ، وقالت :

ــ أحبّ ذلك اكثر من « الأيدي القذرة » !

ولم تلمح سارتر الذي كان كامو يوجّه اليه بسمة متواطئة وهو يقول :

ــ عصفوران بحجر !

لأنه لم يكن يحبّ أن يعتبر منافساً لسارتر .

وزرنا مرسم « ليجيه » ، وقد أهدى الى سارتر لوحة ، وأهدى إليّ مائية جميلة جداً . وكانت لوحاته ، بعد عودته من اميركا ، قد أصبحت اوفر حرارة والواناً من الماضي . وقد عرض « معرض الفن الحديث » مجموعة كبيرة منها ؛ وبعد ذلك بقليل ، رأيت فيه تماثيل « هنري مور » .

وكان دولان ، منذ ان فقد مسرحه الخاص ، يقوم عبر فرنسا واوروبا بدورات كانت ترهقه . ولم تكن كامي تخفف عنه أعباء الحياة ، لأنّ أعباءها كانت تثقل عليها ، وكانت تفرط في الشراب . كان أشلّ ، فاقد القوى ، وقد ادركته الآم عنيفة جداً حتى انه نقل الى مستشفى سانت انطوان ؛ وفُتح بطنه ، وما لبثوا أن أغلقوه بسرعة : كان مصاباً بالسرطان . وفيما كان يحتضر ، اقتحم عليه الباب صحافيان من « سامدي ــ سوار » زعما انهما من طلابه ، فقال دولان هادراً :

ــ حلاّ عن ظهري !

ولكنهما كانا قد التقطا صورة له ، وأثارت هذه الطريقة الغيظ ، ودافعت «سامدي – سوار» عن نفسها وهي تنتحب . ومات دولان بعد ان ظلّ يتخبط يومين او ثلاثة . وكان قد مضى وقت طويل لم أره فيه ؛ ولم تكن نهايته فاجعة كنهاية «بورلا» ، باعتبار انه كان مسناً ومتألماً ، ولكني كنت أحتفظ منه بذكريات مؤثّرة . وكان جدارٌ برمته من ماضيّ ينهار ، وداخلني الشعور بأن موتي ذاته كان يبدأ .

خلال عزلتنا التقليدية في «لابويز» ، عمل سارتر في مقدمة لآثار «جينيه» كانت دار غاليمار قد طلبتها منه . وراجعت ترجمة رواية الغرين كما انشغلت بروايتي . وحتى في باريس ، كانت قليل من الأحداث تصرفني عن عملي . وقد أقامت «كليو دو ميرود» دعوى عليّ ، بعد أن علمت من برنامج اذاعي اني وصفتها في «الجنس الثاني» بأنها بغي ممتازة : وقد تحدثت الصحف عن هذه الدعوى التي عهدت فيها الى سوزان بلوم ، ولم أهتمّ بها .

وفي شهر شباط نظم أصدقاء دولان وتلامذته حفلاً تأبينياً له في «الاتوليبه» ومررنا ببيت كامي لنصحبها ، ففتحت لنا الباب «أريان بورغ» الفاتنة ، وكانت متألمة . وألفينا كامي وقد شربت خمراً أحمر التماساً للشجاعة ؛ وكانت متحللة ، منبوشة الشعر ، باكية ، فكدنا ان نحملها حملاً من السيارة الى المقصورة حيث أختبأت ، وظلت تبكي طوال الاحتفال . وألقى سالاكرو وجول رومان خطبتين قصيرتين ، وقرأ ممثلٌ خطاب سارتر . ومثّلت اولغا ، بثياب المسرح ، مشهداً من «الذباب» ، تمثيلاً رائعاً . وسمعنا صوت دولان مسجلاً في مونولوج «البخيل» .

وفي آذار ، شاهدت في «مسرح الجيب» عدة تجارب والعرض الاول لمسرحيتين قصيرتين لشوفار : «آخر سلالة السيو» و «عقد ملكة» . وكان كلود مارتان هو المخرج . وكانت هذه الفرقة الشابة تعمل في التفاهم والتعاطف : وأسفت ان الأمر لم يكن كذلك مع مسرحيات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سارتر ! وكان « دنر »[1] يقوم بدور الملك ، وكانت « لوليه بولون » ملكة جذّابة ، كما ان اولغا ، التي عادت الى المسرح ، كانت متلألئة ؛ وقد هنأها النقّاد . وكان سارتر ينوي ان يجعلها تمثل « الذباب » مرة ثانية ، حين تستعيد كامل صحتها .

كان بالقرب من منزلي بائع صحف متواضع كنت أتحدّث معه غالباً . وقد قال لي يوماً :

– أنا مارتان ايدن .

وكان يقرأ ويتابع دروساً لباشلار . وكان قد عزم ان يساعد جميع عصاميي الحيّ :

– لأنني انا قد تألمت كثيراً لكي أصل .

وكان قد تدبّر أمره لينظّم في قاعة بشارع « موفتار » نادياً كان يطلب من بعض المثقفين ان يلقوا فيه محاضرات . وقد ألقى سارتر فيه محاضرة عن المسرح ، وألقى كلوزو اخرى عن السينما وتحدّثت انا فيه عن وضع المرأة : وكانت تلك هي المرة الاولى التي أتصل فيها بجمهورٍ شعبي ، وأدركت انه ، خلافاً لما كانت تقوله السيدة « بارون » ، معنيّ كل العناية بالموضوعات التي كنت أعالجها .

* * *

كانت محاولات الحياد قد فشلت . وكان غاري ديفيس قد مزّق أراقه ، بحجّة التضامن مع متمنّع عن الخدمة العسكرية لرادع ضميريّ . وكان يقوم لحسابه الخاصّ بحملة دعائية أثارت نفور أنصاره . وكان « التجمّع الديمقراطي الثوري » قد انهار كليّاً . لم يكن باقياً بين الكتلتين ، نهائياً ، اي درب ثالث . وكان الاختيار يظلّ مستحيلاً . وكانت وزارة الخارجية الاميركية قد ظلّت تؤيّد تشايغ كاي شك ، الذي التجأ الى فورموزا ، ضد الجمهورية الشعبية

(١) الذي كان خلقه لشخصية لاندرو قد جعله مشهوراً .

الصينية التي أُعلنت في اول تشرين الثاني . وكانت قد منحت فرانكو مساعدة مالية . وكان ذلك بالنسبة لفرانكو « نهاية الأمل » على حدّ تعبير دراسة نشرتها « التان مودرن » . وكانت الولايات المتحدة قد سهّلت النصر للرجعية في اليونان ، بالتواطؤ مع بريطانيا : وكان الشيوعيون وجميع المعارضين يحتضرون في معسكر « مكرونيسوس » . ولكننا لم نكن نستطيع تأييد الاتحاد السوفياتي دون تحفّظ ، في الوقت كانت فيه كثير من المآسي العامة المظلمة تتوالى في البلاد الستالينية . كان الناس ما تزال تصمّ اسماعهم اعترافات الكاردينال مندزنتي حين أخذ « راجك »[1] يعترف ايضاً بكل شيء : خيانة ، تآمر — قبل ان يشنق يوم ١٥ تشرين الثاني في بودابست . ولم يعترف كوستوف[2] بشيء ، وشنق في صوفيا بشهر كانون الاول . وعبر هذين « المجرمين » اللذين كانا في الواقع يدفعان عوضاً عن تيتو ، كان ستالين يفضح « الكوزموبوليتيين » و « الكوزموبوليتية » .

كان سارتر قد انضمّ الى لجنة لمراجعة دعوى « تاناناريف » ، ولكنه كان عملياً قد تخلّى عن كل نشاط سياسي . وكان منصرفاً مع ميرلو — بونتي الى المجلة التي كانت تخسر أصدقاءها : فقبل ذلك بأربعة أعوام ، كنّا أصدقاء الجميع ، وأصبحنا الآن اعداء في عيون الجميع . وباشر العمل في كتابين ليست لهما ادنى صلة بالظروف : « الملكة البيمارل » و « السائح الأخير » الذي كان المفروض ان يكون بمثابة « غثيان » سنّه الناضجة ؛ وكان يصوّر فيه ، بلهجة مزاجية ، ايطاليا ببنياتها الحالية وتاريخها ومناظرها ، ويحلّل في الوقت نفسه وضع السائح[3] . ومن جهة اخرى ، كانت مقدمته لمؤلفات جينيه

---

(١) سياسي هنغاري تولى مناصب وزارية مختلفة . وقد اتهم عام ١٩٤٩ بالتآمر ضد الدولة ونفذ فيه حكم الإعدام . وقد « أعيد له الاعتبار » عام ١٩٥٥ (هـ. م)

(٢) سياسي بلغاري ، كان بطل المقاومة الداخلية ، وقد أبعد عن السلطة بسبب موقفه الذي وصف بأنه مناهض للسوفياتية وأعدم عام ١٩٤٩ . وقد « أعيد اعتباره » عام ١٩٥٦. (هـ. م)

(٣) كتب مئات الصفحات ، ولكنه لم يجد الرغبة ولا الوقت بمراجعتها ولم ينشر منها إلا=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قد أصبحت كتاباً كبيراً كان يحاول فيه ، محاولة أعمق جداً من محاولته في مقدمة « بودلير » ، ان يموضع رجلاً . وقد اقترب في وقت واحد من علم النفس التحليلي والماركسية، وكان يبدو له الآن أن الأوضاع كانت تحدّ بشكل ضيّق جداً امكانات الفرد ؛ وكانت حريته تكمن في ألاّ يتقبّلها سلبيّاً ، بل أن يستبطنها ، بحركة وجوده ذاته ، ويتجاوزها نحو معانٍ . وفي بعض الحالات كان هامش الاختيار المتروك له يميل نحو الصغر ، في حين انه كان ، في حالات اخرى ، يمتدّ الى سنوات ؛ وكان سارتر يروي اختيار جينيه ؛ وكان يدرس القيم التي تُدخلها اختياراته الى الساحة ــ القداسة ، الشيطانية ، الخير ، الشر ــ في علاقاتها بالمضمون الاجتماعي .

اما فلسفة سارتر الأخلاقية ، فقد تركها تلك السنة لأنه اقتنع بأن « الموقف الاخلاقي يظهر حين تجعل الاوضاع التكنيكية والاجتماعية ضروب السلوك الايجابي مستحيلة . إن الاخلاق مجموعة من العمليات المثالية التي تساعدك على ان تعيش ما تفرضه عليك ازمة الموارد ونقص التكنيكات »[1] . وقد انصرف خاصة الى قراءة التاريخ والاقتصاد . واقترح عليه الفيلسوف الماركسي الشاب « تران دوك تاو » ان يجري معه محاوات تُنشر في كتاب ، فقبل .

وفي شهر تشرين الثاني ، اقبل « روجيه ستيفان » يلقى سارتر ، وكان يحمل « القانون السوفياتي للعمل الاصلاحي . » الذي كان قد صدر حديثاً في انكلترا[2] ، والذي كان موضع نقاش في الامم المتحدة في شهر آب ؛ وكان مجهولاً في فرنسا . وكان هذا القانون يؤكّد ما كشف عنه من وقائع في اثناء دعوى كرافتشنكو عن وجود معسكرات العمل . وسأل ستيفان

= مقاطع قصيرة .

(١) تأملات غير منشورة .

(٢) كان قد نشر فيها للمرة الاولى عام ١٩٣٦ ؛ وكان من المعروف وجود معسكرات الاعتقال ، ولكن الحزب الشيوعي الفرنسي كان حزباً صغيراً اكثر مما ينبغي ، وكان الاتحاد السوفياتي أبعد من أن يهم الرأي العام بتلك المعسكرات . وقد بلغ عدم اكتراثنا بالسياسة ، سارتر وانا ، اننا لم نهتم بذلك على الاطلاق .

سارتر إن كان يريد نشره في « التان مودرن » ؟ وكان الجواب نعم . لقد سبق ان قلت إن سارتر كان يؤمن بالاشتراكية . وكان يعتقد بما عبّر عنه بعد ذلك في « شبح ستالين » : إن الحركة الاشتراكية ، إذا أُخذت في مجموعها : « هي القاضي المطلق لكل الحركات الاخرى ، لأن المستَغَلّين يلتقون بالاستغلال وبصراع الطبقات على انهما واقعهم وحقيقة المجتمعات البورجوازية ... إنها حركة الانسان وهو بسبيل ان يصنع نفسه ؛ اما باقي الاحزاب فتعتقد بأن الانسان قد صُنع وهو ناجز . وهكذا تكون الاشتراكية هي المرجع الأخير ، لتقدير اي عمل سياسي . » والواقع ان الاتحاد السوفياتي ، رغم كل شيء ، كان ويبقى موطن الاشتراكية : لقد كان اخذ السلطة الثورية تامّاً ناجزاً . وحتى لو كانت البيروقراطية قد تراكمت فيه ، وكان البوليس يستأثر فيه بسلطات هائلة ، وكانت جرائم قد ارتكبت فيه ، فان الاتحاد السوفياتي لم يضع موضع التساؤل قط الاستيلاء على وسائل الانتاج ؛ كان نظامه يختلف جذرياً عن الأنظمة التي ترمي الى اقامة سلطة طبقة ، او المحافظة عليها . وكان سارتر يعتقد ان قادته ، بالرغم من أخطائهم ، اذا كانوا يتعرّضون لذلك القدر من الانتقادات ، فلأنهم كانوا يرفضون الحجّة التي يقدّمها للسياسيين البورجوازيين ما يُسمّى بـ « القوانين الاقتصادية » ؛ لقد كانوا يضطلعون بمسؤولية كل ما يحدث للبلاد . .

كان يقال إن « الثورة » شوّهها معتنقوها وخانوها . فكان سارتر يجيب : لا : لقد تجسّدت ، اي ان العمومي قد دخل في الخصوصي . وحين تحقّقت سقطت سريعاً في تناقضات كانت تبعدها عن نقاوتها الأصلية . ولكن الاشتراكية الروسية كانت متفوقة على حُلم اشتراكية لا تشوبها شائبة بأنها كانت موجودة . وكان رأي سارتر في العهد الستاليني هو ما كتبه حديثاً في فصل لم يُنشر بعد من « نقد العقل الديالكتي » : « إنها الاشتراكية الحقة في الاتحاد السوفياتي ، ولكنها الاشتراكية التي تتميّز بالضرورة العملية لأن تزول او تصبح ما هي بواسطة جهدٍ يائس ودام .. وفي بعض الظروف يمكن هذا التوسّط بين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتناقضات ان يكون مرادفاً للجحيم . » وقد كتب كذلك في « شبح ستالين » : « هل نسمي اشتراكيةً هذا المسخ الـــدامي الذي يمزّق نفسه ؟ اني اجيب بصراحة : ان نعم » .

بيد أنه ، بالرغم من هذا الامتياز الجوهري الذي يعترف به للاتحاد السوفياتي ، كان يرفض الـ « إمّا ... ــ او إمّا » الذي كان كانابا او آرون يريدان ان يحبساه فيه ؛ كان يدعو الفرنسيين الى المحافظة على حريتهم : وهذه الحرية تقضي بمواجهة الحقيقة في اي حال . وكان عازماً على ألاّ يقنّعها او يجمّلها على الاطلاق ، لا بدافع من مبدأ مجرّد ، وانما لأنه كان لها في نظره قيمة عملية . وحتى لو كان أقرب الى الاتحاد السوفياتي من ذلك ، لاختار ايضاً ان يقولها ، لأن المثقف ليس له في نظره دور السياسي نفسه : إن عليه ، لا ان يحكم على العمل وفقاً للقواعد الاخلاقية التي هي خارجية بالنسبة له ، بل ان يسهر على ألاّ يناقض في نموّه وتطوره مبادئه وغايته . فاذا كانت الأساليب البوليسية في بلد اشتراكي تسيء الى الاشتراكية ، فيجب فضحها . واتفق سارتر مع ستيفان على ان ينشر في عدد كانون الاول من « التان مودرن » القانون السوفياتي ويعلّق عليه .

ولكن جريدة « الفيغارو ليتيرير » نشرت في عدد ١٢ تشرين الثاني مقالاً تحت عنوان : « نداء الى منفيّي المعسكرات النازية . النجدة لمنفيّي المعسكرات السوفياتية . » وكان روسيه هو الذي يطلق هذا النداء . كان يذكر موادّ القانون التي تسمح « بالحبس الاداري » اي بالاعتقالات والنفي الاعتباطي . كان بمساعدة « الفيغارو » يعبيء آلة عظيمة لمناهضة الشيوعية . وقد استغلّت اعداد « الفيغارو ليتيرير » التالية وجميع صحافة اليمين هذه الحملة بصورة كثيفة . أيّ تبويق ! لقد خرجت من الادراج مئات الحكايات والمذكرات والشهادات ، وطبعت في كل مكان . ورأى القراء ايضاً صوراً مريعة لقطارات ومصفّحات و « لمسلمين » تشبه ملمحاً ملمحاً صور قطارات ومعسكرات نازية ؛ وتبيّن أن في الامر تزويراً لكليشهات قديمة . لقد اكتشفت

الخدعة ، ولكن لم يكن ثمة من هو على قاب قوس من الكذب او الحقيقة . كانت القلوب البورجوازية التي لا تبالي قط بقتلى « ستيف » الأربعين ألفاً ، ولا بالمدغسكريين الثمانين ألفاً المحصودين ، ولا بالمجاعة والبؤس في الجزائر ، ولا بقرى الهند الصينية المحروقة ، ولا باليونانيين المنازعين في المعسكرات ، ولا بالاسبان الذين كان فرانكو يعدمهم رمياً بالرصاص – كانت تلك القلوب البورجوازية تتحطم فجأة من شدة الحزن على مصائب المنفيين السوفيات . ولقد كانوا في الحقيقة يتنهّدون التذاذاً ، كما لو أنّ المعسكرات السيبرية قد ألغت الجرائم الاستعمارية والاستغلال الرأسمالي . اما روسيه ، فقد وجد له عملاً .

ولكن ذلك لا يمنع أن هناك واقعاً : لقد كان للادارة سلطة مطلقة ، ولم يكن ثمة ما يحمي الافراد من اعتباطية قراراتها . وفي كانون الثاني ، نشرت « التان مودرن » مناقشات في الامم المتحدة عن العمل الإجباري ، كما نشرت افتتاحية كتبها ميرلو – بونتي ووقّعها معه سارتر ، وفيها يضعان النقاط على الحروف [١] . وبناء على تحقيقات وحسابات جادّة ، كان عدد المنفيين مقدراً بعشرة ملايين [٢] ، وكانوا يصرّحون بأنه ، « ليس هنـــاك اشتراكية حين يكون مواطن على عشرين في معسكر الاعتقال » وكانوا يأخذون على الشيوعيين نواياهم السيئة . وكنّا قد رأينا على التوالي « ويرسمر » يؤكد في « ليلتر فرانسيز » بأنه : ليس ثمة معسكرات ! بينما يعلن « ديكس »

---

(١) تحتوى « المثقفون » نصلا روائياً عن هذه القضية ، بعيداً جداً عن الوقائع : فقد ذهبت الى ان مثقفين فرنسيين كانوا قد اكتشفوا، منذ عام ١٩٤٦ ، ظاهرة معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفياتي . وكان ذلك مشروعاً ، باعتبـــار ان ثمة وثائق كانت موجودة . ولكنه كان ضرباً من ضروب التصور .

(٢) الرقم مشكوك فيه ، وكذلك عدد السنوات التي كـــان يقضيها المنفيون في المعسكرات (وكانت غالباً خمسة اعوام) ؛ ومشكوك فيه ايضاً عدد الموتى وحتى معنى الظاهرة ومداها . ويعتبر الروس اليوم ذلك الحدث واحداً من « جرائم ستالين » الدموية ، وهم لا يقللون من شأنه ؛ ولكن تقديراتهم متفاوتة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن المعسكرات هي أجمل عنوان لفخار الاتحاد السوفياتي . وكان ميرلو ـ بونتي يهاجم بعد ذلك روسّيه : فان هذا حين يطالب بتشكيل لجنة للتحقيق ، لا يفعل الا ان يتابع مناوراته المناهضة للشيوعية ؛ وكان يشير الى ما كان يجده صحيحاً في الأجوبة التي تقدّم بها المندوب الروسي في الامم المتحدة والذي كان ينصب في وجه المعسكرات ملايين العاطلين عن العمل في العالم الغربي ؛ إن الروسيّ حين يقول : « إن المستعمرات هي معسكرات البلاد الديمقراطية للعمل الاجباري » فانه لا يغشّ ؛ فينبغي النظر الى نظامي الاشتراكية الروسية والرأسمالية الغربية في مجموعهما ؛ وليس من قبيل الصدفة او العَرَض ان يلزم عن الرأسمالية الغربية البطالة والاستغلال الاستعماري .

وقد استاء الجميع من هذا المقال ، او معظمهم . وهو لم يُسوّ علاقاتنا مع الحزب الشيوعي . وعلى اي حال ، كان المثقفون الشيوعيون ينفرون منّا . وكان موقفهم من « الجنس الآخر » ، وهجوم كانابا المتكرّر أقلّ إغاظة لنا من الحقد الذي كان « أراغون » يلاحق به « نيزان » . وكان قد وصفه في روايته « الشيوعيون » بوجه خائن . كان « اورفيلا » مكلفاً كـ « نيزان » بالسياسة الخارجية في جريدة « الاومانيته » ؛ وكان مثله فيلسوفاً ، وكان مثله قد صفّى حساب « برونشفيك » والايديولوجيين البورجوازيين ، وكتب مثله دراسة عن فيلسوف يوناني (هو هرقليطس ، وكان نيزان قد كتب عن ابيقورس) ؛ وكان اللاشيوعيون يقولون عنه ، كما يقولون عن نيزان : « انه الماركسي الوحيد الذكي ، الوحيد الذي يمكن التحدث معه » وبعد ان صوّر اراغون على هذا الشكل اورفيلا ـ نيزان ، رسمه بعد الميثاق الجرماني ـ السوفياتي منتحباً من الذعر ان يفكر بالذهاب الى الجبهة ، ثم ذاهباً يستعطي وظيفة في وزارة الخارجية حيث يحمله رجلٌ حرّ شريف على أن يخجل من خيانته . ولم يكن انعدام القيمة الادبية لهذه الصورة يخفّف مما كان فيها من غدر . ومن جهة اخرى ، أطلقت إيلسا تريوليه « معركة الكتاب » ؛ وفي مرسيليا ، ثم في الضواحي الباريسية ، ألقى الكتّاب الشيوعيون محاضرات

كانوا يمتدحون فيها بضائعهم ، ويرشقون بالغائط الأدب « انبورجوازي » : بريتون وكامو وسارتر .

وكشفت فضيحة « النقد » التي انفجرت في مطلع عام ١٩٥٠ الوجه الحقيقي « للحرب القذرة » كما كان يسمّيها « بوف ـ ميري » . كانت قضيّة تعود بأرباح هائلة على عدد صغير من الأشخاص. على أنّ الحرب لم تكفّ من جرّاء ذلك . وكان نصر ماوتسي تونغ قد غيّر الموقف . واعترفت الصين والاتحاد السوفياتي بهوشي منه ، فخرج من « نصف ـ الحياد » الذي كان قد عسكر فيه ، بالنسبة للكتلتين . وصوّرت الدعاية الفرنسية حرب الهند الصينية بأنها بعد الآن مرحلة من مراحل « الصليبية ضد الشيوعية » . وكان الغرب يرتجف ذعراً منذ أعلن الجنرال برادلي ، يوم ١٢ تشرين الاول ١٩٤٩ ، ان يوم « الذرة الحمراء » قد أتى ؛ كان الاتحاد السوفياتي يملك قنابل ذرية . وبدأ الحديث يجري عن سلاح أشد قوة امر ترومان عام ١٩٥٠ بصنعه ، هو القنبلة الهيدروجينية . ووُصفتْ طولاً وعرضاً نتائج هذا السلاح ؛ وراق لمجلة « ماتش » ان ترسم على صورة ما يمكن ان يحدث لو سقطت هذه القنبلة على باريس : ٨٠ كيلومتراً مربعة تتلاشى . وأصبح الخوف الذي أثارته عالمياً : وسُجّل مرور الصحون الطائرة في سماء اميركا وفرنسا ، واحياناً في الحقول ؛ بل إن بعض الأشخاص قد رأوا بعض سكان المريخ . وكانت الصحف تغذّي هذا الذعر . ولم نكن نقرأ في ارتياح وتعاطف الا جريدة « كومبا » ، ولكن « بورديه » تركها لأن « سمادجا » الذي كان يموّلها كان يريد التدّخل في تحريرها . وكان ان تبسّط روسيه و « وسيران » على صفحاتها . وأنشأ بورديه ، بمعاونة ستيفان ، جريدة « اوبسرفاتور » : ولم تكن آنذاك الا جريدة اسبوعية صغيرة ، مملّة جداً ، لم تكسب الا عدداً قليلاً من القراء .

* * *

لم اكن قد قمت بأية رحلة مع سارتر في الصيف السابق . فنظّمنا رحلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الربيع . واقترح ليريس ، وهو عالم في خصوصيات الشعوب متخصّص بافريقيا السوداء ، ان يذهب سارتر ليشاهد عن كثب ما كان يحدث فيها . كان المعمّرون قد حاولوا ، عبثاً ، إلغاء قانون « هوفويه » الذي كان المجلس التشريعي قد أقرّه عام ٩٤٧ والذي كان يُبطل العمل الإجباري ؛ ولما هُزموا على الصعيد القانوني ، راحوا يدبّرون المؤامرات ليخلقوا عند كل موعد للنخاسة أحداثاً كانت تزعزع النظام [١] وكان « التجمع الديمقراطي الافريقي » يحاول ، من خلال النقابات ، ان يحمي المنتجين الافريقيين الصغار ؛ ولكن الشركات الكبرى طلبت من الادارة الحكومية أن تعاقبه بقوة . ومنذ كانون الأول ٤٩ ، كان الارهاب يسود « ساحل — العاج » : وكان عدد من قادة التجمع قد اوقفوا وعُذّبوا وقتلوا ، واغتيل بعض اعضاء التجمّع ومؤيديهم وبعض المشبوهين ، او وضعوا في السجون ؛ وفي شباط ، حصلت اضطرابات اخرى كانت نتيجة قمعها — رسمياً — اثني عشر قتيلاً ، وستين جريحاً . فالاتصال بالتجمّع الديمقراطي الافريقي وتحرّي الوقائع ونشرها ، كل ذلك سيكون عملاً مفيداً . غير أنّ هذا المشروع — فيما كان ليريس يحاول إنجاحه — لم يرق الحزب الشيوعي الذي كان ينتمي اليه عدد من قادة التجمّع : ولكننا كنا نعتقد أن هؤلاء سيكونون أقلّ تصلباً من رفاقهم الفرنسيين . ولما كنت راغبة في رؤية الصحراء ، فقد وضعنا خطة تقودنا من مدينة الجزائر الى هوغار ، ثم الى غاو وتومبوكتو وبوبو — ديولاسو وباماكو حيث يلتقي أعضاءٌ من التجمع الديمقراطي الافريقي بسارتر ويدعونه الى ساحل العاج . وطفت على وكالات السياحة . وكانت الشاحنات التي تذهب من غاردهايا الى تامانراسيت تنقل بعض المسافرين . فحجزت مكانين .

وهذه المرة — وكانت تلك محاولتي الثالثة — وصلت بلا حادث من مدينة الجزائر الى غاردهايا ؛ وكانت المدينة تستحق إصراري ؛ كانت لوحة تكعيبية

---

(١) وقد لعب الكولونيل لاشوروا دوراً كبيراً في اثارة احداث كانون الثاني ٤٩ وفي «قمعها» .

بنيت بشكل رائع : كانت مستطيلات بيضاء وحمراء ، مزرقّة بالضوء ، تتنضدّ بشكل هـرَمي ؛ وعلى قمة التلّة ، كان بناء من الطين النضيج الأصفر ينبثق مائلاً ، عملاقاً ، عجيباً ، رائعاً ، كأنما هو خارج من يدي بيكاسو : انه الجامع . وكانت الشوارع تنغل بالباعة والبضاعة : من جزر وكرّاث وملفوف ذي جلد بلغ من التماعه وملوسته انه كان أشبه بالفاكهة منه بالخضرة . وكان سكان « المزاب » ممتلئي الجسم ، مرتاحي السحنة ، ويبدون وقد أصابوا حظاً كبيراً من الغذاء : ولقد كان معظم سمّاني الجزائر من المزاب التي كانوا يعودون اليها وقد اغتنوا . وفي المنطقة المرتفعة ، عند الساحة الكبرى ، كان ثمة رجال ضامرون مدبوغو الجلود ، قادمون من الصحراء، وكانوا منهمكين في الأعمال بين جمالٍ منيخة .

وراقنا الفندق ، فمكثنا فيه بضعة أيام . كانت له باحة كبيرة وحولها رواق تشرف عليه الغرف ؛ وكنت صباحاً أعمل على السطيحة ؛ وحوالي الحادية عشرة كانت السماء تلتهب ، فكنت أستجير بالظلّ . وكنّا بعد الظهر نتنزّه في مدنٍ اخرى من المزاب ، قريبة من غاردهايا ، وهي اكثر منها ريفية ولكنها في مثل جمالها : ومنها بني – اسكن ومليكة . وكنا نودّ لو كنّا نحسن الرسم حتى تكون لنا حجّة بالبقاء مزروعيْن امامها طوال ساعات . وطلب بعض الضبّاط من سارتر القاء محاضرة ، فقبل . صحيح أننا كنا نعارض النظام الاستعماري ، ولكن لم يكن لنا رأي مسبّق ضد الرجال الذين كانوا يديرون قضايا السكان المحليّين او الذين كانوا يشرفون على بناء الطرق .

كنت منفعلة حين صعدت ، عند الفجر ، الى مقعدي في شاحنتنا الاولى : فالبداءة الحقيقية نادرة ، حتى في السفر . انني لم أكن قد نسيت قط ذلك القمر البرتقالي الكبير ، خلف « ايجين » عندما كانت سفينتنا الصغيرة تغادر « البيريه » باتجاه الجزر . وهذا الصباح ، حين ارتقت الشاحنة الجرف الذي يعترض الوادي ، انبثقت شجرة كشمش هائلة من الأرض : انها ساذجة كأنها ذكرى طفولة . وكان سارتر ينظر اليها في مثل طربي وتهلّني .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانت تشعّ في السماء جميع البهجات التي كنّا سنقطفها معاً وهي نضرة ، لم تُمسّ . وهذه الشمس ايضاً قد بقيت محفورة في ذاكرتي ، كرمز للسعادات الماضية .

بعد عشرة كيلومترات من السير تجاوزنا شابّين المانيين يعتمران قبعتين بيضاوين ، وكانا جالسين الى جانب بُردتهما الثقيلة ، تحت شمس على وشك ان تكون قاتلة : كانا يقضيان رحلتهما بطريقة « الاوتوستوب » . وقال السائق : « مجنونان ! » . كانت الشاحنة محمّلة بالبضائع والرجال ، وليس فيها مكان لعصفور ؛ وكان يخشى ان تظلّ الطريق خالية طوال النهار ، واذا اتفق ان مرّت فيها سيارة ، فلا بدّ ان تكون ملآى حتى الشفة : إن ما لا يُتوقّع في الصحراء محسوبٌ بعناية كبيرة ، حتى انه لا هامش هناك للمغامرة ؛ ولكن المجانين كثيرون ، كما قال لنا السائق .

تناولنا الغداء في برج ، وانفجرت عجلتان من عجلات السيارة ؛ وكانت تلك محطّات رائقة . كان العرب يقفزون الى الارض ، فينكثون عشباً جافّاً بين الحصى ، وبلمحة طرف يكونون قد أشعلوا ناراً ووضعوا عليها مغلاة ؛ صحيح أنّ الماء الذي كانوا يستخرجونه من قربة ، معلقة بجانب الشاحنة ، له رائحة وشل الغنم ، ولكنّ الشاي الذي يقدّمونه لنا في اقداح مدهونة لذيذ جداً . وما ان تستبدل العجلة حتى يدوسوا النار ويخطفوا أمتعتهم .

وتمطّى النهار في بطء على ثلاثمئة وعشرين كيلومتراً . وانقضت ثلاثة اخرى ، شبيهة تماماً ، حتى بلغنا تمانراسات ، وتوقّفنا مرتين اربعاً وعشرين ساعة في « غوليا » و « عين صلاح » . ولم يبد لنا الزمن طويلاً قط : كنّا نتعلّم عالماً . الطريق اولاً : فقد اكتشفنا في دهشة انها لم تكن الا المحور المثالي الذي كان درب المركبات يتلوّى حوله كالافعى ؛ كان عمّال يشتغلون فيه ، ومحادل تسحقه ، ولكن لم يكن ثمة مركبة تسير فوقه : فإما أن يكون ، على بضعة كيلومترات ، ممهّداً من جديد ، وينبغي ألاّ يُتلف ؛ وإما ألاّ يكون كذلك — وهذا ما كان مألوفاً اكثر — : وهو في هذه الحالة متشقّق ،

متموّج ، مليء بالنتوءات والثقوب ، حتى أن أصلب مركبة كانت تتمزّق فيه اذا اجتازته . على ان ذلك لم يكن يمنع « الهندسة » العسكرية من ان تنشط بحماسة كبيرة فوق هذا الألف من الكيلومترات ، كما لا يمنع الطريق من ان تكون موضع اعتزاز . « إن الطريق هي أنا » هذا ما قاله لنا على التوالي ، قائد « الغوليا » الذي كان يتولّى مجمل العمليات وضباطٌ هنا وهناك كانوا يشرفون على التفاصيل ، ومهندسون كانوا قد قاموا بحسابات ، ومتعهّدون ، وحتى رئيس او رئيسان للعمّال ؛ والعمّال وحدهم هم الذين صمتوا : وقد رأينا منهم عن كثب فريقاً – وكان أحدهم قد لدغته افعى – ولكنهم لم يتباهوا بشيء .

وكانت الصحراء مشهداً في مثل حيوية البحر إلاّ اثناء اجتياز حمادة التي كانت بلون الانتراسيت ، ولم يكن فيها ما يُرى قط ، عند الخروج من الغوليا . وكان لون التلال الرملية يتغيّر عبر الساعات ووفقاً لميل الضوء : إنها من بعيد مذهّبة كالمشمش ، فاذا لامسناها انقلبت الى لون الزبدة ؛ وحين كنّا نخلّفها وراءنا ، كانت تتورّد ، وكانت المادة تتغيّر تغير الألوان . من رملٍ الى صخر ؛ وكانت أشكالها ، مذبذبةً او حاسمة ، تُلحّن الى مالانهاية رتابة الإرغة المزيّفة . وبين الحين والحين ، كان سرابٌ ما ينبض ، بانعكاسات معدنية ، فيتسمَّر او يتبخّر ؛ وكانت تهبّ رياح السموم ، متوحّدة ، فتدوّم غاضبةً حول نفسها من غير ان تزعزع جمود العالم .

والتقينا قافلتين او ثلاثاً : فكانت الصحراء ، اذ تقاس بخطى الجمال المتوازنة ، تزداد اتساعاً ؛ وكان عدد الرجال والدواب والأمتعة ينسجم وقامتها . ولكن من اين كان ينبع ، واين كان يتجه الذي كان ينبثق من لا مكان ويمشي بخطى واسعة ؟ لقد تبعناه بأنظارنا حتى استغرقه الغياب العظيم الذي كان يُسربلنا .

وفي الأيام الأخيرة ، سرنا في مضايق وفجاج ، عند اقدام عملاقة وشرَفات وجدران عتيقة ضخمة ، سوداء كمقذوفات البركان ؛ وعبرنا سهولاً رملية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بيضاء زُرعت فيها إبرٌ وتخريمات سوداء : كان الجوّ قد كُنس ، وتغيّرت الأرض الى قمر . وكنا نقول : « هذا لا يُصدّق ! » ؛ ومَع ذلك فان رسماً او حتى صورة لهذا المنظر كانا يكونان أشدّ ادهاشاً لنا : لقد كنّا في داخله ، فهو إذن يصبح طبيعياً ؛ ليس ثمة ما هو خياليّ إلاّ في الصورة : فانه ينهدم حين يتجسّد . من أجل هذا كان صعباً ان يروي المرء رحلة : فهو يحمل القاريء الى مكان أبعد مما ينبغي او اقرب مما ينبغي .

وكان لذيذاً ان نصل مساء الى اي مكان ، اذ كنّا عطاشاً ، مشعّثين ، مصابين بالدوار ، نكاد نعجز عن السير . وحين دخلت الفندق ، في الغوليا ، بدا لي بغزارة بُسُطه المختلفة الألوان ، وفوانيسه النحاسية ، وبضائعـه الصحراوية ، قصراً من قصور الف ليلة وليلة . وفي الحديقة المعشبة ، كان اميركيون قد أقاموا مأدبة « مشوي » ضخمة على شرف شركة « شل » . وعُدت الى قرني . وتنزّهنا صباحاً في المدينة ، ورأينا السوق وحيّ العبيد القديم الذي كان الزنوج ما يزالون يسكنونه . وتناولنا الغداء عند قائد فرقة الهندسة : وكانت زوجته التي كانت تقرأ لنا قد أقبلت تدعونا في كثير من اللطف ؛ وقد قدمت لنا طعاماً على الطريقة الفرنسية ، مع بواكير من الفاكهة ، وحدّثنا زوجها عن « طريقه » .

وما ان نزلنا في « عين صلاح » حتى أختلى سارتر في غرفته ليعمل ؛ ومضيتُ عبر التلال التي كان يطرّز حاشيتها شريط ضيّق من القصب (او ربما من النخيل الممزّق) ؛ وكان المساء يهبط ، وكان الرمل الذي اضطجعت عليه طريّاً كلحم طري : وكنت أتوقّع تقريباً أن أحسّه يرتفع تحت خدّي . ومرّت في احد الأزقّة زنجيات طويلات متسربلات باللباس الأزرق ، وجوههن سافرة : وكانت اقراط ذهبية تتأرجح في آذانهن ؛ كنّ قادمات من الحقول ، وكنّ صامتات ، لا تحدث أقدامهنّ اية ضجة ؛ وفي طمأنينة الشفق ، كان لهذا الموكب طابع مؤثّر . وقد انفعلت كذلك صباح اليوم التالي ، وانا أطلّ من نافذتي التي كانت تشرف على ساحة واسعة

ـ او هي بالاحرى ارض بور ـ كان رجال ونساء يعبرونها بخطى حثيثة او بخطى بطيئة ، وكل منهم مستغرق في دربه الخاص ؛ وكنت اعرف لوحات تعبّر عن رُقية المدى المؤذية هذه التي تفصل حين تجمع : ولكن خيّل إليّ هنا اني التقطها عن كثب . وكانت بيوت عين صلاح من الطين الأحمر المسنّن ؛ وكان الرمل قد ابتلعها الى نصفها بالرغم من الحواجز والممرات المنصوبة في الشوارع . وفي السوق ، وجدت مرة اخرى نساء زنجيات جميلات مسربلات بالأزرق .

ولم تستغرق المحطة الأخيرة الا ليلة ؛ وقد قضيناها في فجاج « عرق » عند قدم قلعة من الصوّان الأسود ؛ وكان ثمة محطة كان فيها سرر ، ولم يكن فيها شيء يؤكل ؛ وكان شابّان يعسكران على السطيحة ، وكان جهازهما للإرسال يعزف قطعاً موسيقية من عالم آخر . كانا يسافران في « الجب » من غير حرس ، مع انه لم يكن مبدئياً يحق لأيّ مركبة ان تغامر وحدها بالسفر في الصحراء . وقال لنا السائق : « إن ذلك خطر » . وكان هو سائقنا الثالث ، باعتبار اننا كنا قد قطعنا رحلتنا هذه مرتين ؛ وكان اكثر ثرثرة من السابقين ، وكان مثلهما مقتنعاً بأن السواح مجانين . ودلّنا في الطريق على هيكل سيارة مغلقـــة . « هل تُجتاز الصحراء بمثل هذه ؟ لقد احترقت السيارة ! » وهو يعتقد أن التهاب الشمس كان كافياً لإحراقها . وروى لنا حكايات اخرى ، فيما كنا نتناول الغداء ، في ظلّ شجرة ذات شوك : هي الوحيدة في الطريق ؛ ولم يكن الظلّ يغطّي نصف رؤوسنا ، ولكن كان ثمة ماء في الناحية ، وكان ينبت بعض العشب هناك ، نضراً كحديقة نورمندية . وقال لنا السائق : « ما ان تمطر السماء ، حتى يغطي الارض العشب والزهور » وأضاف ان الشتاء كان نادراً ، ولكنه وابل بصورة عامة . وكانت سيارة « دودج » قد تسمّرت ، منذ عام او عامين ، بفعل احدى تلك الزوابع ؛ وأُرسل هو في شاحنة لانقاذها ، فرآهـــا ضائعة كفلك وسط الأمواج . وقد غرق في الوحل قبل ان يبلغها ؛ ولم يقلقوا توّاً عليه بسبب تأخره :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان السوّاح قد قضوا ، على هذه الحال ، اسبوعاً ، وهو خمسة أيام ، من غير ان يأكلوا شيئاً ، ومن غير ان يشربوا الا ماءً موحلاً . وفيما كان يتكلم ، كان جنديّ ذو هيئة شاردة يشدّ على علب محفوظات يلقيها في الهواء ؛ وقد سرد لنا بدوره مغامرات معتمة ؛ وكان رفاقنا في السفر ، والأشخاص الذين كنا نلقاهم اتفاقاً في المحطات ، يفيضون حكايات عجيبة ومهولة ؛ وكانوا يكذّبون حكايات الذين سمعناهم من قبل ، فيقولون : « إنني أعرف الشخص الذي روى لكم هذا : إنه مجنون » ؛ ثم يؤكدون لنا أن حكاياتهم هم هي الحقيقية المضمونة . ولا شك في أنه كان ثمة حكايات صحيحة في عداد هذه الحكايات كلها : ولكن أيّها ؟

وانتهت في المساء تلك الرحلة الأولى : تامانراسيت وفندق جمعيات النقليات . وكان مستحيلاً اختيار فندق آخر ؛ فقد كانت جمعية النقليات تحتكر نقل السوّاح وإيواءهم ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، كانت تطلب من المسافرين المستقلّين ، بحجّة تأمين إنقاذهم عند الضرورة ، كفالات باهظة . وكنت قد سمعت غالباً احتجاجات على هذه الامتيازات ؛ وفي تامانراسيت ، كانوا يثرثرون بأن أية منافسة كانت تشجّع صاحب الفندق على أن يتصرّف كأنه مطلق السلطة ؛ كان ضحّاكاً ماجناً ، وكان يبدو في الواقع وكأنه لا يشك بحقوقه ؛ ولكنه كان يدير إدارة طيبة فندقه الذي كانت تموّنه الشاحنات والطائرات . وقد قال لنا باعتزاز :

ـ لقد حصلنا في عيد الميلاد على محار ، جلبه لنا قائد طائرة مباشرةً من البحر !

وبالإجمال ، كان مكاناً مثالياً للاصطياف . كان الصباح فيه ، وهو على ارتفاع الف وخمسمئة متر ، معتدلاً بما فيه الكفاية لكي أعمل في الحديقة ، تجاه شجراء « هوغار » المسودّة ؛ وكانت شرائح من لحم الجمال معلّقة على أغصان الشجر للتجفيف ، وقد سرّني ألاّ يقدموا منها للزبائن . واكتفينا ببعض النزهات في السيارة والتفرّج على غروب الشمس

الرائعة حين تغرق قمم الجبال الحبرية اللون .

كان مجتمع تامانراسيت محكم الإغلاق ؛ وكانت نساء الضباط والموظفين يعشن كما في « رومورانتتين » ؛ وكنّ يرتدين قبعات ، ويراقب بعضهنّ البعض ، ويغتبن بعضهن . وعرفنا اننا لم نكن نقع من الناس هناك موقع الرضى . وقد تكرّم علينا أحد النقباء بزيارته ، واكتفى بذلك . ولكن من حظّنا أن المعلّميْن السيدة والسيد «ب» والرحّالة هنري لوت قد اهتمّوا بنا كثيراً . وكان طلاّب السيد والسيدة ب من الفرنسيين وبعض سكان الصحراء ؛ وقالا لنا إن هؤلاء كانوا أذكياء ، ولكنهم عصبيّون وغير مستقرّين ، ولم يكن ذووهم يرسلونهم إلى المدرسة إلا بصورة غير منتظمة . وفي بعض قرى الجبل ، على بعد يومين أو ثلاثة من المشي ، لم يكن الأولاد يتلقّون أي تعليم ؛ وكانت قد أنشئت مدرسة متنقّلة : وفي تلك الفترة بالذات ، كان معلّم يعسكر في المرتفعات .

وكان هنري لوت يجتاز الهوغار بحثاً عن نقوش ورسوم محفورة على الحجارة ؛ وكان قد عاد بمجموعة كبيرة من الصور التي كانت حقيقتها آنذاك مشكوكاً فيها . وكانت حكاياته كذلك توحي ببعض الريب : فهو قد كاد يموت مئة مرة ، عبر أحداث فاجعة وعجيبة ؛ مثال ذلك أنه كان يوماً يُنازع من شدة العطش ، حين بلغ حافة بئر حيث كان بعض الماء يلتمع : ولكن الحبل الذي كان الدلو مربوطاً به ، كان أقصر مما ينبغي ! فصنع حبلا من ثيابه ، حتى إذا نقع غلّته ، مضى بسبيله عارياً ، عبر الإرغة : وكنّا نتساءل كيف لم تحرقه الشمس حتى الموت . ولكن لا بأس : كان في قصصه المخترعة غنائية تجذبنا .

وحين كنا نقصد منزل ب وزوجته ، كنا نلتقي فيه دائماً فتياناً يلعبون الورق ويثرثرون وينعسون : إنهم أولاد « الأمينوكال » ١ وأقرباؤهم

---

(١) سلطان قبيلة الطوارق . (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأصدقاؤهم ؛ وقد كانوا يأتون إلى هناك كانما يأتون إلى نادٍ ؛ ولم تكن تامانراسيت توفّر لهم أية تسلية ، باستثناء ماخور أو ماخورين كانوا يقضون فيهما على سأمهم . وذلك الشعب المحارب الذي كانت الغزوات والمنازعات الكبيرة محظورة عليه آنذاك ، وكان محرماً عليه أن يستغلّ العبيد ، كان يسوق حياة متعطّلة ، فارغة ، وبائسة تقريباً . وكان موردهم الأساسي تربية الخراف ، وخاصة منجم ملح أمادور ، غير بعيد عن تامانراسيت . كانوا من تموز إلى أيلول يجيئون من القرى في أعداد كبيرة ليستخرجوا الملح بفؤوسهم . ومن تشرين الأول إلى شباط كانوا يصعدون في قوافل إلى السودان حيث كانوا يستبدلون ببضاعتهم ذرة بيضاء وسلعاً مصنوعة . ولكن هذه التجارة لم تكن تليــق بأرباب أُسرهم الكبار . واشتريت للسيدة ب قافلة جمالٍ مربوطة بخيطان ، فقالت لي :

– إن كبير أولادِ الأمينوكال هو الذي يصنعها . وهذا ما يوفّر له بعض المصروف ، ولكنه لا يريد أن يعرف أحدٌ ذلك .

وفي الماضي كان رؤساء القبيلة يعلفون زوجاتهم إلى حدّ أنهم كانوا بحاجة ، لكي يجامعوا تلك الكتل الشحمية ، إلى معونة عدة خدم . كان ذلك في ماضٍ بعيد . وقد قال لنا ب وزوجته حين اصطحبانا بالسيارة لزيارة الأمينوكال :

– خذا معكما نصف كيلو من الشاي .

وكانت تلك الزيارات تشكّل له مورداً للعائدات لا يستهان به قط . كانت خيمته منصوبةً على بُعد خمسة عشر كيلومتراً من السوق ، تحيط بها خيام أخرى ؛ وكانت بطنافسها وأثاثها من الصناديق باذخةً إلى حدّ ، ولكنها كانت أصغر من أن تحوينا جميعاً ؛ وقد جلسنا خارجاً ، حول نارٍ لم تكن تدفئنا جيداً . كنا نرتعش ونحن نشرب الشاي ، بالرغم من الأغطية التي أُلقيت على أكتافنا ؛ ولكنّي تذوّقت غرابة حضوري ، تحت تلك النجوم الجديدة ، في ذلك المعسكر الذي كان يفصله عنّا زمان

طويل ومسافة بعيدة . وكانت زوجة الأمينوكال ، المتحرّرة من عبودية الترف ، الدقيقة العود ، العصبية ، ذات الوجه القاسي الفخور ، تدير الاستقبال بترحاب وسلطة ؛ وقد قيل لنا انها كانت هي القائد الحقيقي . وحين خرجنا ، كنست السيدة ب الصحراء الشاسعة بيدها :

– إنكم تتصوّرون الحياة التي يعيشها هؤلاء الفتيان !

والواقع أنهم قلّةٌ أولئك الذين بدوا لي أقلّ انسجاماً مع عالم اليوم من أولئك الأمراء الفتيان الفخورين المفلسين . كانت لهم مشية جميلة في أثوابهم الزرقاء ؛ كانت عيونهم تبرق تحت لثامهم . وبعد ظهر أحد الأيام ، طلبت السيدة ب من ابن الأمينوكال أن يكشف وجهه :

– كن لطيفاً ، واكشف وجهك دقيقة واحدة يا شيري

(كان اسمه شيري ، وكان طريفاً أن نسمع هذه المرأة تعاتبه : شيري ، شيري) فتدلّل وانفجر ضاحكاً ثم رفع اللثام : كان أنف كبير أشبه بمنقار العقاب يشوّهه ؛ وكلما فاجأت وجه طارقيّ بعد ذلك ، عثرت على هذا الأنف ، هذا القبح المخيّب تحت عينين سوادهما حالك . أما النساء ، فكنّ أسعد من ذلك قليلاً . والحق أنه لم يكن سهلاً الاجتماع بهنّ . ولم يجد هنري لوت وسيلة غير دعوة مومسات المكان ذات مساء ؛ وكان معظمهنّ يعالجن داء الزهري في المستشفى ؛ وقد تمكن من الحصول على إذن لهنّ بالخروج بضع ساعات ، فجلسنا إليهنّ ، جنباً إلى جنب ، في حديقة المدرسة ، وشربنا الشاي معاً .

قضينا أكثر من أسبوع في تمانراسيت ؛ وقد أطلعونا على جميع الأخبار التي تتردّد بين « الأغوات » و « هوغر » . وكان الأوروبيون المنتشرون على أكثر من الف كيلومتر ، في قلب مسافات مدوّخة ، متعارفين فيما بينهم ، يتبادلون المراقبة والاحتقار والشتيمة ، ويثرثرون باندفاع كما لو أنهم كانوا يعيشون في عاصمة ولاية . وكان لهذه الهذيانات « البعيدة المدى » كثير من النكهة في نظرنا . وفي الليلة التي سبقت سفرنا ، جعلوني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أسهر إلى ساعة متأخرة. وقبل العشاء صعدنا إلى إحدى السطائح لنرى « صليب الجنوب » . ثم ذهب سارتر لينام. وظللت واقفة في المشرب أتناول الخمر وأثرثر مع صاحب الفندق وسائقي شاحنتين كان أحدهما جميلاً أشقر «كجان ماريه » وهو في العشرين .[1] وقد تحدثوا عن الأشخاص الذين كنت قد التقيتهم ابتداء من « غاردهايا » ولا سيما عن صاحب نُزُل كان يقدّم للسائقين طعاماً ومأوى بالمجان، على حساب « الأشياء الأخرى » . وكان كل واحدٍ يتهم الآخر، في مرح، بالإفادة من هذا الحظّ غير المتوقّع. ثم أخذوا يروون لي حياتهم، فاهتممت بها، ولم أنزعج بمجون أحاديثهم : فقد كنت في هذه المناسبة أستطيع أن أتكلم مثلهم. وشرب كلٌّ منا على نفقة الآخر، بما في ذلك صاحب الحانة، وذهبت أنام، جذلى، عند الساعة الثالثة صباحاً. وسمعت وأنا مذعورة يداً تفتح الباب : كان هو صاحب الحانة الذي جاء يتمّم بالمراودة. وازدادت دهشتي لأن زوجته كانت تبدو قليلة التساهل. وصباح اليوم التالي، هرع إليّ ببسمة كبيرة وسلّة من البرتقال : وكان البرتقال في تامانراسيت فاكهة نادرة، فأدركت أنه كان يشتري صمتي. ووافقته على ذلك. فانه لم تكن لديّ رغبة قط في إثارة المشكلات. أما هو، فقد تحدّث، لا عن محاولته الإغرائية، بل عن إفراطي في الشرب والثرثرة؛ وبعد ذلك ببضعة أيام، وجدت في جريدة « سامدي ــ سوار » وصفاً لهذه الحفلة الخمرية. وكان في المقال أني أثرت خجل سائقي الشاحنتين واحمرار وجهيهما بحديثي الشبيه بأحاديث مركز جماعة من الحرّاس؛ وكان في المقال بعض اللطائف الأخرى التي نسيتها[2]، ولكني في تلك اللحظة قلقت منها، فباعتبار أني كنت متضامنة مع سارتر، فانهم كانوا يرشونه، هو أيضاً، بماء المزابل

---

(١) احد كبار الممثلين الفرنسيين . (هـ. م)

(٢) لم يظهر المقال في طبعة باريس . وكان يتجاوز في الخزي المستوى الذي كانت « سامدي سوار» قد حددته لنفسها .

حين كانوا يرشّونني به : وعتبت على نفسي أن أتيح الفرصة لذلك . ولكن هل كان ذلك يعني أن عليّ دائماً أن أعيش في حالة دفاع ، وأن أراقب كلامي والأقداح التي أشرب ؟ وقال لي سارتر :

— إن حسنة وضعنا هي أن بوسعنا أن نفعل كل ما نريد : فلن يكون ذلك قط أسوأ مما يروون !

ثلاث ساعات بالطائرة ؛ وقد كان تنوّع الصحراء ، من عل ، يمّحي ، فكانت تبدو رتيبة ؛ ولكن التشابه التافه حين يدلّ على تكرار جهد بشري يسحرني حين أكتشف فيه وجهاً أصلياً من وجوه كوكبنا : ذلك هو شأن الثلوج الخالدة ، والسماء الزرقاء التي لا شية فيها ، وحقل من الغيوم تحت حيزوم طائرة ، وصحراء . وطوال الرحلة ، علّقتُ بصري بشقرة الأرض . لم أكن ضجرة : فقد بدا لي التحليق فوق « النيجر » شيئاً عجائبياً ؛ كانت طريقاً مائية رمادية ، ولكن حين كانت الطائرة تهبط وتميل ، لمحت جُزيرة بلون المرجان الأصفر ، تجاه شاطىء من الرمل المذهّب : كان النهر في تلك الناحية ميناء زرقاء . وقلت في نفسي : « ايّ حظ لي أن أعيش اليوم بالذات وأن أرى هذه الأشياء بعيني ! » على أن الأرض خيّبتني ؛ إنها لم تكن بعدُ معدناً صافياً : كانت أعشاب ضامرة وشجيرات مقطّبة تلطّخها . ووضعت قدمي في المطار ، فقضت عليّ الشمس بضربة واحدة ؛ والتجأنا إلى حظيرة . ومع ذلك ، فقد كانت السماء رمادية كأنها نهر . وكانوا قد أنذرونا : « ليس هناك بعدُ من زرقة : إنها الآن القِدْر ! » قبّة من البخار كانت تخنق نور الشمس من غير أن تحدّ من عنفها . وحين هبطنا من الباص ، صاحت ربّة الفندق :

— إنكم بحاجة إلى قبعات ، وإلاّ متّم هذا المساء !

وبالرغم من نفورنا من التنكرات السياحية ، توجهنا إلى البازار الذي دلّتنا عليه : وخيّل إلينا ونحن نجتاز هذه الأمتار القليلة اننا سننهار . كان الميزان يسجّل في الظل ٤٠ درجة . وقال لنا البعض :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ إن هذا محتمل ، لأن الطقس هنا جافّ .

وصحيح أن الطقس كان جافاً ، ولكن لم يكن احتمال ذلك يسيراً . وقد كان المفروض ، حسب خطتنا ، أن نكون قد وصلنا إلى « غاو » قبل ذلك بثلاثة أسابيع ؛ ولكن سارتر كان قد اضطرّ إلى التأخّر تلبية للطلبات ، ففكرنا أنه لا بأس من تأخر ثلاثـة أسابيع . والواقع أن هذه الأسابيع الثلاثة كانت ذات شأن هنا : ذلك أن السفر ، عبر النيجر ، أوقف لبضعة أشهر .

وقمنا بجولة في السوق القائمة على الساحة الكبرى ، بالقرب من الفندق ، مرتديين القبعة . وفجأة ، برزت أخيراً ، بدلاً من الأطياف المحجبة التي تعمر المدن العربية ، نساء : زنجيات جميلات ، مسربلات بألبسة قطنية فاقعة اللون ، وعلى رؤوسهنّ طبقات من الضفائر ، وهنّ حاسرات عن وجوههن وأكتافهنّ ونهودهنّ وضحكاتهنّ ؛ كنّ صبيات متألّقات ببشراتهنّ الملوّنة بلون الصدأة ، وأسنانهنّ البيضاء ؛ ولم يكن ثمة ما يصدم في عُري العجائز منهنّ ، ذلك العري الجافّ الصديء ؛ وكنّ يثرثرن فيما بينهنّ ، ويتناقشن مع الرجال . ويا له من تنوّع في الأطياف والنماذج والألبسة ! كان ثمة زنجيات افريقيات وزنوج افريقيون يتميزون بجمال عظيم ، بهياكلهم الدقيقة ورؤوسهم المرتفعة وقاماتهم الممشوقة . وكانت النسوة يزيّن أعناقهن ومعاصمهنّ وشعورهن بذلك المحار الصغير الذي كان يُعتبر أيضاً نقوداً . وكان بعض الزنوج يرتدون قمصاناً فضفاضة ذات ألوان باهرة ، ويرتدي البعض الآخر بناطيل قصيرة ولبادات ونظارات للشمس . وكان بعض الطوارق الملثّمين المرتدين الثياب الزرق يتخلّلون الجمع . كانت أنواع من القبائل تتلاقى في غاو ، يوم السوق ، وقد كان السكان أنفسهم ممتزجين فيما بينهم امتزاجاً كبيراً : حتى انّ هذا التنوّع كان يبدو زاخراً . على أن هذا الانطباع قد امّحى حين لاحظنا كآبة البضائع التي كان يجري عليها التبادل : خبز رديء ، أقمشة رثّة ، تَنَك . وقد

أُخبرنا فيما بعد أن السكان المحليين في تلك المنطقة كانوا مفتقرين إلى كل شيء : وكانت الحبوب توزّع عليهم ، وإلاّ لظلّوا بلا طعام .

كانت المدينة مبنيّة من التراب المصلّب ، على الطراز السوداني ؛ بيوت مكعّبة ، ملتصقة فيما بينها ، وأحواض ضيّقة . أما المنظر الأروع ، فكان منظر النيجر . وقد ذهبنا نتفرّج عليه حوالى الخامسة مساء : كان مسطحاً كبحيرة ، ممتقعاً ، وكان سابحاً في شفقٍ مزيّف يذكرني بنور أبيسكو ، حوالى منتصف الليل ؛ وقد ركبنا فيه زورقاً : فكأننا كنّا في مشهد شماليّ ، ولكنه محمّل بقلقٍ لا يوجد إلا في البلاد الحارّة . وكان شعب برمّته يعسكر على ضفافه : كانوا يشعلون النار ، ويطبخون ، ويستعدّون للنوم . وعدنا في ساعة مبكرة من الصباح ، فرأيناهم يستيقظون : وكان ثمة بعض الطوارق الذين يحملون مرايا بأيديهم ، حاسرين وجوههم ، ينظرون إليها في عناية ، وحين اقتربنا ، سارعوا يسدلون ألثمتهم . كم تراهم سيبقون على تلك الضفاف ، وممّ كانوا يعيشون ؟

وبلبلتنا غاو بضروب أحزانها وأفراحها . وقد كنا نذرع الشوارع بعد الظهر حين سمعنا موسيقى تام تام ، فبحثنا عنها حتى وصلنا قرب بيت كانت باحته ملآى بالضحكات والأغاني : إنه عرس ؛ وكان فريق من الزنوج ، عند الباب ، يتفرجون على الحفلة ، وظللنا فترة طويلة ننظر معهم ، مأسورين بغزارة الرقصات والأصوات .

وكان لا بدّ من معرفة الناس لفهم هذا البلد إلى حدّ . ولكننا لم نر أحداً تقريباً . وقد دعانا أحد الجيولوجيين الذين كانت الجيولوجيا تضجرهم ، واستقبلنا على سطيحة مسكنه ، فتناولنا الشاي مع المسلمين الذين كانوا يؤجرونه غرفته ؛ وفيما كنّا نتكلّم ، تأمّلت المدينة تحتي ، ومنظراً غير واضح لم يكن بعدُ الصحراء ولا الشهب . وطلب من سارتر أن ينظر في لوحاته : لقد كان أبوه رسّاماً معروفاً ، وقد أراد هو أن يرسم . وأرانا لوحات ما تزال غير واضحة ، ولكن سارتر لم يتردّد في أن يقول له :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ إذا كانت لديك الرغبة حقاً في الرسم ، فهيّا !

وتبع الشاب نصيحته . وتناولنا العشاء عند الحاكم ، وكان شاباً أعزب لطيفاً ، وقد فقد لبوءة كان قد ربّاها في شغف . أما معلوماته عن السكان المحليين ، فكانت قليلة . غير أنه قال لنا إن الدين كان يفاقم بؤسهم : ذلك أنه كان يحرّم على الذين يسكنون ضفاف النهر أكل السمك ؛ كانوا يفتقرون إلى الغذاء ، فلم يكونوا يصطادون . وقد وضع في اليوم التالي سيارة تحت تصرفنا ، فرأينا على طول ضفة النيجر قرى بائسة . وبدا لي الريف عاقاً حقاً ؛ وكان الأمر الوحيد الذي يثير الفضول أبنية الأرض التي كانت تنتصب عليها ؛ وقد أكّد لنا السائق أن من ينام في ظلّها يصبح بلا خيط على جسمه ، إذ تكون الأرَضة قد قضمت ثيابه في الليل .

وكنت حريصة على أن عرف « تومبوكتو » التي تبعد أربعمئة كيلومتر عن غاو : وكانت هذه المسافة من باريس تبدو ضئيلة ؛ ولا شك في أنه كان ثمة شاحنات لقطعها ، إن لم يكن هناك بواخر . وحين استعلمت عن ذلك ، ضحكوا مني : لقد كانت الطريق ، التي قلّما يسلكها الناس في الفصول ، غير سالكة حتماً في ذلك الحرّ الهائل . واستسلمت في خضوع أدهشني . وقد حدث هذا مراراً بعد ذلك ؛ فكثيراً ما كان منظرٌ ما يفقد أهميته حين أحاذيه ، بينما يكون قد بدا لي ، في البدء ، موضوع سحرٍ خاص . لقد كان اسمه يرمز في البعيد إلى بلدٍ برمّته : أما عن كثب ، فقد كان البلد يبذل نفسه على أشكالٍ كثيرة أخرى . وفي سوق غاو ، وعلى ضفاف النيجر ، رأيت تجسّد الصور التي كنت قد اختلقتها عن تومبوكتو .

ولعلّ التعب أيضاً هو الذي حطّم حسراتي : لم أكن أتمنّى تلك الساعات الإثنتي عشرة التي قضيتها في الشاحنة ، تحت تلك الشمس اللاهبة . وطوال النهار ، كان الحر رافعاً سوطه . وفي ساعة القيلولة ، كانت المروحة في غرفتنا ترسل هواء حارّاً ، ولم نكن نستطيع إغماض عيوننا . أما « الدوش » ، فكان دلواً يؤرجحه من يريد أن يأخذ حمّاماً : فيسقط الماء على جسمه

دفعة واحدة ، وهو ليس أكثر رطوبة من الهواء . وعند المساء ، بدأت طيورٌ كبيرة يطلقون عليها اسم « الدرك » تدندن في الأشجار : كانت تطير وتغنّي . ولم تخفّ الحرارة تقريباً في المساء . وكان الجميع ينامون في العراء ؛ وأُخرج سريرانا إلى ركن منعزل من السطيحة ، وكانت تغطّيهما كلّتان ؛ وكنت أحبّ النوم تحت النجوم ، ولكنّ الليل من فرط الثقل بحيث ان المرء لم يكن يحتمل حتى عبء غطاء . وحوالى الرابعة صباحاً عبرت نسمةٌ خفيفة ثقوب الكلّة ؛ وفكّرت عبر الضباب : « وأخيراً ، هبّت الريح على مؤخّرة السفينة » ؛ وأبحرت عدة دقائق في بحيرة من الرطوبة ؛ وكان نورٌ عذب يتلألأ في السماء ، وكانت تلك لحظة رائعة : هي الوحيدة في ذلك النهار ؛ وكانت الشمس تصبح وحشية بصورة سريعة . وهبطنا إلى غرفتنا فالتقينا في الباحة الداخلية أزواجاً متمدّدين ، أكثر اتحاداً في نومهم مما هم في حياتهم النهارية ؛ ومساء الليلة البارحة كان نائب الضابط وزوجته قد تخاصما بشدّة : أما الآن ، فكان رأس الزوجة يستريح على كتف الزوج العارية .

بعد يومين من وصولنا ، صُعق سارتر بحمّى بلغت أربعين درجة . واستدعيت الطبيب فوصف له الكينين ؛ وتناول سارتر كمية كبيرة منه حتى فقد حسّ التوازن ، والسمع والبصر . وبقي ملازماً سريره يومين . وكانت صاحبة الفندق تهزّ كتفيها قائلة :

— أربعون درجة من الحمّى ! إنني أصاب بها كل أسبوع ، ولكن ذلك لا يمنعني من القيام بأعمالي .

أما أنا ، فكنت صامدة ، ولكني كنت أعاني من مرض هو أشدّ سوءاً من اسمه : الشرى ؛ كان العرق يفتّح عند ثنية الركبتين والمرفقين وبين أصابع القدمين نوعاً من الحزازة المحمّرة ؛ وكان ينبغي عدم لمسها ، بالرغم من إحساس التأكّل : فيكفي جُرحٌ أو التهاب بسيط لكي تظهر « الكرو — كرو » التي هي كلومٌ حقيقية سريعة التقيّح . وقضيت نهارين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قاسيين في تلك الغرفة التي كان سارتر متمدّداً فيها ، شبه فاقد وعيه . وكنت أجلس في الساعة الثالثة إلى طاولتي لأكتب : وما عساي أن أفعل غير ذلك؟ كانت المصاريع مغلّقة ؛ وفي الخارج ، كانت ريح سموم غاضبة تصفع الأشجار ؛ وكان ظلّ الريح وضجيجها يبتعثان الرطوبة : ولكن الريح كانت لهباً ، وكان ميزان الحرارة على جداري يسجّل ٤٣ درجة .

وكنّا قد قرّرنا أن نسافر ، بمجرد أن يقف سارتر على قدميه . ولكني خرجت من مكتب السياحة خائبة : لم تكن الطائرات تصل أو تقلع إلاّ بصورة غير منتظمة ؛ فمن المستحيل تعيين موعد للسفر . وكنت أزدري أن أحسّني مستمرّة في هذا الأتون .

وأخيراً ، أُبلغت أن طائرة ستتجه في اليوم التالي إلى « بوبو — ديولاسو » ، وكانت حرارة سارتر قد انخفضت ، فأخذناه . ونظرت في حنين إلى الغابة تحتنا وإلى الطرق الحمراء التي لن تجتازها . وتوقفنا في « أواغادوجو » : وكان في باحة المطار زنجيّ يبيع تماثيل رصاصية ، وطبولاً ، وسَحَرة ووعولاً . وقد ابتعت تشكيلة منها .

وكان قد قيل لي في « غاو » : « إن بوبو مدينة رطبة غير صحيّة » . ومع ذلك ، فقد بدت لي لزوجة الهواء مريحة حين حطّت بنا الطائرة . وكان رجل باهت منتفخ ينتظرنا . وكان للناس في غاو بشرة الصحراويين الملفوعة ؛ وكانت جميع الوجوه هنا تشبه سمكاً مغليّاً . وقال المجهول وهو يُصعدنا إلى سيارته : « سأقودكما إلى الفندق » . وكان موظفاً أتى يستقبلنا باسم الإدارة الحكومية . وهبطنا نحو المدينة . وكان صديق قد قال لي : « إن بوبو — ديولاسو هي نورمانديا » . وبالفعل ، كانت البلدة متموّجة خضراء : ولكن خضرة مشبوهة ، ولم تكن رائحتها الأرضية المتحلّلة تشبه رائحة البراري الفرنسية ؛ وكانت البيوت الواطئة الطويلة المغطّاة بالقش المعتم تقع في المناطق الاستوائية بوضوح ؛ وكانت بعض الزهور تتفجر في الحدائق . وأوصلنا دليلنا قرب فندق ، ولم تكن الغرفة

المحجوزة لنا قد خلت بعد، فجلسنا تحت الشرفة، في آرائك مريحة، تجاه مرقص صغير في الهواء الطلق. ووافانا نائب الحاكم «ب» ونقل إلينا دعوة للعشاء من رئيسه، ثم صحبنا إلى ساحة سوق كانت أحياء السكان المحليين منضودة حولها. وأشار إلى أحد الأحياء قائلاً: «هذه الناحية رديئة؛ إنها أقطاع «التجمع الديموقراطي الإفريقي»، فلا تتنزها فيها». ولم يرنا شيئاً كثيراً، ثم عرض علينا أن نتناول مشروباً مقبّلاً؛ وعدنا إلى المطار الذي كان مشربه ملتقى النخبة الأوروبية لأنه كان يشرف على المدينة، ولأنّ الحرارة فيه كانت أقلّ قسوة، على ما يزعمون: فهو قد بدا لي مرهقاً كأي مكان؛ كان انطباع العذوبة الذي استشعرته في الساعة الأولى قد تبدّد تماماً. وقبل الغداء، وضعنا حقائبنا في غرفتنا: وكانت طريقة «الدوش» هي طريقة «غاو» نفسها؛ وكانت تنبعث من الحمّام رائحة مطهّر، وكان أشبه بالمخنق؛ وتركنا الباب الذي يفضي إلى الساحة مفتوحاً، ورحنا نتناول الغداء. واقترب منّا مجهول وأخذ يحدّثنا بودّ: إنه زارع من غينيا؛ وقدّم لنا الشراب المقبّل الذي كنّا قد تناولناه، ولكنه ألحّ قائلاً: «يجب أن تشربوا هنا... أن تشربوا كثيراً!» وروى لنا قصة امرأة أنيقة كانت تشرب قليلاً لتحافظ على رشاقتها: فلم تمض أسابيع حتى ماتت من الاجتفاف؛ وكان ينبغي سقي الرضّع حتى المساء، وإلاّ جفّوا وماتوا؛ وكان أن شربنا قدحاً أو قدحين من الكشمش الممزوج بالماء. وفي أثناء الغداء، انفجرت عاصفة قصيرة، ولكنها قوية. وحين عدنا إلى غرفتنا للقيلولة، كان السريران مبلّلين؛ وكان يخرج من باوعة الدوش صراصير تنتشر على الأرض الخشبية والسقف. وفررنا فتهنا في المدينة؛ وكانت روافد شبه جافّة تشقّ الروابي من أعلاها إلى أسفلها، فكانت النساء يغسلن فيها الثياب وسط مستنقعات ماء، وكان أولاد يلعبون بين الصخور الصفراء. وباستثناء هذه الفراض، كان كل حيّ يشكّل كتلة متراصّة بدت معادية لنا؛ كانت البيوت تدير نحونا جدراناً بلا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نوافذ ، ولم نكن في الأزقة نلتقي أحداً تقريباً . وكان من المستحيل التسرّب فيها من غير معرفة السكّان . وكانت الصحافة المحلّية قد نشرت نبأ وصولنا ، وكان سارتر يتوقّع أن يجد في الفندق رسالة من « التجمع الديموقراطي الإفريقي » ولكن خاب ظنّه .

وتناولنا العشاء عند الحاكم ، مع « ب » وزوجته المارتينيكية الأصل ، الجميلة جداً ، والتي كانت تشكو أن زوجها يريد أن يأخذها هذا الصيف إلى باريس التي لم تكن تعرفها ! وقد قالت بصوت خائف :

– إن الطقس فيها بارد !

فطمأنتها قائلة : – ولكنه حارّ في آب .

– ولكن آب هو أيلول تقريباً ؛ وفي أيلول سأصاب بنزلة صدرية ، ولن أعيش بعدها .

وبعد العشاء ، جلست على السطيحة ، ورحت أبحث في السماء عن « صليب الجنوب » وأنا أقول :

– لقد دلّوني عليه في « غاو »

فقال « ب » : – إنه بكل تأكيد الصليب المزيّف : والمزيّف هو الذي يدلّون عليه دائماً .

وحدثنا عن الانتخابات الأخيرة ، فقال لنا بغمزة لم تكن تشكّك في تواطؤنا :

– لقد حصلت على التصويت الذي أريده .

وتركناهم في ساعة مبكرة ، وشربنا قدحاً مع المزارع في المرقص المشعّ ؛ وكان امام الباب قرد متنكر ينطنط مربوطاً بحبل . وكنا نكاد نسقط من فرط النعاس ، ولكننا عانينا مشقة حتى ننام ؛ ولم يغمض سارتر عينيه تقريباً : كان سريره ما يزال مبتلاً ، وكان الجاز يصمه ، وكان خصوصاً يخاف الصراصير التي كانت تتنزّه على السقف . وقضى الليل وهو يقرأ سيرة حياة مدام رولان .

وعند الصباح حملتنا الى الغابة سيارة قدّمها لنا الحاكم ؛ ورأينا تحت

احدى الأحجار تمثال قرية : كرة ضخمة مشكوكة بريش قذر جداً ؛ وكانت النساء يرتدين وزرات ويحملن على سبيل الزينة عظاماً عاجية صغيرة مزروعة في ذقونهنّ (وقد ذكرني ذلك بتلك السن التي انتزعتها يوماً من ذقني) وكانت اثنتان منهنّ طويلتان شديدتا الأسر ، شعرهما مدهون بزيت الكاكاو ذي الرائحة المغثية ، تسحقان حبوباً في جُرن . وعلى درجات سلّم (كانت بعض الأكواخ البائسة ذات طابقين) كان فتى صغير أحسب جالساً بين بعض الاولاد ؛ ولم تكن بشرته التي فقدت لونها تبدو طبيعية ؛ فكأنّ حامضاً قد تأكلها فباتت عاجزة عن حمايته . وكنا قريبين من المدينة ، ومع ذلك فقد كان اولئك السكان يبدون ضائعين وسط أدغال لم يجْرِ فيها الزمن . وفي طريق العودة ، التقينا في الطريق فتيةً على دراجاتهم ، يرتدون ثياباً اوروبية ، ويعيشون هم أيضاً في تلك الأكواخ : وبعد بضعة أعوام سيصبح الاولاد مراهقين منسجمين مع هذا العصر . وقد وددنا لو نعرف كيف كان راكبو الدراجات الفتيان يعيشون هذا الانتماء المزدوج .

ومرة اخرى خاب امل سارتر ذلك اليوم حين لم يظهر لنا أحد من « التجمع الديموقراطي الافريقي » ولم يكن بد من ان نكتفي بسؤال « البيض » في اثناء كوكتيل أُقيم على شرفنا ؛ وتحدث سارتر الى حاكمين مقبلين كانا يبديان كثيراً من الروح الطيبة : غير ان المرء كان يلاحظ إذا تمعّن قليلاً ، انهما بدأا يتهيأان لمطابقة افكارهما على مركزهما . وكانت تلك الرحلة تصبح مزعجة وتهريجية . كنا قد سافرنا لنرى الزنوج الذين كانوا يقاتلون الحكام : فلم نلق منهم أحداً ، وقد استقبلنا الحكام استقبالاً تكريمياً . أيكون لنا حظّ اكبر في باماكو ؟ واستقللنا طائرة في المساء نفسه .

كان سارتر قد التقط من جديد حمى شديدة ؛ وكان يرتجف حين حطّت بنا الطائرة في ساحة متأخرة من الليل . كان الفندق الرئيسي غاصّاً بالنزلاء ، فأرسلونا الى فندق المحطة ، واستولى خادمٌ على أمتعة سارتر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقاده بتسلط ، بينما كان خادم آخر يقودني بلهجة آمرة في الاتجاه المعاكس . وألفيتني وحيدة فيما يشبه القفص ، امام كرسيّ وفراش حقير . وكانت الغرفة تطلّ على أرصفة المحطة : ومن حسن الحظّ ان القطارات التي كانت تمرّ ، كانت قليلة ، ولكن من الجهة الاخرى من الشباك المعدني الذي كان يعترض نافذتي ، تحت الحظيرة الزجاجية التي كانت تحمي الطرق الحديدية ، كان الهواء محمّلاً بدخان السخام ؛ وكنت أجهل رقم غرفة سارتر ، وقد أخذني الضيق اذ تصورته مريضاً في محبس شبيه بغرفتي ؛ وقضيت ليلة كريهة .

في اليوم التالي ، تحسنّت صحة سارتر ، وكان الفندق المركزي قد حجز لنا غرفة ؛ وكنا هناك ايضاً نكاد نختنق بالرغم من المراوح الضخمة ، ولكن كان بالامكان ان ننام على الشرفة . وكان مشهداً مدهشاً عند الصباح ، تلك الشرفة المزروعة بالاجسام نصف العارية . وقد قدّموا لنا طعاماً جيداً ، ومعه حبات من الفريز . ومما جعل اقامتنا لذيذة حقاً ما أبداه نحونا قائد الطيران « س » . وكان قد انتمى الى فرقة « نورماندي – نيامن » وقضى بعض الوقت في موسكو بحيث انه لم يبق لديه أيّ كره لكتّاب اليسار ؛ ولم نُوحِ له كذلك بأيّ فضول . وقال لسارتر :

– لقد وجدتُني في غاو في الوقت نفسه الذي كنت انت فيه . وقد قيل لي : هناك سيمون دوبوفوار وبيار داك . وعرفت بعد ذلك انك كنت أنت ...

ولم تأخذه الرغبة اولاً برؤيتنا ؛ ولكنه كان يستشعر عواطف حارّة لامرأة شابة كانت تقرأ كثيراً ، وكانت قد حثّته على ان يأتي لرؤيتنا . وكان يدعوها « جوجو » : وقد كانت فتاة جميلة ، ذات ذهن متوقّد ، وكان معجباً الى مالا حدّ له بذكائها وثقافتها وشجاعتها . وكانت متزوجة بضابط طيران ، كان متغيباً آنذاك عن باماكو . وكان ل « س » زوجة واولاد كانوا يقضون الصيف على احد شواطيء غينيا . ولكن ما لبثنا

ان تبين لنا أنهما كانا عازمين على الطلاق وعلى أن يتزوّج أحدهما الآخر ـ وهذا ما فعلاه بعد ذلك بقليل. إن الحبّ، لدى أشخاص غير هزيلي القلوب، يهيىء لحبّ جميع الناس: وقد أفدنا من هذا اللطف، وكذلك من دهشتهما، لأنهما كانا يتوقعان، كما صرّحا لنا فيما بعد، أن يلتقيا شيطانين وليس كائنين بشريين؛ وقد وُبخا على ان يفسدا سمعتهما معنا: وكان هذا التوبيخ يخلق بينهما مزيداً من التواطوءْ.

كان «س» وجوجو يسكنان، عند تخوم المدينة، بيتين متشابهين، واسعين، تحيط بكل منهما شرفة، وفيهما حمّام على آخر طراز: وكان البلاط والأثاث الخفيف يعطي إحساساً بالرطوبة، وكانت جوجو قد وضعت على احدى الطاولات طبلاً شبيهاً بالذي كنت قد اشتريته، ولكنه أكبر؛ وكانت تملك تحفاً محلّية اخرى تدلّ على حسن الاختيار. وكنّا كل مساء نتناول الشراب المقبّل على سطيحتها، وكانت تدلّنا في البعيد على مكان الفندق العصري الذي سيقام عمّا قريب. وكان غالباً ما يجيء صديق لهما يُدعى «ف» ـ وهو طيّار ايضاً ـ فيشرب معنا، وكانت حيويته تبعث لدينا النشاط الخامد. وقد قال لنا:

ـ إن المرء يعتاد المناخ سريعاً. وانا حين ترتفع حرارتي الى ٤٠، أستقل سيارتي الجيب، وأذهب لصيد الجاموس، مما يقتل الحمّى.

وقد أقرّ أن الشرى شيء مزعج:

ـ إن على المرء حين ينام ان يغطس تحت الغطاء دفعة واحدة.

وكان يقلّد حركة السبّاح البطولي الذي يلقي بنفسه في الماء المثلج. وكان صيد الطرائد الضخمة ـ من مثل الجاموس وحتّى الأسد ـ يحتل من حياتهم مركزاً كبيراً؛ وكانت جوجو تطلق النار ببراعة الرجال؛ وكانت غالباً ما ترافق اصدقاءها بالطائرة او في بعثاتهم بالجيب.

وفي الصباح الاول كنّا قد تنزّهنا وحدنا في العربة عبر المدينة الاوروبية ـ الجميلة ببيوتها الاستعمارية ذات الطراز القديم ـ وعبر المدينة المحلّية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي لم نرها جيداً لأن الحوذيّ كان يرفض التوقّف. ولكننا بعد ذلك لم نترك أصدقاءنا الجدد. وقد أخذونا الى السوق، فوجدنا السكان أقلّ تنوّعاً منهم في غاو، ولكن البضائع بدت لنا أغزر وأنضر، وكانت الأقمشة التي تتزيّن بها النساء تباع بشكل كثيف: الأنسجة القطنية الرقيقة التي كانت تُصنع في الألزاس، ولكنّ الطبع العنيف عليها كان خاصّة افريقية؛ وقد ابتعت منها عدة لفائف. وفي المساء قادنا «س» بالجيب حتى سدّ النيجر، عبر طبيعة قليلة الغابات، لا جمال فيها؛ وعلى الطريق ذي التربة الحمراء، تحقّقت مما سمعته، من غير ان اؤمن به كثيراً: إن السيارة لا تصمد للحرارة الا اذا تجاوزت في سرعتها ثمانين كيلومتراً في الساعة، وإلاّ حطّمتها الرّجات: وكان مساجين سود يعملون على حافة الطريق تحت رقابة حرّاس مسلحين؛ وقد دلّونا على اثنين منهم محكومين بتهمة أكل لحوم البشر. وكانت جميع الوجوه تبدو معجونة باليأس والحقد.

وفي باماكو والمنطقة المجاورة كانت تنتشر امراض فظيعة؛ فهناك دودطويل يتسلّل في الجلد من اسفل القدمين ويحفر له كهوفاً، ويقضي استخراجها القبض على طرفه ولفّه على عود ثقاب؛ وكلّ يوم يُدار العود دورة: فان حاول المرء انتزاع الدودة مرة واحدة، انقطعت واستحال بعد ذلك التخلّص منها. وقد وصفوا لنا أيضاً فظائع الجُذام، وفظائع مرض النعاس. ومن أكثر الأوبئة انتشاراً البرص، وقد كان في باماكو مستشفى كبير للبُرص.

واستقبلنا الطبيب الذي يدير ذلك المستشفى بلطف: وحدّثني عن «الجنس الثاني» الذي كان موافقاً عليه. وقد اجتزنا معه قرية كبيرة بأكواخها وأسواقها التي كان بعض الباعة الجوّالين يعرضون فيها منتوجات مختلفة؛ وكان بعض البرص يعيشون فيها مع أسرهم، لأن الناس كفّوا عن اعتبار مرضهم معدياً بالضرورة؛ وبالاضافة الى ذلك، فانه اذا أُدرك في بداءته، سهل القضاء عليه. وأرانا الطبيب المستوصف الذي كانت الحالات البسيطة تُعالج فيه: إن تغيّراً خفيفاً في اللون على ذراع الزنجية الشابّة يدلّ على المرض،

ولكنّ حقنةً تكفي ، وقد قال لنا الطبيب :

ـ ان بامكانها ان تعيش ثمانين عاماً من غير آن يربح المرض شيئاً .

ولوقف المرض ، كان ما يزال يستعمل زيت « الكولموغرا » وهو علاج هندوكي قديم ؛ ولكن كان قد اكتشف آنذاك « الاسباتيكوسيد » الذي كان يؤمل ان يقلّص المرض ، بل ان يشفيه تماماً . على ان عدداً من الرجال والنساء دخلوا المستشفى في وقت متأخّر كانوا في حالة تردّى تدريجياً ؛ وقد زرنا المخدع الذي كانوا يقيمون فيه ، ولكني حسبت اني على وشك ان اصرف نظري ، بسبب الرائحة اولاً ، ثم بسبب الوجوه « الأسدية » التي أصبح فيها الفم خطماً ، والأنوف المتآكلة ، والأيدي المقطّعة . وقال لنا الطبيب :

ـ حتى هؤلاء لا يموتون مباشرة من البرص . فالمرض يتقدّم ببطء ، وهو يضعف الجسم ؛ وتكفي نزلة وافدة حتى يسقط المصاب بالبرص .

وكان ثمة عدد كبير جداً من البرص في الدغل ، وعديدون هم اولئك الذين كانوا يتنزهون في باماكو : وقد التقينا بعضهم في السوق بكل تأكيد . ولكنّ المرء لا يعرّض نفسه للعدوى إلاّ اذا سار حافي القدمين .

وعرّفنا القائد « س » الى زنجيّ من أصدقائه : وهو طبيب مسنّ جداً ، أعطى سارتر مؤلّفاً ضخماً عن تركيب الأدوية المحلية . وهو لم يحدّثنا في السياسة . وكان سارتر ينتظر كل يوم بفارغ الصبر ان يتصل به « التجمع الديمقراطي الافريقي » ، وكان كل يوم يصاب بالخيبة . وكان هذا الصمت نظامياً بالطبع ، وهذا ما كان يزيده تأثّراً . وبعد ان قضينا امسية أخيرة مع جوجو و « س » في مرقص بالهواء الطلق ، سافرنا الى دكار .

وكانت دكار واحدة من أساطيري ؛ كانت هي « المستعمرة » : كان ثمة رجال يعتمرون قبعات بيضاء ، تحت حرارة ساحقة ، ويشربون طوال النهار الويسكي الذي كان يتلف كبدهم وعقلهم . وكان سكان باماكو يجدون فيه مرفأ للطراوة ؛ وكانوا قد قالوا لي في حنين : « ان الناس في دكار ينامون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تحت الغطاء ». وقبل ان تحطّ الطائرة ، دعانا الطيّار الى غرفته ، ودار طويلاً حول المدينة ليرينا المرفأ والبحر وجزيرة « غوريه ». ونزلنا ، وللمرة الاولى منذ تامانراسيت ، أحسستني مرتاحةً في جلدي : ٢٥ درجة . وتركنا قبعتينا في الفندق وذهبنا نضرب في الشوارع .

ولم نكن نرى زنوجاً على سطيحات المقاهي ، ولا في المطعم الباذخ المكيّف بالهواء والذي تناولنا فيه غداءنا ؛ لم يكن التفريق موجوداً ، رسمياً ؛ ولكن التشقيق الاقتصادي للمجتمع كان يقوم مقامه ؛ فلم يكن أي « اسود » تقريباً يملك الوسائل التي تمكّنه من التردّد الى الأمكنة التي يجتمع فيها البيض . وكانت المدينة الأوروبية تافهة ، وكان الشاطيء الذي حاذيناه بالسيارة لبضعة كيلومترات جديرة بالرثاء ، بالرغم من اشراق المحيط : نخيل هزيل ، واكواخ بلا جذل ، و ارض ملطّخة بالنفايات النباتية . ووجدنا سحراً لقلعتها البرتغالية القديمة ، المحمّرة والمهدمة . ولكن اهتمامنا لم يستيقظ حقاً الا في المساء ، حين قمنا بنزهة في الضواحي ؛ وكان ذلك لقاءنا الاول بالسكان المحليين العمّاليين ؛ كانت للشوارع الموحلة التي تحفّ بها اكواخ القش خشونة فردية ، ولكنها كانت واسعة وطويلة ومستقيمة ؛ وكان الجمهور الزنجيّ الذي كان يعجّل فيها مكوّناً من العمال ، وكان يذكّرنا — تذكيراً يوحي بالتناقض — بالدغل وبـ« اوبرفيليه » في وقت واحد. ولم نستطع أن نتصور ماكان يحدث خلف تلك الوجوه الجميلة ، الهادئة ، ولكن المغلقة ، في معظمها ؛ كان هؤلاء الرجال ، على غرار اولئك المراهقين الذين كانوا يعودون ممتطين الدراجة الى اكواخهم ، ينتمون الى حضارتين : فكيف تراهما كانتا تتصالحان فيهم ؟ لقد تركنا دكار من غير ان نفهم شيئاً من الأمر . ولقد كان هذا العبور القصير لافريقيا السوداء إخفاقاً واضحاً . وفي باريس ، تأكّد ما كنّا نشكّ فيه : كانت الأوامر الشيوعية قد ألقت عبئها على جميع أعضاء « التجمّع الديمقراطي الافريقي » ، فتقصّدوا ان يتجنّبوا لقاء سارتر .

ولكي نرتاح من تعبنا ونعمل في سلام ، قضينا اسبوعين في مراكش .

وتوقّفنا قليلاً في مكناس وطويلاً في فاس . وكان الوقت ربيعاً ، والاشجار مزدهرة ، والسماء خفيفة ، وكان قصر جلناي قد فتح ابوابه . وأعطوني غرفة السلطانة المزيّنة بالطنافس وبالموازييك والتي كانت تشرف على باحة فاتنة ؛ وكنت أدع بابي مفتوحاً ، حين كنت أعمل ، وكان الزوار يدخلون غالباً فيطوفون بالطاولة ، كما لو اني كنت قطعة من قطع المتحف . وكان المرء اذا دخل غرفة الطعام المزججة يشرف على بياض المدينة ؛ وقد التقينا فيها روسيه ، فتبادلنا التحية من غير حماسة .

كانت اختي وزوجها يسكنان الدارالبيضاء ، منذ شهر حزيران ؛ وقد قضيت بضعة ايام معهما ؛ وقمنا بنزهة في السيارة عبر « الاطلس الاوسط » حتى مراكش حيث رأيت ثلوج القمم العالية يتلألأ فيما وراء الأسوار الحمراء .

* * *

حُكم على بوريس فيان بغرامة قدرها ١٠٠ الف فرنك لأنها كتب « سأبصق على قبوركم » . وكانت تُنسب الى كتبه والى كتب سارتر مسؤولية عدد من الانتحارات والجنح والقتل ، وخصوصاً « جريمة الشبان ٣ » . وحين صعد ميشال مور الى منبر « نوتردام » اتهمت الوجودية بهذا « التدنيس » .

ولقد ذكرت ان فكر سارتر كان يتطهّر من المثالية ؛ ولكنه لم يكن يتخلّى عن بدهيات الوجود ، وظلّ يطلب ، في قلب التطبيق ، تركيباً لوجهيّ النظر . وقد كان ، في مقدمة كتبها لـ « صورة المغامر » لستيفان ، يتمنّى ان يرث المناضل من هؤلاء الذين كان ستيفان يدعوهم مغامرين :

« إن لكل عمل وجهين : السلبية التي هي مغاظرة ، والبناء الذي هو نظام . ويجب ان نقيم السلبية والقلق والنقد الذاتي في النظام » .

وكان اتجاه مماثل يُلهم الدراسة التي كان يقدّم بها لكتاب دالماس عن يوغوسلافيا . وكان يقول إن الموضوعية الستالينية تلغي ذاتية المعارضين إذ تعتبرهم ، وغالباً باعترافهم ، خونة موضوعيين . اما قضية تيتو فكانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فريدة : كان قد نجح ، ولهذا كان يجعل هذا الاسترداد مستحيلاً . كانت معارضته تعيد الى قلب « الثورة » حضور الذاتية . وقد كانت مهمةُ ايديولوجيةٍ ثورية حقاً هي ان تردّ للذاتية مكانها ، في وجه الستالينية .

كان تيتو عدو الشيوعيين الأكبر . وكانوا قد شتموا بورديه ومونييه وكاسو ودوميناك الذين كانوا قد انحازوا اليه ، بل ان الاخيرين كانا قد أبعدا عن « حركة السلم » . وقد أعطتهم مقدّمة سارتر مأخذاً جديداً عليه . انه لم يكن محظوظاً معهم . وقد رأى أن محاوراته مع « تاو » ضعيفة جداً فعارض في نشرها ؛ ولجأ « تاو » بلا اي انزعاج الى العدالة البورجوازية . فأقام عليه الدعوى ، وانضمّ اليه « دومارشي » الذي كان قد حضر المحاورات من غير ان يفتح فمه ، إلاّ ليقرّ « تاو » على آرائه ، فطالبا سارتر بمليون فرنك على سبيل العطل والضرر . وكانت المحاكمات الجديدة ، ومعسكرات العمل قد نصبتنا ضد الستالينية الى حدّ أنّا امتنعنا ــ وكان هذا خطأ ــ عن توقيع نداء ستوكلهم الذي كان يضمّ ، في آخر حزيران ، ثمانية ملايين توقيع في فرنسا . على اننا كنّا نقيء « الغرب » ؛ وعلمنا بأسف ان سيلوني كان يشارك ، الى جانب كوستلر ، في « مؤتمر الدفاع عن الثقافة » الذي جمع في برلين حركة « حرية الفكر » .

وكانت لسارتر هموم خاصة . كان قد سافر عام ٤٩ مع « م » الى المكسيك وغواتيمالا ، وزار ايضاً كوبا وباناما وهايتي وغوراساو . ولم يكونا متفاهمين جيّداً بعد . وكنت قد تراسلت طوال العام مع ألغرين . وكان قد غيّر لهجته كثيراً منذ عودته الى اميركا ؛ كانت اميركا تتغيّر بسرعة كبيرة . وكانت مطاردة السَحَرة تصيب عدداً كبيراً من اصدقائه . وفي هوليوود ، التي كانت جائزة بوليتزر قد قادته اليها ، كان جميع السينمائيين اليساريين بلا عمل ؛ وكان كثيرون يهاجرون الى اوروبا ؛ ولم يكن « جون غارفيلد » قد استطاع ان يقدّم فيلم « الرجل ذو الذراع الذهبية » . ولدى عودته من كاليفورنيا ، كان الغرين قد اشترى بيتاً على بحيرة ميشيغان : وكان المفروض

ان نقضي فيه شهرين . واغتبطت ان تكون لي معه حياة مشتركة حقيقية .
واذ كنت على وشك استقلال الطائرة ، دخل كوريتو الشمال في كوريا الجنوبية ؛ وما لبث الطيران والمدفعية الاميركيتان أن تدخلا . وتوقع الناس ان تنفجر الحرب اذا هاجم الصينيون فورموزا ، وفي بضعة ايام ، تلقى نداء ستوكهلم ثلاثة ملايين توقيع إضافي . وكان الجميع يتحدثون عن احتلال الجيش الأحمر لفرنسا . وكتبت « سامدي – سوار » مقالاً بعنوان : « هل ينبغي ان نخاف ؟ » وانتهت الى الاجابة بنعم ، وبالرغم من رغبتي في ان ارى الغرين ثانية ، ونفوري من ان اخيبه مرة اخرى ، ترددت كثيراً في مغادرة فرنسا . وقال لي سارتر :

– اذهبي . فبوسعك دائماً ان تعودي . انني لا اومن بالحرب .

وكان يقدم لي حججاً كررها لي في رسالة مؤرخة بشهر آب ؛ وكانت باريس آنذاك في ازمة مرعبة . كان الذهب قد ارتفع سعره من ٣٥٠٠ الى ٤٢٠٠ ، وكان الناس يقفون صفوفاً امام حوانيت السمانة ليتمونوا بالمعلبات والسكر ، وكانوا ينتظرون بين يوم وآخر الجيش الأحمر ، ثم القنابل . وظل سارتر يطمئنني :

« هذا هو رأيي على اي حال : إن الحرب « الدموية » مستحيلة . إن الروس لا يملكون قنابل ذرية . وليس لدى الاميركيين جنود . وإذن ، فلا يمكن للحرب ، رياضياً ، ان تقع الا بعد بضعة أعوام . ويبقى أنها ، رياضياً ايضاً ، ستهيأ . وواحد من اثنين : إما ان حالة الحرب ، بحركة خرقاء يقوم بها هذا الفريق او ذاك ، ستعلن من غير ان تكون هناك حرب حقيقية ؛ وفي هذه الحالة تأتي الجيوش السوفياتية حتى برست ، فيكون اذذاك احتلال روسي لثلاثة اعوام او خمسة قبل الصدام الحقيقي ؛ واما ان ينتظر الفريقان وهما يتسلحان : وتلك هي حالة الحرب الميثولوجية النفسية التي تنتشر في كل مكان ، والرقابة ، وهوس رؤية الجواسيس في كل مكان ، والمانوية ، واذا شئت الاحتلال الاميركي المتنكر . وانا اومن ، لدى الاختيار ، بالافتراض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الثاني ... »

وسافرت ، ولكن كان في صدري قلق أثقل أحزان الوصول . كانت أيامي الاولى في شيكاغو تشبه كثيراً الأيام التي تقضيها آن في « المثقفون » مع لويس حين يلتقيان للمرة الأخيرة . وكان الغرين طوال العام قد كتب لي رسائل مرحة ورقيقة ؛ وها هو يقول لي فجأة إنه لم يكن يحبّني بعد . ولم يكن يحبّ اية امرأة اخرى ، فان شيئاً ما لم يتغيّر : كل ما هنالك انه لا يحبني بعد . وأكّد لي في طيش مصمّم :

– على اننا سنقضي صيفاً جميلاً .

وفي اليوم التالي أخذني الى ميدان السباق مع مجهولين . وتهت وسط هذا الحشد الأجنبيّ . ولم أفكر في العودة الى فرنسا ، الا اذا وقع خطر واضح : وكان ينبغي اولاً ان أفهم بقلبي وجسمي كلماتٍ لم اكن قد نجحت بعدُ بادخالها في رأسي ؛ فأيّ إرهاق انا مرصودة له ! كان عملاً شاقّاً أشبه بأن تُخاط قطع الزمان فيما بينها . وفي بيت وابانسيا الصغير ، كان الحرّ الخانق وحضور الغرين يسحقانني . كنت أخرج : وكانت الشوارع معادية لي . وعند حلاّق صغير في الحيّ البولوني ، سألتني العاملة التي كانت تغسل شعري بصوت خشن :

– لماذا أنتم جميعاً في فرنسا شيوعيون ؟

وإذن ، فالفرنسية كانت بمثابة مشبوهة ، عاقّة ، شبه عدوّة . ثم انني في الخارج ، كنت أذوب كالزفت ؛ إن المرء لا يستطيع ، بين الذراعين ، ان يقرأ ولا ان يبكي . ولم اكن اعرف حقاً ما كان ينبغي ان أفعل بنفسي .

واخيراً ، حملنا صديق بالسيارة الى « ميللر » ، وعاد الزمن يجري رويداً رويداً : كان روتينٌ شفوق يملأ الأيام . وكنت أنام في غرفة لي ، وكنت أعمل فيها قريباً من النافذة التي كان يحميها شبّاك معدني ، او كنت أتمدّد في العشب اقرأ « لنكولن » من تأليف ساندبورغ ، بعد ان اكون قد انتضحتُ بمادّة تُبعد عني البرغش ؛ وكنت اقرأ كثيراً من المؤلفات

عن الأدب والتاريخ الاميركيين ، كما قرأت كتاب فيتزجرالد المؤلم «كراك ـ آب » ، واقاصيص تنتمي الى « العلم الوهمي » وهي غالباً مخيّبة ، ولكنها كانت احياناً تلقي اضواء مقلقة على هذا العصر . وكانت الحديقة تنحدر نحو غدير ، وكانت ادواحٌ كثيفة على الجانبين تقيني الأنظار ؛ وكانت تعدو حولي سناجب رمادية ضخمة ، وتغنّي أطيار . وكنّا طوال الظهر نعبر الغدير في قارب ؛ وكنا نرقى ونهبط التلال التي كانت تحرق اقدامنا ، وكنا نصل ضفة بحيرة ميشيغان ، الواسعة المتحركة كالبحر : فـلا نجد ثمة أحداً على البلاج الرملي الممتد بلا حدود ، الا طيوراً بيضاء ، منتصبة على أقدامها ، تفتّش عن الحبّ . وكنت أسبح وأشوي جسدي . وفي الماء ، كنت احرص كثيراً على ألاّ افقد الأرض تحت قدمي ، لأني كنت لا أحسن السباحة . ومع ذلك ، فقد حدث يوماً أني ، بعد عدة أبواع ، التمست بطرف إصبعي الأرض فلم أجدها ؛ وجُنّ عقلي وبدأت أغرق ؛ وناديت الغرين ، فبسم لي من بعيد ؛ وناديت بلهجة أصرح :

ـ النجدة ! النجدة !

فابتسم ايضاً ؛ على ان تخبّطاتي ما لبثت ان أقلقته ؛ وحين قبض عليّ ، كان رأسي قد غطس تحت الماء ، وكانت على شفتيّ ، كما قال لي ، بسمة بلهاء تماماً . وأضاف انه خاف كثيراً لأنه لم يكن يحسن السباحة . وعدنا ونحن نركض ، فشربنا بعض الويسكي ، وفي جذل عملية الانقاذ تلك ، التهبت الصداقة بيننا ، حيّة متوقّدة كما لو أنها قد تطهّرت من زبد حبّ ضائع .

وكان لها عذوباتها ؛ كنّا في الليل نتنزّه على الشاطيء ؛ وفي البعيد كانت « افران غاري » تبصق نيرانها ؛ وكان قمر كبير محمرّ ينعكس في البحيرة ، وكنّا نهذي عن بداءات العالم او نهايته ؛ او اننا كنّا نتفرّج على التلفزيون : مباريات مصارعة قديمة مشهورة كان الغرين يعلّق عليها ، افلام قديمة ، ومساء السبت برنامج متنوّعات ممتاز . ولكن غالباً ما كان وجه الغرين ينغلق ، بلاسبب ظاهر ــ ربما لأنه كان يخشى ان يستسلم أحدنا لهذا الانسجام الوهمي .ــ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يبتعد ، وكان يصمت . وقصدنا ذات يوم ميدان السباق مرة اخرى مع صديق ، فسئمت من المشهد ؛ وفي السيارة ، في طريق العودة ، أعلن الراديو بضجة كبيرة ان الحرب وشيكة الوقوع ؛ وبدا لي كريهاً وغير معقول أن اكون مقطوعة عن فرنسا لأعيش هذه الكارثة الخاصة ، فأخذت أنتحب . وكان الغرين يقول لي : « إن هذه دعاية ، وهي لا تعني شيئاً » ولم يكن يؤمن بالحرب . ولكني كنت قد سقطت في أعماق هوّة كان لا بدّ من انقضاء بضع ساعات قبل الخروج منها . وذات مساء آخر ، كان الغرين في شيكاغو : وكنت احبّ وأخشى صمت تلك الايام المتوحّدة ؛ وكنت قد مضغت منذ الصباح افكاراً حزينة كثيرة حين جلست امام شاشة التلفزيون . وكانوا يقدّمون « لقاء قصير » فبلّلت الوسائد بدموعي .

وبعد شهر ، جاءت « ليز » الى ميللر . وكنت قد رأيتها ثانية عام ٤٧ : وكالسابق كنا قد تنازعنا كثيراً ، ولكننا كنا كذلك متفاهمتين . ولقد تعانقنا بفرح ؛ وكانت محتفظة بكل جمالها و « حموضتها » الشاذّة ؛ إن سلوكها الذي كانت قد رفضت ان تكفّر عنه ، يجلب عليها في الوسط التقليدي الذي تعيش فيه طائفة من التعقيدات التي كانت تروي قصتها بطرافة ، ومع ذلك ، فقد غشيت لقاءنا بعض الغمائم . كان ألغرين قد احتجّ على فكرة ايواء أجنبية في بيته ، ثم إن البيت كان أصغر من ان يسعنا جميعاً : وكان أن وجد لليز غرفة تبعد خمسمئة متر عنّا ، مما أثار غضبها . وكانت قد قرّرت ان تبقى اسبوعين : وكنت سأعود الى فرنسا بعد شهر ، وبسبب صعوبة علاقاتي ذاتها مع الغرين ، كنت أحسّ الحاجة الى ان أبقى وحيدة معه . ولم يكن لي سلاح ضد صراحة ليز الا صراحة مساوية ، فاستعملتها ، وكان أن وصفتني مرة اخرى بـ « ساعة في ثلاّجة » . وقد وجد الغرين ليز باردة ، رغم تصرّفاتها الواسعة المدلّلة . ثم انها ، كما كان يقول لي ، كانت تبدو وكأنها تنتظر ان أمشي على رأسي ؛ والواقع ان الموقف الطبيعي لليز كان موقف الحذر الساخر ؛ وكانت المرونة ضرورية للتغلّب عليها . وبلغ الأمر بالغرين أن ابلغني ، ذات

صباح ، انه ذاهب الى شيكاغو . وكان القرار أخيراً أن اذهب أنا الى شيكاغو ، فأقيم مع ليز يومين او ثلاثة .

كانت العواطف التي تكنّها لي متناقضة ؛ فقد انشغلت بها ، على حدّ رأيها ، اقل مما كان ينبغي ، في سنوات الحرب ؛ وكانت ما تزال عاتبةً عليّ أني ضحّيت بها مع أجل عملي ، وكانت هذه الضغينة تنتقل الى ما كنت أكتبه ؛ وكانت تكرّر ، لي بطريقة غير مباشرة ، ولكنها شفّافة :

— كم هو محزن ان يكون المرء كاتباً من الدرجة الثانية !

وكانت هذه الشكاسة تعكس كذلك علاقاتها الخاصة مع الأدب : كانت تريد ان تكتب ولا تريد ، وكانت تقول لي :

— ما جدوى الكتابة حين يوشك المرء ان يتلقّى قنبلة على أنفه ؟

وكانت في الواقع ممزّقة ، لأنها كانت ذات موهبة ، ولكنها لم تكن ذات رسالة ؛ وكانت موهبتها تبدو في اقاصيص وحكايات قد ظهرت في المجلات ، ولا سيما في رسائلها ؛ كانت تملك فنّ المختصر الموجز ، وكانت تختار كلماتها بأغلاط لذيذة ؛ ولكنها لم تكن تجد الجرأة اذ تكون وحدها مع رزمة من الورق الأبيض ؛ وأعتقد انها لم تكن تملك من الاهتمام بالآخرين ما يزوّدها بالصبر الطويل للتحدّث اليهم ، صفحة بعد صفحة .

كانت حياتها تعرج ؛ كانت قد قدمت الى الولايات المتحدة لأنها كانت تحبّ رجلاً ، ولأنها كانت تريد أن تأكل ؛ أما الحب ، فقد استُهلك ، وكانت على وشك ان تطلّق ؛ وأما الطعام ، فكانت قد اعتادته . وكانت قد أمّلت ان تعوّض بالأمومة عن أحزان عمرها الأول ، ولكنّ هذه الأحزان أعدّتها إعداداً سيئاً لهدهدة بنت صغيرة كانت تتّحد بها اكثر مما ينبغي وأقلّ مما ينبغي . كانت تعترف لاميركا بأنّها قد تبنّتها ، ولكنها لم تكن تجد فيها نوع العلاقات البشرية والفكرية الذي كانت قد عرفته في باريس . كانت تُعدّ شهادة الاستاذية ، وكانت تلمع ، ولكنها كانت تزعج كثيراً من اساتذتها بطبعها الهجومي . كانت شديدة الاحتقار ، وسريعة الافتتان في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقت واحد ، وكانت مفصولة عن الناس بذلك الجليد الذي لاحظه الغرين ، فكانت ترتمي في مغامرات معقّدة او مستحيلة . وكانت منجذبة في تلك الفترة الى رجلين لوطيين ، ومتعلّقة جداً بأكبرهما سناً : ويللي ؛ وكانت تحاول ان تقنعه ، باسم الوجودية ، بأن المرء « ليس » بالضرورة لوطياً : وانما القضية قضية اختيار قابل دائماً للإلغاء . وكان هو مشغوفاً بها ، ولكنها لم تكن تكتفي بذلك . واني لأذكر نزهة شاقّة قمنا بها في شيكاغو . لقد أريتها بيت ألغرين ، وكانت في قلبي ذكريات ثقيلة ؛ وكانت تردّد لي ، بالهوس المدرسي لطبيب من القرون الوسطى ، بأنه كان بامكان ويللي ان يظهر حريته بأن يحبّها . وكنّا نتحاور ، انا بصمت ، وهي بصوت مرتفع ، حواراً داخلياً وسط حرارة كثيفة ، وكانت الشوارع تمتدّ بلا حدود تحت أقدامنا ، ولم نكن نتقدّم خطوة .

وكانت قد سبقتني الى شيكاغو حيث كان ويللي وصديقه برنار ، اللذان يقومان برحلة في السيارة ، قد واعداها على اللقاء . وفي الصباح الذي كان المفروض فيه أن ألحق بهم ، تأخّر الباص الذي كان سيحملني الى محطة « غاري » ، فاستوقف الغرين سيارة وسلّمني لسائقها . وما ان علم هذا بأني فرنسية حتى بادرني :

ـ أصحيح انكم جميعاً شيوعيون ؟ وأن النساء البيض عندكم يضاجعن السود ؟

فتظاهرت بأني لا أعرف الأنكليزية . ووجدت ويللي وبرنار لطيفين ، ولكن الثلاثي الذي كانوا يشكّلونه مع ليز أزعجني . وشاءوا ان يقصدوا حانات رديئة كانت النساء يتعرّين فيهاوكانوا يفصّلون عريهنّ بقهقهات ترشح بما لا أدريه من احاسيس تحمل الضغينة على البشرية برمّتها .

وعدت وحدي الى ميللر . وكان ألغرين قد رأى في هوليوود ، لبضعة أشهر خلت ، صديقته القديمة ، فقال لي إنه كان يفكّر ثانية بأن يتزوّجها . فليكن . كان اليأس ، في آخر المطاف ، قد أفرغني ، فلم يصدر عنّي ايّ

ردّ فعل. وكنت أسير حول غدير «الصيف الهندي»، يستغرقني جمال الأوراق ذات اللون الذهبي الأحمر، والذهبي الأخضر، والذهبي الأصفر، والنحاسي والناري، خامدةِ القلب، غير موءمنة بالماضي ولا بالمستقبل. وكنت أستيقظ فجأة، فأرتمي في العشب: «لماذا انتهى ذلك كلّه؟» لقد كان ضيقاً طفولياً، لأني كنت كالأطفال ما ازال اصطدم بما لا يفسّر.

وعدنا لوقت قصير الى شيكاغو. وبدافع من التماسك، قضينا آخر ساعات لنا في ميدان السباق: وقد خسر الغرين كل ماله النقدي. ولكي نتناول طعام العشاء، تلفن لصديق له بقي معنا حتى أخذنا سيارة الى المطار. ولم يبدُ على الغرين انه منزعج منه. وكانت شيكاغو تتلألأ تحت غلالات رمادية دقيقة، ولم يسبق لها قط ان بدت لي على هذه الروعة. وكنت أمشي بين الرجلين كالسائر في نومه، وافكر: «لن أراها بعدُ ابداً...» وفي الطائرة، عدت أتناول المنوّمات من غير ان أجد النوم، تمزّق حنجرتي صرخة لم ارسلها.

* * *

استمرت الشتائم تنهال على سارتر، في تلذّذ. وقد صرّح شخص يدعى روبيشون في مجلّة «ليبرته داسبري» انه ينبغي ان تُنتزَع من تأثيره شبيبةٌ كفّ في الواقع -كما قال في الوقت نفسه- عن التأثير عليها. وسألتْ «كومبا» في سخرية «هل ينبغي احراق سارتر؟» وكنّا قد احتفظنا فيها ببعض الأصدقاء. وكان سارتر قد نشر في «التان مودرن» مقتطفات كثيرة من دراسته عن جينيه، فأثارت اهتمام القراء. ولكن اية فضيحة ايضاً! وبالرغم من ان مورياك كان قبل عام قد اعترف بموهبة جينيه بصدد كتابه «رقابة عليا»، فقد كتب في «الفيغارو» مقالاً مزبداً عن «الخرائية»[1]

---

(١) هناك شبه واضح بين هذه الكلمة، في اصلها الفرنسي، وبين أصل كلمة «الوجودية» (هـ. م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن جهة اخرى ، كان بعض الاصدقاء يبدون دهشتهم أنّ المجلة لم تخصّص بعد اي مقال عن الحرب الكورية . وتأسّفت « الاوبسرفاتور » أن مجلتنا كفّت عن الاهتمام بالسياسة الحالية . وكان ميرلو - بونتي الذي كان عملياً يديرها قد اعتنق اللاسياسة بسبب حرب كوريا ، وقال ما معناه :

- إن المدافع تتكلم ، فلم يبق لنا الا ان نصمت .

وكان افتراض سارتر الثاني يتحقق : كان الاميركيون يحتلّون فرنسا في صمت ، كانوا يساعدون « دولاتر » الذي كان قد أصيب في الهند الصينية بهزائم جدّية ، على تجميد الوضع . وبالمقابل ، أقرّ « بليفن » بصراحة مبدأ إعادة تسليح ألمانيا ووافق على إقامة قواعد أميركية في فرنسا ؛ وعبثاً قام الشيوعيون بالتظاهرات حين أقام ايزنهاور في باريس ، بشهر كانون الثاني . كانت فرنسا تقبل فكرة أوروبة تدعمها الولايات المتحدة ، أوروبة مستعدّة للقتال من أجل الولايات المتحدة . ولأن « بوف - ميري » دافع عن الحياد مرة أخرى ، وصفه بريستون بأنه « لا تزاوجيّ » . وأحدث النقاش ضجة ، ولكن بلا جدوى . وحين قبل « جيلسون » كرسياً في تورونتو ، اتّهم بأنه ترك بلاده للغزو الأحمر ، وعبّر متّهموه عن غيظهم من هذا « الذهاب الوقائي » [1]

والحق ان الحديث عن الاحتلال الروسي كان منتشراً . فبعد أن عبرت الجيوش الأميركية خط الطول ٣٦ ، وبعد أن دخل كوريا الجنوبية جيش من « المتطوعين » الصينيين ، وبعد أن دكّ الطيران الأميركي « بيونغ - يانغ » ، أعلنت الولايات المتحدة أن التعبئة كانت وشيكة . وكان ماك أرثر يريد إلقاء قنابل على الصين ، وفي هذه الحالة سيتدخل الاتحاد السوفياتي : وقد وزّعت في أميركا ٥٠ مليون لوحة ، تقاوم الإشعاعات ، وتتيح معرفة هويات الضحايا . وأعلن ترومان حالة الطوارىء . وكان المنتظر ، في

---

(١) وقد كتب غابرييل مارسيل مسرحية بصدده !

حالة قيام الحرب ، أن يكتسح الجيش الأحمر أوروبا بسرعة حتّى « برست » : وإذن ؟ وقالت لنا فرانسين كامو ، إذ كنا خارجين معاً من حفلة موسيقية أقامها الشيوعيون وسمعنا فيها رقصات فولكلورية لبارتوك :

– في اليوم الذي يدخل فيه الروس إلى باريس ، سأنتحر مع ولديّ .

وفي صفّ من صفوف إحدى مدارس الليسيه ، كان الذعر يستولي على عدد من المراهقات بعد تنبّؤات سمعتها من بعض البالغين ، فعقدن ميثاقاً على الانتحار الجماعي ، في حالة احتلال روسي .

ولم أطرح على نفسي سؤالاً قبل المحادثة التي جرت لنا مع كامو في « بالزار » . فهو قد سأل سارتر :

– هل فكرت بما يحدث لك حين يصبح الروس هنا ؟

وأضاف بصوت مهووس :

– لاتبق هنا !

فقال سارتر : – وأنت ؟ هل تنوي الرحيل ؟

– إنني سأقوم بما قمت به في أثناء الاحتلال الألماني .

وكان « لوستونو – لاكو » هو الذي أطلق فكرة « المقاومة السرية المسلّحة » ، ولكننا لم نكن نتناقش بعدُ بحرية مع كامو ، إذ كان الغضب ، أو الاحتداد على الأقل ، سريعاً ما يستخفّانه . واكتفى سارتر بالاعتراض بأنه لن يقبل أبداً أن يناضل ضد البروليتاريا . فقال كامو بحيوية :

– يجب ألاّ تصبح البروليتاريا شيئاً صوفياً !

وأخذ على العمال الفرنسيين عدم اكتراثهم تجاه المعسكرات السوفياتية . فقال سارتر :

– إنهم ، من غير أن يهتمّوا بما يجري في سيبيريا ، مرتبكون بما فيه الكفاية !

قال كامو : – فليكن ! على أني لن أعطيهم وسام « جوقة الشرف » !

وكانت كلمات غريبة : ذلك أن كامو وكذلك سارتر كانا قد رفضا وسام جوقة الشرف الذي أراد بعض أصدقائهما في الحكم أن يعطياهما إياه عام ٤٥. وكنا نشعر اننا بعيدان جداً عنه . ومع ذلك ، فقد كان يحثّ سارتر بحرارة :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إذهب . فلئن بقيت لما اكتفوا بأخذ حياتك وحسب ، بل لأخذوا كرامتك . وسوف تموت في المنفى ؛ وسوف يقولون انك حيّ ، وسيحملونك على الدعوة إلى الاستقالة والخضوع والخيانة ، وسيصدقهم الناس .

وهزّني هذا الكلام ؛ وفي الأيام التالية أخذت لحسابي حجج كامو . لعلّهم لن يمسّوا سارتر : ولكن شريطة أن يصمت ؛ وسوف تحدث أشياء – ولم نكن نملك بعدُ الحقّ للشكّ في ذلك – لن يقبل بها في الصمت . وكنا نعرف المصير الذي يُعدّه ستالين للمثقفين غير الواعين . وسألت ميرلو – بونتي ، في أثناء غداء تناولناه عند « ليب » ، ما الذي كان ينوي أن يفعله : لم يكن يفكر في الذهاب . والتفتت « سوزو » نحو سارتر ، وقالت بمزيج من البراءة والإثارة :

– ستخيّب كثيراً من الناس إذا ذهبت . إن ما يُنتظر منكِ هو الانتحار .

وفي يوم آخر ، ابتهل ستيفان إلى سارتر :

– عِدْني ، يا سارتر ، بأنك على أي حال ، لن تعترف !

ولم تكن هذه المنظورات البطولية لتروق لي إطلاقاً ؛ وكنت أعود إلى المهمّة . إن التحالف مع الفاشيست ضد العمّال الفرنسيين لم يكن وارداً ؛ ولم يكن وارداً كذلك أن نقول نعم لكل شيء ؛ والمعارضة المفتوحة هي بمثابة انتحار . وقد كان سارتر يستمع إليّ بهيئة مصدومة ؛ كان يرفض ، حتى نخاع عظمه ، فكرة النفي . وكان ألغرين ، وقد اقتنع الآن بأن ضرباً من عناد ماك آرثر يمكن أن يشعل الحرب ، يدعونا إلى « ميللر » . ولكن لم يسبق لنا أن احتقرنا اميركا كما احتقرناها آنذاك .

وفي آب ، كان سارتر قد انزعج – أقل من ميرلو – بونتي ، ولكنه انزعج مع ذلك – من أن الكوريين الشماليين كانوا هم أولاً الذين اجتازوا الحدود ، وان تنكر الصحافة الشيوعية ذلك . كنا نعلم الآن أنهم سقطوا في شَرَك ؛ كان ماك أرثر قد أراد هذا الصراع ، مؤمّلاً أن يفيد منه ليردّ الصين إلى العصبة الصينية ، ومن جهة أخرى كان لإقطاعيي الجنوب

مطامع في صناعة الشمال . وكان الجنود الأميركيون في مطارداتهم وقصفهم ، يشنّون حرباً لا تقلّ قسوةً عرقية عن حرب قواتنا في الهند الصينية . فلئن قررنا الذهاب ، فلن يناسبنا إلا بلد محايد . وكان سارتر يقول :

– تصوّروا أن ينتهي بنا المطاف في البرازيل ، على غرار ستيفان زفايغ !

وكان مقتنعاً بأن من ينفي نفسه ، ولو لأوجه الأسباب ، يفقد مكانه على الأرض ولا يستردّه أبداً مئة بالمئة . ومع ذلك ، فقد كنّا نواجه أن نفرّ من نظام كانت – بالرغم من كل شيء – تتجسّد فيه الاشتراكية ! كنا نجد أنفسنا مبحرين على القارب نفسه الذي يُبحر عليه رجال اليمين : انهم هم ، لم يكونوا يكتفون بالمناقشات ؛ كانوا يستغلّون ثرواتهم وعلاقاتهم ليؤمّنوا لأنفسهم بواخر وطائرات . وتناولنا الغداء لدى كلوزو وزوجته ؛ وكانت فيرا ترتدي ثياباً تبدو عليها اللامبالاة المدروسة : بنطال أسود ، وحلقة سوداء في قدمها ، وكان شعرها الرائع يهبط كالشلال على كتفيها . وكان موجوداً اندريه جيلوا وزوجته : وطوال الوقت دار الحديث عن إمكانيات رحيلٍ عملية . ولم يكن سارتر يقبل فجأةً بأن يُلقى في هذا المعسكر . وقد كتبت لأختي أقول : « لا أدري أي مكان يبقى لنا بين الغدر الأميركي وتعصب الحزب الشيوعي »

وتحقّق سارتر ، في بدهية وثورة ، من أن الشيوعيين إذ يعاملونه كعدوّ ، يدفعونه إلى أن يتصرّف كما لو كان حقاً عدوّهم . ولم يعتقد قط كثيراً بامكانية احتلال روسي ١ . ولكنه إذ يتصوّره يُحسّ في حدّة تناقض وضعنا ؛ وقد كان الاستنكار الذي استشعره منه ذا أثر كبير في تطوره اللاحق .

---

(١) « ان هذه التنبؤات لم تكن تذعرني قط ؛ لأني لم أكن أومن بالغزو : لقد كانت في رأيي عبثاً من عبث الفكر الذي كان يدفع الأشياء الى نهايتها ، كاشفاً لكل فرد أهمية اختياره ونتائج هذا الاختيار .. وعبر هذه الصور الخيالية المشاكسة ، احسستني محشوراً عند قدم جدار . » (ميرلو – بونتي حياً) .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الخامس

كان طراز حياتي قد تغيّر. كنت أبقى كثيراً في شقّتي. وكانت هذه الكلمة قد شحنت بمعنى جديد. فاني لمدة طويلة لم أكن قد ملكت شيئاً، لا أثاثاً ولا خزانة ثياب. أما الآن، فقد كان في مشجبي سترات وتنانير غواتيمالية، وصدرات مكسيكية، وتايور ومعاطف اميركية. وكانت غرفتي مزدانة بحاجات لا قيمة لها ولكنها في نظري ثمينة: بيض نعام صحراوي، وطبول من رصاص كان سارتر قد جلبها لي من «هايتي»، وسيوف من زجاج ومرايا بندقية كان قد اشتراها لي من شارع بونابرت، وقالب من الجصّ ليديه، ومصابيح جياكومتي. وكنت أحبّ أن أعمل تجاه النافذة: كانت السماء الزرقاء المؤطّرة بستائر حمراء تشبه ديكوراً لـ «بيرار». وقد قضيت هناك مع سارتر كثيراً من الأماسي؛ وكنت أسقيه كثيراً من عصير الفاكهة لأنه كان قد تخلّى في الظاهر عن الكحول. وكنا نستمع إلى الموسيقى. ومنذ ٤٥، كنت قد استمعت إلى «أنشودة إلى نابليون» بقيادة لايبوفتز، وإلى قطع موسيقية أخرى، ولكنها قليلة، ووفق المناسبات. وفي هذا الشتاء، سمعت مع سارتر «ووزك» لبيرغ. وأردت الحصول على فونوغراف؛ ولكي أشتري واحداً استشرت فيان، وساعدني سارتر على أن أكوّن خزانة للأسطوانات. وكان يهتم بشوانبرغ

وبيرغ وويبرن ؛ وكان قد شرح لي مبادئهم ، ولكن لم يكن في فرنسا تسجيل لآثارهم . واشتريت بعض القطع الكلاسيكية ، وبعض القطع القديمة ، و « الفصول الأربعة » لفيفالدي الذي كانت باريس مجنونة به آنذاك ، وكثيراً من موسيقى فرانك ودوبوسي ورافيل وسترافنسكي وباروك : وكان هذا الأخير يتمتع بشهرة كبيرة في اميركا ، وقد اكتشفه كلّ منّا على حدة ، وكان في ذلك الحين ، برباعياته الأخيرة وسوناتته على الكمان المنفرد ، المؤلّف الذي يؤثّر فينا أكثر من سواه . واشتريت كذلك ، بناء على نصيحة فيان ، كثيراً من موسيقى الجاز : شارلي باركر ، النغتون ، جيلبسي . وأيّ صبر كان يتطلبه تغيير الأسطوانة كل خمس دقائق ، وتبديل الإبرة ! ولم يكن للموسيقى المحفوظة آنذاك نكهة الموسيقى الطازجة . ولكنه كان لذيذاً أن يستطيع المرء أن يقيم لنفسه حفلة موسيقية في بيته ، وحسب وقته ، ووفق ذوقه .

وليلة رأس السنة ، اجتمع عندي أولغا وواندا وبوست وميشيل وسيبيون وسارتر على تسلية أخرى : آلة تسجيل كانت « م » قد استودعتها سارتر . وسجّلتُ عدة محادثات ، دون أن أُعلم أصحابها . إن الكلام مصنوع لكي يتبدّد : فمما يثير التبرّم أن نستمع مرة أخرى إلى عبارات لا كثافة لها أُلقيت في طيش ، فتسمّرت وأصبحت نهائية وكأنها مرصودة لشرف القصيدة الشعرية . واستمع سيبيون في ذهول إلى الكلمات اللاهبة التي تحدّث بها عن مفاتن كوليت دارفوي (التي لم يكن يعرفها) .

وتردّدت قليلاً على السينما . وقد احببت تلقائية بريسون في « مذكرات خوري قرويّ » ، كما أحببت قسوة « بونويل » في « اولفيداروس » ، بالرغم من الافراط في الاجترارات السريالية . وكان فيلم « القبعة الذهبية » ينصف أخيراً جمال سيمون سينيوريه ويكتشف موهبتها .

كان مطعمٌ جديد قد افتتح منذ حين بدلاً من مطعم « بروكوب » وأخذ اسمه : وكان فيه طاولات من الرخام ، ومقاعد جلدية ؛ وكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يروق لي الجلوس فيه . وقد كان في الطابق الاول منه نادٍ تتناول فيه الطبقة الرفيعة العشاء على ضوء الشمعدانات . وفي الطابق الارضي ، كنت ألتقي بعض قدامى الحيّ ، ومنهم لويس فالون ، متخماً بالطعام . وكان يتمتم من بعيد بشتائم موجّهة إليّ . ولكن حين كان يفرغ ، كان يقترب مني ليحدّثني ، وعيناه سائلتان ، عن كوليت اودري التي كان قد أحبها قبل الحرب ، يوم كان اشتراكياً . وفي « البروكوب » كنت ألتقي بين الفينة والفينة انطونينا فالانتين لتناول الغداء ، إلاّ اذا قصدت بيتها بعد الظهر . كنت أعرفها رديئة اللباس ، قبيحة القبعة او مرتدية برانس تخلو من كل جمال ، فدهشت ان أراها في احدى الصور شابة وجميلة ؛ ولكن موهبتها ككاتبة للسِيَر ككانت تتكشّف في حديثها ايضاً : كانت تتحدث جيداً عن الناس . كانت صديقة لـ « ستريسمان » ، وكانت قد عرفت كثيراً من الرجال السياسيين ، وعرفت معرفة حميمة انشتاين الذي كانت تضع عنه كتاباً . وكانت قد ألفت عدة كتب عن « غويا » و « فنسي » نالت نجاحاً كبيراً . وشاركت في تحرير « التان مودرن » ، ولا سيما كناقدة فنية . وقد دامت علاقتنا حتى آب ٥٧ ، حين أخذتها نوبة قلبية .

وكان جوليار ، منذ أن أخذ « التان مودرن » من غاليمار ، يدعونا أحياناً الى تناول الغداء . وكان يروق لزوجته الأنيقة جيزيل داساتي ان تجمع أشخاصاً معروفين لم يكن لديهم دائماً شيء كثير يقولونه ؛ وقد التقينا عندها « بولانك » و « بريانشون » و « لوسي وادغار فور » و « موريس شفالييه » و « جان ماسين » وهو كاهن ذو لحية كان ما يزال يحتفظ بالايمان ولكنه انفصل عن الكنيسة ؛ وكان يتلو القدّاس في غرفته ؛ وقد شرح لنا اسبابه ومشاكله . وكان ميرلو ـ بونتي يستوقفه بين الحين والحين ، فيقول له :

ـ يجب ان تكتب هذا في « التان مودرن » .

فكان يجيب بهدوء :

– طز في « التان مودرن » !

وفيما بعد ، فقد إيمانه ، وتزوّج ، وكتب مع زوجته كتباً ذات اتجاه ماركسي ، بعضها ممتاز ، وهي تتناول موزار وبيتهوفن وروبسبيير ومارا .

واصطحبتني سيمون بيريو الى بيت كوليت التي كانت تعرفها جيداً . وكانت كوليت قد سحرتني وهي شابة . وكنت كالجميع ألتذّ بلغتها ، وأحبّ كثيراً ثلاثة او اربعة من كتبها ؛ وكان كوكتو قد قال لنا ذات يوم :

– من المؤسف انها لا تحبّ الحيوانات .

وصحيح انها حين كانت تتحدث عن القطط او الكلاب ، لا تتحدث الا عن نفسها ، وكنت أفضلها حين كانت تفعل ذلك بصراحة ؛ كان الحب واروقة « الموزيكهول » و « البروفانس » تناسبها اكثر من الحيوانات . ولم اكن اتعاطف مع التذاذها بنفسها ، واحتقارها للنساء الاخريات ، واحترامها للقيم الموثوقة . ولكنها كانت قد عاشت ، وكانت قد عملت ، فكانت هيئتها تروقني . وكان قد قيل لي إنها لم تكن لطيفة مع النساء اللواتي كنّ من عمري ، وقد استقبلتني ببرودة . وسألتني :

– هل تحبين الحيوانات ؟

فقلت : – لا .

فحدجتني بعين متغطرسة . وكان هذا لديّ سواء . فانا لم اكن أتوقع ايّ اتصال بيننا . وكان يكفيني ان اتأملها . كانت مقعدة ، ذات شعر منقوش ، وماكياج عنيف ، فكانت السنّ تضفي على وجهها الحادّ وعينيها الزرقاوين رونقاً باهراً : لقد بدت لي ، بين المجموعة التي تملكها من ثقّالات الورق والحدائق المؤطّرة في نافذتها ، أشبه بآلهة – أمّ هائلة . وحين تناولنا العشاء معها عند سيمون بيريو ، وكان كوكتو موجوداً ، أحسّ سارتر هو ايضاً بانه يقترب من « شيطان لعين » . ولقد أزعجت نفسها بدافع من الفضول خصوصاً لكي تراه ، ولعلمها بأنها ستكون محطّ نظره طوال الوقت : وقد اضطلعت بهذا الدور في طيبة اميراطورية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وروت حكايات عن حياتها وعن الناس ؛ ولم تكن صراحة صوتها البورغوني تضعف من حدّة كلماتها. كانت الكلمة عندها تتدفق من ينبوع ؛ اما كلمات كوكتو اللامعة فكانت تبدو ، اذا قورنت بتلك التلقائية الرائعة ، مشغولة.

وتناولت العشاء مع جينيه عند « ليونور فيني » ؛ وكانت قد رسمت صورته ؛ وكانا يعاشران معاً بعض أصحاب المليارات ، ويحثانهم ، في نجاح متفاوت ، على رعاية الآداب والفنون والعلوم. وقد اهتممت برسومها كثيراً ، وكان دون ذلك اهتمامي بمجموعتها من القطط ، واقلّ من ذلك ايضاً بفئرانها المحشوة قشّاً والتي كانت تمثل تحت كرة زجاجية.

وكان الرسام « وولز » واحداً من الذين كنت ألتقيهم كثيراً في سان جرمين دي بريه. وكان قد وضع رسوماً لقطعة لسارتر بعنوان « وجوه » ؛ وكان بولان يشتري منه بين الحين والحين بعض رسومه او مائياته. وكنا نحبّ كثيراً ما ينتجه. كان ألمانياً منفياً منذ وقت طويل في فرنسا ، وكان يشرب كلّ يوم ليتراً من تفل عصير العنب ، ويبدو مسنّاً بالرغم من انه لم يتجاوز السادسة والثلاثين ، وكان شعره أشقر وبشرته وردية ؛ وقد كانت عيناه داميتين ، ولا أظنّ اني رأيته يوماً الا وهو يشرب أو يأكل. وكان بعض الاصدقاء يساعدونه ؛ وكان سارتر يستأجر له غرفة في فندق « سان بير » : وكان صاحب الفندق يشكو من انه كان يُعثر عليه نائماً في الليل في الاروقة ، وانه كان يؤوي أصدقاء له في الساعة الخامسة صباحاً.

وقد كنت ذات يوم اشرب معه قدحاً على سطيحة « الروميري » المارتينيكية ، فكان أشبه بالمتشرد ، بذقنه غير المحلوقة وثيابه المختلّة. واذا برجل ذي سحنة قاسية ، وثياب أنيقة ، يوحي بالبذخ والترف ، يقترب منه ويقول له بضع كلمات. وحين ذهب الرجل ، التفت وولز إليّ :

ـ أعتذر . إن هذا الشخص هو أخي . وهو صاحب بنك !
قالها بلهجة صاحب بنك يعترف بأن متشرّداً هو أخوه .

* * *

كان جان لوي بارو قد روى لسارتر ذات يوم قصة سرفانتس « il rufio dichose » التي تروي حكاية قرصان يقرّر ذات لحظة ، بعد أن استخار الزهر ، ان يرتدّ الى عمل الخير . وبدأ سارتر في « لابويز » كتابة مسرحية مستوحاة من هذه القصة ، ولكنّه عدّل فيها : كان البطل يغشّ لكي يخسر . كان يريد اولاً ، بتأثير من دراسته لجينيه ومن مطالعاته عن الثورة الفرنسية ، ان يقدّم صورة شاملة للمجتمع : كانت النبالة تتجسّد في امرأة تدعى « دوزيا » أحدثت له كثيراً من المزعجات ، فأبعدها لصالح كاترين وهيلدا . وكان قد انجز الفصل الأول حين عدنا الى باريس . وطلبت منه سيمون بيريو ان يقرأ الفصل لجوفيه الذي كانت تتمنّى ان تعهد اليه في الإخراج . وتناولنا الغداء اولاً ، كالعادة ، بكل رضى . وروى « براندل » انه كان غالباً ما ينام في مقصورته في اثناء مسرحيات بارو ، مختبئاً خلف عمود . وبعد ان نهضنا عن المائدة ، أخذ سارتر يقرأ ، فبدأ براندل ينخر : وكانت زوجته تقرصه لكي يستيقظ ؛ وكان ميراند ناعساً ، وكان وجه جوفيه ميتاً . وحين صمت سارتر ، سقط سكوت من رصاص ؛ ولم ينبس جوفيه ببنت شفة ؛ اما ميراند ، فقد صاح وهو يستمدّ من ذاكرته القديمة صيغة مديح على طراز شبابه : « إن عندك أجوبة من كبريت ! » ولكن لم يكن ثمة من يبدو مكبرتاً . وتناقشنا حول اختيار الممثلين . كان براسّور يفرض نفسه لتمثيل دور « غوتز » . اما لدور هنريك ، فكان سارتر قد فكّر بفيتولد ، ولكنه كان مرتبطاً ؛ واستمزج فيلار الذي كان ممتازاً في « هنري الرابع » لبيراندللو ، فقبل . وعهد في دور المرأتين الى كازاريس وماري اوليفيه . ولكن كان ينبغي اولاً انجاز المسرحية ، وقد باشر سارتر العمل بالفصل الثاني .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت اولغا قد شفيت تقريباً ، وكانت قد ظهرت ثانية على المسرح بعدة أدوار ناجحة ؛ وبالرغم من نصائح الطبيب ، تمنّت ان تستعيد بأسرع وقت دور الكتر ؛ وكان هرمانتييه الذي كان قد قدّم « الذباب » في « نيم » يريد ان يقدّمها ثانية في « الفيو – كولومبييه » ؛ وإذن ، فقد كان يبدو ان الامور تتحسّن وتُسوّى . اما في الواقع ، فلا . كان هرمانتييه يعتقد انه يجسّد دولان ، ولكنه لم يكن يُحسن قيادة الممثلين ، ولم يكن يتحسّس النص . وكان يختار ديكورات وأثواباً فظيعة : فكانت المسرحية تصبح على يديه مذبحة . ولم تكن اولغا قد استردّت وسائلها : كان صوتها ونَفَسُها يخونانها . وكان سارتر منهمكاً بـ « الشيطان والرحمن » ، فلم يحضر تجارب الذباب الا نادراً . وقد كنت قلقة ليلة العرض الاول ، وكنت على حق : فقد وجد الجمهور التمثيلية رديئة جداً . وافتقر العشاء الذي جمعنا عند « ليب » مع اولغا وبعض الأصدقاء الى المرح والحيوية . وفيما بعد ، قطّع هرمانتييه النصّ ولم يُبق منه إلاّ هيكلاً ما لبث ان دُفن . وكان الأمر ذا أهمية لو لم يدفع هذا السقوط بأولغا الى التخلّي عن المسرح ، في حين أنها لم ترتكب الا خطأ العودة اليه أبكر مما ينبغي .

وكان سارتر بحاجة الى هدوء لينجز مسرحيته . وأخذتني الرغبة بالقيام برحلة تزلّج ، فصحبنا بوست الى اورون . واذ كنت متمدّدة على كرسي طويل ، يُعمي البياض عينيّ ، وتحرق الشمس جلدي ، عاودني مذاق سعادة قديمة جداً . وكان المراقبون أشدّ تساهلاً مما كانوا عام ٤٦ ، فكانوا يسمحون بـ « الستيم » ؛ وقد تسلّيت كثيراً . وكان على سارتر ان يدبّر مصير « دوزيا » ، ثم انه لم يكن قد تزلّج منذ وقت طويل ، فلو فعل الآن لأتاح المجال واسعاً لكثير من سوء النية ؛ ولهذا فهو لم يخرج من غرفته لحظة : فكان الناس في المحطة يعتبرونه مجنونـاً . «كنّا في مونترولك نتخبّط معاً على الدروب . لم يكن احد يعرفنا ، فيا لها من متع ! » وحين كنت أدخل في الساعة الخامسة الى غرفته ، دائخةً بالهواء وبرائحة الجبل ، كنت أراه

يكتب ، تسربله دوّامات من الدخان . وكان ينتزع نفسه بجهد كبير لكي يتناول العشاء في قاعة الطعام التي كنا نجد فيها امرأة شابة متوحّدة تقرأ كتاب « كارولين الحبيبة » .

كنّا طلبنا من ميشيل فيان التي كانت تمالك بيتاً في « سانتروبيز » ان تفتّش لنا فيها عن شقّة ؛ وكانت التي عثرت عليها تطلّ على شارع ضيّق ، وكانت مثلجة ، والمدخنة فيها لا تعمل . وكان ان هاجرنا الى « الايولي » ، فنزلنا فندقاً يملكة لوطيّ ، وكانت غرفة موثثة بأثاث راقنا كثيراً . واشتريت من جديد تنانير من عند مدام فاشون التي كانت آنذاك مجهولة تقريباً . ورأينا مرة اخرى « راماتويل » و « غاسين » ، وكنت أكتب وأقرأ في حين ان سارتر كان يظلّ غارقاً في المانيا القرن السادس عشر ؛ وكنت أجد مشقّة في جرّه الى الشوارع والدروب القصيرة .

وكان بيار براسّور راغباً في التحدث الى سارتر عن دوره في « الشيطان والرحمن » ، فأقبل يمضي بضعة أيام في جوارنا ؛ ولم يكن يشبه بعدُ الشاب الذي كان في « محطة الضباب » يتلقّى الصفعات بكثير من الموهبة ، كان ملتحياً ، وكان له صدر فارس عامر ، وطرافة « غوتز » . وكان يروي وعيناه تلتمعان بخبث لا يخلو من قلق ، حكايات عن المشاهير الذين كان قد تعرّف بهم ؛ وكان يقلّدهم تقليداً مدهشاً . لقد سرد علينا قصصاً لا تنسى ، على سطيحة « السانيكيه » في حديقة « اوبرج دي مور » ، حيث كان النحل يطنّ حول طبيخ ممزوج بالشمرة والصعتر ، وحيث كانت الشمس تذهّب قرافات الخمر المورّد . وكنت قد لمحت زوجته لينا مراراً في مقهى « بون — رويال » يوم كانت عازفة بيانو ، متوحّدة ، وكان شعرها الأسود يسترسل على كتفيها ؛ وكانت قد تخلّت عن البيانو وقصت شعرها ، ولكنها كانت ما تزال على جمالها . وقد أقاما في « موفان » وقضينا معهما فيها يومين ؛ وكان ثمة ايضاً هنري جانسون مع زوجته ، وكنت أجده ودّياً جداً ولكنه لم يكن قط مرحاً ، ومخرج « سهم في الجنب » الذي كان يُدعى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

« ريفير » الأصغر ، وكان يريد ان يقدّم « الأيدي القذرة » : وكان مشهوراً بأنه لا يقدّم قط مسرحية مرتين . وكانت سيمون بيريو تنوي تقديم « الشيطان والرحمن » في ايار ، فكادت تجنّ من تأخّر سارتر :

ـ ولكن ما باله ؟ هل أصبح عاجزاً عن الكتابة ؟

وكان صوتها الخفيّ يوحي بأن سارتر كان مصاباً بمرض مخجل ؛ كانت تتصوّر ان الكتابة إفراز طبيعي ؛ فاذا نضب الكاتب ، كأن شأنه شأن البقرة الحلوب : هناك شيء ما عضويّ لا يعمل . والحق أنها كانت محقّة بأن تقلق . فحين عاد سارتر الى باريس ، بدأت التجارب ، من غير ان يكون قد أنهى اللوحات الأخيرة .

وكانت المسرحية ، حتى في وضعها ذاك ، تدوم اكثر مما تدوم المسرحية العادية . وكانت سيمون بيريو تبتهل الى سارتر ، وهي تزداد ذهولاً ، ان ينهيها بعشرين جواباً ، وتطالبه بأن يقتطع منها : وكان سارتر يدّعي انها حين كانت تتيه عبر المسرح ، كانت أصابعها تقلّد آلياً حركة المقصّ ؛ وكانت تطلب من جميع أخصاء سارتر ان يضغطوا عليه ؛ وكان « كو » هو وحده الذي استجاب ؛ ولكنّ تدخّله استُقبل استقبالاً سيئاً جداً . وكان براسّور يؤيّدها لأن دوره كان يطفح عن ذاكرته . وكان سارتر يعرف وهو يخطّ كل كلمة ان همّ المديرة والممثّل الرئيسي الوحيد هو اقناعه بشطبها . وقد وجد مشقة كبيرة في انجاز اللوحة العاشرة ، بالرغم من أنه تصوّرها قبل سائر اللوحات ، تقريباً . كان المشهد يبدو تعليمياً ، مهما بلغ من عنف مآخذ هنريك ضد غوتز ؛ وقد التهب فجأة بالحمّى حين وضع غوتز نفسه موضع الاتّهام ، امام هنريك المشدوه . وحمل سارتر المخطوطة الى المسرح ، فقالت سيمون بيريو :

ـ سأدفعه الى الطبع على الآلة الكاتبة فوراً .

وكان « كو » ماراً في تلك اللحظة امام مقصورتها ، فلمح فيها هنري جانسون الذي كانت قد خبّأته فيها ، والذي سلّمته مخطوطة سارتر : كانت

تحذر سارتر وحكمه الخاص. ولكن جانسون طمأنها.

كان جوفيه، في مناقشاته، لا يتخذ موقفاً واضحاً: وكان عملياً قد مات؛ كان مريض القلب، وواثقاً من انه محكوم عليه عاجلاً او آجلاً، وكان قد كلّف مصوّراً، يوم الاربعاء المقدس، بأن يصوّره وهو يتلقّى المواعظ. كان يحتقر تجديفات سارتر. كان يَدَع المشاهد تترى من غير أية ملاحظة، وابهامه الأيمن مشدود الى نبضه الأيسر، وعينه على ساعته، بحجّة أنه يقيس زمن اللوحات. وذات مساء، تناولت العشاء بصحبة سارتر معه عند «لابيروز». وقد انتعش قليلاً. وقال لنا إن بالامكان استبدال بيت من كل اربعة من ابيات «راسين» بأية همهمة او حتى بكلمات داعرة، فان الجمهور لا يفقه منها شيئاً. وقد أثار هذا الاحتقار للنص قلقنا.

كان الممثلون يعزّوننا. ففي الفصل الاول كان براسّور يمثّل دور غوتز تمثيلاً مدوّخاً؛ ومن سوء الحظ انه كان يمثّل القسم الثاني كطرحٍ مزيّف، في حين أن غوتز، وهو في جنون عظمته، ينحاز باخلاص الى «خير» كاذب؛ وقد أسفت كذلك أنه رفض ان يتعلّم المونولوج الذي كان سارتر قد استوحاه من القديس يوحنا. على انه كان يستردّ نَفَسه في اللوحات الأخيرة. اما فيلار فقد «كان» هنريك حقاً: وقد رأيناه مرة، بعد ان استوقف سيارة اجرة، يمّحي ليـــدع شيطانه يصعد قبله. وكانت كازاريس وماري اوليفيه وشوفار، وجميع الممثلين تقريباً، ممتازين. وقد ألفيت ديكورات «لابيس» واقعيةً اكثر مما ينبغي. ولم يتمكّن سارتر من اقناع المسؤولين بتلطيخ وتمزيق الألبسة التي كانت أجمل جداً مما ينبغي، والتي أعدّها شياباريللي.

وكنا نلتقي كثيراً من الناس في أثناء التجارب. وقد اجتمعنا كثيراً ببراسّور ولينا. وتناولنا العشاء مع لازاريف الذي كان يساعد سيمون بيريو في تمويل المسرحية؛ وكان العشاء ودّياً، بالرغم من كل الذي كان يفصله عن سارتر. وكان كامو غالباً ما يأتي لاصطحاب كازاريس، فكانا يأخذان قدحاً مع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سارتر : وكانت هذه فرصة لبعث صداقتهما بعثاً جديداً ، ولكنه قصير .

واخيراً ، أصبحت المسرحية جاهزة ؛ ولكن ذلك كلفنا كثيراً من المنازعات والدسائس ، حتّى اننا اختصمنا ليلة العرض الأول مع سيمون بيريو ومع براسّور وزوجته ؛ وكان جوفيه قد سافر الى الريف . وانتظرت ارتفاع الستار ، وانا واقفة في جوف القاعة ، الى جانب لينا التي كانت ترتدي معطفاً مسائياً فاخراً ؛ كان الانفعال نفسه يشدّ على حنجرتنا ، ولكننا لم نتبادل كلمة . وكانت أعرف ما تعنيه الضربات الثلاث : الظهور المفاجيء لعمل عام ، بدلاً من نصّ مألوف ؛ وكنت أتمنّاه وأخشاه بضيق يفوق كل ضيق . ولكني سرعان ما داخلني الاطمئنان ؛ لقد صعد صوت صفّارة ، وحدثت بعض الارتعاشات ، لكن القاعة كلها كانت مأخوذة . وتهت ، منفرجة الأعصاب ، في الاروقة ، وانا اجلس بين الفينة والفينة في مقصورة سيمون بيريو من غير ان أكلّمها .

ولم تدعُ المؤلف ولا أصدقاءه الى العشاء الذي أقامته في مطعم مكسيم : وعلى اي حال ، ما كنّا لنتبعها اليه لو فعلت . وتناولنا العشاء مع كامو وكازاريس وواندا واولغا وبوست ، في علبة كانت تديرها امرأة من جزر الانتي تُدعى « مون » . وكان الاجتماع كئيباً بما فيه الكفاية : فقد كانت العلاقة بيننا وبين كامو تعود الى سابق فتورها . على اننا قضينا بعد ذلك امسية اكثر جذلاً ، حين ذهبنا في عصبةٍ مع ميرلو ـ بونتي وسيبيون الى مطعم « البلانتاسيون » الذي كانت تديره « ميراي تريبيل » في جادة ادغار كينيه . وكانت فيه فرقة جاز زنجية بارعة .

وكان استقبال المسرحية مهووساً ، سواء اكان معها ام ضدها . وقد أثارت غيظ المؤمنين المسيحيين . وكان دانيال روبس ، الذي أراد أن يبدأ الحملة ، قد حصل من سيمون بيريو على إذن بأن يحضر التمثيل ، قبل اربعة أيام من العرض الاول ، وهو مختبيء في احد مقاعد « البينوار » : وكان أن انهال عليها تجريحاً في « الاورور » . وادّعى مورياك وآخرون

ان سارتر لابدّ ان يكون مؤمناً بالله ، لكي يهاجمه هذا الهجوم العنيف . وأخذت عليه تجديفات مستعارة من نصوص كانت معروفة . ولكن كان له ايضاً أنصار . وبالاجمال ، فضّل النقاد الفصل الاول على الفصول الأخرى[1] ، وفاتهم مغزى المسرحية . وكان روبير كامب هو الناقد الوحيد الذي أشار الى صلة القربى بينها وبين دراسة سارتر عن جينيه ؛ فالموضوعات نفسها ماثلة : الخير والشر والقدسية والتخلي والشيطاني ؛ وغوتز ، على غرار جينيه ، هو نغل ، والنغولة ترمز الى التناقض الذي يعيشه سارتر بين مولده البورجوازي واختياره الفكري . وقد ارتكب النقاد خطأ فاحشاً حين ظنوا أن غوتز ، اذ يرتكب القتل في نهاية اللوحة الأخيرة ، انما يعود الى « الشر » . والحق ان سارتر ينصب هنا من جديد لاجدوى الاخلاق في وجه جدوى « التطبيق » . وهذه المقابلة تذهب هنا أبعد جداً مما كانت في مسرحياته السابقة ؛ إن تطوراً ايديولوجياً كاملاً ينعكس في « الشيطان والرحمن » . فالمفارقة بين ذهاب اورست في آخر « الذباب » وتحالف غوتز تمثل الطريق الذي قطعه سارتر من الموقف الفوضوي الى الالتزام . وقد سجّل كذلك : « إن عبارة : « لم نكن يوماً احراراً اكثر مما كنا في عهد الاحتلال » تنتصب ضد شخصية هنريك ، الخائن الموضوعي الذي يصبح خائناً ذاتياً ، ثم مجنوناً . وبينهما سبعة أعوام ، وطلاق المقاومة . »[2] لقد كان يعتقد في عام ٤٤ أن كل وضع كان يمكن ان يُتجاوز بحركة ذاتية ؛ وكان يعلم عام ٥١ ، ان الظروف تسرق منا احياناً تجاوزنا ، وليس في وجهها آنذاك خلاص فردي ممكن ، وانما صراع مشترك . على ان المناضل « ياسّي » ، بخلاف مسرحيات سارتر السابقة ، لا ينتصر على المغامر ؛ إنه هو الذي يقوم بين الوجهين بالعملية

---

(١) بعد عشر سنوات ، حين قدمت المسرحية مرة اخرى ، ومثل فيها « مسمر » القسم الثاني خيراً من القسم الأول ، قلب النقاد هذا الحكم .

(٢) مذكرات غير منشورة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التركيبية التي كان سارتر يحلم بها في مقدمته لستيفان : إنه يقبل نظام الحرب الفلاحية من غير ان ينكر ذاتيته ، ويحافظ في العملية على لحظة السلبي ؛ إنه التجسيد الكامل لرجل العمل ، كما كان يتصوّره سارتر .

« لقد جعلت غوتز يعمل مالم أكن أستطيع ان أعمل » .[1] كان غوتز يتغلب على تناقض كان سارتر يستشعره بصورة حادة منذ اخفاق « التجمّع الديموقراطي الثوري » ، ولاسيما منذ حرب كوريا ، ولكن من غير ان ينجح في تجاوزه : « ان التناقض لم يكن في الافكار . وإنما كان في شخصي . ذلك أن تلك الحرية التي « كنتها » كانت تفترض حرية الجميع . ولم يكن الجميع احراراً . ولم أكن استطيع ان أضع نفسي تحت نظام الجميع ، إلاّ بأن أتحطم . ولم اكن استطيع ان اكون حراً وحدي »[1] . كان يُحسّ ذلك التمزّق بشكل واضح وضوحاً فريداً في الميدان الذي كان حريصاً عليه كل الحرص : الاتصال . « المطلوب هو التحدّث الى الذي لا نستطيع اقناعه (الهندوكي الذي يموت جوعاً) وإلا كان الاتصال كله فاسداً . وهذا هو بكل تأكيد معنى تطوّري وتناقضي . »[1]

لم يكن يكفيه أنّه أعطى مشكلته حلاً جمالياً . كان يبحث عن الوسيلة التي تمكنه من ان يفعل ما فعله غوتز .

* * *

أنهيت ، حوالى حزيران ، كتابةً اولى لروايتي ؛ وخلافاً لعادتي ، لم أكن قد اطلعت سارتر على شيء منها ؛ لقد جهدت في ان أنتزعها من نفسي ، ولم أكن لأتحمل ان يقع ايّ نظر ، وحتى لو كان نظره ، على الصفحات التي كانت ما تزال حارّة . سوف يقرأها في اثناء العطلة . وبالانتظار ، دفعتني الظروف ، ولذّتي الخاصة ، الى الكتابة عن « ساد » . وكان الناشر « بوفير » قد طلب مني ، قبل ذلك بعامين او ثلاثة ، مقدمة

(١) مذكرات غير منشورة .

ا « جوستين » . ولم أكن اعرف جيداً « ساد » . وكنت قد وجدت كتابه « الفيلسوف في العدالة » مضحكاً ، كما وجدت اسلوب « نحوس الفضيلة » مملاً ، و « ايام سدوم » مجرّداً ونظامياً . اما « جوستين » الملحمي ، المنطلق ، فقد كان كشفاً لي . كان « ساد » يطرح مسألة « الآخر » بعبارات متطرفة ؛ فالرجل من حيث هو تجاوز ، والرجل من حيث هو موضوع ، يتجابهان بصورة دراماتية ، عبر المبالغات . ولكن كنت بحاجة الى وقت لدراسته ، فكان أن أعدت تجارب المطبعة للناشر . وفي عام ٥١ ، عرض عليّ « كونو » ان أختار مؤلّفاً أدرسه ككتاب قيد الاعداد: « مشاهير الكتاب » ، فاخترت « ساد » . واردت ان اقرأ كل شيء ، حتى من أجل دراسة موجزة ، وبدأت بحثاً أعددته « التان مودرن » . وأعاروني في « جهنم » دار الكتب الوطنية طبعة لطيفة للقرن الثامن عشر مزينة بالرسوم : أشخاص بشعورٍ مستعارة وثياب احتفالية ، وهم منصرفون بهيئة غائبة الى تمارين معقّدة . وقد كانت قصص « ساد » غالباً في مثل برودة هذه الصور ؛ ثم تنبعث صرخة ، وينبثق ضوء كان ينقذ كل شيء .

* * *

منذ أعوام وأنا أعهد في مخطوطاتي الى « لوسيان بودان » لتضربها على الآلة الكاتبة ؛ وهي امرأة في مثل سني ، لذيذة عذبة ؛ وكانت لها طفلة في العاشرة من عمرها . وبالرغم من بعض المغامرات مع الرجال ، فقد كانت ميولها تدفع بها نحو النساء ؛ وكانت تعيش مع امرأة خمسينية ، وكانتا تربيان البنت معاً . وقد كانت تحدثني عن مشكلاتها ، وعن متاعبها المالية ، وعن صداقاتها ، وعن غرامياتها ، وعن ذلك العالم الذي هو معروف أقل من عالم اللوطيين ، النساء الشاذّات جنسياً . وكنت أراها قليلاً ، ولكن في تعاطف . وجاء وقت بدأت تقوم فيه بعملها قياماً رديئاً ومن غير دقة ؛ وأصبحتْ عصبية ، وقالت لي :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– أعتقد أنّ لديّ شيئاً في الثدي .

فحثثتها على ان ترى طبيباً ، فقالت :

– انني لا أستطيع ان أتوقف عن العمل .

وبعد انقضاء عام ، قالت لي :

– انني مصابة بالسرطان . وقد كبر حتّى أصبح بحجم حبة الجوز .

وأرسلوها الى معهد السرطان في « فيلوجويف » . وقد ذهبتُ ازورها ، ولدى وصولي انخرطتْ بالبكاء ؛ وكانت تتقاسم غرفتها مع ثلاث مريضات اخريات ؛ كانت احداهنّ ، وقد قُطع أحد ثدييها ، تئنّ من الألم بين حقنتين من حقن التخدير ؛ وكان المرض لدى الثانية قد انتقل الى الثدي الأيسر ، بعد مضيّ أعوام على قطع ثديها الأيسر . وكانت لوسيان مذعورة . فان الاوان كانت قد فات لاجراء عملية لها ، فكانت تعالج بالأشعة . ولكن الأشعة لم تنجح ، فأعادوها الى منزلها وحقنوها بالأتوار الذكَرية . وحين عدت لأراها ، كدت لا أعرفها : كان وجهها متورّماً ، وكان شاربٌ يظلل شفتيها ، وكانت تتكلم بصوت رجل ؛ ولمعان اسنانها البيضاء هو وحده الذي لم يُمس . وبين الحين والحين ، كانت ترفع يدها الى صدرها الملفوف بالعصائب ، وترسل الأنين : وكان يسهل على المرء ان يحدس برخاصة تلك الرزمة من الغدد التي عشّش فيها الفساد ، وقد أردت أن ألوذ بالفرار . كانت تبكي . وكانت تكتب الى بعض الشُفاة ، وتجرّب مخدّرات معجزة ، وكانت تحلم بالسفر الى اميركا لاستشارة اخصائيين . وكانت تبكي من جديد . وأُخذتْ الى المستشفى : فكان في الأسرّة المجاورة نساء عجائز يمتن من السرطان . وتابعوا حقنها بالأنوار . كانت متورّمة ، وكان زغب لحيتها ينمو ، وكانت تزداد قبحاً مضحكاً ، وكانت تتألم ولا تستسلم لموتها . وحين عدت من سان تروبيز ، قالت لي صديقتها إنها كانت تحتضر ؛ وماتت في اليوم التالي بعد ان تخبّطت اربعاً وعشرين ساعة . وقالت لي صديقتها :

ـ يبدو عايها وكأنها عجوز في الثمانين .

ولم أوت الشجاعة على ان اذهب لأنظر الى جثتها .

وقد أغمّت هذه الحكاية سنة كانت كئيبة لي ، بالرغم من أعمالي ومباهجي والانفعال الذي خلفّته في نفسي مسرحية سارتر . كان الناس شرسين : وبالرغم من عزل ماك أرثر ، ظلّ القتال دائراً في كوريا ، وكان الاقتصاد الفرنسي متأثراً به . وفي جنازة بيتان ، تظاهر الفيشيون والمتعاونون القدامى تظاهراً بارقاً ، وانتهت الانتخابات بانتصار الديموقراطية البورجوازية ، بفضل نظام « الاضافات الانتخابية » . وكان سارتر يتأمل بلا مرح مجرى الأحداث وتطوّر موقفه ، وكان ذلك يحزنني . وآلمني إخفاق اولغا . وكنت قد وجدت مشقّة في تصفية علاقتي بالغرين . ولم يكن قد تزوّج ، ولكن ذلك لم يحدث فرقاً . كان مجدياً أن أتساءل عن عواطفه : فحتّى لو كان يكلفه غالياً ان يبعدني ، فانه سيفعل اذا رأى ذلك ضرورياً . كانت تلك قضية منتهية . وقد كنت أقلّ تأثراً بها الآن مما لو كانت قد حدثت قبل ذلك بعامين : لقد كان مستحيلاً الآن ان أغيرّ ذكرياتي الى أوراق ميتة ، فانها دراهم ذهبية رنانة . ثم انني كنت قد انتقلت في « ميللر » ، خلال شهرين ، من الحذر الى الاستسلام . لم أكن اتألم . ولكن كان فراغٌ ما ينحفر بين الحين والحين فيّ ، فيخيّل إليّ ان حياتي تتوقف . وكنت انظر الى ساحة سان جيرمان دي بريه : لم يكن ثمة شيء ، من الخلف . كان قلبي يخفق في مكان آخر ، في وقتٍ ما ؛ اما الآن ، فقد كنت حيث كنت ، لا اكثر ولا أقل . فأية صرامةً !

كنا نتبادل رسائل قليلة من غير ان نقول شيئاً كثيراً . وفي رسالة تلقيتها في سان تروبيز ، اقترح عليّ قضاء شهر تشرين الاول في « ميللر » . وكان يعرض ، بلا التباس ، هذه الصداقة التي كان من اليسير تغذيتها حين يكون انفصال قد حدث بلا ضغينة ، وحين يكون الطرفان مقيمين في المدينة نفسها . واستشرت سارتر ، فقال :

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ولِمَ لا ؟
وقبلت دعوة الغرين .
وفي آخر حزيران ، قدمت ليز الى باريس بصحبة ويللي وبرنار . وكان اصدقاؤها يغتبطون لرؤيتها ثانية ، وكانت لدى وصولها تشعّ إشعاعاً ؛ ولكن الخيبة كانت كبيرة من الجهتين : لقد كفّت عن ان تفهمنا ، وبدت لنا بعيدة عنا جداً . وأثارت دهشة سيبيون حين أخذت عليه ألاّ يضع كل شهرٍ ميزانيته . وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد أصبحت وطنها ؛ وكانت تعجب او تقبل كل شيء فيها تقريباً . ويوم ١٤ تموز ، طفت معها ومع عصابة كبيرة بمراقص الحيّ : وتوقفنا في « مرقص الحجلين » تجاه « الكلوزوري دى ليلا » . ولكني حين ودّعتها ادركت انها لم يكن لديها اية رغبة في العودة ، حتى ولو كانت عودة موقتة . وتبادلنا الرسائل بضعة أعوام . ورويداً رويداً انتصر لديها الحقد على جميع العواطف المختلطة التي كنت أوحيها لها . وكان ان قطعت هذه المراسلة . اما الآن ، فنحن نتبادل بطاقات تهنئة بعيد الميلاد . وقد تزوجت ثانية ، واصبح لها اولاد ، ويبدو أن حياتها مزدهرة ميسورة ، رغم بعض الاضطرابات الجسمية الرصينة وبعض الوان عدم الاكتفاء .

• • •

في منتصف تموز استقللنا الطائرة إلى أوسلو ، وخلّفت ورائي أحزاني . ووضع ناشر سارتر النروجي سيارة وسائقاً تحت تصرفنا لاجتياز « التيليمرك » : غابات صنوبر وبحيرات ، وكنائس خشبية قديمة منتثرة في توحّد بين القفار ؛ ثم كانت « برغن » بمستودعاتها القديمة وبيوتها العتيقة الخشبية المتعددة الألوان المحيطة بمرفأها الهادىء ، وحركة سوق السمك فيها . وفي المساء ، صعدنا ظهر سفينة ؛ وعند كل محطة ، كانات باصات تحملنا إلى الأراضي . وكان قد سبق لسارتر أن شاهد تلك الأمكنة مع أسرته . وفي مدن الشمال ،

الخشبية هي أيضاً ، كان ثمة حدائق يقوم فيها الحصى مقام الأراضي الخضرة والأدغال. وكنت في النهار أقرأ ، فيما أنا جالسة على ظهر السفينة ، « حياة الدكتور جونسون » و « يوميات » بوزويل. وكنت في المساء أنظر طويلاً إلى الشمس الثابتة في طرف الأفق وإلى السماء في بحرانها. كرة من نار وسط الظلمات : على هذا النحو ، كانت فتاة صغيرة في أول قصة كتبها سارتر تتخيّـــل شمس منتصف الليـــل ؛ وكانت الحقيقة قد خيّبته : كل ما في الأمر أن الوقت كان منتصف الليل ، وكان النهار طالعاً. أما أنا ، فلم تصبني الخيبة ، كانت وقاحة الضياء الليلي تحجزني على ظهر السفينة حتّى الساعة التّي هي في مكان آخر ساعة الفجر. وتجاوزنا جروفاً مثلجة كان بياضها يسقط عمودياً في البحر. ومن « كيركنس » حملنا باص إلى الحدود الروسية : وكنا نلمح عبر أدغال وأسلاك شائكة حراساً ذوي نجوم حمراء. وكنت منفعلةً أن أرى بأم عيني هذا البلد المحظور الذي كان يعني لنا أشياء كثيرة. وعدنا ، ونحن نرسو في مرافىء أخرى. وعاد بنا قطار البرجسين ، وهو إحدى مفاخر النروج ، إلى أوسلو : إنه السكة الحديدية الوحيدة في العالم التّي تجتاز المناطق الجليدية ؛ انها لا ترتفع إلى أكثر من ١٣٠٠ متر ، ومع ذلك فقد سرنا ساعات في الثلوج الخالدة.

كان سارتر قد حطّ ، مثلي ، في ايسلندا ، وقد تواعدنا على أن نراها. ولقد قضينا فيها عشرة أيام مدهوشة. لم يكن ذلك البركان الفتيّ ، المعمور منذ القرن العاشر فقط ، يملك تاريخاً ، حتّى ولا حيوانات متحجّرة ؛ وكانت الغدران ترسل بخاراً ، والتدفئة المركزية تستعمل مياهاً تجري تحت الأرض ؛ وكان أصعب شيء في غرف الفنادق الحصول على ماء بارد ؛ وفي الحقول كانت تنتصب غرفٌ هي « حمّامات بخارية ». ولم يكن ثمة أشجار تقريباً ، بل صحارى من سائل البركان ، وجبال بلون البيض الفاسد ، تبصق أبخرة من الكبريت ، وهي مثقوبة بـ « قدور شيطانية » يغلي فيها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوحل ؛ وكان ثمة زَبَدٌ حديدي يرسم في البعيد مدناً عجيبة الأشكال. وكانت هذه البراكين تعتمر بحقول من ثلج وأكوام من جليد ، وكان بياضها يمتدّ حتى داخل البحر. لم يكن ثمة قطارات ، وكانت الطرق قليلة جداً. ولم يكن المسافر في الطائرة يكتفي بالجلوس إلى جانب قرويين محمّلين بأقفاص الدجاج ، بل كانت رحلات قطعان الخراف تتمّ جواً كذلك. وكان القرويون أشد شبهاً برعاة البقر الأميركيين منهم بفلاّحي أوروبا القديمة : إنهم يرتدون لباساً نظيفاً ، وينتعلون حذاء ، ويسكنون بيوتاً مزودة بجميع وسائل الراحة العصرية ويتنقلون على الخيل.

ولئن كانت المناظر تتميّز بجمال كوكبي ، فان المدن ببيوتها الخشبية ذات السقوف المصفّحة كانت حزينة جداً. وكانت ريح هائلة تنقضّ بلا هوادة على شوارع « ريجكجافيك » المستقيمة. وقد نزلنا فيها ، كسائر الأجانب ، فندق « بورغ ». وكانت الأعلام على موائد قاعة الطعام تدلّ على جنسية الزبائن. وقد استقبلنا فرنسيّو المحلّة استقبالاً طيباً ، وكان بينهم بول ــ اميل فيكتور. وقد كان يُنزل بالمظلّة ، بضع مرات في الأسبوع ، موناً وأدوية وأواني ، في محطات بغرونلاند. وكان يقول في المساء : « إنني عائد من غرونلاند » كما لو أنه كان قد ذهب يقضي نهاره من باريس إلى « مودون ». وكان يحدّثنا عن سكان الأسكيمو ، وعن رحلاته ، وعن تجاربه كمظلّيّ. وكان ثمة سينمائيان كذلك ــ كنت قد عرفت أحدهما في هوليوود ، والآخر هو أحد مرتادي مقهى « الفلور » ــ كانا يصوّران فيلماً وثائقياً. وقد صحبانا بالسيارة إلى بحيرة « تانغلير » التي كانت مياهها الزرقاء مزروعة ببراكين صغيرة وبأبخرة شبيهة بتلال هائلة. وقد التقينا أيضاً بابن سكوت ، الرحالة ، الذي كان يأسر حيوانات متوحشة ، وبعالم جيولوجي ايسلندي كان يصطاد الحصى ؛ وقد تنزّهنا معهما في أمكنة مزروعة بأحجار أكثر تلوّناً من مصاطب زهور. وذهبنا بالطائرة إلى « اكويريري » الكئيبة التي تابعت فيها بطائرة شراعية الشاطىء الشمالي

حتّى المرفأ الصغير الواقع في طرف الجزيرة الشمالي . وكان يصحبني في هذه الرحلة صبيّان ملتحيان قالا لي : « إننا نطوف بايسلندا بطريقة الأوتوستوب »

كان الايسلنديون يشربون كثيراً : وكانوا قادرين على أن يصنعوا عرقاً من الشمع . وكان عمل الشرطة الرئيسي التقاط السكارى من المجاري في الليل . وقد أقيمت مساء السبت حفلة راقصة في فندق بورغ ، فكان رجال الشرطة يحملون رجالاً يرتدون السموكن ، وقد تلطّخت صدراتهم ، فيلقونهم في السيارات .

وأقيم استقبال لدى وزير فرنسا المفوض : وهو أحد الأمكنة النادرة في العالم التي كان فيها رسميون روس وأميركيون يشربون معاً . وتحدثت بالانكليزية إلى زوجة دبلوماسي سوفياتي كانت تضع على رأسها الأشقر آنية زهور . وقالت لي :

ـ أودّ لو أرى باريس .

فقلت لها : ـ أودّ لو أرى موسكو .

ولم نزد على ذلك شيئاً . ثم اتجهنا إلى أدمبورغ . وكانت اسكتلندا أقل روعة من ايسلندا ، ولكنها كانت جميلة . وقد قطعناها بالباخرة ، من بحيرة إلى بحيرة ، ومن جزيرة إلى جزيرة . وشاهدنا جزيرة أيونا المسطحة المتقعة وآثارها السلتية ، وجروف « فنغال » التي كانت أمواج هائلة تحمي يومذاك غيرانها ؛ وعبر غيران « الهيريد » قرأت قصة الرحلة التي قام بها هناك جونسون وبوزويل . واجتزنا منطقة شاسعة من الروابي ونبات الخلنج ؛ وعلى الخرائط ، كانت الأمكنة الشهيرة التي تُزار موسومة إما بسيفين : وهذا يعني معارك ، وإما بسيف واحد : وهذا يعني مذابح . وقد تنزّهنا في مناظر والتر سكوت ، ورأينا دير « ملروز » . ولكن الصرامة الاسكتلندية أزعجتنا . كنّا نجد مشقة كبيرة في العثور على غرف ، وإذا وجدنا ، كان يستحيل علينا العمل فيها : فلا مصباح مكتب هناك ولا طاولة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكانوا يقولون لسارتر :

ـ إذا كنت تريد أن تكتب ، فاذهب إلى قاعة الكتابة .

وكان يضع أوراقه على طاولة الليل القريبة من سريره ، أو على ركبتيه . ولم تكن ساعات الطعام دون ذلك صرامة ؛ وإذ كنّا ننتظر باخرة تحت المطر ، عند الساعة العاشرة صباحاً ، لم يوافق أي فندق على أن يقدّم لنا فنجان قهوة بالحليب ولا قطعة خبز : وكان الوقت متأخراً بالنسبة لفطور الصباح ، ومتقدماً بالنسبة للغداء . وقد كانت المدن ذات كآبة مثبطة للهمّة .

وفي لندن توقفنا خمسة عشر يوماً . وبطريق الاتفاق التقينا في أحد المطاعم مامين زوجة كوستلر ؛ وكانت قد طُلّقت ، ولكنها كانت تحتفظ بجمالها ودقة عودها . وقد صحبتنا مع صديقتها سونيا ، أرملة جورج اورويل ، إلى أحد النوادي الخاصة التي هي في لندن الملجأ الوحيد لروّاد الليل ، واسمه « الغارغويل » وهو يقع في طابق سادس . وقد التقينا فيه بعض الأشخاص كان بينهم حفيدٌ لفرويد يتعاطى الرسم ، وشربنا الخمر . وفي الصباح ، حين ذهبنا نستقل الطائرة إلى باريس ، قال المضيف إذ رآني متعبة متحلّلة :

ـ إن هذه مريضة قبل أن تسافر !

وفي أثناء رحلتنا في النروج ، أطلعت سارتر على روايتي في حالتها الأولى . فقال لي : ستكون خير كتبي ، ولكن كان عليّ بعدُ أن أشتغل كثيراً . لقد كانت الحبكات المبنيّة بناءً جيّداً تزعجني بصناعتها ؛ وكنت قد أردت أن أقلّد فوضى الحياة وتردّدها وعَرَضيتها ؛ وكنت قد تركت الأشخاص والأحداث يجزون في كل اتجاه ؛ أما المشاهد التي كان ينبغي أن تُعمل ، فلم أكن أعملها ؛ كانت جميع الأشياء الهامة تجري في الكواليس ، وقال لي سارتر : إنه كان ينبغي إما أن أتبنى تكنيكاً مختلفاً كل الاختلاف ، أو أن أطبّق التكنيك المستعمل تطبيقاً دقيقاً ، ما دام يلائم موضوعي . أما الكتاب في وضعه الحاضر ، فقد كان سيء التركيب ، وكان يثبّط

الاهتمام . وأقنعني بأن أحبك فصولها حبكاً أمتن ، وأن أدخلها فيها ذبذبات وانتظارات . أما الحوار ، فكنت قد أدركت مصاعبه ، ولكني لم أتغلب عليها ؛ وقد كان المثقفون يتحدثون أحياناً عن أفكارهم ويناقشون ويبرهنون : ولكن هذه الأحاديث ، حتى ولو كانت موجزة ومحورة ، توشك ان تُسئم ؛ وكانت في الواقع تسئم . وكان ثمة شيء آخر يزعج سارتر : لقد كان القاريء ، لكي يؤمن ايماناً كاملاً بشخصياتي ، محتاجاً الى ان يعرف آثارهم ؛ ولم يكن باستطاعتي ان اؤلفها بدلاً منهم ، ولذلك كانت حقيقتهم الموضوعية تُفلت ؛ لم يكن عملهم ، وهو جوهر حياتهم ، يتعين الا بصورة غير مباشرة ، بصورة هامشية . وهذه النقيصة الأخيرة كانت ملتحمة بمشروعي . ولكني قررت ، فيما يخص الباقي ، ان أعود الى كتابة كل شيء من جديد . إن محرري الاجتماعيات في الصحف يروون في مثل هذه الحالات أن الكتاب « قد احرقوا كل شيء وبدأوا من جديد » : والحق ان احداً لا يفعل ذلك . وانما نحن نستند الى العمل الذي كنا قد قمنا به .

قضيت شهر تشرين الاول عند الغرين . طائرة ، قطار ، سيارة : كنت هادئة حين وصلت الى البيت القائم في جادة « فورست » ؛ ولم يكن قد بقي لي ما أربحه او ما أخسره . لقد كانت من جديد روعة « الصيف الهندي » . ومن جديد ، سبحت في البحيرة ، وقرأت تحت الشمس ، وشاهدت التلفزيون ، وأنهيت دراستي عن « ساد » . ولم أزر شيكاغو الا قليلاً . وذات ليلة شربت قدح مارتيني مع الغرين في « تيب – توب – تاب » ، على ارتفاع عشرين طابقاً فوق أنوار المدينة ، ثم رأينا « النهر » لرينوار : اكذوبة غير محتشمة أنامت الغرين . وفي مرة أخرى ، ألقى الغرين محاضرة في ناد اسرائيلي ؛ كانت نزعة مكافحة السامية قوية جداً في شيكاغو ، وكنت أتصور أن الذين يكابدون منها كانوا يميلون الى الشك بالنظام القائم . ولكن حين راح الغرين يدافع عن متعاطي التخدير ، مهاجماً المجتمع الذي كان يدفع الشبيبة الى الوان حزينة من الهروب ، لم ألمح الا وجوهاً متجهمة .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وسمعت من يتمتم : « إنه يكتب أفضل مما يتكلم » . وقد فضح كذلك فساد الشرطة[1] . فأجابه قاضٍ بتمجيد فضائل « الفتيان الزرق » : اي رجال الشرطة . وكان ان هتفً له الحضور .

كان الغرين على وشك ان يتزوج ثانية بزوجته السابقة . وكنت أتنزّه على الشاطيء في الايام الأخيرة من تشرين الاول ، بين التلال المذهبة والمياه ذات اللون الازرق المتغير ، فكنت افكر بأني لن أراه بعدُ ابداً ، ولا البيت ، ولا البحيرة ولا هذا الرمل الذي كانت طيور طويلة الساق تدرج عليه ؛ ولم اكن اعرف ما الذي كنت آسف عليه اكبر الأسف : اهو الرجل ام الطبيعة ام انا نفسي . وكنا نودّ كلانا ان نختصر شكليات الوداع : فاتفقنا على ان يضعني الغرين حوالي الظهر في القطار المتجه الى « غاري » ، ثم اذهب وحدي الى المطار . وفي النهار الأخير ، بدا لنا الصباح طويلاً ؛ وكان كل منا يرفض ان يحدّث الآخر ، وكنا منزعجين ان نظلّ صامتين . وقلت اخيراً اني كنت مسرورة باقامتي ، وانه كان يبقى بيننا على الأقل صداقة حقيقية . فقال لي بقسوة :

— ليست هي الصداقة . انني لن أستطيع ابداً أن أعطيك اقلّ من الحب .

وكانت هذه الكلمات المفاجئة ، بعد تلك الأسابيع المطمئنة ، تطرح كل شيء من جديد : فلئن كان الحب باقياً بعد، فلماذا ذلك الوداع النهائي ؟ وعاد الماضي كله الى قلبي ، وكانت هزيمتي لا تحتمل ؛ ولم أكفّ عن البكاء في السيارة ، والقطار ، والطائرة ، وذلك المساء في نيويورك حين كنت أشاهد فيلما لوالت ديزني كانت الوحوش فيه تأكل بعضها بعضاً الى مالانهاية . وفي غرفتي في فندق لنكولن ، كتبت وعيناي تغشّيهما الدموع رسالة قصيرة الى الغرين : هل انتهى كل شيء ام لا ؟ ووصلت الى باريس في « يوم

---

(1) وقد اعترف رسمياً بعد عشر سنوات بهذه الحقيقة : فلوحق عدد كبير من رجال الشرطة بتهم السلب والشانتاج والتواطؤ الخ ... وكان لا بد من هـذا الوقت كله لكي تنفجر الفضيحة ، ولكن الامور في عام ١٩٥١ كانت تجري كما في عام ١٩٦٠ ، وكـان كثيرون يعرفون ذلك .

الموتى » ، وكان في كل مكان أقحوان وأشخاص في ثياب الحداد . ولم اكن اعرف الجواب عن سؤالي . وكتب لي الغرين :

« إن بوسع المرء ان يحفظ عواطف ما لشخص ما ، ولكنه لا يقبل بعدُ ان تقود كل حياته او تزعجها . فأن يحبّ امرأة ليست له ، وهي تفضّل أشخاصاً آخرين وأشياء اخرى عليه ، من غير ان يكون وارداً ان تفضّله هو ، إن ذلك غير مقبول . انني لست آسفاً على اية لحظة من اللحظات الّتي قضيناها معاً . ولكنني أصبو الآن الى لون آخر من الحياة ، مع امرأة وبيت لي... والخيبة الّتي استشعرتها منذ ثلاثة اعوام ، حين تحقّقت أن حياتك كانت ملك باريس وملك سارتر ، قد اصبحت الآن قديمة ، وقد ضعفت . وما حاولت ان افعله منذ ذلك الحين ، هو ان استردّ منك حياتي . انني حريص جداً على حياتي ، ولا يروق لي ان تكون ملك شخص بعيد هذا البعد ، شخص أراه بضعة أسابيع فقط في العام ... »

ولم يكن لي بعدُ الا ان أخطّ خطّاً . ففعلت .

* * *

في اثناء الاحتلال ، حين كنّا نجهد انا وسارتر في امتطاء الدراجة على الشواطيء ، كنّا نحلم باقتناء دراجة بخارية . وفي عام ١٩٥١ ، كان قد أصبح سهلاً ان نحقّق مشروعاً اكثر طموحاً ، وكنت اداعبه قبل الحرب : شراء سيارة . وقد اخترت ، بناء لنصيحة جينيه ، سيارة « سيمكا » صغيرة من طراز جديد : « اروند » . وأخذت دروساً ، في ساحة مونبارناس ، على يد معلّم يحمل اسماً مهيأً : السيد « فواتوران » [1] وكان بوست قد حصل آنذاك على رخصة القيادة ، فكان يصطحبني صباح الأحد الى ضواحي باريس حيث كنت اتدرّب : وكم عانيت من آلام ! لقد عبرت احدى القرى ، وانا أسير ببطء شديد من حسن الحظ ، حين صعدت الى

(١) الاسم يعني بالفرنسية ما يمكن ان نطلق عليه بالعربية « السيارجي » . (م.م)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رصيف : فأرعبت الناس وارتعبت . على اني انا التي لم يسبق لي قط ان قُدت أية آلة ، كان يسعدني ان تطيعني هذه تقريباً . وحين حصلت على الرخصة ، طالت نزهاتنا التي كانت اولغا تشاركنا فيها غالباً : كانت تدوم يوماً بكامله او حتى يومين . وكنت احبّ طرق الغابات ، حين يتسربل لونها الأحمر بفرو أبيض في الشتاء ؛ وكنت احب الربيع النورمندي ، ومستنقعات « سولونيا » وقرى تورين ، وقد اكتشفت كنائس وأديرة وقصوراً . وقصدت « اوفير » ، فرأيت مقهى فان غوخ ، والكنيسة والسهل ، والبلاط التوأم المختبيء في المقبرة تحت اللبلاب.

وبمناسبة العرض المئة « للشيطان والرحمن » دعت سيمون بيريو علية القوم الى حفلة استقبال في الكارلتون ؛ فلم يظهر فيها المؤلف ولا أصدقاؤه . والتقينا من جديد في « البلانتاسيون » حيث كانوا يقدمون الآن بعض المشاهد باللباس التنكّري . وروى لنا كو الذي كان قد قام بقمزة الى الشانزليزيه العيد الرسمي . وليلة عيد الميلاد ، أقمت سهرة عندي ، كالعام السابق .

وكان المسهمون في تحرير « التان مودرن » ما يزالون يلتقون في منزل سارتر ، بعد ظهر يوم الأحد ، على انغام القُرب : كان بعض سكان بريتاني يرقصون في مبنى مجاور ، وكان موسيقيون باللباس الرسمي يعزفون على العتبة انغاماً فولكلورية . وكان ثمة محرّرون جدد قد انضموا الى المجلة : بيجو وكلود لانزمان وشامبور ؛ وكان سارتر قد اشترى كراسي قابلة للطيّ لكي يتمكن الجميع من الجلوس . وكان لانزمان وبيجو من محرّري الصحف الذين يتولّون اعادة كتابة المقالات ، وهو عمل كان يتيح لهما ان يكسبا مالاً وفيراً ، ويترك لهما الوقت للقيام بشيء آخر . وكانت لهما ثقافة فلسفية صلبة ، ولكن السياسة كانت لديهما في المكان الأول . وقد ساعدا سارتر أن يعيد الى المجلة الطابع السياسي ، وكانا خصوصاً هما اللذين وجّهاها نحو تلك « الرفقة النقدية »[1] مع الشيوعيين التي كان ميرلو ــ بونتي قد تخلّى

(١) « ميرلو ــ بونتي » حياً .

عنها . وكنت أكنّ كثيراً من الودّ للانزمان . وكانت كثير من النساء يجدنه جذّاباً : وانا كذلك . وكان يتناول بلهجة مرحة ابعد الأحاديث تطرّفاً ، وكانت طريقة تفكيره شبيهة بطريقة سارتر . وكانت روحه الفكاهية الزائفة السذاجة تبثّ المرح في كثير من الجلسات . وكنّا نناقش الأمور طويلاً ، فيما نحن نشرب عصير الفريز ؛ كنّا نلقي الاقتراحات ونهرف ونتبادل الجواهر المقطوفة من مجلة « مشاهد فرنسا » ومجلة « ريفارول » . وابتداء من تشرين الثاني ، طلب سارتر متطوّعاً ليقدّم عرضاً لكتاب كامو « المتمرّد » . وكان يرفض ، بداعي الصداقة ، ان يُقال عنه ايّ سوء ؛ على انه لم يكن ثمة بيننا من يفكر بأنه جيّد . وكنّا نتساءل كيف نخرج من هذا المأزق .

إن هذه الاجتماعات تُعدّ من أندر اللحظات السعيدة في فترة كانت من اشد فترات حياتي ظلاماً . كانت الأمور في فرنسا ، كما في الخارج ، تسير من سيء الى اسوأ . وكان « ارباب المهن الأكثر تخلّفاً في العالم » يمضون بعناد في المالتوسية ؛ وكان الانتاج لا يتعدى المستوى الذي كان عليه عام ١٩٢٩ ، ولم تكن الأسعار تكفّ عن التضخّم ، في حين ان الرواتب لم تكد تتغيّر . وكانت البورجوازية لا تبالي بهذا الكساد ، وكانت تزداد ضراوة ضد الشيوعية . وكانت الأوساط المالية العليا والحكومة تدفعان بجان بول دافيد لكي يشدّد دعايته ضد « الطابور الخامس » : فكان له برنامج في الاذاعة ، وكان يغرق باريس بالبيانات والمناشير . وأخفق اليسار المنقسم في ايقاف حرب الهند الصينية ، كما أخفق في تبني السياسة الاستعمارية ، بالرغم من غليان افريقيا السوداء[1] ؛ وباستثناء لافتات « ايها الاميركيون : عودوا الى بلادكم » لم يكن لدى اليسار ما يعارض به ذلك الاحتلال الموحل الذي كان سارتر قد تنبأ لي به لعامٍ خلا . وفي الولايات المتحدة ، بلغت الجرأة بمكارثي ان هاجم في شهر حزيران الجنرال مارشال ، ثم دين اتشسيون ،

---

(١) في كانون الاول جرت محاكمة الـ ٤٦٠ زنجياً من زنوج شاطيء العاج الذين اوقفوا في الظروف التي اشرت اليها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبدأ التحقيق مع موظفي الأمم المتحدة الاميركيين ؛ وكانت ألوان التعذيب هذه التي كانت تبدو بلا مواربة مقدّمات لحرب وقائية أعلنها ايزنهاور نفسه في المقابلة التي اعطاها لـ « ماتش » في تشرين الاول : كان لا بد لجيوش الغرب من ان تتأهّب للقتال قريباً في ضواحي لنينغراد. ونشرت مجلـة « كوليرز ويكلي » في احد أعدادها ريبورتاجاً عن حالة العالم ، بعد خمس سنوات من الحرب الذرية ، اي في عام ١٩٦٠ . وكان خيالي يرفض الكوارث ولكني لم اكن اومن كذلك باستمرار السلام : فكما في عام ١٩٤٠ كان المستقبل يفرّ . وكنت آسن من غير ان أعيش ؛ وكنت مجروحة باستعباد فرنسا ، كما كنت في ذلك العهد . وفي احدى الامسيات ، بعد نزهة في السيارة ، تناولت العشاء مع اولغا وبوست في فندق بـ « شينون » ؛ وكانت قاعة الطعام لطيفة ، وكنا نشرب خمراً جيداً في جذل ؛ ودخل عسكريان اميركيان ، فأحسست انقباضاً في الصدر سبق ان أحسست به . وقال بوست بصوت مرتفع :

— انهم يذكرونني بـ « الشلوه » [1] .

كنا قد أحببناهم ، منذ سبعة أعوام ، هؤلاء الجنود الطوال الذي كانوا يرتدون اللباس الكاكي وكانوا يبدون بمظهر مسالم جداً : لقد كانوا حريتنا . اما الآن ، فقد كانوا يدافعون عن بلد كان يؤيّد في طول الأرض وعرضها الديكتاتورية والفساد : سنغمانري ، تشانغ كاي شك ، فرانكو ، سالازار ، باتيستا ... وما كانت تعنيه أثوابهم العسكرية انمـا هو خضوعنا ، وهو خطر مميت .

إن الزمن يقصر بمقدار ما يشيخ الانسان : سبعة اعوام ، كان ذلك بالأمس . وذلك الصيف الجميل الذي كان كل شيء فيه قد بدأ من جديد ، كان يظلّ كذلك حقيقة حياتي ، الى درجة اني كنت اودّ ان اعنون الرواية التي كنت أكتبها بعنوان « الذين بقوا أحياء » ولكن هذه الحقيقة كانت قد أهينت ،

---

(١) كلمة كانت تطلق على الألمان في اثناء الاحتلال . (هـ. م)

وبالرغم من ان خيبتي قد بدأت منذ عام ١٩٤٨ ، فاني لم اكن قد استهلكتها . كان تمرّدي يفاقم الخمود الذي كنت اشاطره معظم مواطنيّ .

كان شبّان ٤٥ قد خمدوا كثيراً بالفعل . وكانت السينما الفرنسيّة تجفّ ؛ ولم يكن ثمة صحافة يسارية باستثناء الصحف الشيوعية ؛ ولم يكن السينمائيون وكتّاب الريبورتاجات قد أعطوا الا حصاداً هزيلاً . وكانوا أشدّ شكاً بعصرهم ، اي بأنفسهم ، من ان يهتمّوا اهتماماً شديداً بالأدب . وكان أشدّهم احساساً بالهزيمة ، وهو فيان ، قد تخلّى عملياً عن السينما ؛ كان يؤلّف أغاني ويغنّيها ويحرّر باباً عن موسيقى الجاز . وكان اهتمامها بالسياسة كافياً ليناقشوها في حانات سان جيرمان دي بريه ، لا لكي يجدوا فيها طريقة للعيش او اسباباً . ولم تكن هذه غلطتهم . فما عساهم كانوا يفعلون ؟ وما الذي كان يمكن عمله في فرنسا ، آنذاك ؟ كان الأمل قد وحّدنا : اما الآن ، فاننا لم نكن نراهم بعدُ تقريباً . وكنّا نظلّ مشدودين الى اصدقائنا الأكبر سنّاً بصلة الماضي ؛ اما بالنسبة للحاضر او المستقبل فلم نكن على اتفاق كامل مع ايّ منهم ، باستثناء جينيه وجياكومتي وليريس . واولئك الذين كانوا يعمرون حياتنا قبل الحرب ، كانوا قد خرجوا منها كلياً او جزئياً ، باستثناء اولغا وبوست . كانت مدام لومير تسكن الريف ، وهيربو في الخارج . وكان بانييز قد حقد من جديد على سارتر ، وكانا عملياً متخاصمين . اما كامي ، فكانت قد حبست نفسها منذ موت دولان .

وكنت قد دفنت مرة اخرى ذكرياتي في شيكاغو ، فلم أكن اصيب منها جراحاً جديدة : ولكن ما كان أشدّه حزناً في تلك التهدئة ! كنت أقول لنفسي : « لقد انتهى الأمر » ، ولم اكن افكر فقط بسعادتي مع الغرين . كنت أعتقد ، وانا أقلّ ميلاً من اي يوم مضى الى ما يسمى بالمغامرات ، أن عمري والظروف لم تكن تترك لي حظّ حبّ جديد . إن جسمي ، ربما بتأثير كبرياء قديمة جداً ، يستقرّ ويتأقلم برضى : فهو لم يكن يطلب شيئاً . ولكن شيئاً ما فيّ لم يكن يخضع لهذه اللامبالاة . « انني لن أنام بعدُ أبداً في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حرارة جسم ما ! » ابداً : ايّ انذار ! حين كانت هذه الحقيقة البدهية تأخذني ، كنت أسقط في الموت . وكان العدم قد اذعرني دائماً ؛ ولكني كنت حتى هذا التاريخ اموت يوماً فيوماً ، من غير ان أتنبّه لذلك : وفجأة ، كانت تفور مني ، دفعةً واحدة ، قطعةٌ كبيرة من نفسي ؛ وكان ذلك قاسياً كأنه قَطْعُ عضو ، وكان غير قابل للتفسير لأنه لم يحدث لي شيء . لم تكن صورتي في المرآة قد تغيّرت ؛ وخلفي كان ماضٍ ملتهب ما يزال قريباً جداً : على انه مع ذلك ، لن يزدهر ثانية في السنوات الطويلة التي كانت تمتد أمامي . لن يزدهر ابداً . وكنت أجدني في الجانب الآخر من خطّ لم أكن قد اجتزته في لحظةٍ من اللحظات : وكنت ابقى مضطربة من فرط الدهشة والأسى .

إن هذا المستقبل الذي كان التاريخ الكبير وتاريخي الصغير يغلقانه دوني ، لم يكن عملي يساعدني على فتحه . ولم أكن واثقة من اني سأستطيع معالجة جوانب الضعف التي ذكرها لي سارتر ؛ وعلى اي حال ، كان ما يزال امامي قبل الوصول عام او عامان : كان الافق من شدة الظلام بحيث ان الاستمرار كان يقتضيني من الشجاعة مثلما كان يقتضيني في عام ١٩٤١ اعادة كتابة « المدعوّة ». لقد كنت متعلّقة بذلك الكتاب . وفي عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٥ ، كان النجاح الذي أصبته قد أرضاني ؛ اما الآن فكنت أقلّ من ذلك رضى . كان قد بَعُدَ العهد بـ « المدعوة » ، وكان لون « دم الآخرين » قد حال ؛ ولم يكن « جميع البشر ميتون » قد نجح . صحيح أن « الجنس الثاني » قد صمد ، ولكنه كان قد كلّفني في فرنسا شهرة ملتبسة الى ابعد حدود الالتباس . كنت أصبو الى شيء آخر . ومن سوء الحظ أني كنت مقتنعة بأن هـذا الكتاب سيكون له صدى ضعيف . وكنت أكتب ، وأشطب ، وأبديء وأعيد ، وأتبرّم وأتعب ، بلا أمل . لم يكن التاريخ يحملني بعد ، بل على العكس . لم يكن ثمة مكان بعد لأولئك الذين كانوا يرفضون ان ينحازوا لإحدى الكتلتين . وكان سارتر يعتقد ، مثلي ، اني لن اروق اليمين ولا اليسار : وسيكون حظاً كبيراً لي أن أجمع ثلاثة آلاف قارىء ! وهذا الاخفاق الذي لم نكن نشكّ

فيه ، كان يحزننا في ذاته اولاً ، ولأنه ثانياً كان يُظهر نفينا ؛ كان كل عمل سياسي قد أصبح مستحيلاً علينا ، وكان ادبنا نفسه بسبيل ان يضيع في القفار .

وكان سارتر كعهده ابداً ، يحمل لي نجدةً كبيرة . ومع ذلك ، فقد كان يبدو لي أبعد مما كان من قبل ، ومما سيكون بعد . لم يكن نجاحه قد غيّره في شيء ، ولكنه كان قد خلق وضعاً يفصله عن العالم فصلاً شديداً او خفيفاً ، فيقطع بذلك بعض علاقاتنا ؛ لم يكن يضع بعدُ قدمه في المقاهي التي كنا في الماضي نحبّها كثيراً ؛ ولم يكن قد تبعني على دروب « اورون » ؛ كان رفيق حياتي المجهول قد أصبح ، بقوة الأشياء ، شخصاً عامّاً مشهوراً : وكنت أشعر بأنه قد سُرق مني . وكنت غالباً ما اقول له : « آه ! لو كنت شاعراً غامضاً ! » كان يراجع مواقفه السياسية ، وكان يقوم بعمل داخلي جاهد يكلّفه مشقة وعنتاً ، ويكتب دراسات كانت تلتهم نهاراته . وكنت أتحسّر على لامبالاته القديمة وعلى اوقات فراغنا العائدة الى عهدنا الذهبي : النزهات والتسكّعات والامسيات في دور السينما التي انقطعنا عن ارتيادها تماماً . وكان يدعوني الى ان أتبعه ، فكان يقول لي وهو يومىء الى المؤلّفات المركومة على مكتبه :

— يجب ان تقرئي هذا إنه مثير !

ويلحّ ؛ ولم أكن أستطيع : كان ينبغي ان أنجز روايتي . ثم انه كانت لديّ الرغبة انا ايضاً بأن أعرف عصري ومكاني معرفة أفضل ، ولكن ذلك لم يكن ضرورياً لي كما كان له . لقد كان مدفوعاً في العام الماضي الى ان يختار بصورة فرَضية ، في حالة احتلال روسي ، بين حلّين : اولهما غير ممكن ، وهو ان يبقى من غير ان يذلّ او يخضع ، والثاني كريه : ان يذهب ؛ وكان ان خرج من ذلك باستحالة ان يكون ما كانه ، ولم تكن ثمة وسيلة امامه ليستمر في الحياة من غير ان يتجاوزه ؛ وهكذا كان يلحق لحاقاً معجّلاً بالمشروع الذي كان قد لاحقه دائماً : ان يبني ايديولوجية تضيء للانسان وضعه فيما هي تقترح عليه عملاً تطبيقياً . وكان مطمح كهذا غريباً عليّ ؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن لي من الأهمية الموضوعية القدر الذي يكفي لكي تطرح عليّ امكانيةُ احتلال روسي اسئلة ومشاكل ؛ لم اكن استطيع التفكير بالقيام بأدنى دور سياسي ، ولم أكن اصبو الى ذلك . وإذن ، فان قراءة الكتب نفسها التي يقرأها سارتر ، والتفكير بالموضوعات نفسها ، هي بمثابة انشغال مجّاني ؛ كان مشروعه يخصّه بشكل صميمي جداً . حتى أن واحداً لا يستطيع ان يشارك فيه ، ولو كنت أنا هذا الواحد . وكنت اعرف هذا ؛ ولكن كان يخيّل إليّ ان وحدته كانت تعزله عنّي . وكنت اقول لنفسي : « ليس الأمر بعدُ كما كان من قبل » . وكانت هذه الكلمات كافية لتجعلني أحزن ، انا الوفيّة لماضيّ . لقد أعرت بطلة « المثقفون » كلمات كنت أقولها لنفسي : « يشقيني ألاّ أحسّني سعيدة » . وكنت اقول في نفسي ايضاً : « إن هناك من هم أشقى مني » ولكني لم أكن أجد هذه الحقيقة معزّية ، بل على العكس ؛ كان هذا الحزن الدقيق فيّ أشبه برنّانة تلتقط حفلةً من الشكاوى ؛ وكان يأس كونيّ يتسلّل الى قلبي الى درجة ان يجعلني أتمنّى نهاية العالم .

إن هذه الظروف تفسّر ازمة الذعر الذي كنت ضحيته حوالي مطلع الربيع . وحتى ذلك التاريخ ، لم أكن قط قد هُدّدت في جسمي . ففي عام ١٩٣٥ لم أكن عرفت خطورة حالتي . وللمرة الاولى ، اعتقدت اني في خطر .

وقلت لنفسي اولاً : « ليس هذا شيئاً » ، ثم تساءلت : « هل هو شيء ما ؟ » كنت أحسّ بوجع خفيف في ثديي الأيمن ، وبورم في نقطة ما . وكنت اكرّر لنفسي غالباً : « ليس هذا شيئاً » ثم كنت أجسّ اكثر فأكثر الورم الوقح . وكنت اتذكّر وجه لوسيان بودان ذا الزغب ، واحتضارها ؛ واستولى عليّ الخوف ذات لحظة : « واذا كان سرطاناً ؟ » وكنت أُبعد هذه الفكرة : إن صحتي كانت جيدة . ثم كانت الاوجاع تعاودني ، ومعها قلقي . لم يكن جسمي يبدو لي بعدُ غير قابل للانجراح ؛ كان يسوء سنة بعد سنة ، بصورة خفيّة ؛ فلماذا تراه سيتحلّل دفعة واحدة ؟ وبلا مبالاة

مصطنعة ، قلت لسارتر بضع كلمات عن ذلك ، فقال لي :
– اذهبي الى طبيبي ، فيطمئنك .

ودلّوني على اخصائي . فقصدته في احد ايام نيسان ، تلك الّتي كان الصيف يهبط فيها من السماء قبل ابّانه ؛ وكنت قد وضعت معطفي الفرو ، كالليلة السابقة ، وكنت انفجر من الحرّ ، فيما انا أصعد احدى تلك الجادّات الحزينة الّتي تتفرّع من « الألما » . وكان الجرّاح مُطَمْئناً أول الأمر : كان من الحكمة ، بالنظر الى سنّي ، أن أجري عملية يُقتطع فيه جزء من النسيج من أجل تشريحه ؛ ولكن لم تكن تبدو عليّ هيئة المصابة بالسرطان ، وكان الورم المشبوه يتحرّك تحت الأصابع ، مما يدلّ على تفاهته . غير أنّه لكي يضفي على الاستشارة جوّاً جديراً بتعرفتها ، ترَك بعض الشكّ معلّقاً ؛ وسألني هل كنت أوافق ، في حال اكتشاف إصابتي بالمرض الخبيث ، على قطع الثدي ، فقلت : « نعم ، بالتأكيد » . وتركته ، مهتزّة . لم اكن مذعورة من اقتطاع جزء منّي : ولكني كنت أتذكّر رفيقات لوسيان في غرفتها : فبعد مرور عشرة اعوام ، يصاب الثدي الآخر [1] ، وتموت المريضة وسط آلام فظيعة . كنت مسحوقة تحت معطفي المفرط الثقل ، يسيل العرق مني ، وأحسّ فمي مفروشاً بالضيق والغصص ، وانظر الى السماء الزرقاء وانا افكر : « إن كنت حقاً مصابة بسرطان ، فهذا ما سوف يحدث لي ، ولن يكون ثمة علامة ... » ونقلت الى سارتر ، بصوت مخنوق ، ما قاله الطبيب . وتدلّ المؤاساة الّتي واجهني بها على الغيوم الكثيرة الّتي كانت تُثقل المستقبل : ففي أسوأ الحالات ، كان يمكنني أن أعتمد على اثني عشر عاماً من الحياة ؛ وحتّى اثني عشر عاماً ، تكون القنبلة الذرية قد صفتّنا جميعاً .

وكان المتفق عليه ان تجرى لي العملية يوم الاثنين ؛ ويوم الأحد ذهبت بالسيارة مع بوست نتفرج على دير « لارشان » الجميل ؛ وسقت السيارة بصورة رديئة ، وكنت أتوقّف فجأة طوال الوقت . ونفد صبر بوست ،

---

(١) ليس هذا صحيحاً دائماً ؛ لكن هذا ما كنت أظنه .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فبدلاً من أن أتقدّم كنت أتأخّر ، ولم يكن يجد صلة بين عملية جراحية كان يعتبرها بسيطة وبين عصبيتي . وقلت له حين كنّا عائدين الى باريس :

– أتعلم ؟ ربما كنت مصابة بالسرطان !

فنظر إليّ في ذهول :

– عجباً ! إن هذا لا يمكن ان يحدث « لك » !

وأعجبت بأنه حفظ تفاؤلي القديم من ان يمسّه اي ضعف . ودخلت المستشفى مساء . فتناولت العشاء وقرأت ، ونمت في ساعة مبكرة جداً . وحلقت احدى الراهبات إبطي ، وهي تقول لي مبتسمة : « هذا اذا اضطررنا ان ننزع لك كل شيء » وبعد أن عملوا لي حقنة ، أخلدت للنوم . كنت مستسلمة لا بدافع الفضول ، كما في العهد الذي لامسني فيه خطر دخول المصحّ ، وانما بدافع لامبالاة مريرة . وفي الصباح ، حملوني ، بعد حقنة اخرى ، على عربة صغيرة ، وعليّ غطاء ابيض فقط . وعند باب غرفة العمليات ، ألبسوني حذاء صغيراً ابيض ، مما أثار فضولي كثيراً ؛ ثم دخلت إبرة في عرق ذراعي اليسرى . وقلت : « إنني أحسّ مذاق ثوم » ثم لم أشعر بعدها بشيء . وحين عدت الى الدنيا ، سمعت صوتاً :

– إنك لست مصابة بأي شيء .

فأغمضت عيني من جديد : كانت ثمة ملائكة تهدهدني . وخرجت بعد يومين ، وصدري ملتفّ بعصائب ، ولكني كنت سعيدة بأن أجدني سليمة معافاة ، وقد أنقذت من الخوف .

وكنّا في الربيع ، وقد شملني جذله . وهبطنا بالسيارة الى الجنوب ، سارتر وبوست وميشال وأنا . وكانت ميشال قد انفصلت عن بوريس ، فعقد سارتر معها علاقة صميمية ، وكان يجدها دائماً جذّابة . وكنت أحبّها كثيراً ، وكانت محبوبة دائماً لأنها كانت تفضّل الجميع . كانت مرحةً وتحيط نفسها ببعض السرّ ، وكانت متحفّظة جداً ومتنبّهة جداً ، فكانت رفيقة لذيذة . وقد قمنا برحلة رائقة ، فزرنا في « تورنوس » دير سان فيليبير ،

وفي « هوتريف » بيت الساعي « شوفال » . وكنت انازع بوست مقود السيارة بشدّة ، وكان يسلّينا كلينا ان نسوق السيارة على مسافات طويلة . وبقي بوست بعض الوقت في سان تروبيز ؛ وقد صحبته ذات مساء الى محطة سان رافائيل ، وعند العودة ، كنت منفعلة كلياً ان اسوق السيارة وحدي للمرة الاولى . وتدرّعت بالجرأة . وتركت عند الفجر فندق « الايولي » . ولقيت ثانية في المدينـــة ذات المصاريع المغلقة انفعال نزهاتي القديمة . في ذلك العهد ، كنت أمارس « الاوتوستوب » : وأية لـــذة كانت في ان تقـــف سيارة ، وتحملني ! وكان يبدو لي أعجوبة ان أقتل في عشر دقائق ساعتين من المشي ، والآن ، وقد أصبحت في وقت واحد سائقة وعابرة ، كانت لي رغبة ملحة في ان أشكر نفسي . كان السير قد منحني مباهج مختلفة ، ولكن مباهج اليوم كانت بجدّتها تكاد تنسيني الاولى . وتعرّفت « البروفانس » كما كنت قد أحببتها لعشرين سنة خلت ، ومع ذلك فقد كنت أراها تحت أضواء أخرى : كان الماضي والحاضر يتحالفان في قلبي . وبلغت بي الجرأة اني رحت أنزّه في سيارتي على شوارع « المور » ميرلو – بونتي وزوجته اللذين كانا قد وصلا حديثاً الى سان تروبيز : ولقد اظهرا رباطة جأش كبيرة ؛ صحيح أنهما كانا قد قدما من باريس مع رجل وامرأة لم يكونا قد حصلا على رخصة ؛ وعند الممرات الخطرة ، كان الزوج والزوجة يتنازعان المقود بالقبضات . ولقد كان كثيرون حولي يتعلمون قيادة السيارة : فقد بدأ الناس بعد فاقة ما بعد الحرب يستطيعون الحصول على سيارات .

وكنت أعمل قليلاً ؛ وكان سارتر يكتب عن مالارميه ، وكان يحدّثني عنه ويشرح لي بعض القصائد، ونحن جالسان على سطيحة « سنكوبير »في مشرب «لابونش» . وكان مرتبطاً بمواعيد في باريس، فعاد اليها بالقطار.وسافرت وحدي بالسيارة حتى « افينيون » ، فخوراً بقدرتي ، يأخذني بعض الخوف الخفيف ان تنفجر احدى عجلاتي فلا أحسن إصلاحها . وفي افينيون، في قطار الصباح الباكر ، لقيت بوست الذي قدم من باريس ليساعدني في العودة اليها .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورحلت مرة اخرى بعد ذلك بقليل ؛ وحين أمضى سارتر ثلاثة أسابيع في ايطاليا مع ميشال ، تنزّهت فيها بالسيارة مع اولغا وبوست ، مكتشفة طرقاً صغيرة وأماكن صعبة التناول بلا سيارة : « فولتير » مثلاً . وكان لذيذاً ان نستطيع التصرّف ، وفق هوانا ، بالاماكن والاوقات . وعدت الى باريس حيث شاهدت المعرض المكسيكي الرائع .

وقد طبع حَدَثان مطلع هذا الصيف : فقد تنازع سارتر مع كامو ، وتقرّب من الشيوعيين .

رأيت كامو ، للمرة الأخيرة ، مع سارتر في مقهى صغير يقع في ساحة « سان سولبيس » ، في شهر نيسان . وكان يسخر ببعض المآخذ التي وُجهت الى كتابه : وكان يعتبر امراً مفروغاً فيه اننا كنا نحبّه ، فكان سارتر يجد كثيراً من الضيق لإعطائه الردّ . وبعد ذلك بقليل ، لقيه سارتر في « البون .— رويال » وأبلغه بأنّ عرض « التان مو درن » لكتابه سيكون متحفظاً ، بل ربما كان قاسياً ؛ وبدا كامو وكأنه فوجيء بشكل غير مرتاح . وكان فرانسيس جانسون قد انتهى الى قبول التحدث عن المتمرّد ؛ وكان قد وعد بأن يكتب بمراعاة : ثم ترك نفسه يغضب . واستطاع سارتر ان يقنعه بتخفيف بعض ألوان القسوة ، ولكن لم يكن في المجلة رقابة . وتظاهر كامو بأنه يجهل جانسون ، فوجه الى سارتر رسالة للنشر كان يدعوها فيه « السيد المدير » . وأجاب سارتر في العدد نفسه . وانتهى كل شيء بينهما .

والحق أنّ هذا الصداقة إن تحطمت بقسوة ، فلأنها لم يكن قد بقي منها شيء كثير ، منذ وقت طويل . كان التعارض الايديولوجي والسياسي الذي كان قائماً بين سارتر وكامو عام ١٩٤٥ ، يقوى عاماً بعد عام . كان كامو مثالياً ، أخلاقياً ، مناهضاً للشيوعية ؛ واضطر لحظة للخضوع للتاريخ . وادّعى بأسرع وقت ممكن انه كان ينسحب منه ؛ كان يتحسس شقاء البشر ، ولكنه كان يعزوه الى « الطبيعة » ؛ وكان سارتر منذ عام ١٩٤٠ قد عمل على شجب المثالية ، وعلى انتزاع نفسه من فرديته الأصلية ، وعلى ان يعيش

« التاريخ » ؛ كان قريباً من الماركسية ، فكان يصبو الى تحالف مع الشيوعيين . وكان كامو يناضل من أجل مباديء كبيرة ، وعلى هذا النحو تداعى للسقوط في دخان غاري ديفيس ؛ وكان يرفض بالاجمال ان يشارك في المساعي الدقيقة التي كان سارتر يلتزمها . ففيما كان سارتر يؤمن بحقيقة الاشتراكية ، كان كامو يدافع اكثر فأكثر عن القيم البورجوازية : وكان متحالفاً معها في « المتمرد » . ولما كان الحياد بين الكتلتين مستحيلاً نهائياً ، فقد تقرّب سارتر من الاتحاد السوفياتي ؛ وكان كامو يحتقر الاتحاد السوفياتي ، وبالرغم من انه لم يحبّ الولايات المتحدة ، فانه عملياً كان ينحاز الى صفّها . وقد رويت له قصة « شينون » ، فقلت له :

– لقد حسبتني قد عدت الى زمن الاحتلال .

فنظر إليّ في دهشة صريحة وتمثيلية في الوقت نفسه :

– حقاً ؟ انتظري قليلاً (وابتسم) سترين من جديد محتلّين . سترين آخرين .

كانت هذه الخلافات أعمق من ألاّ تتزعزع لها صداقة . وبالاضافة الى ذلك ، فان طبع كامو لم يكن يسهّل التسويات . وأعتقد انه كان يشعر بضعف مراكزه : إنه لم يكن يقرّ الجدال ؛ وما ان يرسم احدى المناقشات ، حتى يتخذ شكلاً من أشكال الغضب المجرّدة التي كانت تشبه الهروب . وقد حصل تقارب بينه وبين سارتر في عهد « الشيطان والرحمن » ، وكنّا قد نشرنا في « التان مودرن » دراسته عن نيتشه بالرغم من انها لم تُرضنا على الاطلاق . ولكن هذه العوده الحبيّة لم تدم طويلاً . كان كامو مستعداً ، في اول مناسبة ، لأن يأخذ على سارتر مجاملته لـ « الاشتراكية التسلّطية » . وكان سارتر يجد منذ وقت طويل ان كامو كان يخطيء على طول الخط ، وانه كان قد أصبح « لا يطاق على الاطلاق » كما قال له في رسالته . ولم يؤثّر فيّ قطع هذه العلاقة شخصياً . فان الـ « كامو » الذي كان غالياً عندي لم يكن بعد موجوداً منذ وقت طويل .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في اثناء العام ، كان الشيوعيون قد طلبوا من سارتر ان يكون عضواً في لجنة تدعو لتحرير هنري مارتان ، وان يشارك في وضع كتاب يذيعون فيه القضية ؛ فقبل ؛ وكان يرى ذلك الاعتقال جديراً بالاستنكار ، وكان سعيداً ان يتحقّق ذلك التقارب . كانت الظروف قد اقنعته انه لم يكن ثمة من مخرج لليسار الا باستعادة وحدة العمل مع الحزب الشيوعي . وكان التناقض الذي كان يتخبّط فيه قد أصبح لديه غير محتمل : «كنت ضحية وضالعاً في صراع الطبقات : ضحية لأني كنت مكروهاً من طبقة برمتّها ؛ وضالع لأني كنت أحسّني مسؤولاً وعاجزاً »[1] . « لقد اكتشفت صراع الطبقات في ذلك التمزّق البطيء الذي أبعدنا عنهم (العمال) كل يوم اكثر فأكثر ... كنت اومن به ، ولكني لم اكن اتصوّر انه كان كلياً ... ولقد اكتشفته ضدّي[1] » وقال لي سارتر يوماً :

– لقد فكرت دائماً ضدي .

ولكنه لم يكن ضارياً كما كان في فترة ١٩٥٠ – ١٩٥٢ . وكان قد أنجز العمل الذي بدأه عام ٤٥ عن مقاله حول الالتزام الأدبي : كان قد فتّت جميع اوهامه عن امكانية خلاص خاص . كان قد وصل الى النقطة التي وصل اليها غوتز : كان ناضجاً لتقبّل نظام جماعي من غير ان ينكر حريته . « بعد عشرة أعوام من الاجترار ، بلغت نقطة القطع ولم اكن بحاجة الا الى ضربة بطرف السبّابة . » وقد هزّه اولاً كتاب : « ضربة ٢ كانون الأول » لغويومان . وكان في شبابه قد عارض بوليتزر الذي كان البورجوازيون في رأيه يتحدّدون كليّاً بوضعهم كمستغلّين ، فذهب الى انهم كانوا يستطيعون في علاقاتهم فيما بينهم ان يمارسوا بعض الفضائل : كان يحترم زوج أمه ، المهندس ، الذي كان قاسياً على الآخرين وعلى نفسه ، وهو رجل شديد النشاط ويعيش عيشة شظف . وكان التعاون[2] قد حمل سارتر على الاحساس بأن

(١) مذكرات غير منشورة .

(٢) كان معظم اصدقاء زوج امه متعاونين ، بالرغم من ان هذا الأخير كان ديغولياً .

جميع الفضائل البورجوازية قد فسدت بالعبودية . وقد أطلعه كتاب « ضربة ٢ كانون الأول » على ما كان رجال شرفاء كزوج أمّه جديرين بالتفكير به وبكتابته. إن الرأسمال هو الذي يتكلم بفم الرأسماليين ؛ ولكن البورجوازيين ليسوا مع ذلك الا أشخاصاً من لحم ودم يعمدون للدفاع عن مصالحهم الى عنف يكاد لا يكون مقنّعاً . وقد كان غويومان ينزع الحجب التي تخفي هذا العمل . ومنذ ذلك الحين ، بدا صراع الطبقات لسارتر في كامل الوضوح : صراع بشر ضد بشر ؛ وفي الوقت نفسه ، اتخذت الصداقات وألوان الرفض طابعاً مهووساً . وقد استبدّ به الغضب حين عرف توقيف « دوكلو » في ايطاليا ، عشية المظاهرة ضد « ريدغواي » [1] ثم اضراب ٤ حزيران الفاشل ، وردّ الفعل المنتصر لليمين ، والاعتقالات ومصادرة الصحف ، والأكاذيب التي كان أفظعها قصة الحمام الزاجل : « لقد أكننت للبورجوازية باسم المبادىء التي كانت قد زرعتها فيّ ، وباسم نزعتها الانسانية و « انسانيتها » ، وباسم الحرية والمساواة والاخوة — لقد اكننت لها حقداً لن ينتهي الا بانتهائي . وحين عدت الى باريس على عجل ، كان ينبغي اما ان اكتب او أختنق » [2] وقد كتب « الشيوعيون والسلام » في غضب أثار ذعري ، وكتبت لأختي أقول : « لقد قضى ، في اسبوعين ، خمس ليال ساهرة ، ولم ينم في الايام الباقية الا اربع ساعات او خمساً . »

وظهر المقال في « التان مودرن » قبل شهر من « الردّ على كامو » . وقد كان للمقال مغزى واحد : لقد انتهت فترة ما بعد الحرب . فليس ثمة بعدُ مجالٌ للمماطلات ولا للمصالحات الممكنة . كان الناس مدعوين لاتخاذ مواقف حاسمة . وقد ارتاح سارتر الى اتخاذه هذا الموقف ، بالرغم من صعوبة مركزه . وفكّر بأن خطأه كان ، حتى ذلك الحين ، انه اراد ان يحلّ الصراع

---

(١) كان ريدغواي قد جاء يحل محل ايزنهاور . وكان اندريه ستيل قبل ذلك بثلاثة ايام قد أوقف لأنه وصف ريدغواي في « الاومانيته » بأنه « جنرال الحرب البكترويولوجية »

(٢) ميرلو — بونتي حياً .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من غير ان « يتجاوز » وضعه . « كان ينبغي ان اقوم بخطوة كانت غريبة عليّ . كان يجب ان اقبل كليّاً وجهة نظر الاتحاد السوفياتي ، ولا أعتمد إلاّ على نفسي للحفاظ على وجهة نظري . وانتهى بي الأمر الى ان اكون وحيداً لأني لم ارد ان اكون وحيداً بما فيه الكفاية » [1]

هذه الفترة التي عشناها ، حاولت ان أصوّرها في « المثقفون » . وكان الكتاب يتطلّب مني بعدُ اشهراً طويلة من العمل . ولكن كل شيء كان قد قُرّر فيه . وهذا اوان توضيح رأيي في هذا الصدد .

* * *

ابتداء من عام ١٩٤٣ ، كانت سعادتي محمولةً بالأحداث ؛ كنت من فرط الالتصاق بزمني حتى اني لم يكن لديّ ما أقوله عنه . وفي « جميع البشر ميتون » كان ينعكس الاهتمام الجديد الذي كنت أوجهه « للتاريخ » : ولكن عبر تأليف كان يبعدني عن العصر ؛ وحين تساءلت عام ١٩٤٦ : « والآن ، ماذا أكتب ؟ » فكرّت في ان اتحدّث عن نفسي ، لا عن زمني : ذلك اني لم أكن اطرح زمني للبحث . وبعد ذلك ، فيما كنت أشتغل بـ « الجنس الثاني » تغيّرت الأمور حولي. لقد كفّ انتصار الخير على الشرّ عن ان يمضي تلقائياً : بل كان يبدو وقد فسد بشكل فظّ . وكنت قد سقطت مع كثير من الآخرين من الافق الجماعي الى الغبار الأرضي : كانت الارض مزروعة بالاوهام المحطمة . وهذا الاخفاق الذي أزعج حياتي الخاصة ، هو الذي خلق « المدعوة » ، ومنحني تقهقراً بالنسبة لتجربتي الحديثة والرغبة في انقاذها بالكلمات : واصبح ممكناً وضرورياً لي ان أصبّها في كتاب .

إن التجربة ليست سلسلة من الأحداث ، وأنا لم افكر بتأليف اخبار

---

(١) مذكرات غير منشورة .

مؤرخة[1] . وقد سبق ان ذكرت ما هو في رأيي أحد الادوار الاساسية للأدب : إظهار حقائق ملتبسة ، منفصلة ، متناقضة ، لم تكن اية لحظة تجمعها لا خارج نفسي ولا داخلها ؛ وفي بعض الحالات لا ينجح المرء في تجميعها إلاّ بان يضمّنها في وحدة شيء خياليّ . وكنت أرى ان الرواية وحدها كانت تستطيع ان تستخرج المعاني المختلفة المدوّمة لهذا العالم الذي تغير والذي استيقظت فيه بشهر آب ١٩٤٤ : عالم متحوّل لم ين منذ ذلك الحين يتحرّك ويضطرب .

وقد كان يحملني في حركته ومعي الأشياء الّتي كنت قد آمنت بها : السعادة ، والادب . ما قيمة السعادة اذا كانت تقنّع الحقيقة بدلاً من ان تعطيني إياها ؟ ولماذا يكتب المرء اذا كفّ عن الشعور بأنه يحمل رسالة ؟ إن حياتي لم أكن انا الّتي لا أنسجها فحسب ، بل إن وجهها ، وجه عصر وكل ما كنت أحبه ، كان متوقفاً على المستقبل . فاذا كنت أعتقد أن الانسانية كانت تسير نحو السلام والعدالة والرفاهية ، فان ايامي لا تتخذ اللون نفسه الذي تتخذه إذا كانت الانسانية تركض نحو الحرب او تتخبط في الألم . وكان التطبيق السياسي ـــ من مثل اللجان والمؤتمرات وتحرير البيانات والمناقشات ـــ يضجرني ، كما كان يضجرني في السابق ؛ ولكني كنت أهتم بكل ما كان يهزّ الارض . كنت قد أحسست ما يسمى بـ « اخفاق المقاومة » بأنه هزيمة شخصية لي : ذلك انه كان يعني عودة السيطرة البورجوازية المنتصرة . وكان وجودي الخاص قد تأثّر بذلك تأثراً عميقاً . فعبر نزاعات صاخبة او صامتة ، كانت الصداقات الّتي تلتهب حولي في نهاية عهد المقاومة قد انطفأت قليلاً او كثيراً : كان احتضارها قد امتزج باحتضار آمالنا المشتركة ، وحول هذا الاحتضار إنحبك كتابي . فلكي أتحدث عن « نفسي » ،

---

(١) لئن كنت اروي اليوم ماضي بشكل تاريخي ، فذلك انطلاقاً من مشروع ـ اطرحه للتساؤل في الفصول القادمة ـ وهو مختلف كل الاختلاف عن المشروع الذي وضعته عام ١٩٤٩ ، على ضوء خيبة أمل لم اكن قد تغلبت عليها ، بل لم أفهمها ، وما زالت تحرقني حتى الآن .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان ينبغي أن أتحدث « عنّا » ، بالمعنى الذي كانت تحمله هذه الكلمة عام ١٩٤٤ .

كان المحذور واضحاً للعيان : لقد كنا من المثقفين ، وهم نوعٌ على حدة ، يُنصح للروائيين بألاّ يحتكوا بهم ؛ وما كان لمشروع وصف طبقة فريدة ليس لمغامراتها الا اهمية إخبارية ان يستوقفني ؛ ولكننا في آخر المطاف كائنات بشرية ، وكل ما هناك اننا اكثر اهتماماً بالباس حياتنا بالكلمات . ولئن فُرضت ارادة كتابة رواية نفسها عليّ ، فلأني أحسستني آنذاك متموضعاً في نقطة من الزمان والمكان يمكن لكل نغمة من النغمات التي استمدها من ذاتي ان يكون لها حظ الانطلاق منها الى قلوب اخرى .

ولكي أمثِّل مثقفينا ، صنعت عدداً كبيراً من الأشخاص ، وأخذت منهم اثنين كـ « فاعلين » . وبالرغم من ان الحبكة المركزية هي انفصام صداقة ثم التحامها من جديد بين رجلين ، فقد أسندت احد الادوار الرئيسية ذات الامتياز الى امرأة ، ذلك ان عدداً كبيراً من الأمور التي كنت اريد التعبير عنها كانت مرتبطة بوضعي كامرأة . وقد دفعتني اسباب كثيرة الى ان أضع بالقرب من « آن » بطلاً ذكراً . والغاية من ذلك هي اولاً انه من أجل التدليل على كثافة العالم ، من المستحسن استعمال عدة أنظار ؛ ثم اني كنت أتمنى ان تكون العلاقات بين هنري ودوبروي معاشة من الداخل ، من قِبَل أحدهما ؛ وبعد ذلك ، لو عهدت الى آن في مجموع تجربتي ، لكان كتابي ، خلافاً لرغبتي ، دراسة حالة مفردة . كنت ارغب ، اذ اصور كاتباً ، ان يرى فيه القاريء شبيهاً له ، لا وحشاً يثير الفضول ؛ اما المرأة التي تتخذ الكتابة مهنة لها ورسالة ، فهي استثناء وشذوذ ، اكثر كثيراً من الرجل . (وكلمة استثناء ليست مرادفة لا للشيطان ولا للاعجوبة ؛ فأنا آخذها بمعنى احصائي) وهكذا لم أعط قلمي لآن ، بل اعطيته لهنري ؛ اما هي ، فقد أسندت اليها مهنةً تمارسها في تحفّظ ؛

ومحور حياتها انما هو حياة الآخرين : زوجها ، ابنتها ، وهذا التعلق ، الذي يجعلها قريبة من معظم النساء ، كان يهمني بحدّ ذاته ، وكان له امتياز كبير : كانت آن منخرطة بالصراعات التي كنت ارويها فيما كنت أظلّ خارجة عنها ، فكانت تضعها في منظور مختلف عن منظور دوبروي وهنري . كنت أصبو الى ان أقدّم عن فترة ما بعد الحرب التي أعرفها صوراً يستحيل تبينّها ، وهي في الوقت نفسه مهزوزة ، واضحة ، ولكنها غير قاطعة ولا متوقفة على الاطلاق : لقد كانت تعطيني الوجه السلبي من الأشياء التي كانت تتكشّف عبر هنري تحت وجه ايجابي. واما موقفي من الادب ، فكان ملتبساً : ليس وارداً بعد لا قضية الوكالة ، ولا قضية الخلاص ؛ كانت الكلمات حين تُقارن بالقنبلة الهيدروجينية وبجوع الناس تبدو لي لغواً باطلاً . ومع ذلك ، فقد كنت أعمل في « المثقفون » بضراوة . لم تكن آن تكتب ولكنها كانت بحاجة الى ان يستمر دوبردي في الكتابة ؛ وأما هنري ، فقد كان يريد تارة ان يتكلم وتارة ان يصمت : فاذا مزجت تناقضاتهما ، حصلت على تنوّع في الإضاءة . وكذلك كان الشأن حين اقابل بين العمل وفضائحه ، وشقاء الآخرين ، وموتهم ، وموتي ، وفرار الزمن . وابتعثت المعارضة التي كنت قد أقمت عليها هيكل « جميع البشر ميتون » ، فأعطيت آن معنى الموت وحسّ المطلق — الذي كان يتلاءم وسلبيتها — في حين ان هنري كان يكتفي بان يوجد . وهكذا فان الشاهدين اللذين يتناوبان في الرواية ليسا متناظرين ؛ بل لقد اجتهدت أن اقيم بينهما نوعاً من الطباق ، يقوّيهما تارة وينوّعهما تارة اخرى ، ويهدم أحدهما بالآخر طوراً ثالثاً .

وحين صوّرت هنري ، كما يُحسّ نفسه ، في ألفته ، اردت كذلك ان اصف كاتباً في تطرّفه وهوسه ؛ واما دوبردي المشهور ، والأكبر سناً من هنري واشدّ منه انصرافاً متعصباً الى السياسة والأدب ، فهو يحتلّ في الكتاب مركزاً — مفتاحاً ، باعتبار أن آن زوجته ، وهنري صديقه ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انما يتحددان بالنسبة اليه . وبالرغم من أني قرّبته عن كثب ، بفضل معرفة آن له معرفة صميمية ، فقد احتفظت له بكثافته ؛ وهو ينتصر على الآخرين بفضل حدّة تجربته وقوة فكره ؛ على اني ، بسبب ان مونولوجه يبقى سرّياً ، فقد تحدثت عنه عبر نفسه أقل كثيراً مما تحدثت عنه عبْرهما .

ولقد عنيت عناية كبيرة بصورتين : نادين وبول . وفي البدء ، كنت أنوي ان أثأر من نادين بسبب بعض الملامح التي كانت قد صدمتني عند ليز وعند بعض النساء اللواتي يصغرنني سناً ، ومن هذه الملامح وحشيةٌ جنسية كانت تكشف بشكل مزعج برودتهنّ ، وهجوميةٌ كانت تعوّض تعويضاً سيئاً عن شعورهنّ بالنقص ؛ كنّ يطالبن باستقلالهن من غير ان يملكن الشجاعة لدفع ثمنه ، فكنّ يحوّلن الى حقد الاستياء الذي كنّ يحكمن به على أنفسهن . وكنت قد لاحظت ، من جهة اخرى ، أن اولاد الآباء المشهورين كانوا غالباً يجدون مشقة في ان ينضجوا ؛ وبدا لي الطبع الذي رسمته ملائماً ، في عقوقه ، لابنة دوبروي . وشيئاً فشيئاً بدأت ارى اعذاراً في الظروف التي كانت تفسّر مصائبها ؛ لقد بدت لي نادين ضحيةً اكثر منها موضوعاً للتوبيخ ؛ لقد تقشّرت انانيتها ، فأصبحت تحت مظهر خشونتها الحساسة سخيةً وجديرة بالودّ . وفي نهاية الكتاب ، منحتها حظوظاً للسعادة ، من غير أن اقرّر إن كانت ستلتقطها .

وكانت بول ، من بين مخلوقاتي جميعاً ، أشق من عانت لتتجسد ، لأني باشرتها بدروب مختلفة لا تلتقي . كان الخضوع لدى آن معوَّضاً عنه بالاهتمام المباشر والحارّ الذي كانت تحمله للأشياء والناس ؛ وقد تصوّرت بول امرأة خاضعة خضوعاً جذرياً لرجل ، وكانت تطغى عليه باسم هذه العبودية : انها محبة عاشقة . وبعد فترة « دم الآخرين » التي رسمت فيها واحدة من عاثرات الحظّ هاتيك ، وسميتها دنيز ، كنت أعرف كم هو خَطِرٌ بالنسبة لامرأة ان تنخرط بكليتها في علاقتها مع كاتب او مع فنان مصرّ على مشاريعه : انها تتخلى عن ميولها ومشاغلها ، وتضني نفسها

في تقليده، من غير ان تستطيع اللحاق به، فاذا انصرف عنها ألفت نفسها مجرّدة من كل شيء؛ وكنت قد رأيت عدة امثلة عن هذا السقوط، وكانت لي رغبة في التحدث عنها. وكنت أحلم كذلك بنساء جميلات ومتطرفات في شبابهنّ، ثم يستنفدن جهدهنّ بعد ذلك لإيقاف الزمن؛ كانت كثير من الوجوه تعمر مخيلتي. ثم انني احتفظت في ذاكرتي بهذيانات لويز بيرون. وقد لزمني وقتٌ لأستطيع أن أشكل من نوايا واضحة، وصورٍ ممزّقة، وذكريات محرقة، شخصية وقصة منسجمتين مع مجموع الكتاب.

لقد أخذ عليّ البعض أني لم أختر، لتمثيل جنسي، اية امرأة تضطلع على قدم المساواة مع الرجال بمسؤوليات مهنية وسياسية؛ والواقع اني كنت في هذه الرواية أتجنب الاستثناءات؛ لقد صوّرت النساء كما كنت أراهن عموماً، وكما لا زلت أراهنّ: منقسمات. إن بول تتشبث بالقيم النسائية التقليدية: وهي قيم لا تكفيها، فتتمزّق حتى الجنون؛ اما نادين فلا تنجح لا في قبول انوثتها ولا في تجاوزها؛ واما آن فهي أشدّ من الأخريات اقتراباً من الحرية الحقيقية؛ غير انها لا تنجح مع ذلك في ان تجد في مشاريعها الخاصة اكتمالاً ناجزاً. فلا يمكن اعتبار احد منهن، من وجهة النظر النسوية، «بطلة ايجابية». انني أقرّ ذلك، ولكني لست نادمة عليه.

وقد قلت اني لم اكن أصبو اولاً لأن أقيم بين جميع هذه الشخصيات الا علاقات رخوةً جداً؛ كان يسئمني غالباً في الروايات الجانب المفرط في البنائية؛ وكان هذا من المآخذ التي وجهها لي سارتر حين قرأ الرواية في صيغتها الاولى؛ وبالنظر للشكل الذي كنت قد اخترته، فان عدم استقرار الحبكة كان ضعفاً، لا براعة: وقد شددت أوصالها. ولكني لم أجد من المزعج ان يبقى فصلٌ طويلٌ وهامّ هامشياً: غرام آن ولويس. وقد رويته، رغبةً مني في أن أنقل على الشكل الروائي حدثاً كان اثيراً عندي؛ ثم إن آن لو اكتفت بدور الشاهد، لأفتقرت الى الحضور، وقد كنت أحرص على ان أهبها حياةً شخصية؛ ثم إن مما فتنني في أعوام

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤٥ أن المدى انفتح فجأة : وكنت أترجم هذا الاتساع بأن أسندت الى بطلتي مغامرة فيما وراء المحيط . واذا كانت القصة مقنعة ، فهي مدينة بهذا لطابعها الاتفاقي العارض ؛ ذلك أن آن ، تلتقي لويس ، إلا بعد أن يكون قد مضى وقت طويل على وجودها ، بالنسبة للقاريء ؛ فهو يعرف العالم الذي تضطرب فيه ، وقد اتيح له الوقت للتعلق بها . وقد استطعت أن أجعلها مألوفة لديه ، قبل ان يحدث له اي شيء هام ، لأن الرواية كانت لها مراكز ثانية . وهذا مالم يفهمه الذين كانوا يؤثرون ، بدافع من الوحدة ، أن أعالج هذه القصة الغرامية ، على حدة ، بالرغم من انهم يقرّونها ؛ فلو فصلتها عن المجموع لأفرغتها من محتواها ، لأن ما يسمى بغنى فرد ما ، سواء كان خيالياً ام واقعياً ، استبطان حواشيه وخواصّه . صحيح أن لويس ليست له من قرينة ، ولكنه مرئيّ بعيني آن ؛ فيناسبني الاّ يوجد الا منذ اللحظة الّتي يوجد فيها بالنسبة لها ، وألاّ ينجح المرء في التسلل الى جلده الا بمقدار ما تنجح هي في ذلك ؛ فاذا كان المرء يؤمن بها ، كان ميالاً الى الايمان به . وإن لويس ، بين جميع ابطالي ، هو اشدهم اقتراباً من نموذج حيّ ؛ إنه غريبٌ عن الحبكة ، فهو يُفلت من ضروراتها ، وقد كنت حرةً تماماً في ان اصوّره على كيفي ؛ والذي وقع هو أن الغرين — وهو اتفاق نادر — كان في الواقع شديد التمثيل لما كنت اريد ان أمثله ؛ ولكني لم اتوقّف عند الأمانة الإخبارية : فلقد استعملت الغرين لأخترع شخصاً يجب ان يوجد ، دون رجوع الى عالم الأحياء .

ذلك انه ، خلافاً لما ادعاه البعض ، من الخطأ اعتبار « المثقفون » رواية مفاتيح ؛ وانا احتقر روايات المفاتيح احتقاري لكتب « الحيوات المروية » : فمن المستحيل أن أنام وأحلم اذا ظلت حواسي متيقظة ؛ ومن المستحيل مباشرة قصة وأنا لا أزال راسيةً في العالم . واذا صوّب القاريء نظره في وقت واحد الى المتخيّل والواقعي ، اختلطت عليه الرؤية ،

ولاشك في ان المؤلف الذي يكبده هذا الجمع مؤلف شرّير . وليس من المهم القدر او الطريقان اللذان يستوحي بهما الخيال الواقع : فالخيال لا يبنى الا بتفتيت الواقع ليولده مرة اخرى في حياة اخرى [1] والنساء الفضوليات الثرثارات اللواتي ينحنين فوق هذا الرماد يدعون كل شيء يفلت من الكتاب الذي يُعرض عليهن ، وما يبلغنه هو لا شيء : فليس لأي حدَث حقيقة اذا لم يوضع في قرينته الحقيقية .

وإذن ، أليست آن هي اياي ؟ انا أقرّ اني سللتها مني ، ولكن القاريء قد رأى الاسباب التي دفعتني لأجعلها امرأة لست اتعرّف نفسي فيها . لقد أعرتها ميولاً وعواطف وردود فعل وذكريات كانت ملكي ، وأنا غالباً أتكلم بلسانها . ومع ذلك ، فليست لها شهواتي ولا ضروب عنادي ، وخصوصاً الاستقلال الذي تمنحني إياها مهنةٌ اثيرةٌ عندي . وإن علاقاتها برجلٍ يكبرها بعشرين عاماً هي علاقات بنوية تقريباً ، وهي تخلّفها متوحدة ، بالرغم من تفاهمهما . وهي ليست منخرطة في مهنتها إلاّ بشكل حيّي . ولأنها لا تملك اهدافاً ومشاريع لها ، فهي تعيش حياة « نسبية » لكائن « ثانوي » . وانما انا قد عبرّت خلالها خاصةً عن المظاهر السلبية في تجربتي : خوف الموت ودوار العدم ، وعبث التسلية الارضية ، وعار النسيان ، وفضيحة الحياة . اما فرح الحياة ، ومرح المباشرة ، ولذة الكتابة ، فقد زوّدت بها هنري . إنه على الاقل يشبهني بقدر ما تشبهني آن ، وربما أكثر .

ذلك أن هنري ، مهما قيل عنه ، ليس هو كامو ؛ على الاطلاق . إنه شاب ، أسمر ، يدير صحيفة : والى هذا الحدّ يقف التشابه ؛ صحيح ان كامو مثله كان يكتب ، ويحبّ ان يحس نفسه حياً ويهتم بالسياسة ؛ ولكنّ هذه الملامح انما هو يشترك فيها مع عدد كبير من الناس ، مع سارتر ومعي . إن هنري لا يشبه نموذجه لا بحديثه ولا بمواقفه ولا بطبعه ،

---

(١) إن الرواية التاريخية الناجحة تستجيب لهذا المطلب . فالكسندر دوماس يعكس «التاريخ» في بعد الخيالي . ولا جدال في ان شخصية ريشليو التي رسمها هي شخصية خيالية .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولا بعلاقاته مع الآخرين ، ولا برؤيته للعالم ولا بتفاصيل حياته الخاصة ولا بافكاره . وعداوة كامو العميقة للشيوعيين تكفي — بذاتها وبتعقيداتها — لحفر هوّة بينهما ؛ إن بطلي في علاقاته بالحزب الشيوعي ، وفي موقفه من الاشتراكية ، يقترب من سارتر ومن ميرلو — بونتي ، ولا يقترب قط من كامو ؛ وانفعالاتي الخاصة وافكاري الخاصة هي التي تعمره معظم الوقت.

وليس تشبيه سارتر بدوبروي اقلّ من ذلك ضلالاً ؛ فوجوه الشبه الوحيدة بينهما هي الفضول والتنبه للعالم والضراوة في العمل ؛ ولكن دوبروي اكبر من سارتر بعشرين عاماً ، وهو مطبوع بماضيه ، خائف امام المستقبل ، وهو يفضّل السياسة على الأدب ؛ انه يختلف عن سارتر اختلافاً جذرياً بتسلطه وتصلبه وانغلاقه وقلة انفعاله وضعف ميله الاجتماعي وكآبته حتى في مرحه . ثم إن قصتيهما لا تلتقيان ؛ فبينما يخلق دوبروي حزباً واحداً ، يرتبط سارتر بلا اي تعصب بأطراف كانت تطلبه ؛ وهو لم يتخلّ لحظة عن الكتابة ، وقد نشر بلا تردد « قانون العمل السوفياتي » بمجرد ان عرف بوجوده . ثم إن الحبكة التي صنعتها تبتعد عن الأحداث : اولاً من حيث تفاوت الازمان ؛ فقد نقلت الى أعوام ١٩٤٥ — ١٩٤٧ حوادث ومشاكل وازمات وقعت فيما بعد . وقد وُلد « التجمع الديموقراطي الثوري » في فترة الحياد ؛ وجرى الحديث عن المعسكرات الروسية في عام ١٩٤٩ فقط الخ ... والصميمية القائمة بين هنري ودوبروي وزوجته اشد شبهاً بالصميمية التي كانت قائمة بيننا وبين بوست منها بالتي كانت تشدنا الى كامو ؛ وقد عرف القارىء الظروف التي تخاصم فيها كامو وسارتر واضعين حداً نهائياً لخلافهما الطويل : ولقد كان الانقطاع بين هنري ودوبري بعيداً جداً عن انقطاعهما، حتى اني كنت قد كتبت صورة اولى عنها عام ١٩٥٠ ، ثم انها كانت متبوعة بمصالحة لم تتم بين سارتر وكامو . كان موقفاهما السياسيان يتباعدان منذ بدء التحرير . ولم ينتم كامو الى اسرة تحرير « التان مودرن » ولا الى « التجمع الديموقراطي الثوري »

ولم يجر اي اتفاق بين التجمع وبين « كومبا » التي تشبهها « الاسوار » اقل جداً مما تشبهها « فران تيرور »، وقد ترك كامو جريدته لأسباب لم تكن تخص سارتر ، ولم يكن فيها بعدُ حين بدأ الحديث عن « المعسكرات السوفياتية » ولم يَرِد عنده أن يذيع وجودها او لا يذيع . وكذلك الشأن بالنسبة للأشخاص والفصول الثانوية : فان جميع المواد التي استمددتها من ذاكرتي ، قد فتتتها وعكّرتها وطرقتها ومزجتها وحورّتها ولويتها ، وقلبتها أحياناً ، وخلقتها دائماً خلقاً جديداً . وكنت أتمنى لو أُخذ الكتاب كما هو : لا على انه سيرة ذاتية ، ولا ريبورتاج ، وانما ابتعاث وتصوير .

وأنا لا ازعم بعدُ ان « المثقفون » رواية ذات فكرة . إن رواية الفكرة تفرض حقيقة تمحو جميع الحقائق الأخرى وتوقف دائرة الاعتراضات والشكوك التي لا تنتهي : اما انا فقد صوّرت بعض اشكال الحياة في فترة ما بعد الحرب من غير ان اقترح حلولاً للمشكلات التي تقلق أبطالي . واحد الموضوعات الرئيسية التي تُستخرج من قصتي ، هو موضوع «الإعادة» بالمعنى الذي يطلقه كيركيغارد على هذه الكلمة : لكي يمتلك المرء ثروة حقاً ، فينبغي ان يفقدها ثم يعثر عليها من جديد . وفي نهاية الرواية ، يستعيد هنري ودوبروي خيط صداقتهما ، وعملهما الادبي والسياسي ؛ انهما يعودان الى نقطة الابتداء ؛ ولكن آمالهما في هذه الأثناء تكون قد ماتت كلها . وهما بعد الآن ، بدل ان يهدهدا نفسيهما بتفاؤلية سهلة ، يضطلعان بمصاعب ويواجهان اخفاقات وفضائح يفترضها كل مشروع . ويحل لديهما محل حماسة الاقرارات خشونة التفضيلات . وأنا لم أُثبت شيئاً حين صورت هذا التعليم . فقرار الرجلين النهائي ليست له قيمة الدرس ، وإن القاريء يفهم انهما يتبنّيانه كما هما فعلاً ، وفي الظروف التي يوجدان فيها ، ولكنه يستطيع ان يتنبأ بأن شكوكهما ستولد من جديد في المستقبل . وان وجهة نظرهما التي هي وجهة نظر العمل ، والانتهائية ، والحياة ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تُطرح على بساط البحث من قبل آن التي جسّدتُ فيها وجهة نظر الكائن والمطلق والموت. وقد كان ماضيها يجعلها تميل الى هذا النزاع الذي تفرضه على الحاضر الفظاعة التي تسبح فيها الارض. وهذا موضوع هام آخر من موضوعات الرواية شاركت فيه «دم الآخرين»؛ ولكني حين كتبت «دم الآخرين» كنت مكتشفة الفظاعة لتويّ. وقد حاولت ان أصمد لها، وأكّدت، من خلال بطلي، انه يجب الاضطلاع بها: وهكذا سقطت في التعليمية. اما في عام ١٩٥٠، فان الفظاعة كانت قد أصبحت لديّ بُعداً مألوفاً من ابعاد العالم، فلم اكن أفكر بعدُ بتجنبها. ولئن أراد دوبروي ان يتجاوزها، فان آن تقف عندها، وتفكر بأن تؤكّد حقيقتها التي لا تُحتمل، بالانتحار؛ وأنا لم أختر واحدة من هذين الموقفين. واخيراً، لا تنتحر آن؛ ذلك اني لم أرد أن اكرّر غلطة «المدعوة» بأن أُسند الى بطلتي عملاً معللاً باسباب ميتافيزيقية محض؛ إن آن لا تملك قماشة منتحرة؛ ولكن عودتها الى القبول اليومي اشبه بالهزيمة منه بالنصر. وفي اقصوصة كتبتها وأنا في الثامنة عشرة، جعلت البطلة في الصفحة الأخيرة تهبط السلم الذي كان يؤدي من غرفتها الى غرفة الاستقبال؛ انها ذاهبة للقاء الآخرين، وللخضوع لمواضعاتهم وأكاذيبهم، خائنةً بذلك «الحياة الحقيقية» التي لمحتها في الوحدة. وليس من قبيل الاتفاق ان تهبط آن الدرج، خارجة من غرفتها للقاء دوبروي: انها هي ايضاً تخون شيئاً ما. ثم إن الغد، بالنسبة اليها وبالنسبة لهنري، غير موثوق. والتقابل — بين الوجود والعدم — الذي بدأت رسمه وأنا في العشرين في مذكراتي الخاصة، والذي تابعته عبر جميع كتبي ولم أنته منه ابداً، لا يفضي هنا ايضاً الى اي جواب أكيد. لقد صورت أشخاصاً هم فريسة آمالٍ شكوك، يتلمسون طريقهم كالعميان: وأنا أتساءل علامَ دلّلت.

وفي «المثقفون» ظللت امينةً لتكنيك «المدعوّة» مع إضفاء المرونة عليه: إن قصة آن يتضمنها مونولوج يجري بصيغة الحاضر، وهذا ما أتاح

لي أن أقطعه وان أختصره وأن أعلّق عليه بحرية . وأنا أعرف محاذير هذا الشكل الذي تقيّدت به ؛ ولكني لو تهرّبت من المواضعات التي كان يفرضها عليّ ، لكنت مضطرة الى تبني مواضعات اخرى كانت ترضيني أقلّ .
وقد كتبت ناتالي ساروت ، فور صدور « المثقفون » مقالاً تدين فيه هذه النزعة التقليدية . ونقدها في رأيي لا محلّ له لأنه يفترض ميتافيزيقيةً لا تنهض على ساقيها . فالحقيقة ، في نظرها ، تحتمي « اليوم » في « ارتعاشات لا تكاد تُلحظ » ؛ والروائي الذي لا ينسحر بـ « بالامكنة الغامضة للسيكولوجية » لا يمكن الا أن يكون مخترع خِدَع . والحق اننا نخلط « الخارجية » مع المظهر . ولكن العالم الخارجي موجود . وليس من المستحيل ان نكتب ، انطلاقاً من نزعة بسيكولوجية باطلة ، كتباً جيدة ، ولكننا بكل تأكيد لن نستطيع ان نستخرج منها جمالية ذات قيمة . إن ناتالي ساروت تقرّ أن ثمة ، خارج نفسها « آلاماً ضخمة ، وافراحاً كبيرة وبسيطة ، وحاجات ملحة » وان بامكان المرء « أن يصوّر تصويراً معقولاً آلام البشر وصراعاتهم » ؛ ولكن هذه بالنسبة للأديب مهمات منحطة اكثر مما ينبغي ، وهي تتركها للصحفيين ، بلامبالاة تثـير الدهشة . وبهذا الحساب ، يمكن للأديب أن يوجّه قرّاءه نحو دراسات سريرية ، وتقارير في علم النفس التحليلي ، وشهادات خام للمصابين بالبارانويا والشيزوفرانيا . أتراها تعتقد ، هي الشديدة الدقّة حين تكون القضية سلخ جلد طمعٍ من الاطماع او حزن من الأحزان ، انه تكفي تقارير واحصائيات لتصوير حياة مصنع من المصانع او مسكن من مساكن الاجرة المعتدلة ؟ إن الجماعات البشرية والاحداث والجموع وعلاقات البشر بالبشر الآخرين وبالأشياء ، إن جميع هذه الأمور الحقيقية جداً والتي هي غير قابلة لأن تستبدل بخفقاتنا الخفية ، تستحق إضاءة الفنّ وتطلبها ، انني موافقة على ان الحوار يطرح مشكلة على الروائي ؛ ولكني لا اعتقد على الاطلاق ان الكلمة هي « امتداد الحركات الخفية » إن لها استعمالات متنوعة جداً ؛ وهي غالباً عملٌ يتطلبّه وضع وينفجر في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وضح النهار ، قاطعاً الصمت ، واننا نشوّهه حين نكيّسه في تتابع مونولوج داخلي . ويجب اختراع وسائل تساعد الروائي على كشف العالم كشفاً أفضل ، لا أن نصرفه عنه ونحبسه في ذاتية مهووسة ولا حقيقة فيها .

واما اسلوب « المثقفون » فهو يُعجب او لا يُعجب ؛ ولكنّ النقد الذي وُجّه اليه غالباً هو نقد أكاديمي ، كما لو أن هناك « اسلوباً جميلاً » في ذاته ، واني ابتعدت عنه . لقد تقصّدت أن أبقى قريبة من اللغة المحكيّة . اما هذه المذكرات ، فأكتبها باسلوب آخر . فبعض الصرامة تناسب حديثاً يروي ماضياً ثابتاً . غير ان روايتي كانت ترمي الى ابتعاث الوجود في تدفّقه ، وقد تمنيت ان تنسجم عباراتي مع هذه الحركة .

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني

انتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع دار الكتب في بيروت
بطريقة مونوتيب الآلية في
الثلاثين من شهر آذار
(مارس) ١٩٦٤

https://telegram.me/maktabatbaghdad